تذكرة الدعاة

البهي الخولي



مكتبة دار التراث
٢٢ شارع الجمهورية - القاهرة



البهي الخولي

مكتبة
دار التراث
٢٢ شارع الجمهورية ـ القاهرة

الطبعة التاسعة
١٤٢٤هـ - ٢٠٠٤م



٢٢ شارع الجمهورية - القاهرة - ت : ٣٩١٤٢٢٣

بسم الله الرحمن الرحيم

الله أكبر والحمد لله، والصلاة والسلام على سيدنا محمد رسول الله، أفضل الداعين إليه على بصيرة، والمجاهدين فيه بإحسان، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهديهم إلى يوم الدين.

وبعد:

فقد طالعت هذه التوجيهات بل المحاضرات فى أساليب الدعوة وتكوين الدعاة، فأُعجبت بها وهششت لها، وشِمْتُ فيها بوارق الإخلاص والتوفيق إن شاء الله، ودعوت الله تبارك وتعالى أن يجعلها نافعة لعباده، موجهة لقلوب الناطقين بكلمته والهاتفين بدعوته.

وليس ذلك غريبًا على كاتبها وملقيها الأخ الداعية المجاهد الأستاذ البهى الخولى، فهو بحمد الله صافى الذهن، دقيق الفهم، مشرق النفس، قوى الإيمان، عميق اليقين، أحسن الله مثوبته، وأجزل مكافأته، وبوَّأنا وإياه منازل مَنْ أحب من عباده، فرضى عنهم ورضوا عنه، أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون. آمين. وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيراً.

الفقير إليه تعالى

حسن البنا

القاهرة

المركز العام للإخـوان المسلمين

فى غرة رمضان سنة ١٣٦٣هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴾

(المزمل : ١٩ - الإنسان : ٢٩)

المقدمة

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسوله ومن والاه.

أما بعد: فقد طلب إلىَّ بعض إخوانى الفضلاء أن أتحدث إليهم فى بعض الوسائل التى تبلغ بهم أن يكونوا دعاة إلى الله عز وجل، فى صفوف الإخوان المسلمين؛ وراق لهم أن يسموا أنفسهم: «كتيبة الدعاة». وقد هممت أن أعتذر، لأن تلك منزلة لا يرشحنى لها علم ولا موهبة؛ ولكنى عدت فقلت: آخذ بحسن الظن كما أخذوا، والله يسلك بى وبهم ما يشاء. وسرنا فى الطريق معًا، فكانت تلك الأحاديث التى أقدمها اليوم للقراء، أو التى يقدمها هم، فهم الذين أرادونى على طبعها، والإنفاق عليها من أموالهم الخاصة، ونشرها بين الناس وتقديمها لمن لم يشهد إلقاءها من الإخوان.

وأنا أعتذر سلفًا لكل قارئ عما لا يرضيه فى هذه الأحاديث، فما وجدتَ من زلة فاسترها يا أخى، وما وجدت من قصور أو تقصير فأنت جدير بغض الطرف عنه.

• ليس كتابًا للخطابة:

وإنى أقرر من الآن أنه ليس كتابًا يعرض للخطابة؛ فيستوعب قواعدها العلمية، ويستقصى أصولها الفنية، ويبنى على تلك القواعد ما يريده العلم، ويفرّع من تلك الأصول ما يوحى به الفن، ويجد فيه الراغبون ما يشبع رغبتهم، ويمتع عقولهم وقلوبهم؛ ولكنه أحاديث لم أرجع فيها إلى كتاب مما دُوِّن فى الخطابة وأصول الوعظ، إنما هى نظرات فى كتاب الله عز وجل، وسنة رسوله ﷺ، وتجارب خاصة عرضت لى فى ميدان دعوتنا العظيمة، ولفتات قَبَسْتُ فيها من عبقرية أستاذنا المرشد رحمه الله، عبقريته الروحية والعقلية. فاقرأها على هذا يا أخى إن أردت قراءتها، وأسأل الله أن يشرح لها صدرك، وأن ينفعك ببركة ما أحاط بها من حسن القصد بدءًا وختامًا.

• الفرق بين الداعية والخطيب:

على أنى لست آسفًا إذ أُخرج هذه الأحاديث غير مستوعبة لقواعد الفن وأصوله، بل إننى راضٍ غاية الرضى، فما قصدت أن أتحدث بها إلى خطباء أو راغبين فى تعلم الخطابة، وإنما قصدت أن أتحدث إلى دعاة يرغبون أن يدعوا إلى الله عز وجل.

والداعية غير الخطيب. الخطيب خطيب وكفى. والداعية مؤمن بفكرة، يدعو إليها بالكتابة، والخطابة، والحديث العادى، والعمل الجدى فى سيرته الخاصة والعامة، وبكل ما يستطيع من وسائل الدعاية. فهو كاتب وخطيب ومحدِّث وقدوة، يؤثر فى الناس بعمله وشخصه. والداعية أيضًا طبيب اجتماعى يعالج أمراض النفوس، ويصلح أوضاع المجتمع الفاسدة، فهو ناقد بصير، يقف حياته على الإصلاح إلى ما شاء الله. وهو رفيق، وصديق، وأخ؛ للغنى والفقير، والكبير والصغير، ومن هذه الصفات تشيع المحبة فى قلبه، وتتدفق الرحمة من عينيه، وتجرى المواساة على لسانه ويديه. وهذا ضرورى جدًا للداعية، وهو من مواهب الروح والجنان، لا من صفات البلاغة وملكات اللسان. والداعية قائد فى محيطه، وسياسى فى بيئته، وزعيم لفكرته ومن يتبعه فى ناحيته. وكل هذا لا تنهض الخطابة وحدها بحقوقه، فلا بد له من التأثير النفسانى، والهيمنة الروحية، والاتصال بالله، واستعانة العقل بما حصل من تجارب التاريخ وأحوال الناس.

ولست بهذا أغض من قدر الخطابة وضرورتها للدعوة، وإنما أبين بعض صفات الداعية؛ لتستبين طبيعة هذه الأحاديث التى سيقت للدعاة لا للخطباء، كما سترى إن شاء الله فى فصولها القادمة.

• أودية روحية:

واعلم يا أخى أن كل ما نذكره فى هذه الأحاديث عن الدعوة والداعية والخطابة والخطيب، إنما نقصد به دعوة الإخوان التى أعلى معالمها، وقرر سبلها وتقاليدها، إمامها الشهيد الفذ: الأستاذ حسن البنا، رضوان الله عليه.

وحين نقصر الكلام عليها فقد قصرناه على أصدق مُثُل الدعوة وأقومها! فإنها دعوة الحق الذى قامت به السموات والأرض، واستوعب سنن الكون ظاهره وباطنه. . وكفانا اطمئنانًا أنها دعوة الله الذى هو الحق، وله دعوة الحق.

ولهذا سيجد القارئ فى هذه الرسالة فصولاً تلم بأودية روحية، وآفاق نفسية، بعيدة عما ألفه الناس فى كتب الخطابة والدعاية، سيجد فصولاً لا تحدثه عن حركة الخطيب وإشارته، ولا عن صوته ونبرته، ولا عن طبيعة جسمه وأوصاف قامته، فذلك فى رأيى أحرى أن يوجه إلى ممثل الصالات، وخطباء المسارح، أما أن يوجه إلى «دعاة» يراد لهم أن ينشئوا أمة أو يساعدوا على إنشائها، وأن يبنوا دولة أو يساعدوا على بنائها. . فلا. إنه القول الفصل وما هو بالهزل، والأمم لا تقام بالتهريج ولا تنهض بالحركات المصطنعة المتكلفة، لقد حاولنا فى بعض فصول هذا الكتاب أن نلم مع القارئ بأودية روحية وآفاق نفسية، نريد بهذا أن يهتدى إلى فطرته، فالفطرة هى الصفحة المنثورة فى صدر كل آدمى، وقد أودعها الله أشرف الغايات، وأقوم السبل، وأثمن الحقائق، التى يعلو بها ويعز قدر الإنسان.

• الرجل الربانى:

فاعلم يا أخى أن كل إنسان كائنًا ما كان ينطوى على مناجم إلهية من العبقريات العظيمة، وكنوز من القيم والفضائل التى تنضِّر وجه الحياة، وتزدان بها الإنسانية، ولا سبيل إلى إثارة هذه المناجم النفيسة إلا أن تثيرها باسم الله العلى الكبير، فاسم الله وحده هو مفتاح هذه الكنوز الربانية المغلقة، ولا يضع الله هذا المفتاح إلا فى يد العبد الربانى، الذى يتخلق بصفات الربانية الفاضلة، يجاهد نفسه حق المجاهدة، ويقمع هواه فى غير هوادة، فيفضى بذلك إلى ما شاء الله من بطولة وتوفيق، ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

وأنت واجد تفسير ذلك بصورة عملية واقعية فى تاريخ الغر الميامين، الذين خرّجهم رسول الله، وصاغهم بعين الله أبطالاً، فتحوا أقطار الأرض لأنهم فتحوا قبل ذلك أقطار النفوس، وأضاءوا الدنيا بنور الحق لأنهم أطلعوا شموسه قبل ذلك فى حنايا الصدور، وأسعدوا البلاد بنعمة العدل والحرية والإيثار لأنهم بثقوا

ينابيعها قبل ذلك فى خفايا القلوب، وانبعثوا إلى تخليد الباقيات الصالحات من الأعمال والأخلاق والمبادئ، فأتوا من ضروب البطولات النفسية والمادية ما يدهش الألباب ويعجز الأبطال ويشبه الأساطير، لأنهم انبعثوا بهمة لا ترى لها متعلقًا دون عرش الله عز وجل، فلو كان الإيمان عند الثريًا لَناله رجال من هؤلاء، كما قال رسول الله ﷺ.

أين هذا يا أخى من شأن أولئك المطموسين الذين ضلوا السبيل وفتنوا عن أنفسهم، ورأوا أوربا تهتف بالوطن والوطنية، وخصائص العناصر، ومزايا القومية، فقلدوهم تقليد القرود والببغاوات، فاصطنعوا مبادئ سياسية واقتصادية واجتماعية، ذات شعارات تستر أطماعًا ومآرب باطلة، واتخذوا أحزابًا وأندية تخطط للمغانم، وينبعثون منها للفساد والسحت، ولا تجد لها خلال ذلك سوى أحفال واجتماعات، وأقوال قد يبرق ظاهرها بالخداع والتمويه، ولكن باطنها يخلو من أى مضمون تشهد له الفطرة، أو تنظر إليه معايير العقل، حتى غدوا فارغين تافهين، لا قيمة لأعمالهم ولا لأقوالهم.

• لا أزكى الإخوان:

ولست بهذا أزكى الإخوان، فهم أعقل من أن يزكوا أنفسهم، وهم يقرءون فى كتاب الله عز وجل: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ﴾ [النساء:٤٩]، ويقرءون: ﴿فَلا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ﴾ [النجم:٣٢].

ولست أزكى لهم منهاجًا، فهم لم يأتوا بجديد، وإنما هو منهاج قديم، زكاه الله عز وجل، وأمر بالدعوة إليه إلى يوم الدين: ﴿قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف:١٠٨]، ولا فضل لهم إذ يدعون إلى هذا المنهاج الإلهى، فذلك فضل الله عليهم، و ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾ [الأعراف:٤٣].

ولست أزكى لهم قولاً، فهم لا قول لهم إلا ما كان قائمًا بحق هذه الدعوة، وافيًا بأغراضها، آخذًا من معين كتابها وسنة رسولها ﷺ.

وقد زكى لهم الله كل ذلك: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت:٣٣].

• لا تعصب:

وبعد: فهذا يا أخى ما عندنا وما عند الناس؛ ونحن مؤمنون كل الإيمان بأن ما عندنا هو الحق الذى لا حق غيره، وما عداه فهو الباطل الذى لا يُؤْبَه له ولا يوزن بميزان، فليس بعد الحق إلا الضلال، ولهذا أهملناه، فلم نعرض له بقليل ولا كثير، فلا تجعله حجة علينا فى شىء، فالباطل لا حجة له، وفى هذا القليل الذى نذكره عن دعوة الحق وأساليبها غناء عن الكثير الذى عندهم.

وسوف يَعْرِضُ لك فى أثناء هذه الكلمات ما يوهم ظاهره أنى أتعصب للإخوان، فاعلم أن ذلك لم يدر بخَلَدى، كما أنه لا يدور بخلد أحد منهم؛ نعم أنا أتعصب للإخوان، ولكن باعتبارهم فكرة فى الحق؛ لا باعتبارهم هيئة خاصة ذات صبغة معينة، فنحن فكرة ولسنا هيئة، فكرة واسعة خطيرة، أوسع من السماء والأرض، لأنها روح من أمر الله، فليس لنا أن نضيقها بحيز مقدر، أو صبغة معينة. والمدعون إلى تمثلها وتمثيلها هم أفراد الإنسانية كافة، هكذا أراد الله، فليس لنا أن نحصرها فى عدد مقرر، أو هيئة محدودة. فنحن براء ـ ولله الحمد ـ من مذمة التعصب للصور الظاهرة، والميادين الضيقة، وما قد يفهم أنى أتعصب فاحمله على هذا الوجه يا أخى، فهو تعصب للحق المبين، تعصب من يؤمن بأنه على الحق لا محالة، ومخالفه على الباطل لا محالة، تعصب من يفهمك مقدمًا أنه غير مستعد بحال من الأحوال لأن ينحاز إلى رأى لك تخالف به جوهر هذه الدعوة، أقمت عليه البرهان أم لم تقمه، أفحمته بما تحشد من الحجج أو لم تفحمه، لأنه غير مستعد لأن يقبل رأى بشر ما فيما قضى الله عز وجل فيه بحكمه.

هذا هو إيماننا بدعوتنا؛ يسميه بعض الناس ـ جهلاً ـ تعصبًا، وقد أسميناه تعصبًا مجاراة وجدلاً، وأسأل الله عز وجل أن يثبتنا وإياك على الحق، وأن ينير بصائرنا به، وأن يجعلنا من جنوده العاملين، إنه قريب مجيب.

المؤلف

الباب الأول

فقه الدعوة والداعية

الفصل الأول

قضية بين فهمين

الإسلام الحنيف هو دعوة التوحيد الكبرى التى بُعث بها رسول الله محمد ﷺ؛ لتكون نظام الإنسانية الكامل فى حياتها الروحية والمادية، فى كل زمان ومكان.

هذه قضية واضحة، بل حقيقة جلية كالشمس، لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها، يستعلن وضوحها فى البصائر، حتى لتحتل فى كياننا محل الضرورة الفطرية، أو البدهية التى لا تحتاج إلى دليل، ولكنها مع هذا غامضة مبهمة لدى بعض «المسلمين»، حيث تبدو له هذه الحقيقة مجموعة من الأفكار الصدئة والنظم البالية، ويرى القائمين بها قطيعًا متخلفًا عن قافلة الإنسانية، لا يساير أسلوب الحضارة، ولا يلين لأوضاعها، فإذا أحسن أحدهم الرأى فيك ظنك متعصبًا إسلاميًا طوّعتْ له حماسته أن يغالى فى قيمة الأشياء.

هذان فهمان متناقضان لهذه الحقيقة: فَهْم يقبلها ويقرها، وآخر ينكرها ويردها، فأى الفهمين أحق بالقبول والتقدير؟

لا نريد أن نقطع بجواب الآن. ونريد أن نقرر حقيقة مقطوعًا بها وهى أن هؤلاء ليسوا أعظم منا ذكاء، ولسنا أقل منهم فطنة، فإذا فاقونا فى هذا أو فقناهم، فليس بالقدر الذى يفصل بيننا وبينهم، ويقيمنا وإياهم على طرفى هذا الفارق العظيم. ونريد أن نقرر حقيقة أخرى، وهى أننا - ولله الحمد - بصدد المجاهدة لكى نحتفظ بملكاتنا الباطنة حية يقظة. لا نزعم أننا بلغنا الغاية من ذلك، ولكنا بصدد المجاهدة التى نحاول بها أن نكون بمنجاة من طغيان الموجة المادية بأهوائها على تلك الملكات فتختم على أذواقها ومداركها. أما هم فليسوا يدعون

لأنفسهم مثل هذه المجاهدة، بل هم جدّ راضين إذ تغمرهم المدنية الزائفة بما تغمرهم به من حلو ومر وخير وشر. وأنت بعد هذا جدير بأن تعرف علّة ما بيننا وبينهم من التناقض فى فهم الحقيقة التى عرضناها آنفًا.

• محور الخلاف:

هذه النقطة هى محور الخلاف، ومركز التحول والافتراق. إن هؤلاء فى حالة ركود روحى، طغى عليهم تيار المدنية الباطلة، فغمر مواهبهم الباطنة فأصابها بخدر أو جمود، وهيهات أن تصل إلى إقناعهم بسداد عقيدة الإسلام ونظمه ما دمت تخاطب هذه الحاسة المعطلة فيهم؛ فتراهم يستمعون إليك وهم لا يفقهون، وينظرون إليك وهم لا يبصرون: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾ [الأنعام:٢٥]، ولسنا نقصد أنهم لا يفهمون لأن عقولهم متبلدة، بل هم لا يفهمون لأن قلوبهم ـ وهى مركز العقائد وحقائق الإيمان ـ معطلة عن الفهم بما شغلها وألهاها.

أجل، فإن فهم العقائد والقيم والمبادئ والمثل والعبر منوط بأذواق الباطن ومداركه وحواسه. وهو فهم ليس كالفهم الرياضى الذى يمارس معادلات الرياضة وأقيسة الحساب، وليس كفهم العقل الطبيعى الذى يقرر لنا كائنات الطبيعة وعناصرها وطاقاتها وخواصها وكيفية الانتفاع بها، بل الفهم هنا عمل حاسة أو ذوق باطن، ووجدان حاد يحب الحق أشد الحب، ويبغض الباطل أشد البغض.

• حسية الإدراك:

فللإنسان ضربان من الإدراك: ضرب حسى تؤديه الحواس بمعونة العقل، فيتم لنا به إدراك الكائنات الحسية المحيطة بنا فى السموات والأرض؛ ويسمى «الإدراك الحسى». والضرب الآخر تؤديه خاصية عقلية تسمى «الفكر» هى التى تدرك دلالة الكائنات على الله.

أى أن الإدراك الحسى خاص بإدراك الجانب المادى من الكون، والإدراك الفكرى

خاص بإدراك الجانب المعنوى الممثل فى دلالة الكائنات على صفات الخالق تعالى؛ صفات القدرة، والعلم، والحكمة، والرحمة، والكرم، والود، إلى ما له سبحانه من صفات.

١ - فإذا سَلِمَ للمرء هذان الإدراكان امتلأ وعيه بمنطق المحسات، وبمنطق المعنويات كليهما.

ومنطق المحسات يتكون بمعرفة مادة الكائنات وعناصرها، وخصائصها، وقوانينها، وكيفية تناولها، وتنظيم دنيانا ومعايشنا.

أما منطق دلالة الكائنات على الله، فالكائنات هى آثار صفاته تعالى، فإذا أبصر الفكر تلك «الآثار» فإنه لا يبصر جرمًا ولا لونًا ولا نحوهما؛ إنما يبصر «الطابع المعنوى» الذى يستشعر به القلب وجدان صفة العظمة - مثلاً - ومعناها؛ ووجدان صفة قدرته تعالى ومعناها؛ ووجدان صفة الرحمة ومعناها؛ ووجدانات ومعانى صفات البر، والود، والكرم، والخير، والإحسان، إلى ما له تعالى من صفات، فيقوم بالقلب «كيان» من المعنويات التى تمثل آثار الصفات القدسية، مع كل صفة الوجدان الشريف الذى يناسبها. وهذا الكيان الجليل أو هذا البناء المعنوى الرائع هو لب معرفتنا لله تعالى، وهو الذى نسميه الإيمان، والعقيدة، وهو معدن قيم الإنسان ومبادئه، وخصائص إنسانيته. وللوجدانات مهمة خطيرة بالغة الخطر فى حياة الإنسان، إذ بها يبصر المرء حسن الحسن وقبح القبيح، فيحب الحق أبلغ الحب، ويكره الباطل أشد البغض: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ﴾ [الحجرات:٧]، وهو بهذا يمحق من نفس الإنسان عقد الكراهة والحسد، والشح والأنانية، والفساد، ويسيطر على الإرادة فيوجهها إلى غايات الحق، والخير، والعدل، ومقاصد البر، والود، والرحمة، ونحوها. وبهذه الوجدانات - أيضًا - تحيى فى ضمائرنا حقائق معرفتنا بالله، فلا تكون ميتة، ولا فاترة، ولا يرى المرء إلا عاملاً بمنطق وبمقتضى هذه المعرفة.. وذلك ما نعنى بمنطق الدلالات المعنوية.

ثم ماذا؟!.. ثم يسيطر الوجدان الفكرى بكل حقائقه العلوية ووجداناته وخصائصه الإلهية على منطق المحسات، ويغدو الإدراك الحسى منقادًا متوجهًا بكل

إمكاناته إلى الغايات والمقاصد التى يرسمها له منطق المعنويات، وغايات الحق، ومقاصد الخير والعدل. وهذا هو النمط الأمثل لصلة الإنسان بالكون وبالله، وهو مقتضى الإيمان به تعالى.

٢ ـ هذا إذا سَلِمَ للإنسان هذان الإدراكان: إدراكه الحسى، وإدراكه الفكرى، أما إذا انفرد الإدراك الحسى بالعمل والنشاط، وتخلف أو توقف الإدراك الفكرى لسبب من الأسباب فلم يعد يبصر الدلالات المعنوية، فإنه لا يبقى فى وعيه إلا منطق المحسات المادية الذى ننظم به معاشنا، وتنسلخ وصاية المنطق الفكرى عن الإدراك الحسى، فلا يكون له من رائد أو موجِّه يرتاد له الغايات والمقاصد إلا أهواء الحس ورغباته الطائشة، فيكون نموذجًا للمثل الذى قال فيه تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: ٢٣]. ويكون تصوره وحكمه على المعنويات والإلهيات هو تصور وحكم على غير موجود، ومن هنا ينزلق الماديون الحسيون إلى درك الإنكار والجحود؛ ويقول قائلهم: «إن الدين خرافة».

فالذين ينكرون علينا قضايانا وأحكامنا المعنوية والإلهية هم من هذا القبيل؛ ليس فى أذهانهم من شىء يقام له اعتبار إلا المادة التى تُرى بالعين، وتلمس باليد، وتدرك بالحواس، ولا اعتبار البتة لغيرها إلا اعتبارهم لشىء غير موجود، فهم ينزهون عقولهم عن الاعتراف به أو النظر فيه، وذلك مدى إدراكهم لصلتهم بالكون على ما أشار إليه تعالى بقوله: ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٢٩) ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ﴾ [النجم: ٢٩، ٣٠].

أفترى هؤلاء، أو من أخذ أخذهم منا، خليقين أن يستمعوا إليك، ويقبلوا عليك، حين تتحدث إليهم بروح الرسالات السماوية؟ أترى فى قلوبهم وحياتهم النفسية متسعًا لما تدعو إليه؟ إنك فى واد وهم فى واد آخر؛ وهذا هو ما يباعد بينك وبينهم: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا (٤٥) وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٥، ٤٦]. ولا تظن أنهم لا يفهمون معنى القرآن، بل هم يفهمونه، ولكن بإدراكهم الحسىّ فهم الحس، أما قلوبهم فلا تسيغه ولا

تقبله ولا تعرفه؛ وهذا هو المراد بفقه القلوب حين يرد فى كتاب الله عز وجل؛ فقد يسيغ كثير من هؤلاء أن تقول لهم: إن الله خالق هذا الكون، وهو الذى وهب لنا الحياة، وهو الحقيق منا على هذا بالشكر والثناء والتعظيم. وقد يسيغون أن تقول لهم: إن الإنسان جسم وروح، ويجب أن يكون للروح مطالبه كما للجسم مطالبه، وإن الإنسان الكامل هو الذى يقبل على ناحيتيه كلتيهما بالعدل فى توزيع الحقوق، فلا يجور على إحداهما ليعطى الأخرى. وقد يسيغون أن تقول لهم: إن رسالة تجىء لتحقيق هذا النظام عمليًا، لهى رسالة الحق، وقانون الوجود كله، وهى الرسالة التى تعصم الإنسانية من الزلل والشطط، والشقاء النفسى المجدب.

• المنطق الحسى والمنطق المعنوى:

قد يسيغون ذلك كله، ولكنهم يسيغونه «بمنطق الإدراك الحسى» لا «بمنطق الإدراك المعنوى العاطفى». والمنطق الأول ـ المنطق الطبيعى والرياضى ـ يسيغ ما يسيغ فى ركود وسلبية، أما العاطفى فيسيغ ما يقبله فى حرارة وحركة وشوق وقبول إيجابى، وإنما تحتاج الرسالات السماوية إلى أن تُفهم على هذا الوجه الأخير، فالعقل العاطفى هو الذى يفتح لها آفاق النفس، ويصل بها إلى قرار الفطرة، ويمكّن لها فى حبّات القلوب، ويسرِّبها إلى الأعصاب يقظة وعزيمة، ويشيعها فى الدماء نشاطًا وحيوية، فيصبغ صاحبها بصبغتها من جميع أقطاره الظاهرة والباطنة، فتبدو ألوانها فى أعماله، وأقواله، وأفكاره، ونياته، واتجاهاته، وعواطفه، وأهوائه، فإذا هى قد ملكته ولا يملكها، وسخرته لمشيئتها ولا يسخرها، فيحيى لها منفعلاً بخواطرها، غيوراً على حرمتها، مجاهداً لإعلاء مبادئها، باذلاً فى سبيلها ماله وراحته ووقته ومواهبه ودمه ونفسه، سعيداً بذلك غاية السعادة، وراضيًا به تمام الرضى. وهذا الفهم هو المعروف لدى علماء التوحيد بأنه التصديق القلبى، وهيهات أن يؤتى العقل المنطقى هذه الثمرة الباهرة، والقوة القاهرة.

فالمسألة على هذا ليست مسألة الذهن الذى يفهم أو لا يفهم، والعقل الذى

يصدِّق أو لا يصدِّق، وإنما هى مسألة القلب الذى يرضى ما يقال أو يجحده، ويبش له أو يرفضه، ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣].

والآن نعود إلى تساؤلنا الذى طرحناه أول هذه الكلمة: أى الفهمين أحق بالقبول والتقدير؟ وما نظن أنا بحاجة إلى القول بأن الحق قد وضح، وأن أكثر هؤلاء المنكرين علينا لا ينكرون شيئًا غامض المعنى، بل يعرضون عما تنكره قلوبهم، وهذا شر ما يبتلى به إنسان من تناقض، وشر منه أنه يرضاه ولا يسعى إلى تغييره.

* * *

الفصل الثانى

ذبذبة بين غايتين

فى أخبار الأدب المشهورة، أن الحطيئة هجا الزبرقان بن بدر رضى الله عنه فقال:

دَعِ المكارمَ لا تَرْحَلْ لبُغْيتِها ... واقعدْ فإنَّك أنت الطاعمُ الكاسى

فهاج وماج، وأرغى وأزبد، وشكا الأمر إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه، فسأل عمر حسان بن ثابت، وهو شاعر رسول الله ﷺ، أن يبين له قيمة الهجو فى هذا الشعر، ولم يكن ذلك جهلاً من عمر بمرامى الكلام؛ فأجاب حسان بما معناه: الأمر أفحش من الهجاء، وأن أقذع الهجاء لأهون من هذا بكثير، وإنه لَدنس صبه عليه لا تقوم به كرامة. فقضى عمر بحبس الشاعر فى سجن مظلم.

والقارئ لا يرى فى هذا الكلام ذكرًا للآباء والأمهات، ولا تعريضًا بالأعراض والسوءات، ومع هذا كانت منزلته فى الهجو ما قرر حسان رضى الله عنه. لم يقل الحطيئة للزبرقان: إلا أن يقعد عن طلب معالى الأمور، ولا يجشِّم نفسه تحصيل المكارم التى تشرف بها النفوس، فإن همته لا تتعلق بشىء من ذلك، وإنه إذا كلف نفسه مشقة فى هذا السبيل؛ فقد أعنتها، وكلفها ما ليس من طبيعتها، إذ لا يليق به إلا أن يركن إلى الطعام واللباس، فليس يصلح إلا لهذين، ولا مأرب لهمته إلا فيهما، أو قال له بالتعبير العصرى: إن مثلك الأعلى الذى تعيش له، ولا تصلح لغيره، هو الاستغراق فى شهوة الطعام واللباس.

وفى هذه القصة معنيان بارزان:

الأول: أن الحطيئة كان خبيرًا بالحياة، وأنها ذات وجهين أو غايتين، غاية خسيسة يعيش عليها الأدنياء، وغاية شريفة يحيى لها الفضلاء، فالأولون يرون سعادتهم لذة المطعم والملبس وكفى. والآخرون يجدّون لتحصيل زادهم من الفضيلة، ومتاع نفوسهم من الخير والحق. وهذا هو ما كانت تقوم عليه الحياة فعلاً

فى ذلك العهد العمرى الزاهر.

أما المعنى الثانى الذى يبرز فى هذه القصة؛ فهو أن شعور الرأى العام كان شديد الحساسية بالفارق العظيم بين الغايتين، فكان أحدهم يسمو بهمته أن تنضمر فى مطالب المعدة وترف البدن، ويفزع أن يوصم بين الناس بهذه الوصمة القاصمة، وإلى مكان هذا الفزع سدد الحطيئة ضربته القاسية إلى غريمه، أو صب عليه دنسًا لا تقوم به الكرامة، على معنى ما قال حسان رضى الله عنه:

١ ـ غايتان إحداهما دانية المنال، والأخرى بعيدة المدى.

٢ ـ حساسية مرهفة فى الشعور، تصد عن الغاية الأولى، وتثير أشواق العزائم إلى الأخرى.

وهاتان هما دعامتا الحياة الفاضلة يا أخى، اعتراف بغايتين، وحساسية تحقِّر الأولى، وتمجِّد الأخرى، والناس بخيرٍ ما سَلِمَتْ لهم هاتان الدعامتان.. هذا منطق الفِطَر المستقيمة، والعقول السليمة، فهل هذا هو ما تقوم عليه أساليب الحياة فى حضارتنا المادية السائدة؟

لك أن تزن اهتمام الناس، فماذا ترى؟ هل تراهم يهتمون ويقبلون على مطالب الغاية العليا؟ أم تراهم يهتمون بزينة الملابس والمساكن ولذائذ المطاعم والمشارب؟ حتى العاجز منهم لا يمنعه أن يخرج على الناس فى زينة ما، إلا أنه لا يجد ما ينفقه، فهو لا ينفك يمد عينه وقلبه إلى ما يتمتع به غيره من زهرة الحياة الدنيا.

حولك طوائف من صغار الموظفين وكبارهم، وطوائف من التجار والأطباء والصناع ومن يسمون رجال الأعمال، فسائِلْ نفسك: أى مثل أعلى تهفو إليه قلوب هؤلاء؟ أى فضيلة تتناجى بها ضمائرهم فى محيطهم العملى وخارجه؟ أى أسلوب من أساليب الحياة الرفيعة يستغرق تفكيرهم بالليل والنهار، فهم يدعون إليه، ويبذلون الجهد لتحقيقه؟ بل قف فى ميدان كبير بمدينة كبيرة أو صغيرة، وتأمل من يمر بك من رجل وامرأة، وفتى وفتاة، وسائل نفسك: فيم يفكر هؤلاء؟ أى شىء يشغل الآن قلوبهم، وتسبح به خواطرهم، وتسعى إليه أرجلهم؟ هل شىء غير المال والملبس والمطعم، والأفكار التافهة، والنزوات الفارغة الوضيعة؟ هل شىء غير مآرب البدن المباشرة وغير المباشرة، ومطالب النفس

الحيوانية الباطنة والظاهرة؟!

لقد يجلس أحد هؤلاء فيحدثك بنعمة الله عليه، ماذا أريد من دنياى؟ إنى - ولله الحمد - أسكن حسنًا، وآكل حسنًا، وألبس حسنًا، ولا مأرب لى من دنياى غير هذا، وهل يأخذ ابن آدم من دنياه إلا أن يعيش هذه المعيشة المريحة المحترمة؟ ترى لو أنك قلت لصاحبك: إن هذه غاية معيبة، أكان يغضب عليك غضبة الزبرقان؟ ويثور بالجريمة إلى الحاكم؟ أيفعل هذا وهو الذى حدثك به وأظهر ارتياحه إليه؟ أيفعل هذا وهو يرى الجمهور يقيس الناس بمظاهرهم لا بشرف معادنهم؛ يقيسها بما تحصى لهم الخزائن من الأموال لا بما تحمد لهم الإنسانية من كريم الفعال؟ لا، لا يغضب، ولا يثور إلى الحاكم؛ فإذا غضب فلأنك عبت عليه منهجه، وخالفت رأيه، وقد ينقلب أستاذًا متفلسفًا يسفِّه لك رأيك، ويرميك بأنك لا تفهم حقائق الحياة، وأنك خيالى غير عملى، أى أنه يغضب لأنك لم توافقه على ما يستحسنه، يغضب فقط لدنياه الطاغمة الكاسية، فإذا كان أستاذك الفيلسوف ممن لا يزالون يحسنون الظن بالدين؛ مضى يخبط فى تأويل كتاب الله على غير هدى، واستعدى عليك الحجة من مثل قوله عز وجل: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ [الأعراف: ٣٢]، إلى آخر ما لديه من جهل وسفسطة، وسوء فهم لمقاصد آيات القرآن الكريم. والعجيب أنه إذ يتحمس للطيبات من الرزق لا يجد فى نفسه خلجة واحدة من حماسة لما ورد فى القرآن الكريم عن الغايات التى تتعب فى نيلها الأجسام.

لقد تقرر فيما سبق من هذا الفصل أن للحياة الفاضلة دعامتين، واعترافًا بغايتين، وحساسية فى الشعور تحقِّر الأولى منهما وتمجد الأخرى، فأين مواقع هاتين الدعامتين فى عقول الناس، وحياة قلوبهم، ومظاهر حياتهم؟

لست أكتمك أنى أجد الاعتراف بالغايتين مسلَّمًا به لدى الجمهرة العظمى من الناس. نعم، وليس فى هذا مناقضة لما تقدم، فإن ما يلقاك به صاحبك أو فيلسوفك السابق من إنكار ومخالفة؛ إنما هو جدل بغيض ينجم حين تأخذه العزة بالإثم لعيب تنتقصه به، وهى آفة تلحق الناس حين لا تستقر عقائدهم على قرار ما؛ فيظلون مذبذبين مترددين بين مختلف الاتجاهات.

• يستمعون ولكن:

تحدَّثْ إلى الناس فى مزايا الذين يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة، واضرب لهم الأمثال، وقص عليهم القصص من سير هؤلاء الأبطال المؤثرين، وتحدث إليهم بأخبار أولئك الذين آمنوا بالله واتخذوه مثلهم الأعلى؛ فكان أحب فى جوانحهم من الأوطان والأموال والأهل والأبناء، فهجروا الوطن هجرة إلى الله، وفارقوا العشيرة والأبناء سعيًا إلى رضوانه، وبذلوا الأموال رخيصة هينة، لأنهم وجدوا ما عنده أثمن من كل متاع، حتى لينفق أحدهم ماله كله فى سبيل الحق لا يبقى لأبنائه درهمًا واحدًا، وهو مع ذلك سعيد جذلان، يجد فى قلبه حلاوة الإيمان، يقول لمن سأله عما تركه لأبنائه: لقد وَكَلْتُهم إلى ثروة أعز من كل ثروة؛ وَكَلْتُهم إلى الله ورسوله وهو يتولى الصالحين.

حدِّثهم عن جنود الله الذين أقاموا معالم الحياة الفاضلة؛ بإقامة العدل الحازم الحاسم، وتحقيق معانى الأخوة فى الله، والتضحية فى سبيل الحق أينما كان، والثورة على مظاهر الباطل أينما وجد، والمساواة التى تتكافأ بها دماؤهم وحقوقهم، وتتفاوت من ورائها بالتقوى منازلهم وأقدارهم.

حدثهم عن هؤلاء الجنود، الذين جعلوا هذه الخلال كلها حقائق عملية لا نظرية، حقائق لبست من الواقع المحسوس صورًا درجت بها على الأرض حينًا، فكانت بهجة الحياة، ونور بصائرها وأبصارها. تحدث فى ذلك كله أو بعضه، تجدهم يصغون إليك، ويشاركونك الإعجاب بهذه الخلال، ويفيضون الثناء الضافى المعطر على أصحابها رضوان الله عليهم. ومعنى هذا أنك إذا تجنبت فى حديثك مثيرات الجدل، ألفيتهم يعترفون بالغايتين: الدنيا والعليا؛ يذمون الأولى ويمجدون الأخرى.. ولكن ما وراء ذلك؟

هل هناك محل له فى القلب، أم هى قضايا يستحسنها الإدراك الحسى، ويتحرك بها اللسان وحسب؟ هل هناك شوق فى القلب يهيم بمحاسن هذه المثل العليا، ويطير بصاحبه إليها فى كل وادٍ، لا يبالى ما يصحبه من ظمأ، ولا نَصَب، ولا مَخْمَصة، ولا ما ينفق من نفقة صغيرة أو كبيرة، إرضاء لأشواق قلبه، وتحقيقًا

لزينة حسه ونفسه[١]؟

هل هناك محل لهذه الأشواق، أم أن شهوات الموجة المادية طغت على منابت هذه الفضائل فى القلب فطمستها، ولم تبق مجالاً لغيرها؟

• فضائل مزعومة:

وما أريد أن أسرع بجواب هذا التساؤل، قبل أن أعرض لفضائل يزعمون أنها قائمة فى الغرب حيث مصادر هذه الموجة المادية. فهناك إحسان ومحسنون، وهناك إيثار على النفس وموثرون، وهناك مساواة وحرية وعدل، وهناك شجاعة وإقدام، وجرأة على المخاطر واقتحام، وبذل للدم والنفس، وتضحية بالجهد والوقت بل بالعمر كله فى غير منفعة خاصة.. هناك هذا وغير هذا مما نعلم أنه من فضائل النفس، ومتاعها الشريف النبيل؛ فكيف نسرف إذن فى ظلم هذه الموجة المادية؟ إن هذا ـ حقًا ـ جدير بالتفات من يتهم هذه الموجة؛ وغير جميل أن يتهمها ثم يغضى عما يزعمون من جمالها.

الواقع ـ يا أخى ـ أن هذه الموجة الطاغية، أو هذه المدنية الزائفة، أعقم من أن تنجب مثل هذه الفضائل النفسية العالية؛ فما كان للشر أن ينبت إلا شرًا، وما كان للباطل أن يلد إلا باطلاً: ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِى خَبُثَ لا يَخْرُجُ إِلاَّ نَكِدًا﴾ [الأعراف:٥٨]، وتلك سنة الله ولن تجد لسنة الله تبديلاً. فما هذه الفضائل التى يزعمونها إلا زهرات سامّة لهذا النبت النكد، فى تلك الأرض الخبيثة؛ زهرات ليس لها من خصائص الزهر إلا لونها وشكلها، أما رائحتها ورحيقها ومخبرها، فكريه سام خبيث. أجل.. فإن ما تراه ليس له من حقائق الفضائل إلا سماتها الظاهرة، وصورها المحسوسة، أما غاياتها فباطلة، وبواعثها فغير كريمة، ومنابعها فسطحية، ليست من أعماق الطبع الأصيل.

(١) لا أقصد بزينة الحس متعة البدن من طعام ولباس، وإنما أقصد أن محب الفضيلة لا يشبعه منها صفة محبوبة فى نفسه وكفى، بل لا بد أن يراها قد لبست صورها فى عالم الحس والواقع؛ ولا بد أن يكون له مجهود إيجابى وأثر عملى فى تحقيقها، فتسر برؤيتها عينه، وتسعد بها حواسه فى ظاهر الحياة كما سعدت نفسه.

• تزييف ما لدى القوم من فضائل:

الفضيلة حقٌ يا أخى، والحق حق فى كل زمان ومكان، لا يتغير بزيادة فى جوهره ولا نقصان، فإذا رأيت إنسانًا يتحمس للحق والذود عنه فى موطن من المواطن، ثم رأيته يخذله أو يحاربه فى موطن آخر، فما أظنك ترضى أن تصفه بأنه من عشاق المثل العليا، وما أظنك تتردد فى الشك فى حقيقة موقفه الأول.

وهؤلاء قوم يزعم الناس أنهم يقدسون الحرية فى بلادهم، والحرية حق، فلو أنهم يقدسون هذا الحق، كما يزعمون، لاطّردت مظاهر التقديس فى كل مكان؛ فى داخل بلادهم وخارجها، فلا يجدون ضعيفًا إلا أعانوه، ولا خائفًا إلا أمَّنوه، ولا ذليلاً إلا أعزوه، ولا مستعبداً إلا سعوا فى حريته، أما أنك تراهم يحرصون عليها فى بلادهم، ثم تراهم فى الخارج حربًا على حرية الشعوب الضعيفة؛ ينكلون بطلابها والمجاهدين فى سبيلها، فيشردونهم ويسجنونهم ويقتلونهم، فذلك من أبشع الرذائل، ولا يمكن أن ينسب إلى فضيلة من الفضائل.

لقد قلت سابقًا: إن محب الفضيلة يراها دائمًا زينة حسه ونفسه، فلا يغنيه أنها صفة معنوية مُسلَّمة فى قلبه، بل لا بد أن يرى صورها العملية فى عالم الحس والواقع، فهل ترى من المنطق المطرد أن يناهض هذا الجمال، ويطارد أنصاره، ويعمل على إخفات صوته، وطمس معالمه؟

إذا أردنا الخير لأنفسنا، فلنكن شجعانًا صرحاء، نسمّى الحق حقًا، والباطل باطلاً، ولو أجمع الناس على خلافنا، وحسبنا أن تتركز عقائدنا على الحق، وأن يتركز الحق فى عقائدنا، وأن نعتز بأنفسنا، ونجهر بما نعتقد أنه حق، وحسبنا كرامة أن نكون غير مقلدين ولا مترددين، أما أن يبدو لنا وجه الحق فنشيح عنه، ولا نجد الثقة فى النفس لتقبله، لا لشىء إلا لأن الناس لا يعتقدونه، فتلك منزلة الغثاء والهباء، لا يرضى بها إلا سَقَط المتاع.

فلنقل إذن: إن هذه فضائل زائفة، ولنجهر به فى ثقة ويقين، ولو ملأ الناس الدنيا بغنائهم وتمجيدهم لهذا الزيف، فإن الأذن التى تسمع لحن غنائهم هى التى تسمع فى الوقت نفسه أنين المستضعفين لما يلقون من ذل وعنت وشقاء.

وتريد أن تذكر ما عندهم من عدل؟ أتريد أن تذكر المساواة؟ أنت فى غنى بعد ذلك عما يكشف لك من رذائل هذه الفضائل!

• أخلاق هى مخالب وأنياب:

ليست هذه فضائل إذن، إنما هى مواضعات شكلية يسير بها نظام جماعتهم، تواضعوا فيما بينهم عليها ليتم تعاونهم. تعاونهم على ماذا؟ تعاونهم على إشباع أنانيتهم، وإمتاع حواسهم وجوارحهم، التى لا تعرف حداً تنتهى إليه فى الإشباع والإمتاع، تعاونهم لا على البر والتقوى، ولكن على الإثم والعدوان. فلو أنهم لم يصطنعوا العدل مثلاً فيما بينهم، وظلم بعضهم بعضًا، لانفرط عقد جماعتهم، ولرأيت أنانيتهم التى يأكلون الناس بها الآن تنقلب عليهم فتأكلهم، وتنشر الضعف والفساد فى صفوفهم، فحقيقة عدلهم أنه «نظام صناعى» لا خلق نفسى أصيل.

والداعى إلى المساواة والصدق، ونحو هذا، هو نفس الداعى إلى العدل، هو الحرص على أن يظل تعاونهم وثيق العرى؛ فإن هذا التعاون هو وسيلتهم إلى السطو، هو المخلب، هو الناب الذى يحطون به على الفريسة التعسة.

وقد اشتد هذا الحرص حتى استفاض بأنانيتهم فخرج بها من حدود الأنانية الفردية إلى الأنانية الجمعية، فالرجل يهب لجماعته، لأمته، لقومه، جهوده وتأييده وعواطفه، لأنها تعمل لشخصه، فهى جهود عائدة عليه، مردود خيرها إليه، فهو إذ يحب الجماعة إنما يحب شخصه، ومتعته، ورفاهيته، واستعلاءه فى الناس وعلى الناس. وتضخم حب نفسه فى الجماعة وحب الجماعة فى نفسه فكان ما تغنَّوا به من وطن ووطنية، أو عنصرية وقومية، وكان ما رددوا أنباءه من تضحية بالمال، واقتحام للمخاطر والأهوال، وبذل للنفوس والأرواح، مما سقناه فى «قائمة فضائلهم المزعومة».

• مناسر اللصوص:

حذارِ يا أخى أن تغتر بظواهر هذا الجنون الوحشى، وسل نفسك دون أن تخدعها: فى سبيل أية غاية يبذل هذا المخاطر روحه؟ إنه لسعادة أمته بلا مراء،

وهنا أطلب إليك أن تخطو الخطوة التالية فتسأل: من أى سبيل تسعد أمته إذا لم تسعد على حساب الضعفاء من الأمم والشعوب؟ لقد طلبنا منذ قريب أن نكون أقوياء، أقوياء فى التحديق فى هذه الصور لنتبين حقائقها فنسميها بأسمائها.

أسألك الصراحة يا أخى: هل ترضى للرجل أن يعدو على آخر فيظلمه ويحرمه، ويسلبه حقه فى الأمن والحرية؟ إن كنت لا ترضاه له، ولا تقبله منه، فإنك لن تشرح له صدرك إذا ارتكبته أمة من الأمم. أى أنك إذا استنكرته من ذلك الأنانى الصغير، فأنت له من الأنانى الكبير أشد إنكاراً. خبرنى بربك: أى فرق بين منسر من اللصوص يقطعون الطريق على المارين أو يغيرون على الغافلين، فيسلبون هؤلاء وهؤلاء أمنهم وأموالهم، ليسعدوا بها وأولادهم وأزواجهم، أى فرق بين هذا المنسر وبين أمة تصنع الصنيع نفسه مع الأمم الضعيفة، على تفاوت فى بعض الأساليب والوسائل، لا فى الغايات والأهداف؟ إن الأمر لا يعدو أن يكون تدرجًا بالأنانية من حيزها الضيق إلى حيزها الواسع، وتطوراً بالجريمة من حال الفردية والاستخفاء، إلى حال العرف المستعلن فى بأس الدولة فى غير تأثم ولا ريبة.

فما التضحية، والتفدية، والإقدام، والشجاعة، والمخاطرة ـ كل هذه ما هى إلا أسماء يطلقونها على صور الجنون الوحشى، حين ينطلق الرجل لتحقيق غاية من غايات قوميته ووطنه، أو بعبارة أصح: أنانيته الكبيرة ووثنه.

• حين ننظر بعين الحقيقة:

وما نحسب الظن يذهب بك إلى تمنى هذه الأنانية الجمعية، حيث ابتلينا نحن فى بلادنا بالأنانية الفردية، فالشر شر كله، ولا فضل له ولا خير فيه، وحين تنظر إلى الأمر بعين الحقيقة العليا، يبدو لك الساعى إلى الإثم بمفرده كالساعى إليه فى جماعة، بل قد يبدو لك الفرد أقل بشاعة فى أنانيته من الجماعة، هذا من جهة، ومن جهة أخرى، هل فعلت الأنانية الكبيرة أكثر من أن جعلت الشعوب والأمم والدول فى حال تنافس مستمر، وعداء شديد، وتربص دائم؟ فبعد أن كان الأفراد ينافس بعضهم بعضًا، زاد الشر فغدت الأمم والشعوب على ما نشاهد الآن من

تخريب المدن، والحصون، والمرافق، وإبادة ملايين البشر.. فهل ترى يتمنى الشرق لنفسه مثل هذه الأنانية؟

يقول قصار النظر: نعم. ونقول: لا. إنا لنرجو للشرق والغرب شيئًا غير هذا كله، سنذكره عما قريب إن شاء الله؛ وهو الذى يدعو إليه الإخوان المسلمون، ويجهدون لتحقيقه.

• عود على بدء:

وبعد: فقد كنا نقول منذ قريب أو بعيد: إن للحياة الفاضلة دعامتين:

(١) اعتراف بغايتين.

(٢) وحساسية فى الشعور، تحقِّر أولاهما وتصد عنها، وتمجِّد الأخرى وتحفز العزائم إليها.

ولقد ادعينا أن أكثر الناس يقبلون هذه الحقيقة قبولاً نظريًا، ثم تساءلنا: هل لهذه الحقيقة وتر مشدود فى القلب، تنبعث عنه العزائم الراغبة فى الفضيلة والبطولة؟ وأظن أنى ألتقى مع كل قارئ على أن أوتار القلب التى تهدف إلى الغاية العليا، وتقذف إليها بشهب الهمم والعزائم، هى أوتار ضعيفة محلولة. وسوف تبقى هذه الغاية منصوبة معطلة لا تحظى من الإنسان إلا بالقبول السلبى، وسوف يظل الإنسان موزعًا بين الغايتين، مذبذبًا بينهما، ناظرًا بعقله المادى إلى الحسنى، مربوطًا بقلبه إلى غيرها، حتى يقضى الله أمرًا كان مفعولاً.

* * *

الفصل الثالث

إلى العلاج

وبعد: فقد وضعنا لهذا الباب عنوان «فقه الدعوة والداعية»، وما أردنا به أن نشرح ما هى الدعوة، أو ما هو الداعية، وإنما أردنا مسألتين كبيرتين:

الأولى: أن نبين أن العلة الكبرى التى تتسلسل منها علل المجتمع كله؛ هى المادية فى جميع صورها وأشكالها، ولا سيما المادية التى حلَّت فى القلوب، فعلقتها بعبادة المال والشهوات والأهواء المختلفة.

نريد أن ننص على هذه العلة الكبيرة، التى أورثت الإنسانية هذه القلاقل المضطربة فى كل صقع، والعداوة والبغضاء فى كل قلب، والحروب المخربة المدمرة بلا انقطاع؛ وهم مع ذلك لا يلتفتون إليها، وإذا التفتوا لا يجدون العزيمة للتخلص منها.

وكل داعية يجب أن يعرف هذه الحقيقة مسلمًا كان أو غير مسلم، ما دام قد صحت عزيمته على أن ينقذ الإنسانية ويسعدها، وما حسن أن يَخْبِطَ الداعية فى علاج مسألة ما على غير هدى ودراية، وإن علاج أى مسألة على غير هذا الأساس الذى ذكرت لهو علاج ميئوس من نجاحه، وكل ما يبذل فيه من جهد إنما هو امتداد للداء، وتأخير للشفاء. فليرجع الداعية المسلم كل ما يعرض له من فساد فى أوساط المسلمين، أو غير المسلمين، إلى هذه العلة الكبرى؛ وليعالج ما هو بصدده بعد ذلك معالجة الفطن بما يجد فى كتاب الله عز شأنه من طب وشفاء.

أما الداعية غير المسلم: فإننا ندعوه إلى التوراة والإنجيل والقرآن، نعم فليأخذ أيضًا من القرآن، إن خلصت نيته فى استنقاذ الإنسانية، فليأخذ منه ما تهديه فطرته إلى أنه صالح، وإنَّا لعلى يقين من أنه سيجده كله صالحًا، وليضرب بأوهام العصبية عرض الحائط، فما حسن فى العقول المتحررة المستنيرة أن يدع الإنسان

مريضه يسير إلى الذبول والفناء ويرفض ما يقدمه له جاره من الدواء الشافى، لا لشىء إلا لأنه يستنكف أن يعترف بفضل دواء الآخرين.

الثانية: أن نبين أن حياة الرسالات منوطة بالعقل العاطفى والتنفيذ العملى.

وذلك يصدق حتى على الرسالات الأرضية، وبدون هذا العقل تظل الرسالة سطورًا مطمورة فى مجلداتها، وأفكارًا راكدة فى أذهان أصحابها. فالنازية مثلاً ظلت فلسفة باردة تقرأ فى الكتب وتدرس فى الجامعات، حتى تلقفها وجدان هتلر فغلى بها وفار، ونهض ينادى فى حماسة وقوة وثقة، حتى أخذت قلوب الشعب تتهيأ لرسالة هذا الزعيم الجديد، وتنتقل بالتدريج إلى ما يشاء، وساعدته ظروف الزمان والمكان حتى صارت النازية عقيدة راسخة يقاتل الشعب فى سبيلها، رغم ما فيها من حماقة وسخافة.

• أصلان كبيران:

ونخرج من هذا بأصلين كبيرين: أن الداعية يجب أن يشعر بأن دعوته حية فى أعصابه، متوهجة فى ضميره، تصيح فى دمائه، فتُعجله عن الراحة والدَّعة إلى الحركة والعمل، وتشغله بها عن نفسه وولده وماله. وهذا هو الداعية الصادق، تحس إيمانه بدعوته فى النظرة، والحركة، والإشارة، وفى السمة التى تختلط بماء وجهه، وهو الداعية الذى ينفذ كلامه إلى قلوب الجماهير فيحرك عواطفهم إلى ما يريد من أمر دعوته.

ولا نقصد بهذا أن يكون الداعية رجلاً مهرجًا، يصطنع الحماسة ليلعب بحماسة الجماهير لأتفه الغايات، ويثير مشاعرهم إثارة مصطنعة، فذلك شأن الدخيل المدّعى لما ليس فيه، بل نريد الصنف المفطور على يقظة الطبيعة، الذى يتكلم فتتكلم أسرار الدعوة فى ألفاظه ونبراته، وهو إذ يفعل ذلك لا يثيرهم إلى باطل، بل يهيئهم لقبول الحق الذى يألفه العقل والفطرة. وإذا كان هذا لازمًا للرسالات الأرضية على ما فيها من باطل، فهو ألزم للإسلام، لأنه رسالة الحق الخالص، وبين الحق وفطرة الإنسان نسب، فكلاهما من روح الله. فإذا أثرت حماسة قلب المرء إلى حقائق هذه الرسالة؛ رأيت فطرته تسرع إليها إسراع الأليف إلى أليفه فى

غير إنكار ولا تردد، وتقبل عليها فى معرفة وثقة ويقين، بل فى لذة وشوق وحنين: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ [المائدة: ٨٣]. ذلك بأن الحق مسطور بقلم الله فى كل فطرة، والفطرة السافرة التى لا رين عليها إذا سمعت الحق يتلى فى أى وجه، أحست أنه صدى أحاديثها، وصورة ما هو مكتوب فى أطوائها، ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٩].

فإذا رأيت نفسك يا أخى راكد العاطفة، منطفئ الحماسة لرسالتك، أو إذا وجدت من نفسك أنك تقبل علينا لتكون خطيبًا، يعجب الناس ببلاغتك، فاعلم أنك - على الحالين - فى حاجة إلى فهم جديد لدينك، هو الفهم العاطفى، والتصديق القلبى، هو الإيمان القوى الذى يشغل ضميرك بدعوتك فى كل لحظة، فتذكرها فى نومك ويقظتك، وعلى طعامك، وبين أهلك، وفى حِلِّك وسفرك، وفى كل مجالسك، إذا قصدت إنسانًا فللدعوة، وإذا سالمته أو عاديته فلها، وإذا فرحت أو حزنت فمن أجلها. وبالجملة تكون هى المسألة الأولى الحاضرة لديك فى كل وقت من أوقات حياتك.. هى صلب الحياة ولبها وصميمها، وأمور عيشك على هامشها وأطرافها، ولا تظن هذا كثيراً عليك، فأنت داعية ولست مدعواً، وشتان ما حال هذا وذاك.

أقبل على دعوتك يا أخى هذا الإقبال، واصنع لها هذا الاهتمام، وتكلف فى صدق أن تكون لها، واغمر نفسك فى محيطها، وأكثر الاتصال بمرشدها وقادتها وأنصارها، فإنك لا تلبث أن تكون كذلك - إن شاء الله - كالسيف إذا شحذه صاحبه زايله صدؤه وصار مرهفًا بتاراً.

هذا الأصل هو ما يتعلق بالكلام عن الداعية. أما الأصل الثانى فهو ما يتعلق بالدعوة.

فما هى الدعوة مجردة عن التعريف الفنى والحد الاصطلاحى؟

هى: نقل أمة من محيط إلى محيط، تلك هى مهمته، وفيها يندرج مجمل منهاجه ومفصله، ومن ظنها غير ذلك فقد جهل نفسه ورسالته.

• الدعوة والإصلاح:

هناك جماعات تظن الإصلاح مدارس تنشأ، وجامعات تقام، وتُرَعًا تحفر، ومصحّات تبنى، ومصارف تدبر المال، ومصانع تسد حاجة البلاد، إلى آخر ما هنالك مما يدور على ألسنتهم، ويشيع من أنديتهم وصحفهم. وليس هذا من الإصلاح فى شىء، إنما هو ضرورات حيوية، يجب أن يسار إليها مع منطق الحاجة الاجتماعية، أما أنها هى الإصلاح والإنقاذ فلا. أرأيت لو أن إنسانًا رأى غريقًا جائعًا أشرف على الغرق، فشرع يبحث له عن طعام يسد به جوعه، ماذا تكون نتيجة حماقة هذا الإنسان؟ وماذا تكون نتيجة حماقته لو أنه ترك مريضًا ومرضه فلم يستدع له الطبيب، واستدعى معلمًا يعلمه الحساب أو شيئًا من هذا القبيل؟!!

ماذا أغنى الاهتمام بالترع والجسور والمدارس والمصانع والمسارح والصحف وغيرها فى أوربا؟ ماذا أغنى الاهتمام بهذا والروح مريض، والاتجاه القلبى فاسد؟ ماذا أغنى ذلك غير الاضطرابات والقلاقل والمبادئ التى تقوم ثم تزول، والحروب التى تنطفئ ثم تستعر إلى ما شاء الله؟!

أيها الداعية، أنت بصدد أمة، بل بصدد إنسانية تعيش فى محيط آسنٍ خانقٍ، ومهمتك أن تنقلها إلى المحيط العذب الفسيح الهنئ، من محيط المادية إلى محيط الربانية، من محيط قلبى إلى محيط قلبى آخر، ثم أنشئ لها بعد ذلك ما تدعو إليه ضرورة الحياة الجديدة.

فأقبل بقوة على غرضك، واجمع له عزيمتك، ودبر له خطتك، واستفت رسالتك دائمًا فيما تريد عمله؛ فإن أفتتك بطبع كتاب فاطبعه وانشره، وإن أفتتك بفتح مدرسة فافتحها، ولا تظن هذا يناقض ما حملنا عليه سابقًا، فإنك تفتحها وتنشئها لنقل التعليم من محيط إلى محيط، ونقل القلب من حال إلى حال.

• الدعوة والكتابة:

وهناك كتّاب يظنون أن الإصلاح مقالات تكتب، أو تؤلف، فتصف لنا ما فى الغرب من علم وسياسة، ونظام وحرية، وأسلوب خاص فى الاستمتاع بلذائذ

الدنيا، فإذا كتبوا أو ألفوا أو نشروا، ظنوا أنهم أدوا رسالة، وخدموا أبناء وطنهم.

هذا الصنف قد يعجبك ويدهشك بكثرة اطلاعه على ما للقوم من علم وفلسفة وأدب وأوضاع اجتماعية وسياسية ونحوها، قد يدهشك بهذا. أما أن هذا هو الرسالة الواجبة عليه لوطنه فلا.

اقرأ مقالة له أو كتابًا، فإذا أحسست أنه ينقلك من محيط إلى محيط، ويكشف لقلبك آفاقًا روحية جديدة، ويهدى إليك نفسك، أو بعض نفسك، ويدعوك فى قوة وإيمان إلى الربانية الشاملة التى تهيئ لك حياة صالحة سعيدة، فيها للقلب حقه من معرفة الله، وللبدن حقه، فهو داعية فطن خبير. أما إذا قرأت فلم تجد إلا إنسانًا يتحدث ليسليك، أو ليعرض عليك بالقلم ما يصح أن تراه فى السينما أو الصحف المصورة، أو ليطلعك على نوع ثقافته وكثرة معارفه، إذا قرأت فلم تجد إلا هذا فاعلم أن صاحبك ببغاء مطموسة، لأن علمه لم يفتح له بصيرة، ولم يفقهه بحقيقة ما نحتاج إليه فى النهوض والإصلاح، إنه ظن أن ما عند القوم هو المثل الأعلى لما تنشده الإنسانية من حضارة، وهذا جهل محض لا يزيله أن يستكثر صاحبه من معارف القوم أو يصطنع من أساليب معيشتهم، فإنه بهذا لا يزداد إلا إمعانًا فى ضلاله وضلالهم.

• عبيد يتغنون بمجد سادتهم:

ولو أنه وثق بنفسه واعتز بشخصيته، وأخذ ما تعلمه أخذ الناقد الممحص؛ لاستبانت له الحقائق، ولأهدى لأمته خيرًا كثيرًا. ولكنه ألقى بكل ذلك عن كاهله، وألغى وجوده وإرادته، وأسلم نفسه لسادته يملأونها بما يشاءون، ويفرغون فيها ما يريدون. وهذا شر أنواع الاستعباد، لأنه الفناء التام للشخصية، ومن هنا تجد صاحب الثقافة الألمانية يتغنى بألمانيته، وصاحب الفرنسية يمجد فرنسيته، ومن تعلَّم فى إنجلترا فالإنجليز مثله الأعلى، وهكذا. وحسبك من هؤلاء جهلاً وضلالة - بل عمى وبلادة - أن أحدهم لا يشرع قلمًا يعيب به على سادته أنهم يستذلون الضعفاء، ويحتلون أوطانهم، ويستأثرون بثرواتهم، بل إنه لا يكف عن التغنى بما يتوهم لهم من مزايا ومآثر، فما رأينا مثلاً كاتبًا ذا ثقافة فرنسية أعلن

على فرنسا حربًا بيانية على احتلالها تونس والجزائر ومراكش والسنغال والصومال، وما إلى ذلك من أقطار تأتَّى فيها من المآسى الإنسانية ما لا يطيقه ضمير الحر الأبِىّ الكريم[1]، هل تراه وقف يرسل النداء الحار من أعماق قلبه، ويصب صواعق غضبه على هؤلاء الأنانيين الغلاظ؟ لا؛ إنه يعمى عن ذلك كله، ولا يرى إلا محاسن سادته وأساتذته، وما تفيض به بلادهم من حياة الإباحة والمجون. وإنى أدعوك يا أخى إلى أن تشك فى علم هؤلاء وفهمهم وإنسانيتهم، فإن الذى لا يفهم رسالته لا يعول عليه، والذى يخذل الخير لا خير فيه، والساكت عن الحق شيطان أخرس.

هذا النوع من الكتابة الذى لا ينقلك من محيط إلى محيط، بل يمعن بك فى محيط الحضارة الآلية الصماء، لا ينبغى أن يكون نهجك فى الكتابة، وهؤلاء الكتاب يجب أن تعرف منذ الآن زيفهم وحقيقة جهلهم؛ فلا تغرنك ألقابهم وشهرتهم. وليكن همك الأول من قلمك أن تنقر به على قلب ليستيقظ، وتنفث منه فى نفس لتهبَّ وتنهض، وتعلِّم به باسم ربك الذى خلق ما لا تعلمه الكتابة العادية من ظواهر العلوم والفنون. اذكر دائمًا أنك قائد، وأنك طبيب، واذكر دائمًا أن مهمتك الكبرى هى إحياء الضمائر وإثارة الهمم إلى المثل العليا.

• الدعوة والوعظ:

وأريد للداعية أن يعرف أن نهجه فى الوعظ هو نفس نهجه فى الكتابة، وأن مهمته فى الحالين هى مهمة الأنبياء؛ هى تغيير ما بنفوس الناس حتى يغير الله ما بهم من فساد، وكل وعظ لا يبلغ هذا الهدف، أو لا يرمى إلى هذه الغاية، فهو جهد ضائع، وعمل باطل.

لا يكن كل همك يا أخى أن تتظرف بالنكت اللبقة، والفكاهات البارعة، ليقول الناس إنك مجدد فى الوعظ، وعند هذا تنتهى مهمتك، ولا يكن همك أن تسلِّى الجمهور، وتقضى معه ساعة فى حديث لا يرمى إلى هدف. لا تكن كذلك الذى يقبل على الناس فى حذر وخفة، فلا يمسهم إلا مسًّا رقيقًا كأنما يخشى

---

(١) كتب هذا الكلام قبل تحرير هذه الدول.

عليهم أن يتكسروا، فيسوق لهم من قصص التاريخ، وحكايات السابقين، وأسباب نزول آيات القرآن الكريم، ما لا صلة لبعضه ببعض، وما لا يؤلف بمجموعه موضوعًا ذا غرض معين، وهدف مقصود.. لا يريد بما يسوق إلا أن يجلس الناس من حوله، فيستمعوا له ثم يخرجوا، وقد أسعدهم بوقت قضاه معهم فى مؤانسة، ومتعة عاطفية بريئة. هذا وعظ سلبى لا شأن لك به، ولا مقام له فى رسالتنا. إن رسالتك تقتضيك أن تدخل على مشاعر جمهورك فى حكمة، فتحرك وجدانهم، وتستثير عواطفهم إلى الله، فإذا تأتى لك ذلك ولانت نفوسهم لقولك، فاصنع منهم ما تشاء صنعه، أبِنْ لهم عن غرضك، وابعث بآمال قلوبهم إلى ما تحب أن يصلوا إليه، فإنهم مستجيبون لك إن شاء الله.

أيها الأخ: حذار الوعظ الجاف الذى لا حياة فيه، وحذار الوعظ الركيك المفكك الذى لا غرض له، وحذار أن تقف موقفًا وأنت لا تنوى أن تخرج منه بصيد.. أنت صياد ماهر فاطرح شبكتك، وانقل ما يخرج لك منها إلى محيط آخر، محيط الإخوان المسلمين، محيط دعوة الله ورسوله.

قد يكون الوعظ السلبى ضروريًا فى وقت ما، ولكنه على كل حال ضار فى أوقات النهضات، وإرادة التخلص من الفساد العام. فإذا استوت النهضة على أمر الله، وتخلصت الأمة من الفساد، جاء دور الواعظ السلبى الذى يحذر ويزجر ويمنع، لا الذى يثير ويغير وينقل، وتكون مهمة الوعظ حينئذ أشبه بالطبيب الذى يقوم على رعاية الجسم السليم بالوقاية، ويأخذ بالحكمة الطبية المعروفة: «الوقاية خير من العلاج».

أيها الأخ: هذه هى الدعوة، وهذا هو الداعية، وهكذا الفهم، فافهم دعوتك به، والله يؤيدك بروح منه، ويهدينا وإياك سواء السبيل.

* * *

الباب الثانى

مِزاج الداعية

• **تمهيد:**

نقصد بمزاج الداعية ما يلزمه من عدة عقلية، وروحية، ونفسية، فلا بد له من:

١ ـ عقلية واقعية تصويرية، لا نظرية.

٢ ـ حياة روحانية يحياها فيما وراء المادة، على أن تكون روحانية اجتماعية، لا تعتزل الناس، ولا تدع الأخذ بالأسباب، فذلك من الجهل بقوانين الله وسننه.

٣ ـ طبيعة إيجابية تنفيذية، لا سلبية.

وقد تكون هذه العدد واضحة قوية فى مزاج الداعية، فهى طبيعية لديه، وقد لا تكون كذلك، فعليه أن يحاول كسبها بالتجربة والممارسة والمران، فإنه لن يحرم نصيبه الكسبى منها إن شاء الله.

* * *

الفصل الأول

العقلية الواقعية

قلنا: إن مهمة الداعية هى نقل الأمة من محيط إلى محيط. وليس هناك ما هو أصعب مراساً من الإنسان، فهو كثير المراء والجدل، سريع الانتقاض والعصيان، شَموس لا يُسلم زمامه إلا لهواه. ومن هنا ترى مهمة الداعية شاقة، فقد يكون نقل جبل أسهل على المرء من توجيه إنسان إلى خطوة واحدة يكرهها، ولكن ما أطوع الإنسان لنداء قلبه إذا ناداه إلى خير أو شر؛ وما أصبره على ما يصيبه حينئذ من مشقة الجهد، ونفقة المال! بل ما أجمل ذلك وألذه لديه!.. القلب هو القوة العجيبة التى تسخر هذا العاصى العنيد فى مشيئتها، وهذا من حسن حظ الإنسان، فإن الداعية الحكيم يستطيع أن يركز جهده وانتباهه فى مخاطبة هذا القلب، ومحاولة إرضائه، والنفوذ إليه؛ حتى إذا امتلك عنانه قاده فى رفق ورضى وسرور، إلى الإصلاح الذى يرجوه له.

• أسلوب القرآن فى عرض الحقائق:

ولكن.. كيف نخاطب هذا القلب؟ وبأى أسلوب نعرض عليه المعانى الربانية؟

هناك من يعرض معانيه عرضاً نظرياً عقلياً محضاً، لا هم له إلا أن يستوعب العلل والمعلولات، ويتعمق فى التفكير التجريدى، ليحيط بالكليات والجزئيات، ومختلف الفروض والحقائق، فاحذر أن تكون مثلهم فى مخاطبة الناس، فهو منهاج لا تحرك به الجماهير، ولا تثار به النهضات. فالداعية حق الداعية، هو الذى يواجه الواقع العملى ويصلح بسنة الله ما شذ عن سنة الله، فى بساطة لا تعقيد فيها ولا تكلف.

ألا ترى أن الله عز شأنه حين عرض علينا الحقائق والمعانى والفلسفات، عرضها عرضاً عملياً محسوساً، ولم يعرضها عرضاً نظرياً؟! فقدرته مثلاً لم يحدثنا عن كنهها، وكيفها، وعن أسرارها الخفية ومعانيها التجريدية؛ بل عرضها عرضاً سافراً

فى مخلوقاته، فأنت تراها فى البحر والجبل، والزهر والشجر، والشمس والقمر، ونحو ذلك مما تقع عليه العين فى الأرض والسماء. وفى هذا العرض العملى مقنع لإدراكها، والشعور بها.

ولم يحدثنا عن فلسفة الموت والحياة، بل ساق ذلك فيما نراه كل يوم من مواليد ووفيات، وتطور بين الميلاد والوفاة، فما عليك إلا أن تنظر وتتأمل، وتدرس ثم تعتبر، ويرى الله - والحق فيما يراه - أن فى هذا القدر كفاية، إذ لا تتسع طاقتنا العقلية لأكثر منه، ولا يتعلق نفعنا المادى والروحى بما وراءه.

وغرائز الإنسان: حبه للبقاء، ورغبته فى العلو والاستئثار، وميله إلى الزوج - هذا وغيره صفات أو قوى مستترة فى كيانه، فهل أنزل الله لنا فى ذلك كتابًا فلسفيًا يشرحه شرحًا عميقًا ويحيط بحقائقه؟ نعم أنزل فيه كتابًا ولكنه كتاب الطبيعة.. كتاب الحياة التى تشرح أسرار الإنسان كل يوم، بل كل ساعة، بل كل دقيقة، شرحًا، فكل أعمال الإنسان إن هى إلا تفسير لقواه وغرائزه المستكنة فيه.

• ضرورة الأسلوب التصويرى:

فهؤلاء المتعلقون بالنظريات الممعنة فى الفروض يفسدون أنفسهم حين لا يسايرون قوانين الحياة، ثم يحاولون أن يفسدوا على الناس نظام طبيعتهم السهل، وأنت تريد أن تنهى عن رذائل وتصد عن حضارة فاسدة، وتريد أن تدعو إلى فضائل وتهدى إلى حضارة صالحة، فاتبع سنة الله فى عرض المعانى، واعرض دعوتك فى صور عملية، تمشى على قدمين، وتسعى على الأرض، وتؤثر فى الناس، فذلك سبيلك الوحيد إلى بث الحياة فى القلب، والحركة فى العقل. وحين تدب الحياة والحركة فى الإنسان: قلبه وعقله، فقد حَىَّ الحياة التى ترجوها له. وإياك ومنهج النظريين، فإنه يمل الناس ويصرفهم عنك.

أما الأساليب التصويرية التى تدخل على القلوب بدعوتك فنذكر منها ما يأتى:

أولاً: القصة

تمتاز القصة بأنها تصور نواحى الحياة، فتعرض لك الأشخاص، وحركاتهم، وأخلاقهم، وأفكارهم، واتجاهات نفوسهم، وبيئتهم الطبعية والزمنية. تعرضهم عليك بعرض أعمالهم وتصرفاتهم ونقاشهم، فإذا رأيت هذه التصرفات والأعمال، ومضيت مع الحوار والنقاش، عرفت ما يستكن فى النفوس من طباع، وما يهجس فيها من خواطر، وانشرح صدرك لأهل الخير منهم، وضقت ذرعًا بذوى النفوس المظلمة والوسائل الملتوية، حتى لكأنك تراهم رأى العين، وتسمع منهم سمع الأذن، وتعاشرهم وتحيى بينهم.

وتمتاز القصة كذلك بأن النفس تميل إليها، فغريزة حب الاستطلاع تعلق عين السامع وأذنه وانتباهه بنسق القصصى البارع، استشرافًا لمعرفة ما خفى من بقية الأنباء.

والقصة بهاتين الميزتين من خير الوسائل التى يتوسل بها الداعية لإبلاغ تعاليمه إلى أعماق القلوب، فهى بالميزة الأولى تعرض هذه التعاليم فى صورة عملية حية تحرك الوجدان، وترفع نبض المشاعر. وهى بالميزة الثانية: ميزة التنبه والتقبل، تجعل النفوس أوعية مفتوحة، يصب فيها الداعية ما يشاء فيبلغ القرار.

فاستمسك بذلك يا أخى فهو من سنة الله، والله عز شأنه قد سنه فى القرآن الكريم، فقص على رسوله أحسن القصص، وضمنه خير التعاليم والمواعظ؛ تثبيتًا له ولأمته على الحق: ﴿وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [هود: ١٢٠].

وخير القصص كله قصص القرآن الكريم، شرح الله صدرك له، وأنار بصيرتك بما فيه وإلى ما فيه. لقد أُحكمت به عروة العقيدة، واكتمل نظام الأخلاق، واشتدت به أركان الحضارة الإسلامية، فكانت أوفى وأكمل الحضارات.

• مثال من قصص القرآن:

ونحن نسوق لك مثلاً قصة سليمان وملكة سبأ، ولا تؤاخذنى إن قصَّر بى العجز عن الإحاطة بمراميها القيمة البعيدة.

إن هدهدًا كشف لسليمان عليه السلام ما عليه مملكة سبأ من الشرك والضلال، فبعث إليهم سليمان أن يسلموا لرب العالمين، فحاولوا استرضاءه عنهم بالمال، فلم تغنهم المحاولة شيئًا؛ فقد رفض المال وأوعدهم وأنذرهم جنودًا لا قِبَل لهم بها، وحينئذ نزلوا على حكم سليمان وجاءوه مسلمين.

وفى هذه القصة يقرر الله تبارك وتعالى القواعد الأصيلة، المادية والروحية، التى لا بد منها لقيام الدولة النموذجية الفاضلة على النحو الآتى:

١ - قوة وعلم:

يقوم الملك العظيم على دعامتين كبيرتين أصيلتين هما: القوة والعلم.

فالقوة: تجمع قوة الأبدان، وكثافة الجنود المدربين، ووفرة الأسلحة والآلات.

والعلم: هو نور العقول والقلوب، وهو وسيلتك إلى معرفة قوانين الوجود وسنن الطبيعة لتسخير ما يمكن تسخيره منها فى منافع الدولة، وهذا هو العلم النافع، هو العلم بالله عز وجل.

هذا أصل صالح من أصول الدولة، ذكره الله عز وجل فى مواضع كثيرة من كتابه: ﴿قَالُوا أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:٢٤٧]، ولكن الله عز شأنه لم يقف بنا عند حد الترسيم والوصف النظرى لمقومات الملك، بل ذكر لنا ملكًا عمليًا، ودولة نموذجية، لنرى هذه الصفات حقائق ماثلة للعيان، فى معالم ملكها الشامخ، فنحتذى حذوها على بصيرة، فإن لم نبلغ هذا المثال - ولن نبلغه[1] - فلنحقق منه ما تتسع له الطاقة.

• القوة فى قصة سليمان:

إن الله عز وجل يريد لنا ملكًا عمليًا، فذكر لنا هذه الصفات مجردة ثم أوردها محققة فى ملك سليمان؛ لنكون عمليين فى بناء المجد، لا كلاميين ولا نظريين.

فما القوة هنا؟ وما كثافة الجند؟ اقرأ معى قول الله عز وجل: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ

---

(١) ملك سليمان عليه السلام لا ينبغى لأحد من بعده، كما ورد فى القرآن الكريم.

﴿جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ﴾ من كثرتهم وتزاحمهم ﴿يُوزَعُونَ﴾ [النمل:١٧] يدفعون؛ حفظًا لنظامهم، وإبقاء على تنسيق صفوفهم، فلا يتقدم المتأخر، ولا يتأخر المتقدم. وهذه الجنود الكثيفة التى لم يعرف لها مثيل فى تعدد أجناسها تبعث الرعب فى جميع الآفاق؛ حتى ليدخل الوجل فى قلوب النمل فضلاً عن غيره، فإذا ﴿أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾ [النمل:١٨].

ويعرف سليمان هذه القوة من جنده، وأنها لا يقف لها شىء فى الأرض، فيرد هدية ملكة سبأ بقوله: ﴿ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لاَّ قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ [النمل:٣٧].

أرأيت ـ يا أخى ـ الجند مصوراً هذا التصوير الرائع فى مثل هذا الكلام اليسير الموجز؟ وهو تصوير لم يدع ناحية من نواحى الجند إلا ألمَّ بها: كثرة العدد، النظام، عظمته بتعدد الأجناس فيه، إلقاؤه الرعب فى قلوب المخلوقات، حتى اليسير منها والتى لا قصد للجنود إليها، وكونه جنداً غالبًا مظفَّرًا على أعدائه فى كل المواطن، فتبارك الله رب العالمين، وما أجل شأن القرآن الكريم.

• العلم فى قصة سليمان:

ثم أين العلم فى هذه القصة؟ وأين رسالته التى أداها للدولة؟

اقرأ معى قول الله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ۝١٥ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ﴾ ميراث علم ونبوة ﴿دَاوُدَ﴾ [النمل: ١٥، ١٦].

وهذا العلم الذى أشار الله إليه يفسره سليمان بأنه هو اللغات وسائر أنواع العلم، فى قوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ﴾ [النمل:١٦].

فأما منطق الطير وغيرها، فإنك تراه فى حواره المعروف مع الهدهد كما سيأتى، وتراه كذلك فى فهمه ما قالت النملة التى أنذرت ذويها بجنده ليدخلوا مساكنهم.

وأما ما عدا اللغات من سائر أنواع العلم، فهو قوله: ﴿ وأوتينا من كل شىء إن هذا لهو الفضل المبين ﴾.

ونرجو أن تتأمل قوله عز وجل: ﴿ إن هذا لهو الفضل المبين ﴾ فسيأتى بعد قريب تفسير هذا الفضل بأنه هو العلم معترفًا به على لسان سليمان الشاكر الذاكر عليه السلام.

وأما ثمرة هذا العلم العملية فى الدولة، فهى السيطرة على قوانين الطبيعة وقواها المختلفة، ليسخرها أهله فى منافع الدولة كما تقدم، وهو ما تصوره قصتنا فيما يأتى:

لما أيقن أهل سبأ وملكتهم أن سليمان عليه السلام ليس ممن يعملون للمال، وأنه لا بد آخذهم بالبأس الماحق إن لم يسلموا، خرجت الملكة فى وفد كبير ذاهبة إليه، فلما كانوا ببعض الطريق، أراد عليه السلام أن يحدث آية تدهش القوم، وتلين قلوبهم للإيمان، فقال لجنوده وفيهم من أرباب القوى العجيبة، وأهل العلم بأسرار الوجود: ﴿ يا أيها الملأ أيكم يأتينى بعرشها قبل أن يأتونى مسلمين ﴿٣٨﴾ قال عفريت من الجن أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك وإنى عليه لقوى أمين ﴿٣٩﴾ قال الذى عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك فلما رآه مستقرًا عنده قال هذا من فضل ربى ﴾ [النمل: ٣٨ - ٤٠]. أرأيت الذى عنده علم من الكتاب كيف يسخر علمه لمشيئة الملك العادل، والإمام الفاضل، والنبى الصالح؟ . . وهذا الذى عنده علم من الكتاب هو ممن تفضل بهم الله على سليمان ليكونوا فى خدمة ملكه، فلما تحقق فضل الله بتسخير هذا العلم عمليًا، اعترف به فقال: ﴿ هذا من فضل ربى ليبلونى أأشكر أم أكفر ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن ربى غنى كريم ﴾ [النمل: ٤٠].

وفضل الله كما تراه هنا: هو القوى العلمية بدون شك، فإنك تقرأ فى هذه السورة: ﴿ ولقد آتينا داود وسليمان علمًا ﴾ [النمل: ١٥]، وتقرأ فى سورة أخرى: ﴿ ولقد آتينا داود منا فضلاً يا جبال أوبى معه والطير وألنا له الحديد ﴾ [سبأ: ١٠]، فسبحان الله العظيم، مسخر الأسرار للعاملين فى الأرض بطاعته، المؤيدين لسلطانه فيها: ﴿ ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون ﴾ [الأنبياء: ١٠٥].

وحسبنا هنا هذه الحادثة شاهدًا لتسخير العلم والقوى الطبعية، فهى وحدها

كافية لتصوير المراد، وإلا فإنك تجد تسخير الطبيعة لملك سليمان فى آيات أخرى: ﴿ولسليمان الريح غدوها شهر ورواحها شهر وأسلنا له عين القطر[1] ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير ﴿١٢﴾ يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات اعملوا آل داوود شكرا وقليل من عبادي الشكور﴾ [سبأ: ١٢، ١٣].

هذا شأن العلم والقوة فى هذه القصة، وقد شرحته لنا بأوفى بيان وأكمله كما رأيت.

٢ ـ ورسالة:

ولا بد للدولة من رسالة مجيدة تسعى لتحقيقها، وتصرف إليها قوتها وعلمها، فما هذه الرسالة؟ هل هى اتساع الملك، وكثرة المستعمرات، والاستيلاء على أراضى الضعفاء؟ هل يرتاح ضميرك أن تكون هذه اللصوصية وهذا الفساد فى الأرض رسالة مجيدة؟ إن علم الله أرفع من أن يسخر لمثل هذه المخازى والمآسى، وإن الله عز وجل أرفع من أن يرسم لأوليائه مثل هذه الغاية الشريرة الآثمة. إن الغاية الفاضلة التى يجب أن تعيش لها الدولة الفاضلة وتعمل جاهدة لتحقيقها غير ناظرة إلى شىء سواها، هى: توحيد الله عز وجل، وجمع الناس على الإيمان به وحده، وتطهير الأرض من كل رجس وشرك، حتى تكون كلمة الله هى العليا، ويكون الدين كله لله. . يجب تحقيق ذلك بكل الوسائل، يجب إقامة النظم السياسية، والتشريعية، والعملية، التى تكفل استقرار الناس فى ظلال هذه الغاية، فإن استقر ذلك بالتى هى أحسن فبها ونعمت، وإن استعصى الأمر على الوسائل السلمية فلنتذرع بالتى هى أحسن أيضًا، وليس أحسن فى هذه الحالة من القوة المسلحة. . فمن أنزله السيف على أمر الله فهو معنا: له ما لنا، وعليه ما علينا، وإلا فلن نكف عن أعداء الله، حتى تطهر الأرض من رجسهم: ﴿وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين﴾ [البقرة: ١٩٣]، ﴿وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله فإن انتهوا فإن الله بما يعملون بصير﴾ [الأنفال: ٣٩].

---

(١) عين القطر: عين تفيض بالنحاس المذاب.

تلك هى الغاية التى يجب أن تكون هدف الدولة الربانية الفاضلة. وقد أثنى الله على المسلمين، وشهد لهم أنهم عاشوا لها؛ لتطهير الأرض من الرجس ولتثبيت دعائم الإيمان بالله، فقال عز شأنه: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ [آل عمران: ١١٠]، وأثنى على القائد الصالح القوى صاحب سورة الكهف، الذى آتاه من كل شىء سببًا، أثنى عليه لأنه وجه قواه لتعذيب أهل الشر، وتشجيع أهل الإيمان ومعونتهم: ﴿ قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴾ [الكهف: ٨٦] فوضع لقوته دستورًا صالحًا، يعذب عليه أو يثيب: ﴿ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكْرًا (٨٧) وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴾ [الكهف: ٨٧، ٨٨].

وهذا حسن فى موضعه بالغ درجة الحسن، لأن الله عز شأنه أراد مجرد التقرير، تقرير هذه الغاية والنص عليها؛ أما حين أراد تصويره عمليًا فقد أقامه لنا فى قصتنا الخالدة، فى منتهى الشرح والتفصيل، ومنتهى الإيجاز والإعجاز، اقرأ قوله تعالى حكاية عن الهدهد: ﴿ إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ ﴾ سبأ ﴿ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ (٢٣) وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴾ [النمل: ٢٣، ٢٤].

وهذا ضلال فى العقيدة.. وضلال فى العمل، يفسدان على الدولة غايتها ويقودانها إلى شر المصير. وهل صلاح الحياة إلا عقيدة صالحة وعمل صالح؟

وبعد أن بيَّن الهدهد فساد هذه الدولة: عقيدتها وأعمالها، استمر فى بيان العقيدة الصالحة التى يجب أن تعيش عليها الإنسانية أفرادًا وجماعات: ﴿ أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ (٢٥) اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾ [النمل: ٢٥، ٢٦]، ونرى سليمان عليه السلام، وهو رئيس الدولة الأعلى، يعمل لهذه الغاية نفسها، وفق ما يحكيه الله عن الهدهد، فيرسل إلى سبأ بهذا الكتاب الموجز الحكيم، يدعوهم إلى الإسلام لله: ﴿ إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ (٣٠) أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾ [النمل: ٣٠، ٣١]، ويصر سليمان على أن ينزلهم على حكم الإسلام، فيهدد ما يهدد بالقوى المسلحة الجبارة، حتى تقول ملكتهم فى النهاية: ﴿ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ

سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [النمل: ٤٤].

ألا ترى يا أخى أن هذه الدولة الكريمة قد عاشت حقًا عاملة لهذه الغاية الكريمة؟ أوَ لا ترى أن هذه الغاية واضحة جميلة فى النسق التصويرى المحكم الذى ساقها الله عز وجل فيه؟!

٣- إيمان الرئيس الأعلى وعنايته بكل شىء:

والحقيقة الثالثة فى هذه القصة تبين لنا أن من تمام نظام الدولة، أن يكون رئيسها الأعلى عالمًا بغايتها، مؤمنًا بها، عاملاً جهده لها. هذه واحدة، والأخرى أن يكون يقظًا ومتنبهًا، متعهدًا لشئون رعيته صغيرها وكبيرها، حازمًا فى محاسبة المسئولين، فإن لم يكن كذلك انحل التناسق فى قوى الدولة وانفرط عقدها. وهذا كلام لا غبار عليه ولا تردد فى قبوله، فلا نطيل فى الاستشهاد له من كتاب الله، ولنلتمسه مصوراً فى قصتنا أبدع تصوير: ﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ﴾ [النمل: ٢٠]. ألا تراه عليه السلام معنيًا برعيته، يتفقدهم ولا يهملهم؟ والذى يعنى بتفقد الطير لا يفوته أن يتفقد ما هو أهم منه، وذلك استقصاء كامل فى رعاية نواحى الدولة، والعناية بأمرها. ثم ترى يقظته العجيبة، وفطنته الحساسة؛ إذ يفطن إلى غياب هدهد، وسط هذه الألوف بل الملايين من الخلائق المحشورة له، فيقف متسائلاً: ﴿مَا لِيَ لا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ﴾، وهذا مثل أعلى فى يقظة الحس، من العسير إن لم يكن من المستحيل على بشر عادى أن يدركه، ولكنه من الأمور الميسورة لنبى من أنبياء الله، ينظر الأشياء بنور بصيرته الملهمة، لا بنور بصره فقط، وهو على كل حال مثل أعلى فى اليقظة، ينصبه الله عز وجل، ليحتذيه كل من ولى من أمور الناس شيئًا.

وانظر إليه بعد هذا، كيف يهتم بغياب الهدهد، ويسأل عنه، ويتوعده بالعقوبة الصارمة. خبرنى بربك، ما قيمة هدهد فى هذه الجيوش الجرارة؟ ما غناء هذا الهدهد إذا حضر، وما مضرته إذا غاب؟.. هو القائد الحكيم يا أخى، يرى أن لكل شىء رسالة صَغُرَ أو كَبُرَ، ولكل جندى عملاً لا يؤديه غيره، فإذا غاب أو أهمل اختل التناسق فى العمل، وأدركه الاضطراب والخلل، ومن هنا يعظم فى

صدر القائد الحساس ما يقع من جرائم الغياب أو التقصير، فيكون حازمًا فى مؤاخذة أصحابها مؤاخذة تحمل العذاب الشديد، وتمتد إلى عقوبة الإعدام: ﴿لأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ [النمل: ٢١]. وفى المجال قول كثير، وتعليق مستفيض، ولكنا نكتفى بالإشارة إلى أن الله عز وجل اختار لنا من يقظة سليمان هذا المثال، ليعلمنا أن الذى يهتم بصغار الأمور هذا الاهتمام يكون بكبارها أشد رعايةً واهتمامًا، وأن الذى يحاسب الحساب العسير الحازم على ما قد يبدو تافهًا لا يمكن أن يفرط فى المؤاخذة على الأخطاء الجسيمة.

ثم هو لم يأخذ اعتذار الهدهد قضية مسلمة، بل وضعها موضع التحقيق والاختبار فقال: ﴿قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ [النمل: ٢٧].

وأما إيمانه بالغاية، والعمل لها، وعدم الركون إلى غيرها، من مال أو نحوه، فيتجلى لك من أول القصة إلى آخرها، فليس له هدف إلا الله، وتسخير كل شىء لله. وحسبك منه انصرافًا عن كل ما عدا الله أنه سخر برسل بلقيس ملكة سبأ وبهديتهم، وقال هذا القول الذى يصور إعراضه عن المال وتهكمه بأهله أصدق تصوير، فلما جاء سليمان قال متهكمًا: ﴿أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ [النمل: ٣٦، ٣٧]، ولقد روى الله تبارك وتعالى عن صاحب الكهف ما يشبه ذلك: ﴿قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ﴾ من المال ﴿فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾ [الكهف: ٩٤، ٩٥].

٤- إيمان أفراد الشعب برسالة الدولة:

ورابعة ننقلها من هذه القصة، ولا بد من النص عليها: أن كل فرد من الرعية يجب أن يؤمن بغاية الدولة، وأن يجنِّد نفسه لها، وكل ما مضى مما قررناه يصبح عديم الجدوى إذا شذ أفراد الرعية، فاتجهوا إلى غير هذا الاتجاه، وأنت ترى الهدهد يعتز بواجبه، ويقول فى ثقة المؤمن العامل لغايته العليا مخاطبًا سليمان، وهو حاكم الجن والإنس: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّي

وجدتُ امرأةً تملكهم...﴾ إلخ [النمل: ٢٢، ٢٣]. ومن حق خطاب الهدهد بهذه اللهجة العجيبة أن نتأمله وندرسه، لنرى أنه ليس خطاب المهمل المذنب المضطرب، وإنما هو خطاب الذى رضى عن نفسه، واطمأن إلى أداء واجبه؛ فهو لا يعبأ أن يخاطب أعظم مخلوق بلغة الحق القوى، ولو كان هو سليمان حاكم الإنس والجن.

يا أيها الناس، يا أيها الشباب، اعرفوا واجبكم، واسعوا فى صدق إلى غايتكم، فإن أمة لا يساوى رجالها هدهداً لهى أمة من الغثاء والهباء، وإن أمة هدهدها خير من رجال لهى أمة مقعدها فى السماء فوق هامة الجوزاء.

وماذا بعد هذا فى هذه القصة يا أخى؟ فيها أن فساد العقيدة والعمل كما رأيناه فى دولة سبأ لا يخلق إلا رجالاً لا عقول لهم ولا حمية، من هذا الطراز الذى جمعته بلقيس، لتستشيرهم فيما نزل بها من خطب جسيم، فلم يكن عندهم من غَنَاء إلا أن قالوا: ﴿الأمرُ إليكِ فانظرِى ماذا تأمُرينَ﴾ [النمل: ٣٣]، وما جمعتهم لهذا، وإنما جمعتهم لتقول لهم: ﴿ما كنتُ قاطعةً أمرًا حتَّىٰ تشهدُونِ﴾ [النمل: ٣٢]، فلم يسعفوها برأى تستأنس به، وهذا ضرب من الرجال لا تقوم به دولة، ولا تنبته إلا عقيدة زائفة، ونظام من العمل فاسد مضطرب. فالعقيدة العقيدة أيها الإخوان.

نحن فى هذه القصة أمام أربع معانٍ دقيقة خطيرة، لا تقوم دولة عظيمة إلا بها:

(١) قوة وعلم.

(٢) رسالة مجيدة.

(٣) إيمان الرئيس الأعلى وتفقده ـ فى انتباه ـ كل شىء.

(٤) إيمان أفراد الشعب بغايتهم وشدة إخلاصهم لواجبهم.

فخبرنى يا أخى، لو أن قصصيًا من الأفذاذ النوابغ، أراد تصوير هذه المعانى الجليلة، أكان يعرضها عليك فى مثل هذه القوة، وفى مثل هذا الوضوح الذى يفوق ضوء الشمس فى شدة جلائه، أو كان يعرضه عليك فى مثل هذا القدر الوجيز من البيان الرائع المعجز!!

ولسنا بصدد إعجاز القرآن فنحدثك عن إحكام التعبير، ودقة التركيب، وسداد مرامى الإرشادات؛ أو نحدثك عن خلود المعانى والقوانين الصحيحة التى ضمنها

الله هذه القصة، فهو نوع من أسرار الإعجاز، إذ لا يلتفت إلى هذا النظام الكامل للدولة العظيمة بشر.. لا يحيط به إلا الله الذى خلق كل شىء وأحاط بكل شىء علمًا: ﴿ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير﴾ [الملك: ١٤]، وصدق الله العظيم: ﴿قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا﴾ [الإسراء: ٨٨].

أقول: لسنا بصدد شىء من إثبات هذا الإعجاز القرآنى، وإنما بصدد طبيعة القصة، فى عرضها للمعانى الدقيقة عرضًا مصورًا فى حوادث عملية. ونحسب أن قد قمنا فى تحليل هذه القصة بقدر يكفى للإقناع بما قصدنا إليه.

والآن نسوق لك القصة بأكملها فى نسقها الإلهى المعجز؛ قال عز شأنه فى سورة النمل:

﴿ولقد آتينا داود وسليمان علما وقالا الحمد لله الذى فضلنا على كثير من عباده المؤمنين ﴿١٥﴾ وورث سليمان داود وقال يا أيها الناس علمنا منطق الطير وأوتينا من كل شىء إن هذا لهو الفضل المبين ﴿١٦﴾ وحشر لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير فهم يوزعون ﴿١٧﴾ حتى إذا أتوا على واد النمل قالت نملة يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون ﴿١٨﴾ فتبسم ضاحكا من قولها وقال رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت على وعلى والدى وأن أعمل صالحا ترضاه وأدخلنى برحمتك فى عبادك الصالحين ﴿١٩﴾ وتفقد الطير فقال ما لى لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين ﴿٢٠﴾ لأعذبنه عذابا شديدا أو لأذبحنه أو ليأتينى بسلطان مبين ﴿٢١﴾ فمكث غير بعيد فقال أحطت بما لم تحط به وجئتك من سبأ بنبأ يقين ﴿٢٢﴾ إنى وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شىء ولها عرش عظيم ﴿٢٣﴾ وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون ﴿٢٤﴾ ألا يسجدوا لله الذى يخرج الخبء فى السموات والأرض ويعلم ما تخفون وما تعلنون ﴿٢٥﴾ الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم ﴿٢٦﴾ قال سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين ﴿٢٧﴾ اذهب بكتابى هذا فألقه إليهم ثم تول عنهم فانظر ماذا يرجعون ﴿٢٨﴾ قالت يا أيها الملأ إنى ألقى إلى كتاب كريم ﴿٢٩﴾ إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم ﴿٣٠﴾ ألا تعلوا على وأتونى مسلمين ﴿٣١﴾ قالت يا أيها الملأ أفتونى فى أمرى ما كنت قاطعة أمرا حتى تشهدون ﴿٣٢﴾ قالوا نحن أولوا قوة وأولوا بأس شديد والأمر إليك فانظرى

ماذا تأمرين ﴿٣٣﴾ قالت إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون ﴿٣٤﴾ وإني مرسلة إليهم بهدية فناظرة بم يرجع المرسلون ﴿٣٥﴾ فلما جاء سليمان قال أتمدونن بمال فما آتاني الله خير مما آتاكم بل أنتم بهديتكم تفرحون ﴿٣٦﴾ ارجع إليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون ﴿٣٧﴾ قال يا أيها الملأ أيكم يأتيني بعرشها قبل أن يأتوني مسلمين ﴿٣٨﴾ قال عفريت من الجن أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك وإني عليه لقوي أمين ﴿٣٩﴾ قال الذي عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك فلما رآه مستقرا عنده قال هذا من فضل ربي ليبلوني أأشكر أم أكفر ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن ربي غني كريم ﴿٤٠﴾ قال نكروا لها عرشها ننظر أتهتدي أم تكون من الذين لا يهتدون ﴿٤١﴾ فلما جاءت قيل أهكذا عرشك قالت كأنه هو وأوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين ﴿٤٢﴾ وصدها ما كانت تعبد من دون الله إنها كانت من قوم كافرين ﴿٤٣﴾ قيل لها ادخلي الصرح فلما رأته حسبته لجة وكشفت عن ساقيها قال إنه صرح ممرد من قوارير قالت رب إني ظلمت نفسي وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين﴾ [النمل: ١٥ ـ ٤٤].

وأنت ترى فى القصة بعد تلاوتها الآن أن فيها غير ما قدمنا لطائف دقيقة، كالنص على حقيقة الاستعمار، وسوء عاقبته على الذين يحل بهم، فى قوله تعالى: ﴿إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة﴾، وأن هذا ديدنهم فى كل زمان ومكان ﴿وكذلك يفعلون﴾ فلا ينفكون عنه.

وترى فطنة بلقيس وتوقد ذكائها فى إدراكها معنى الاستعمار، كما ترى هذا الذكاء فى تريثها واختبار حقيقة سليمان، فإنها لم تحاول أن ترشوه بالمال وإلا كانت غبية، وإنما حاولت أن تختبر حقيقته، فإن كان ممن يعملون للمال فقد أسكتته الهدية، ورضى بما يدفع له من خراج، وإذا كان من أرباب العقائد والإيمان بما يدعوها إليه فى خطابه، فسوف يرد الهدية ولا يقبل إلا السيف، فإذا تبين لها ذلك كان حقًا عليها ـ وهى العاقلة الذكية ـ أن لا تتردد فى مبايعة هذا المؤمن، فذلك مقتضى الحكمة.

وهو الذى قد كان كما ترى فى القصة، ومحاولة الاختبار تلمحها فى قول بلقيس: ﴿وإني مرسلة إليهم بهدية فناظرة بم يرجع المرسلون﴾، فقولها: ﴿فناظرة بم يرجع المرسلون﴾ يضع يديك على رغبة الاختبار الذى قصدت إليه. وتلمح هذا

الذكاء أيضًا حين عرضوا عليها عرشها، وقد نكَّروه، فغيروا معالمه بالزيادة والنقصان، وقالوا لها: أهكذا عرشك؟ فلم تقل: إنه هو، لأنها تركته وراءها فى بلادها والمسافة بعيدة، ولكنها فى الوقت نفسه لم تقل ليس عرشى لأنها تراه بكثير من معالمه وصفاته، ولم تقل لا أدرى لأنه غباوة وبلادة ذهن، فخرجت من هذا السؤال المحرج بهذه الإجابة الكيسة اللبقة، التى ما كان يصلح للموقف غيرها، فقالت: ﴿ كَأَنَّهُ هُوَ ﴾.

وترى فى القصة غير هذا من اللفتات اللبقة الدقيقة، نتركه آسفين خوف الإطالة والإملال.

فعليك بقصص القرآن يا أخى، وادرس أغراضه ومعانيه، واجعله من وسائلك فى تبليغ دعوتك، فإنه يسعفك بما لا يسعفك به قصص آخر.

• القصص النبوى:

ومن القصص الذى يجب أن تستعين به قصص رسول الله ﷺ، وهو قصص كان يختاره عليه السلام من تاريخ السابقين؛ ليشرح ما يريد من المعانى بالأمثلة الحية الواقعية. وهذا القصص يأتى فى المرتبة بعد قصص القرآن الكريم، ولنسق لك مثلاً منه.

الإيمان بالله وحده، أو العقيدة الصالحة، تحيى وتنتشر بما يأتى:

١ ـ الثبات عليها واحتمال أنواع الأذى فى سبيلها.

٢ ـ التضحية من أجلها بما يملك الإنسان من جاه ومنصب ومال، أو رفض ما يعرض عليه من هذا.

٣ ـ أن يلجأ صاحب العقيدة إلى أنفع الحيل وأجدى الوسائل فى نشر عقيدته وتثبيتها، ولو كلفه هذا تقديم حياته ثمنًا له. هذا معنى جميل، أو قل: إنه حقيقة جميلة من حقائق الحياة التى لا شك فى صدقها. ومن الحقائق الصادقة أيضًا أن الله عز شأنه إذا علم من أوليائه هذا التجرد له، والصدق فى الإيمان به، منحهم من الأسرار ما تجرى لهم به بعض الكرامات بإذنه. هاتان حقيقتان، بل قانونان من القوانين التى يطَّرد عليها نسق الحياة الصحيحة، فمن تحقق بمعانى الولاء فقد

استقام على سنة الله، وكتب الله لرسالته النجاح فى الدنيا، وأسعده بالفوز فى الآخرة. ولكن أترى هذا الكلام يبلغ أعماق القلوب بمجرد تقريره هذا التقرير؟ لا.. لا بد من شىء غير التقرير، يشرحه ويصوره أبين التصوير، ولقد كفانا رسول الله ﷺ مئونة هذا، فاختار لنا من قصص السابقين ما يقرره ويصوره.

روى الإمام مسلم فى صحيحه، أن رسول الله ﷺ قال: «كان ملك فيمن كان قبلكم، وكان له ساحر، فلما كبر قال للملك: إنى قد كبرت، فابعث إلىَّ غلامًا أعلمه السحر، فبعث إليه غلامًا يعلمه، فكان فى طريقه - إذا سلك - راهب، فقعد إليه، وسمع كلامه فأعجبه؛ فكان إذا أتى الساحر مر بالراهب وقعد إليه، فإذا أتى الساحر ضربه، فشكا ذلك إلى الراهب، فقال: إذا خشيتَ الساحر فقل: حبسنى أهلى، وإذا خشيت أهلك فقل: حبسنى الساحر؛ فبينما هو - الغلام - كذلك إذ أتى - مرَّ - على دابة عظيمة - حيوان مخيف - قد حبست الناس، فقال: اليوم أعلم آلساحر أفضل أم الراهب أفضل، فأخذ حجرًا فقال: اللهم إن كان أمر الراهب أحب إليك من أمر الساحر فاقتل هذه الدابة حتى يمضى الناس، فرماها فقتلها ومضى الناس، فأتى الراهبَ فأخبره، فقال له الراهب: أى بنى، أنت اليوم أفضل منى، قد بلغ من أمرك ما أرى، وإنك ستبتلى، فإن ابتُليت فلا تدل علىَّ، وكان الغلام يبرئ الأكمه والأبرص، ويداوى الناس من سائر الأدواء؛ فسمع جليس للملك كان قد عمى، فأتاه بهدايا كثيرة، فقال: ما ههنا لك أجمع إن أنت شفيتنى، فقال: إنى لا أشفى أحدًا، إنما يشفى الله» - وهذا منتهى اعتراف المرء بعجزه وإقراره بفضل الله القادر على كل شىء، وهو من مستلزمات الإيمان بالله، ثم قال الغلام الذى لا يبغى مالاً: - «فإن أنت آمنت بالله دعوتُ الله فشفاك؛ فآمن بالله فشفاه الله، فأتى الملك، فجلس إليه كما كان يجلس، فقال له الملك: من ردّ عليك بصرك؟ قال: ربى. قال: ولك رب غيرى؟ قال: ربى وربك الله، فأخذه فلم يزل يعذبه حتى دلّ على الغلام، فجىء بالغلام، فقاله له الملك: أى بنى قد بلغ من سحرك ما تبرئ الأكمه والأبرص، وتفعل وتفعل؟ قال: إنى لا أشفى أحدًا، إنما يشفى الله، فأخذه فلم يزل يعذبه حتى دل على الراهب، فجىء

بالراهب، فقيل له: ارجع عن دينك، فأبى، فدعا بالمنشار فوضع المنشار فى مفرق رأسه، فشقه حتى وقع شقاه» - وهذا ثبات على العقيدة، واحتمال لأشد أنواع الأذى فى سبيلها - «ثم جىء بجليس الملك، فقيل له: ارجع عن دينك، فأبى، فوضع المنشار فى مفرق رأسه، فشقه حتى وقع شقاه» - وهذا، علاوة على ما تقدم، تضحية بجاه المجالسة الملكية، وما إلى المجالسة من مال ونحوه فى سبيل العقيدة - «ثم جىء بالغلام فقيل له: ارجع عن دينك، فأبى، فدفعه إلى نفر من أصحابه فقال: اذهبوا به إلى جبل كذا وكذا فاصعدوا به الجبل، فإذا بلغتم ذروته، فإن رجع عن دينه وإلا فاطرحوه، فذهبوا به، فصعدوا الجبل، فقال: اللهم اكفنيهم بما شئت، فرجف بهم الجبل فسقطوا» - وهذا من كرامة أولياء الله عليه - «وجاء يمشى إلى الملك، فقال له الملك: ما فعل أصحابك؟ قال: كفانيهم الله. فدفعه إلى نفر من أصحابه، فقال: اذهبوا به فاحملوه فى قرقور - سفينة صغيرة أو كبيرة - فتوسطوا به البحر، فإن رجع عن دينه وإلا فاقذفوه، فذهبوا به، فقال: اللهم اكفنيهم بما شئت؛ فانكفأت بهم السفينة فغرقوا» - وهذا من الكرامات أيضًا - «وجاء يمشى إلى الملك، فقال له الملك: ما فعل أصحابك؟ قال: كفانيهم الله».

وهنا فتح الله للشاب باب حيلة، أو وسيلة جميلة؛ ليبلِّغ بها الناسَ جميعًا دعوة الإيمان، ويجعلهم يتحولون عن شركهم وعقيدتهم الفاسدة، نعم هى حيلة فيها هلاكه المحقق، ولكنه يرى أن سعادته أن ينشر عقيدته بالوسائل الناجعة، بل يرى أن حياته الحقيقية وسعادته الكاملة أن يتطوع، فيقدم نفسه للقتل، ما دام يثق أن من وراء ذلك حياة العقيدة، فانظر ماذا قال الشاب للملك: «إنك لست بقاتلى حتى تفعل ما آمرك به، قال: وما هو؟ قال: تجمع الناس فى صعيد واحد، وتصلبنى على جذع، ثم خذ سهمًا من كنانتى، ثم ضع السهم فى كبد القوس، ثم قل: باسم الله رب الغلام، ثم ارمنى، فإنك إذا فعلت ذلك قتلتنى». هذه هى الوسيلة، فقد أراد الغلام أن يعرض على الناس مشهدًا من مشاهد الإيمان بالله، من مشاهد قدرة الله الذى باسمه يستطيع الملك أن يقتل هذا الغلام العجيب، الذى لم تفلح الوسائل فى قتله، فإذا رأى الناس هذه القدرة عرفوا أن رب الغلام الذى

آمن به هو الرب الذى لا إله غيره. وقد تحقق ما أراد الغلام؛ فإن الملك الغبى الحقود لم يفطن إلى أن جمع الناس ليشهدوا قتل الغلام ليس فى مصلحته «فجمع الناس فى صعيد واحد، وصلبه على جذع، ثم أخذ سهمًا من كنانته، ثم وضع السهم فى كبد القوس، ثم قال: باسم الله رب الغلام، ثم رماه، فوقع السهم فى صدغه، فوضع يده فى صدغه فى موضع السهم، فمات، فقال الناس: آمنا برب الغلام. فأتى الملك، فقيل له: أرأيت ما كنت تحذر؟ قد والله نزل بك حذرك، قد آمن الناس. فأمر بأخدود فى أفواه السكك فخُدَّت، وأضرم النيران، وقال: من لم يرجع عن دينه، فأحموه فيها، أو قيل له: اقتحم، ففعلوا، حتى جاءت امرأة ومعها صبى، فتقاعست أن تقع فيها، فقال لها الغلام: يا أمه، اصبرى فإنك على الحق».

وبعد: أفرأيت هذا الاختيار النبوى لهذه القصة القوية التى صورت ما نحن بصدده من الفضائل أروع تصوير، وأثرت به فى الضمائر أبلغ تأثير؟

إذن ليكن القصص من أساليبك التى تلجأ إليها فى شرح وتثبيت تعاليمك، بل وبعث الناس على التحقق بها عمليًا، فإن القصص ـ كما رأيت ـ من سنة الله فى كتابه، ومن سنة رسوله ﷺ.

• قصص مخترع:

ولقد فطن السابقون إلى هذه السنة القصصية، فوعظوا بقصص القرآن، وقصص رسول الله، واخترعوا قصصًا من ابتداعهم، إدراكًا للغاية التى ينشدونها وهى جمع الناس على الإيمان بالله، والدار الآخرة.

ونحن نسوق إليك مثلاً من هذا القصص الموضوع، ليكون نموذجًا لك تحتذيه، إذا كنت ممن يستطيعون ابتكار القصص، أو تجمع ما يشبهه.

الرجل يعمل العمل لا يبتغى به إلا وجه الله عز وجل، فيمده الله من حوله وقوته بما يغلب به كل ما يعترضه، والآخر يعمل العمل رياء الناس، أو سعيًا لمال، أو منفعة مادية، فلا يكون له من الله مدد، إذ يتخلى الله عنه، ويكله إلى نفسه، فيكون مُغلبًا غير غالب.

وهذا قانون من قوانين الله عز وجل، إذا عمل بمقتضاه جند الله، فهم الغالبون لا محالة، ولو قامت ضدهم كل قوة فى الأرض، ولكن كيف يتصور العقل هذا المعنى؟ وكيف ينبض له القلب، إذا لم يكن له صورة ترينا مكانه فى حياة الناس؟ لقد وضعوا له قصة فقالوا:

كان فى قرية من قرى بنى إسرائيل شاب صالح عابد، وكان فى القرية شجرة قديمة، أوهمهم الشيطان أنها مباركة، تمتاز بأسرار وعجائب. ففتنوا بها، وأخذوا يتقربون إليها، ويمنحونها من التعظيم والتقديس ما حقه أن يكون لله تبارك وتعالى. فغضب الشاب لهذا الشرك، وعزم أن يقطع الشجرة، فيخلص الناس من شر الشيطان الذى يقودهم إلى النار، فأخذ عدته ومضى، وبينما هو فى الطريق، عرض له الشيطان، فقال له: إلى أين أيها الشاب؟ قال: إلى هذه الشجرة، قال: وما حاجتك بها؟ قال: أقطعها، قال: ولم؟ قال: لأن الناس فتنوا بها، وعبدوها من دون الله - والشاب هنا صادق النية فى العمل لوجه الله لا يبتغى شيئًا لنفسه - فقال الشيطان: لا، لن تستطيع الوصول إليها، وإنى أمنعك من هذا، وأمسك بتلابيب الشاب؛ فغضب الشاب، وأمسك الشيطان، ورفعه بين يديه كما ترفع الريشة، وطرحه على الأرض، وبرك على صدره، وضيق عليه الخناق، حتى احتبست أنفاسه، وكادت روحه تزهق، فأخذ الشيطان يستعطف الشاب، ويتلطف إليه بالكلام اللين، ويعتذر، ويرجوه أن يعفو عنه، ويغفر له خطأه، وظل يتوسل ويتذلل، حتى رق له الشاب وخلَّى سبيله. وهنا أخذ الشيطان يتودد إلى الشاب ويقول له: يا سيدى ما كان قصدى أن أمنعك عن قطع هذه الشجرة، وإنما كنت أريد أن تتركها يومًا أو يومين، لأن لى مأربًا فيها، فإذا قضيت مآربى منها لا يهمنى بعد ذلك أبقيت أو قطعت، وأنت الآن وشأنك بها، إن شئت قطعتها، وإن شئت أبقيتها، إنك أحسنت إلىَّ فعفوت عنى، ورددت علىَّ حياتى، ووهبت لى عمرى من جديد، فإذا رأيت أن تضاعف منتك وفضلك علىَّ، فاترك لى هذه الشجرة يومًا أو أكثر حتى تنتهى حاجتى إليها، ولك إن فعلت ذلك أن أعطيك ديناراً عن كل يوم، وما زال الشيطان يدخل على الشاب بهذه المداخل اللينة، حتى مال إلى إبقاء الشجرة، وقال فى نفسه: وماذا علىَّ لو تركتها بضعة أيام، لآخذ

بضعة دنانير، ثم أقطعها؟ واتفق الشاب مع الشيطان على إبقائها بضعة أيام نظير دينار عن كل يوم، ومضى كل إلى شأنه. وفى اليوم التالى جاء رسول الشيطان، ودق الباب، وأعطى الشاب ـ وكان فقيراً ـ ديناراً، ففرح به، وأنفق منه على نفسه وأمه، واشترى لحمًا، وسمنًا، وخبزًا، وفاكهة. وفى اليوم الثانى جاء الرسول بالدينار الثانى، فاشترى كسوة لنفسه ولأمه. وتوالت الأيام وتوالت الدنانير، وركن الشاب إلى النعيم المادى، وأغضى عن الشجرة التى تعبد من دون الله.

وفى يوم من الأيام انقطع الرسول، وانقطع الدينار، فأخذ الشاب ينتظر طول نهاره، فلم يجده الانتظار شيئًا، فقال فى نفسه: لعل صاحبى فى سفر، أو لعله فى شىء ألهاه عنى. ثم ترقب الدينار فى اليوم التالى، فلم يجئ الرسول، ومضى اليوم الثالث والرابع، كل ذلك والشاب يلتمس المعاذير لصاحبه، ويعلل نفسه بالأباطيل، حتى مل الانتظار، ويئس من زيارة الدرهم والدينار.

وهنا فقط ذكر أمر الشجرة، وقام يقطعها نكاية بصاحبه الذى قطع عنه راتبه العزيز؛ فأخذ عدته ومضى إليها، فقابله صاحبه، فقال له: إلى أين أيها الشاب؟ قال: إلى هذه الشجرة التى يعبدها الناس من دون الله فأقطعها؛ لأنك قطعت عنى الدينار اليومى ـ هنا تجد الشاب قد تغيرت نيته ووجهته، وأصبح يعمل لا غضبًا لله، ولكن غضبًا للدينار ـ فقال الشيطان: هيهات هيهات، لن تصل إليها وسأمنعك، وأمسك بتلابيب الشاب، فأمسك الشاب بالشيطان، وحاول أن يرفعه كما رفعه بالأمس القريب، فأحس أنه أثقل من جبل، فرفعه الشيطان بين يديه كما ترفع الريشة، وطرحه على الأرض، وبرك على صدره، وضيق عليه الخناق، حتى احتبست أنفاسه، وكادت روحه تزهق، فأخذ يستعطف الشيطان ويتلطف إليه بالكلام اللين، ويعتذر، ويرجوه أن يعفو عنه، ويغفر له خطأه، وظل يتوسل ويتذلل، ويعطى على نفسه العهود والمواثيق أنه لن يعود إلى قطعها أبدًا. وقبل الشيطان تذلله وتضرعه وعهده أن لن يعود إلى قطعها؛ ولكنه أبى أن يتركه إلا بعد أن قبل شيئًا آخر، هو أن يفعل للشجرة مثل ما يفعل سائر الناس لها؛ من الكفر عن طيب خاطر.

فلما خلَّى عنه، جعل الشاب يشكره، لأنه رد عليه حياته، ثم سأله: إنى

لأعجب لأمر غريب، لقد كنتَ فى يدى كالريشة بالأمس فغلبتك، أما اليوم فقد كنت أثقل علىَّ من جبل، وكنتُ فى يدك كالريشة، فما سر هذا؟ فقال الشيطان للشاب: لقد كنت بالأمس غاضبًا لله عز وجل، فوهب لك الله هذه القوة الجبارة التى صرعتنى بها، وأنا الذى أصرع الجبابرة، أما اليوم فأنت غاضب للدينار، فسلبك الله قوته وتخلى عنك، ووكلك إلى الدينار، وليس للدينار حول ولا قوة يمدك بها، فغلبتك، فخجل الشاب ونكس رأسه.

أيها الأخ: لقد وجدتَ القرآن يدعو إلى الله، ويسوق من القصص ما يتضمن تعاليم هذه الدعوة، ووجدت الرسول العظيم صلوات الله عليه وسلامه يفعل ذلك، ووجدت السلف الصالح ينهجون هذا النهج فى تصوير التعاليم تصويراً قصصيًا، فعليك بهذا واستمسك به، فإنك تأخذ بسبب من النجاح إن شاء الله.

ثانيًا: ضرب الأمثال

المثَل قول واضح، موجز، حكيم، ينتصب صدقه فى العقول، فيألفه الناس ويجرى بينهم، ويشيع فى أحاديثهم.

والناس من قديم الزمان يجدون فى طبائعهم الميل إلى الاستشهاد بالمثل، فقد يكون أحدهم بصدد حال يحكيها أو يسمعها، فيحضره مثل يشابهها فى المعنى فيستشهد به، لا لأن الكلام يزيد به صدقًا، بل لأن النفس تستأنس بالمثل، ويلتمع فى جوانبها ضوء من وضوحه، وجمال حكمته، فما أسرع ما تنفرج جوانب النفس عن ثغرة يتعانق فيها معنى المثل القديم ومعنى الحديث الجديد، ثم تنطبق عليهما فى تزاوج ووئام، فإذا بالحال التى كانت تحكى قد استقرت لدى السامعين فى رضًى وقبول واطمئنان، ويسمَّى هذا بضرب المثل.

ونحن نوصيك - أيها الأخ - أن تحرص على ضرب المثل فى الاستئناس لدعوتك. نوصيك أن تستكثر من أمثال العامة وغيرهم، وأن تجعلها فى يدك مفاتيح صدق تفتح بها مغاليق النفوس أو ثغراتها المنورة، أرأيت لو تحدثت إلى الناس أن يقبلوا على الله فى رفق لا شدة فيه، فيأتون من أمره عز وجل ما استطاعوا دون أن يشقوا على أنفسهم بالغلو والإفراط؛ وأخبرتهم أن هذا هو

المنهج الطبعى المأمون الذى يبلغون عليه غايتهم، فإن الغلو فى صيام النفل - مثلاً - وهجر ما أحل الله للمؤمنين من طيبات، والمبالغة فى إحياء الليل بالصلاة والاستغفار والضراعة، هذا وغيره قد يورث النفس مللاً فتنتكس، وتصد عن الله؛ أو قد يصيب الإنسان من هذه الشدة مرض يوهن جسمه، ويعكر عليه صفوه، فيقطعه عن العبادة، ويحرمه أن يجد لذتها. أما الاعتدال والتوسط فى الأمر، فهو النمط الذى لا ملل معه ولا انقطاع. أقول: أرأيت لو تحدثت إلى الناس بهذا، ماذا يكون سرور العامة حين تستأنس بالمثل الذى يجرى على ألسنتهم: «كشكار دايم ولا علامة مقطوعة»؟ والكشكار: هو النخالة أو السن الخشن، والعلامة: هى الدقيق المصفى، ومعنى هذا أن السن الخشن الذى يجىء باستمرار خير للمرء من الدقيق المصفَّى، الذى يأتى مرة أو مرتين ثم ينقطع. وهذا مثل يُضرب فى تفضيل القليل الدائم على الكثير المنقطع. وأنت إذ تضرب هذا المثل، تشبه العبادة اليسيرة التى يستمر عليها الإنسان فى غير كلفة بالكشكار، وتشبه العبادة المفرطة فى الغلو التى لا يلبث صاحبها أن ينقطع عنها بالعلامة المقطوعة.

• ضرب المثل حركة تجديد وتنشيط:

فضرب المثل إنما هو تشبيه حالة ما بأقرب الأمثال شبهًا بها وأكثرها مماثلة لها، وهو تشبيه يحدث فى النفس حركة التفات بارعة، يلتفت بها المرء من الكلام الجديد إلى صورة المثل المأنوس؛ فيلمح ما بينهما من التشابه أو التطابق، فلا يلبث أن يتلقى الأمر الجديد بمزيد من القبول والارتياح، ويجرى ذلك كله فى أقل من لمح البصر. وهذه الحركة النفسية البارعة لها ما لسائر الحركات من تجديد وتنبيه وتنشيط، علاوة على أن المثل يمتاز بخلابته ورشاقة موقعه فى النفس وطرافته التى تتجدد ولا تبلى، مما ترى أثره يبرق فى وجوه السامعين ونظراتهم وثغورهم، أو على الأقل مما يشعر السامعين بأن سرائرهم تبتسم له وتهش.

قال ابن المقفع: «إذا جعل الكلام مثلاً كان أوضح للمنطق، وآنق للسمع، وأوسع لشعوب الحديث». وقال إبراهيم النظَّام: «يجتمع فى المثل أربعة لا تجتمع فى غيره من الكلام: إيجاز اللفظ، وإصابة المعنى، وحسن التشبيه، وجودة الكناية».

هذا الشأن للمثل أيها الأخ هو الذى يحملنا على أن نوصى الداعية به، بل هو ما يجعلنا نراه ضروريًا للداعية الجاد الغيور، الذى يريد أن يمهد لدعوته سبيلها إلى النفوس، وأن يفرش لها هذه السبيل بالأزهار والرياحين.

• ألوان من ضرب الأمثال:

١ ـ وقد ذكر صاحب العقد الفريد فى طائفة الأمثال المروية عن أكثم بن صيفى: «لكلِّ نبأٍ مُستقر» فإذا صح ذلك، فهو ـ إذًا ـ مَثَل ساقه الله فى القرآن الكريم. قال أحد الإخوان: أيكون الكلام الجاهلى قرآنًا؟ فقال له صاحبه: هذا مثل، والمثل حكمة، والحكمة ضالة المؤمن أنَّى وجدها فهو أحق الناس بها، ولا يضير الحكمة أن يجريها الله على لسان حكيم جاهلى، وقد ينطق الله بعض عباده بعبارات مما ادخرها لبعض أنبيائه، ثم يأتى بها الوحى على ما نطقت به من قبل.

وقد كان رسول الله ﷺ يورد الأمثال المروية فى حديثه مع الناس ولا يرى بذلك بأسًا.

٢ ـ وقد اجتمعت ميزات المثل فى بعض عبارات القرآن الكريم، وأحاديث رسول الله ﷺ، فجرت بذلك على الألسنة، وزادت بها ثروة الأمثال وشرفت، مثل قوله عز وجل: ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٣]، وقوله: ﴿بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا﴾ [يوسف: ٦٥]، وقوله: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ﴾ [فصلت: ٤٦].

وقد أورد السيوطى فى الإتقان طائفة كثيرة من العبارات القرآنية التى جرت أمثالاً بين الناس، فليطلبها هناك من يشاء.

ومن العبارات النبوية التى صارت أمثالاً: قوله ﷺ: «لا يُلدغ المؤمن من جُحر مرتين»، و «إن المنبتَّ لا أرضًا قطع ولا ظهرًا أبقى» ومعناه أن المسافر الذى يغذ السير بما فوق طاقة دابته، قد يهلك دابته من العنف، فينبتّ ـ ينقطع ـ فى الطريق، فيخسر خسارتين، فلا هو قطع المسافة، ولا هو أبقى على دابته، وقد قاله عليه الصلاة والسلام لرجل اجتهد فى العبادة حتى غارت عيناه.

٣ ـ ومن ضرب الأمثال: أن تشبه أمرًا دقيقًا خفيًا أو به بعض الخفاء بأمر حسى مما يعهده الناس فى حياتهم اليومية، وهذا النوع ورد بكثرة عظيمة فى القرآن

الكريم، وسنة رسول الله ﷺ.

فمما ورد في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا﴾ [الرعد: ١٧].

هذه صورة من الصور التى تجرى تحت سمع الناس وبصرهم.. الماء ينزل من السماء، فيسيل فى أودية الأرض، فيجرى فى كل منها بقدر، فيطفو على وجه السيل زبد كثير. ولكن ما المراد بهذه الصورة؟ إن الله عز وجل لا يريد ظاهر معناها، فإنه يذكر فى آخر الآية: ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ... كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ﴾ [الرعد: ١٧]، فما مضرب المثل هنا؟

جاء فى الصحيحين عن رسول الله ﷺ: مَثَلُ ما بعثنى الله به من الهدى والعلم، كمثل غيث أصاب أرضًا، فكان منها طائفة... إلخ. ورسول الله ﷺ أحق من نأخذ عنه تفسير القرآن العظيم، وهو فى هذا الحديث يشبه ما نزل به الوحى من الهدى والعلم بالمطر.

ولنا على ضوء هذا التفسير النبوى أن نرى الآية القرآنية أو المثل القرآنى الذى نحن بصدده، مؤلفًا من العناصر الأربعة الآتية:

١ ـ قد جاءنا من الله علم وهدى، مثله كمثل الغيث المبارك.

٢ ـ والذين جاءهم هذا الهدى والعلم كالأرض التى ينزل عليها الغيث.

٣ ـ وهذا الهدى الإلهى يجرى فى بواطن أهله وأعماق قلوبهم، كما يجرى الغيث فى أعماق الأرض وأوديتها، وقلوب الناس تقبل من هدى الله وعلمه بحسب طبيعتها من الضيق والسعة، كما يقبل كل وادٍ من أودية الأرض قدراً من الغيث، يناسب سعته أو ضيقه.

٤ ـ وكل ما مضى ليس هو لب العبرة فى المثل، إنما لب العبرة ما ذكره الله سبحانه فى قوله: ﴿فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا﴾، والزبد رغوة لينة ذات فقاقيع تظهر على وجه الماء، ثم لا تلبث أن تذهب جفاء تاركة تحتها الماء الصريح النافع. وذلك تمثيل لحال الحق والباطل: فالباطل فى تفاهته وسرعة زواله كرغوة الزبد، والحق فى أصالة وجوده وعموم نفعه كالماء الذى لا حياة للوادى بدونه: ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَٰلِكَ

يضرب الله الأمثال﴾ [الرعد: ١٧].

هذه عناصر المثل، ولك أن تتوسع فى الشرح بما لا يخرج عن أصول هذه العناصر فتقول:

١ - إن الله عز شأنه لما أنزل من السماء ماء، فجعل منه كل شىء حى فى عالم المادة، اقتضت حكمته أن ينزل للأحياء الروحية ما به حياتها وغذاؤها، وكل إنسان يا أخى يتألف من جسم ظاهر وسر باطن، فما كان من الحكمة، واطراد نظام الخليقة، أن ينزل الله للأجسام ما به تحيى وتغتذى، ثم يهمل شأن الروح الذى هو كل شىء فى هذا الكائن الحى، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً. وهذا القول الذى تقبله البدائه، وتسيغه العقول يبدد شبهات الملاحدة الذين ينكرون النبوات، ولا يتصورون نزول الرسالات من السماء.

وهذا الذى أنزله الله للقلوب والأرواح، مقابل الماء الذى أنزله للأبدان، هو الوحى الذى أنزله على رسله من لدن آدم أبى البشر، إلى خاتمهم وإمامهم سيدنا محمد ﷺ، وهذا الوحى روح القلوب، وسر حياتها، فإذا لبسها، وتسرب فيها، حييت واستنارت وأشرقت، وأدى لها ما يؤدى الماء للأجسام. وقد أشار الله عز وجل إلى ذلك بقوله الكريم: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَنْ نَّشَاءُ﴾ [الشورى: ٥٢].

وقد يبدو فى هذا الكلام كثير من الغموض، فإنا نرى الماء بأعيننا، ونعرف بالتجربة والمشاهدة أثره فى حياة الإنسان والحيوان والنبات. أما هذا الذى أنزله الله لحياة القلوب والأرواح فما هو؟.. إننا لا نستطيع أن نراه بأعيننا، ولا أن نلمسه بأيدينا، وهذا ما يعجزنا أن نتصور له صورة ما، أو كيفية ما.

ونحن إذ نقرر هذا الغموض لا نحاول أن نعرض له بما يجلوه، فليس ذلك فى طوق بشر، وقد رأيت أن الله سبحانه أسماه روحًا فى قوله: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾، ولا سبيل إلى الكشف عن حقيقة الروح مرسلة فى أجسام الكائنات، أو مضمرة فيما أنزل الله من وحى على رسوله ﷺ. ولهذا الغموض نفسه ضرب الله هذا المثل، وعرض ذلك السر علينا ممثلاً فى صورة ما ندركه بحواسنا من الأرض والمطر والنبات والثمر، ولو كانت حواسنا ومداركنا العادية

تسمو إلى شيء من ذلك لأشار الله تعالى إليه، أو لعرضه علينا عرضًا عاديًا لا مجاز في ألفاظه ولا تمثيل.

ليس هذا السر يا أخي هو الكلام الذي تقرؤه في المصحف الكريم، وإنما هو الروح المستكن في ذلك الكلام.

٢ ـ هذا مجمل ما يقال عن العنصر الأول من عناصر هذا المثل، ويمكن أن يقال في العنصر الثاني:

إن حياة النفوس في هدى الله عز وجل، ولا حياة لها بغيره، كما أن حياة الأرض فيما أنزل الله لها من الماء، ومحال أن تجد الأرض ريًا تحيى به في غير هذا الماء.. لا تجده في ذهب ولا في فضة، ولا هواء ولا نار، ولا غير ذلك، إنما تجده في الماء فقط. فالذين يطلبون أن تحيى نفوسهم بغير ما أنزل الله، من مدنيات زائفة، أو علوم خالية من الروح، أو يظنونها تحيى بكثرة ما يجمعون من عرض الدنيا ومتاعها، إنما يضربون في الوهم، بل يخبطون في أودية الموت، إذ لا موت إلا فيما يطلبون، ولا حياة إلا فيما يعرضون عنه: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٢].

وسوف يظل هؤلاء التعساء أمواتًا غير أحياء، ما داموا بعيدين عن مصدر الحياة الحق، كما تظل الأرض الميتة ميتة، إلى أن تمسها رحمة الله بالغيث المبارك فتهتز وتربو، ويشيع في ظاهرها وباطنها بركات الحياة وأسرارها.

والله عز وجل ينادينا نحن الغافلين: ﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الحديد: ١٧]، وما يقصد الله إلا أرض القلوب والنفوس، فإنه عز وجل يذكر قبل ذلك مباشرة: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ (١٦) اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا...﴾ إلخ [الحديد: ١٦، ١٧].

ونستطيع أن نمضي في الاستشهاد لهذا المعنى بالكثير من آيات القرآن الكريم التي وردت في إحياء الأرض بالمطر بعد موتها، وهي آيات مسبوقة أو ملحوقة بما يشير إلى حياة النفوس، وزكاة القلوب، ولكنا نخشى الإطالة بهذا الاستشهاد.

وليست هذه الحياة طاقة حيوانية، تسرى فى الأعضاء والأوصال، فيتحرك بها المرء كما يتحرك كل حيوان!.. وإنما الحياة التى نعنيها طاقة روحية تسرى إلى كائن روحى فى سرائرنا غير منظور.

وهذه الطاقة لا تتعلق بالطعام والشراب تعلق الطاقة الحيوانية، وإنما هى سيالات خفية مستكنة فيما أنزل الله من وحى ورسالة؛ فإذا سرى شىء من تلك السيالات العلوية إلى هذا الكائن اهتز وخفق، وانتعش، وحلَّت به الحياة، وإلا فهو حطام هامد لا حياة فيه، مهما يبدُ على هيئة صاحبه من نضارة وقوة.

وهنا نحب أن نتساءل: ما علاقة تلك الحياة إذا سرت فى هذا الكائن الروحى؟.. إن للماء حين يختلط بالأرض ويمشى فى أديمها سر الحياة أثرًا مشاهدًا ملموسًا نعرفه فى الزرع والزهر والثمر؛ أفما لهذه الحياة التى نتحدث عنها من علامة تعرف بها؟

نعم لها علامات وردت فى القرآن الكريم، وأحاديث رسول الله ﷺ، وهى عبارة عن مجموعة كريمة من المشاعر والوجدانات لم تكن له من قبل، وإنما نسوق إليك طرفًا قليلاً منها على سبيل المثال لا الحصر:

١ ـ أن يشعر بغبطة ورضى عن حظه فى الحياة.. فليس للكم القليل أو الكثير حساب فى غبطته ورضاه؛ إنما هو سر نبع فى وجدانه من عالم غير عالم الكميات التى يحصرها الحيز، أو يحصيها العد، أو يقدرها الكيل والميزان، فهو سعيد مغتبط لغير سبب من أسبابنا المنظورة.

٢ ـ أن يشعر بيسر ما يُلقى عليه من أعباء الحياة، وخفة ما يزاول من عمل: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٤]؛ لأنه لا يعمل فى تلك الأعباء بطاقته الحيوانية وحدها، بل بمدد من الطاقة الروحية التى حلَّت فى كيانه كذلك.

٣ ـ أن تتلاشى فى نظره الفوارق الاجتماعية الناشئة من تفاوت الناس فى المال، والمنصب، والمهنة، والمولد، ونحوها؛ وتتراءى أقدار الجميع له متكافئة فى وحدة تسوّى بينهم فى الحقوق والواجبات الاجتماعية.

٤ ـ يحل فى نفسه شعور ببغض الرذيلة فى أى صورة من صورها، وازدراء

أهلها أيًا كانوا، وحب الفضيلة فى كل صورها وألوانها والارتياح إلى أهلها حيثما وجدوا.

٥ ـ لكل إنسان نفس تجيش بمختلف الرغبات، والأهواء، والشهوات، نحو المآكل، والملابس، والمشارب، وفخامة المنازل، وأناقة الفراش، والأثاث، وألوان الترف، والرواء، وعزة المناصب، والجاه، والمال، والأبناء والزوجات والعشيرة، ونحوها؛ وإليه وردت الإشارة فى القرآن الكريم بقوله سبحانه: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾ [آل عمران:١٤]. هذه الميول والأهواء، وتلك الرغبات والشهوات، ماذا يكون شعور المرء نحوها إذا حل فيه سر الحياة التى تتحدث عنها؟ إنه يشعر نحوها بحالة تشبه «الشبع»، فإذا التمس حظه من طعام أو شراب التمسه فى غير نَهَمٍ ولا شَرَهٍ، التمسه وهو يبغى لبدنه ما يقيمه ويقيته، دون سعى إلى لذة، أو قصد إلى شهوة. وإذا لبس، لبس ما حضر وما تيسر أداء لحق البدن، دون تأثر بما تطمح إليه النفس من تلفت الناس إلى زينته، وإذا عرض له لون من ألوان الشهوات التى أشار إليها الله سبحانه فى الآية الكريمة أو نحوها، وجدت وجدانه مشغولاً بحالة تشبه «الشبع»؛ سمِّها الزهد، أو سمها عزوف الهمة عنه، أو سمها ما شئت بحيث لا يغيب عن ذهنك أنها حالة تشبه الشبع تعترى الوجدان؛ لأن واردات الحياة التى حلت فى كيانه الروحى أتت له بألوان من الأذواق، والطرب، والنعيم، واللذة، انطفأت إلى جانبها ورخصت كل متع الحياة الحيوانية وأهوائها ورغباتها الصغيرة الدنيا، وأصبح الوجدان مشغولاً بالوارد العميق الجميل الذى لا ينقطع له مدد من عالم الخفاء؛ وفى هذا الوارد أو نحوه كان يقول الإمام ابن تيمية: «إنه ليمر بى أوقات يرقص فيها القلب من الطرب، فأقول: لو أن أهل الجنة فى مثل ما أنا فيه إنهم إذًا لفى عيش طيب».

٦ ـ تحدثنا إليك بخمسة من هذه الواردات التى يجدها المرء فى نفسه حين يحل سر الحياة الإلهية فى كيانه الروحى، ونستطيع أن نقول: إن من أظهر علامات تلك الحياة أن ترى صاحبها فى سيرته العامة والخاصة مفسرًا لهذه المشاعر تفسيرًا عمليًا واقعيًا، يخرجها من حيز السر المختلج فى الضمير إلى حيز الأوضاع المقررة،

والأمور المشاهدة، والمعاملات الجارية، تفسيراً يلبسها حللاً من الواقع، ويرسلها مثلاً عليا ذات كيان يعترك فى الحياة، ويترك آثاره العميقة فى مختلف النفوس وهو فى كل ذلك لا ينافق ولا يرائى، أو لا يستطيع أن ينافق أو يرائى، لأنه منفعل بسر وجدانى يسخره وينهضه، فلا يستطيع معه إلا أن ينهض وأن يعمل، راضياً به كل الرضى، سعيداً به غاية السعادة.

ليست الحياة على هذا صراعًا على حطام الدنيا يجرى بين شياطين البشر؛ لا، وليست شهوة حسية تحرك تلك التماثيل الآدمية الفارغة هنا وهناك، فيصدم بعضها بعضًا ويبغى بعضها على بعض، وليست هى تلك الجثث التافهة التى تلبس الحرير والصوف الأنيق وتقذف فى أفواهها الطعام والشراب، إنما الحياة حياة النفوس النامية، والمشاعر الكريمة التى تربو بإذن الله، أو هى حياة هذا الكائن الخفى الذى يحيى وينمو ويعظم فى خفايا النفوس، دون أن تراه العيون، وهذا الكائن الحى هو كل شىء فى حياة الأفراد والأمم، فهو معدن العلم فى الإنسان، ومقر الحياة والقوة، ومبعث الكرامة والحرية والعزة، ومصدر كل خلق نبيل كريم، ولا حياة لهذا الكائن إلا بما أنزل الله من الهدى والعلم.

هذا الكائن الحى الباطنى المبارك هو الزرع الطيب الذى ينبت فى أرض بشريتنا، ويسقيه ما أنزل الله من أسرار الحياة فى القرآن الكريم، وهذا الكائن الحى هو الذى نبت قديمًا برعاية رسول الله ﷺ فى بشرية الصحابة، حين سقيت وهى ميتة بوحى الله العظيم، فاهتزت وربت وأنبتت هذا الزرع الباطنى، وما زال يكبر، ويغلظ، ويشتد، ويعلو، حتى قوى أمره، وطاب أكله وثمره، فوصفهم الله عز وجل: ﴿كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ﴾ وما ثمرة ذلك؟ ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾ [الفتح: ٢٩].

هذه هى الحياة - يا أخى - لا حياة أوربا وأمريكا التى يشتهيها الجهلة فى كل مكان.

إن هذه البلاد الطاغية الكافرة، ليس فيها فى الحقيقة أناس، إنما فيها مردة من الشياطين، يسكنون هذه الأجواف الفارغة من أجواف الآدميين، فالصورة صورة

إنسان، والجوف يقبع فيه شيطان يحركه بالشر وللشر فى كل وادٍ، فتراهم مخربين مدمرين؛ لا يبنون إلا ليهدموا، ولا يخترعون إلا ليهلكوا، ولا يعدّون إلا ليبطشوا، ولا يستغنون إلا ليطغوا فى الأرض ويكثروا فيها الفساد، وليس هذا من الحياة فى شىء!!

٣ ـ ويمكن أن يقال فى العنصر الثالث: إن الأودية تختلف سعةً وضيقًا.. فأعظمها شأنًا أكثرها ماء، وأبعدها عمقًا واتساعًا، وأصلحها لإمداد الأرض بالماء، وثمرة ذلك: كثرة الثمار والأشجار على جانبيه، وامتداد الحقول والبساتين من حوله، وأن تهوى إليه أفئدة الناس.

وكذلك الناس تتفاوت قلوبهم فى تقبل أمر الله، فمنهم من يمتلئ ويتضلع ويتقبل الكثير الغزير، الذى يغمر آفاق نفسه الرحيبة، ومنهم من يقبل دون ذلك، أو لا يتسع لما يتسع له الأول. وعلى هذا تتفاوت أقدار الناس، فأعلاهم قدرًا إنما هو أكثرهم إحاطةً ووعيًا لما أنزل الله، وأعظمهم إفاضة على العباد ونفعًا لهم. وثمرة ذلك: أن تينع شجرة التقوى فى القلب، وتستفيض دائرة الهدى والخير من حوله، وتهوى أفئدة الناس إلى منهاجه والاقتداء به.

وكان رسول الله ﷺ يفرح بكثرة أتباعه، ويفخر بهم، ويحث على أن يتكاثروا.

هذا، ولكل وادٍ طاقة، يتقبل الماء بقدرها، فإذا أمد بما فوق طاقته كان طغيانًا وفيضانًا، وتخريبًا وتدميرًا وإتلافًا.

كذلك لكل نفس طاقة تقف عندها فى تقبل هدى الله وعلمه، فإذا أراد المرء أن يحمل فوق طاقته تمزق بالسأم، والصد عن الله، أو بالشك، أو بتلقى ما لم يؤهل لفهمه.

«إن هذا الدين متين، فأوْغِلْ فيه برفق، فإنَّ المنبتَّ لا أرضًا قطع ولا ظهرًا أبقى».

فإذا أريد أن يحمل الوادى أكثر مما يجرى فيه، فلا يكون ذلك إلا بالأسلوب الطبعى المأمون، فيقوم أصحابه بعملية حفر وتطهير وتعميق وتوسيع، وكذلك أودية القلوب لا تتسع ولا تعمق إلا إذا فعل لها صاحبها ذلك، صاحبها لا غيره،

وما صاحبها إلا الله عز وجل، «فقلوب العباد بين إصبعين من أصابع الرحمن، إن شاء أزاغها وإن شاء أقامها»، ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ [القصص: ٥٦].

والوادى قبل أن ينحدر إليه السيل يكون جافًا، به كثير مما حملت إليه الرياح من التراب والأرواث والقش، وقطع الخلقان والجلد، وما شابه ذلك، فإذا جاء السيل كسح ذلك كله، وطهر جوف الوادى منه، ورفعه إلى وجه الماء ليطرده ويقذف به إلى الخارج، وكذلك هدى الله إذا جرى فى قلوب العباد طهرها وأزال ما فيها من أكدار الطبائع ودنسها، فلا يبقى شىء منها فى قرارات القلوب، بل تطفو متخذة سبيلها إلى الزوال السريع.

نعم سيحل فى القلوب وجدان جديد مبارك فيه كثير من الأسف والندم على ما مضى من حياة الإثم والغفلة، والأسف والندم من أكبر وسائل التطهير والإقلاع عن الذنوب. وعلى صفحة هذا الوجدان تطفو صور ما كان من صغائر وكبائر، كما يطفو غثاء السيل من قش وخلقان، ولا تزال تلك الصور البشعة تثير اشمئزاز صاحبها بمرآها القذر، وتضاعف له من حمد الله على نعمة الوارد الجديد، حتى تغيب عن خياله، ويتخلص منها وجدانه، كما يتخلص السيل من غثائه الذى يطفو فوقه إلى حين.

وفى هذا إشارة دقيقة حكيمة إلى حظوظ الشيطان فى النفوس البشرية، قبل أن يجرى فيها وحى الله فيرويها ويطهرها، فإن بكل نفس حظًا خبيثًا للشيطان، تنبعث منه الظلمة والشرور، والنفوس المحرومة يزيد بها حظ الشيطان وأكداره، ويكثر فيها ما تلقى الشهوات والأهواء الباطلة من رجس ودنس، ويرين عليها ما تكسب من ذنوب وآثام.

فإذا أرسل عليها فيض من رحمة الله عز وجل أرواها وطهرها، وأعاد عليها نعيمها وبهجتها. وقد كانت نفوس صحابة رسول الله ﷺ كذلك فى الجاهلية، كانت أودية فيها كثير أو قليل من جهل الجاهلية وأوزارها، فلما هبط عليها وحى الله صارت أودية الهدى، وأوعية العلم والحكمة.

تلك سنة الله لا محيد عنها: فى كل نفس حظ للشيطان قليل أو كثير، لا

يطهر منه الوادى إلا إذا جرى فيه الهدى والعلم الإلهى، وحسبك أن تجد شاهداً لهذا فى تاريخ عمر بن الخطاب رضى الله عنه، بما تقرأ فى حاله فى الجاهلية والإسلام. بل إنَّا نقرأ فى كتب السيرة والحديث أن الله عز وجل طهر قلب رسوله ﷺ من حظوظ الشيطان، بل أرسل من الملائكة الذين شقوا قلبه الشريف، واستخرجوا منه المضغ الخبيثة وملئوه إيمانًا وحكمة أكثر من مرة قبل النبوة وبعدها، وفى طفولته ورجولته، فامتاز ﷺ بأن الله طهر واديه الطاهر، وبالغ فى تطهيره، ليجرى وحى الرسالة الطهور فى الوادى المبارك الطهور، ويلتقى ما نزل به جبريل من النور بما ينبثق فى جنبات الوادى المستنير من النور: ﴿نُورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِى اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٣٥].

وهذه الإشارة الدقيقة تخرج منها معارف قيمة من معارف علم النفس وطبيعة تكوينها واستعدادها لتقبل الخير والشر، وهى مباحث نفيسة، لسنا بصدد بيانها. ونستنبط من هذه الإشارة أيضًا منافع جليلة للذين يرجون فضل الله، ولا يقنطون من الإصلاح والتوبة. ففى كتاب الله ما يشفى صدورهم ويطهر أفئدتهم؛ فعليهم بإدامة النظر فيه، والارتواء من معانيه.

• زبد وباطل:

٤ - وهذا الزبد الذى يحتمله السيل ما هو؟ وما موقعه فى هذا المثل؟

أما الزبد فهو رغوة لينة ذات فقاقيع تظهر على وجه الماء حين يتخلل مسام الأرض ويتسرب فى ذراتها وشقوقها، أو حين يَمْخَضُهُ الجريان بين جانبى الوادى، أو حين يضطرب لسبب من الأسباب، ولا يلبث أن تنشق فقاقيعه، وتذهب رغوته إلى لا شىء.

وأما موقعه فى هذا المثل فهو صورة دقيقة عرضها الله سبحانه؛ ليمثل لنا موقع الباطل فى هذا الوجود إلى جانب الحق الأصيل: ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى الْأَرْضِ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ﴾ [الرعد: ١٧].

وقد علمنا مما مضى أن الله ضرب الماء مثلاً للحق، وشبهه به، ومثَّل قلوب

الناس أو طبيعتهم البشرية حين يسرى فيها نور الحق والهدى بالأودية حين ينطلق فيها السيل، وهو يتم عناصر المثل بهذا الجزء الأخير الذى يشبه فيه الباطل برغوة الزبد الهش الحائر فوق الماء.

• الزبد وعناصر تكوينه:

وهنا نتساءل: لقد عرفنا أن الزبد رغوة طارئة، ولم نعرف بعد من أين جاء، وما أصله؟

تساؤل يكشف لك تفاهة الباطل وهوان شأنه.

ليس الزبد عنصراً من عناصر الماء، وكل شأنه أنه يوجد - إن وجد - على سطحه!! فكيف يتكون - إذاً - وما أصله؟ هل هو شىء أصيل يمت إلى عناصر الأرض بصلة؟

كل ما يمكن قوله فى هذا المقام أنه ظاهرة عارضة تتألف على وجه الماء من غازات منتفخة، وهباء لا يُؤْبَه له، يجتمع بعضه إلى بعض، ويؤلف بينه ليونة يستعيرها من الماء!

أفترى فى ذلك شيئًا له وجود يعتد به؟

ليونة أو طراوة مستعارة من الماء، لا تلبث أن تنشق فيذهب معها كل شأن له، فإذا هو لا شىء!!

وكذلك شأن الباطل بإزاء الحق.. فالحق جوهر الأصالة لكل شىء فى الوجود، والباطل لا أصالة له، أى لا وجود له، ونسبته إلى الحق كنسبة فقاعة الزبد إلى الماء، فهو ظاهرة من الوهم وغرور الأهواء، يحاول أن يبدو للناس فى أثواب الأصالة التى يبدو فيها الحق، فيتخذ من شارات الواقع صوراً وأوضاعًا حسية، قد ينخدع بها أهل الغفلة وقصار النظر، ولكن العقبى للجانب الذى يتضمن عناصر البقاء وخصائص النفع. فإنك إذا ذكرت أن فقاعة الزبد حين تستعير من ليونة الماء إنما تستعير لتستر لا شىء أدركتَ أن الباطل بما يصطنع من مظاهر لدعم وجوده إنما يحاول فى الحقيقة دعم لا شىء، وأدركت تبعًا لذلك هوان هذا الباطل فى هذا الوجود، وضيعته التى لا يماثلها إلا تفاهة الفقاعة

المتطايرة الضائعة.

وهباء لا يُؤْبَه له يجتمع بعضه إلى بعض، ويؤلف بينه ليونة يستعير لها من الماء؛ هو التعبير الحق عن هذه الظاهرة الملفقة من لا شيء. ونخشى معه أن يظن ظانٌ هذا الهباء الذى اجتمع بعضه إلى بعض قد صار شيئًا، فليرجع القارئ الكريم إلى حفنة كبيرة من رغوة هذا الزبد - لا إلى فقاعة واحدة - ثم لينظر ماذا يبقى فى كفه من الهباء المجتمع حين تتطاير عنه ليونة الماء، فما يجده فى كفه من ذلك فهو العناصر التى قام بها وجود هذا اللا شيء! وليقس على هذا المثال الهباء أو العناصر التى تؤلف كيان الباطل فى هذا الوجود.

- **الباطل فى نظر أهل الحقائق:**

وحين ترتسم هذه الصور فى أذهاننا لا نستطيع معها أن نتصور للباطل من فائدة أبدًا، ولا من قوة تمسك له وجوده، إلا بمقدار ما نتصور من ذلك فى زبد الماء.

فإذا تقررت لديك هذه الحقائق - وهى من اللباب الذى لا يتطرق إليه الشك - فقد استقر فى ذهنك وفى بصيرتك نور قوى واضح تميز به حقائق الأشياء؛ ولا تنخدع معه بظاهرة من الظواهر، وسهل على أهل هذا النور أن يدركوا أن منازلة الباطل ومكافحته فى ميدان من الميادين لا تكلفهم من الجهد أكثر مما يتكلفون فى إزالة جيش من الزبد على وجه الماء!! ولا تسألنى يا أخى كيف ذلك، ولكن سل نفسك أين أنت من هذا النور الذى تدرك به حقائق الأشياء، وماذا حققت فى نفسك من شرائط أهله، فإنك حينئذ تغنينى عن الإجابة، وتدرك أن بقاء هذا الزبد الرابى أو الباطل الكثيف مرهون بالأيدى التى يقذف الله بها عليه فتدمغه، فمتى وجدت هذه الأيدى واستعلنت أنوار الحق فى بصائرها كان هوان الباطل عليها كهوان الزبد على من يلعب به بعصاه، أو يطؤه بقدمه، أو ينفخه بفمه، أو يلاشيه بكفه.

وعلى ضوء هذا المعنى نجد أنسًا كبيرًا حين نقرأ فى كتاب الله سبحانه: ﴿لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلادِ ﴿١٩٦﴾ مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ [آل عمران: ١٩٦، ١٩٧]، فما ينقلبون إليه من سوء المصير فى القيامة، فهو إلى الله،

وحده، وأما سوء مصيرهم فى الدنيا فهو ما يغرينا به سبحانه بقوله: ﴿لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلادِ﴾، فإن ما تراه من بسطة السلطان، وكثرة المستعمرات، وانتشار مناطق النفوذ، إن هو إلا زبد لا يضخم إلا فى أفئدة الأغرار من أطفال الرجال، أو الرجال الأطفال؛ فدونك هذه الرغوة فإنها لا تثبت لشىء. وهو إغراء حلو مؤنس، لا يعترف معه المؤمن الحق بعقبات، ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلاَّ مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاقُوا اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة:٢٤٩].

وليس من شأننا فى هذا المقام أن نمضى فى الاستشهاد بكل ما ورد فى القرآن الكريم عن التهوين من شأن الباطل، من حيث هو قوة وجند، أو متعة وزينة، أو سيرة وعمل. فبحسبك أن تستحضر دائمًا فى ذهنك ذلك التصوير القوى الجلى الماثل فى قوله سبحانه: ﴿فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا﴾ [الرعد:١٧]، فإنه كفيل أن يجعل من كل آية إطارًا يتبدى فيه كل ما للباطل من معالم التفاهة.

• أهواء الباطل وغازات الزبد:

وبعد.. فهل تكلمنا عن حقيقة الزبد؟

إننا يا أخى لم نفرغ بعد من ذلك، وأن ما بقى منه لهو أهم من كل ما مضى!! بقيت تلك الغازات التى لولاها ما ربا الزبد، ولما تجمع من الهباء ذلك اللا شىء؛ فما هذه الغازات؟

يقول العلم إنها غازات تكونت من عفونة أجسام تحللت وفسدت ببعض عوامل التحلل والفساد.

تبارك شأن الله فى دقة التحليل وروعة التصوير!!

نعم فهذه الغازات العفنة المتحللة، يقابلها فى المثل أهواء المرء وشهواته ونزواته التافهة الرخيصة، فإذا كانت الغازات هى العامل الأساسى لتكوين الزبد وما إليه من يعاليل ونفاخات، فإن أهواء المرء وشهواته، وتعلقها بهباء من حطام الحياة

الدنيا، هى العامل الأساسى لوجود كل باطل فى هذه الأرض.

ولكن أى شىء فى الإنسان ضربه العفن، وأدركه التغير والفساد، حتى صعدت منه تلك الغازات أو تلك الأهواء والشهوات الفاسدة؟

نعم يا أخى، لا شىء فى الإنسان أدركه العفن، أعنى أنه لم يطرأ عليه عفن جديد، فقد جاء بالعفن فى جبلَّته الأولى مذ خلقه الله من ماء مهين، وطين منتن، وحمأ مسنون متغير الرائحة. فإذا رأيت فى أهواء الناس تفاهة وضعة، فمرجعها خسة الطين، وتفاهة الماء المهين. وإذا رأيت فيها ما هو قذر يزكم الأنوف برائحته الكريهة، فمرده إلى الأصل المكنون فى الحمأ المسنون. وهل خلقنا الله سبحانه من هذه الطينة التى تحمل المهانة والنتن، إلا ليكون لذلك مقابله فيما يتمرغ فيه بعض الناس من نقص، وضعة، وهوان، وإثم، وضلالة؟

ولا شك أن من رحمة الله أن الماء المتجدد الطهور فى الوادى يأتى على مضار ذلك العفن فيخففها، أو يزيلها كأن لم تكن، فلا تكون مصدر إيذاء لأحد، لا برائحتها الكريهة، ولا بجراثيمها القاتلة. هذا شأن الماء فى الوادى، فأى شىء ذخره الله لتطهير أودية الناس من عفن بشريتهم، وما تنتزى به طباعهم من أهواء فاسدة وشهوات؟

وأحب قبل الإجابة عن ذلك، أن نلاحظ أننا فى كل ما كتبنا لم نخرج عن عناصر المثل الذى ضربه الله قِيدَ شعرة، فنحن ما فتئنا ـ مذ بدأنا الكلام عنه ـ نتناول الأشباه والنظائر، ونقيس بعضها على بعض؛ مستهدين ما أودع الله هذا التصوير المعجز من دقة وإحكام، ولهذا لا نجد مشقة فى الإجابة عما تساءلنا عنه الآن، فالله سبحانه مذ خلقنا من طينة زهيدة منتنة تداركنا بفيض طاهر من روحه القدسى، نفحه فى أوديتنا، وأقره فى سرائرنا، وجعل إليه حياة ما فينا من موات، وزكاة ما لدينا من دنس، وطهر ما فينا من عفن؛ ولأمر ما لم يجد سبحانه فى تكريم هذا الكائن الجديد أدنى من أن يسجد له الملائكة!

على أن الله سبحانه لم يكتف بإقرار تلك الفطرة النورانية فى سرائر الناس، بل أمدها على مدى العصور والأجيال بمدد من نوره وهداه فيما أنزل على أنبيائه

ورسله، وهو الذى يشير إليه المثل بقوله: ﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا﴾ [الرعد:١٧]، وهو الذى يؤدى لأوديتنا ما يؤديه الماء للوادى من تطهير ووقاية ورىٍّ.

• خصائص النقص فى طينة البشر:

ولقد عرفنا أن الزبد رغوة، أو مظهر تافه لا نفع منه، ولا قوة له، ولا استقرار ولا بقاء. وعرفنا كذلك سبب هذه الظاهرة، ولا يعنينا هنا أن نذكر نوع الغازات التى يتألف منها الزبد، ولا كيفية التحلل والعفن الذى يسببها، وإنما يعنينا مرامى المثل الكريم العميق، يعنينا ما ترمز إليه هذه الغازات من أهوائنا وشهواتنا، والعفن الذى تتصاعد منه!.. فحقيقة هذا العفن أنه الأوصاف التى تصف لنا بدقة طبيعة الطينة التى خلقت منها بشريتنا.

ونستطيع أن نتجنب الإمعان فى الفلسفة والفروض ونواجه الواقع فنقول: إنها طينة ميتة، تحتاج إلى الماء لكى تدب فيها الحياة، أو أنها بشرية سلبية محض ليس فيها صفة واحدة من صفات الإيجاب والفاعلية، فهى ضعيفة لا قوة لها.. ذليلة لا عزة لها.. فقيرة لا غنى لها.. خسيسة لا قدر لها ولا نفاسة.. جاهلة لا علم لها.. فماذا عسى تكون طبيعة هذه الطينة أو هذه الجِبلَّة التى اشتق منها الإنسان، إلا أن تكون طبيعة سلبية لا تنطوى على شىء البتة من معانى الإيجاب وخصائصه؟

• الموت المعنوى وحقيقته:

هذا الخلو، أو هذا الافتقار العادم، هو طبيعة هذه الطينة، وهو المراد بالموت المعنوى حين يرد فى القرآن الكريم. وليس من ذات تنزهت عن كل صفات السلب، وقامت بها كل صفات الإيجاب، إلا ذات الله سبحانه. وإلى هذا المعنى الدقيق يشير عز شأنه فى القرآن بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [فاطر:١٥]. فقراء من حيث كل شىء: من حيث العلم، والقوة، والعزة، وأسباب النباهة والرفعة، إلى آخر ما أثنى به سبحانه على ذاته وندبنا إلى الاتصاف به، وبث فى فطرنا سر التطلع إليه والشوق إلى تطلبه.

• أشواقنا إلى الكمال، وكيف ترتد أهواء مهلكة:

وهذا كلام يرفع لبصائرنا لونًا من البحث فى صفات الله لسنا بصدده؛ وإنما بصدد ذلك السلب المحض الذى جعل طبيعة لنا. ذلك السلب الذى يترك فى طبيعة المرء شعورًا فطريًا بالنقص والخلو والافتقار.. شعورًا قد لا تدركه حواسه الظاهرة السطحية، ولكنه فى عقله الباطن أشد ما يكون انفعالاً؛ فعلى غير وعى من المرء يجد نفسه منهومًا بأمور هى التى نسميها الأهواء والشهوات.

فقد يَنْهَمُ ـ مثلاً ـ بجمع المال جمعًا لا ينظر فيه إلى سد ضروراته، وحاجاته، ولا ينظر فيه إلى أنه عدة للحق، أو قوة على العدو؛ وإنما هو نهم ووله عميق، أو صدى الهتاف الفطرى فى الطينة التى لا تملك غير الافتقار. فالمسكين لا يجمع لسد ضرورة، وإنما يجمع ليواجه نداء ذلك الخلو الذى تستغيث منه جبلِّته. ولكن هيهات أن يقوم المال بسد مثقال ذرة من ذلك، إذ لا يملكه إلا الله سبحانه، فصفاته الموجبة وحدها هى رى هذا الظمأ، وشبع هذا الجوع، وغنى هذا الفقر، وجبر هذا النقص، وحياة هذا الموت، ولذا نرى المسكين فى جمعه لا يقف عند حد، ولا يشعر بشبع، لأنه يرتوى من غير مصدر، كالطفل الجائع الذى لم يهتد إلى ثدى أمه فالتقم أصبعه؛ فما عسى أن يذهب ذلك من ظمئه وجوعه؟

قد ينهم بالمال، وقد ينهم بمطالب الترف وأنواع الزينة، أو يؤخذ بحب الثناء وعلو الذكر، أو يذهب مع الأنانية والرغبة فى الاستئثار، أو يمضى مع نزعة الغلبة والقهر والتفوق على الأقران، أو ينطلق بجهده وراء غير ذلك من النزعات التى يَسَفُّ فيها أو يعلو بغير الحق، وقد يتورط أثناء هذا فى كثير من الأخطاء والمظالم والآثام، وقد يجنى على نفسه وعلى غيره من عباد الله شر الجنايات؛ وقد تضيق جناياته، وقد تتسع تبعًا لما له من سيطرة ونفوذ فى هذه الأرض، وقد يكون المعتدى فردًا وقد يكون أمة، وقد تكون الجرائم مادية ظاهرة، وقد تكون معنوية باطنة؛ كذلة الجبن، وخسة المَلَق، وغرور السيادة أو وهم الألوهية. أو قل على سبيل الإجمال: يتورط فى أخطاء الشراهة، وصغائر التفاهة؛ شراهة قارون وما وراءها من جمع وكنز وشح، وتفاهة فرعون إذ لم يكفه أن يقول للملأ أنا ربكم

الأعلى، فراح يطلب أسباب السماء ليبسط عليها أوهام ألوهيته المضحكة.

يَنْهَمُ المرء بكل هذا أو بعضه، مدفوعًا بماذا؟.. هو لا يدرى لماذا، لكنه يجد فيه لذة، ومتعة، وهوًى، وشهوة، وحسبه ذلك. أما لماذا هو منبعث، أو ما هى الحوافز التى تبعثه وتسخره، فمرده إلى طبيعة السلب المحض، أو الافتقار العاجز المحروم، الذى ينشد الرفعة لخسته، والقدرة لعجزه، والكمال لنقصه، والعلم لجهله، والامتلاء لخلوه، والجِدَة لفقره، فكان له صوت استغاثة أزلى يدوى فى أعماق الوعى الباطن، لا تسمعه أذن صاحبه ولا يلتفت إليه ذهنه.. إنه استغاثة كائنه الروحى الذى يبسط كفيه إلى ماء الحياة على قرب منه فلا يبلغه. ولكن صاحبنا بدلاً من أن يواجه هذه اللهفة بمصادر الرِّىِّ الحق، واجهها بما لا غناء فيه.

فحقيقة الأهواء والشهوات، أنها أحلام الجبلَّة المحرومة تطفو إلى وعى الطفل النائم المسكين، فيقبل على أصبعه لا يدرى حقيقة ما يفعل، فإذا كان بين العملين - عمل الطفل الصغير، والطفل الكبير - مشابهة، فى ذهاب كل منهما إلى غير نتيجة وصيرورته إلى الهلاك، فإن بينهما فرقًا شاسعًا يستثير المقت على من كره الخير لنفسه باختياره، وعلى من لا إرادة له فى شىء: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ﴾ [غافر: ١٠].

- **حيرة أمام العلم الزاخر:**

يا أخى، إن معركة الحق والباطل هى معركة الوجود كله، وإن طريق من يعرض لبيان ألوان هذا العراك لكثير المزالق، والمضايق، والحرج والمشقة؛ ولذا أرانى فى حيرة بالغة، وعجز شديد، ماذا آخذ من معانى هذا المثل الخطير، وماذا أدع. إننى أمام أعماق مخوفة لا أرى لها قرارًا، فهى تمتد بأسرار الحق والباطل حتى تجاوز أسوار عالمنا هذا المادى إلى عالم الآخرة؛ وليس لنا بعد ما قدمناه إلا أن نلوذ بآيات الكتاب المبين، نقف عند مدلول ألفاظها، أو نطمح بالنظر إلى مرامى إشاراتها، كلما حدثتنا عن الحق والباطل، فإن ما قدمناه من نور هذا المثل كافٍ لأن ندرك على ضوئه أهداف كل آية.

لقد تحدث القرآن عن الهوى الذى يورد صاحبه موارد الهلاك، وتحدث عن الجهود الضائعة التى يحسبها الظمآن ماء، وتحدث عن الأخسرين أعمالاً، وتحدث عن الذين يعذبون بأموالهم وأولادهم فى الحياة الدنيا، وحماقة أهل الهوى، وحصافة أولى الألباب، وذلك الذى كان ميتًا فأحياه، وأولئك الموتى الذين لا يسمعون، والغيث الذى أعجب الكفار نباته، والزرع الذى أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع.. تحدث عن ذلك كله وعن غيره مما يصرفنا المقام عن الاسترسال إليه. وإنى لأحسب أن هذا المثل الكريم عدسة مباركة تكشف لأبصارنا وبصائرنا كثيراً من الحقائق إذا نحن نظرنا من خلالها إلى كل آية.

وبعد: فتفاهة الباطل والزبد تلتقيان فى ثلاث:

الأولى: أن كلاً منهما ظاهرة عارضة ضائعة الأصل والنسبة، ليس لإحداها ما يجعلها ذات وجود أصيل يعتد به.

الثانية: أن كلاً منهما شىء لا نفع له، ولا ثمرة ينتهى إليها.

الثالثة: أن كلاً منهما سريع التحول والزوال، لا استقرار له ولا دوام.

وليس فى وسع أحد أن يرسم فى ذهنك أصالة الحق وتفاهة الباطل كما رسم لك القرآن وصورً. وليس فى وسع أحد كذلك أن يبعثك على احترام الحق وتمثل جلالته، إلى جانب الاستخفاف بالباطل وتصور ضآلته، كما فعل هذا التصوير الربانى المعجز! فلا تطمع أن أمدك أو يمدك غيرى بشىء فى ذلك؛ فقد وصف الناس الباطل قديمًا وحديثًا، وفيهم العالم والجاهل، والفيلسوف وغير الفيلسوف، فما منهم أحد ألمَّ بفلسفته وحقيقته، فى يسر وإيجاز ووضوح، كما ألمَّ الحق تبارك وتعالى فى كلامه الحكيم.

• الهفوات من لوازم الطبع البشرى:

وكل ما قدمناه خاص بالزبد الرابى والباطل الكثيف، الذى يطفو فى أودية قلوب الناس، ومحيطات دنياهم الواقعية، فيحجب عنهم الحق، ويزين لهم ما هم عليه، وذلك شأن كثير من الناس. ويبقى شأن فريق آخر.. بقى أن المؤمن حين

يمتلئ واديه بوحى الله والحكمة لا يخلو أمره من هفوات تافهة فارغة، تطفو فى محيطه الظاهرى، ثم لا تلبث أن تزول، ويبقى من بعدها المعين النافع - كما هو - فياضًا بمعانى الحق والخير. وهذا من طبائع النفوس، فقد أراد لنا عز شأنه أن يكون من شأننا الخطأ والنسيان، وأن يكون فى طبيعتنا ما يربطنا بالحياة الدنيا، ويعلقنا بها؛ ومن هنا كانت الذنوب لازمة من لوازم بشريتنا؛ كما أن الاستعداد للترقى والتطهر سر من أسرارها كذلك، فقد ألهم الله كل نفس فجورها وتقواها، وترك إلى العبد أن يزكِّيها بالتقوى، أو يدسِّيها بالفجور؛ ولكن مهما تترقَّ بالتقوى وتصفَّ بالمراقبة، فإنها لا تتخلص دائمًا من هفوات الطبع، وفقاقيع الدنيا؛ فلا بد من حصول شىء من ذلك؛ فالقلب لا يفتأ الدهر معرضًا للتقلبات كالوادى المائج الذى تتقلب فيه المياه. ومن شأن هذا التقلب أن يحدث على الوجه فقاقيع فارغة. وقد شبه رسول الله ﷺ القلب فقال: «مَثَلُ القلب فى تقلبه كالقدر إذا استجمعت غليانًا».

فهل ترى يثور الغليان دون أن يطفو فوقه زبد؟ وزبد القلوب هنا هو الهفوات، كما تقدم. وإلى هذا كله أشار رسول الله ﷺ بقوله: «والذى نفسى بيده لو لم تذنبوا لذهب الله بكم، ولجاء بقوم يذنبون، فيستغفرون فيغفر لهم».

وليس فى نفوس البشر نفس سمت فوق ما سمت نفس مولانا رسول الله ﷺ، ومع هذا فقد جاءت السنة بأنه ﷺ نظر إلى عَلَم ثوبه - نقشه وتطريزه - وهو فى الصلاة - فلما سلم رمى بذلك الثوب وقال: شغلنى عن الصلاة!. وروى عنه عليه الصلاة والسلام أن خاتمًا من ذهب كان فى يده، فنظر إليه وهو على المنبر، ثم رمى به، وقال: «نظرة إليه ونظرة إليكم»، وكان ذلك قبل تحريم الذهب. بل قد جاء فى الحديث الشريف أن رسول الله ﷺ قال: «... وإنه ليغان على قلبى»، والغين الغيم، قال صاحب المصباح فى معنى الحديث: إن هذه كناية عن الاشتغال عن المراقبة بالمصالح الدنيوية، فإنها وإن كانت مهمة، فهى فى مقابلة الأمور الأخروية كاللهو عند المراقبة.

فهل ترى هذه الخطرات التى تطفو فى قلب رسول الله ﷺ تؤثر فى واديه، وهو عليه السلام وادى الأودية الربانية، ومحيط المحيطات الإلهية؟ ألا ترى كيف

كانت هذه الخطرات تزول سريعًا بالتفاته ﷺ إليها، فيرمى بالثوب والخاتم، فيذهب كما يذهب الزبد جفاء عن وجه الوادى؟

وبعض المؤمنين كثير الزبد - عفا الله عنهم وغفر لهم - وبعضهم قليل الزبد وقليل ما هم، ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠].

هذا - يا أخى - ما وسع الجهد أن يستخرجه من هذا المثل العظيم، ولئن عجزت عن استخراج الكثير مما فيه، ففى هذا القليل الذى عرضته مقنع يقنعك بسعة علم الله فى القرآن الكريم، وامتداد آفاق كلماته وبعد أغوارها.

وبعد: فإن هذه المعانى الكثيرة العظيمة، قد ظهرت واضحة فى سطر واحد من كتاب الله، فكيف تمت هذه المعجزة؟ سر هذا فى المثل الذى أحكمه الله، وساق فيه ما شاء من العلم والحكمة، ﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٣٥].

• الرسول يضرب الأمثال:

وقد كان رسول الله ﷺ يَستنُّ هذا السَّنَن ويضرب كثيرًا من الأمثال، يشبه فيها الأمور المعنوية الخفية بأمور محسوسة، تقربها للأذهان بل تكاد تظهرها للعيان.

ونحن نسوق منها على سبيل التمثيل ما يأتى: قال رسول الله ﷺ: «إن الله سبحانه وتعالى أمر يحيى بن زكريا ﷺ بخمس كلمات، أن يعمل بها، ويأمر بنى إسرائيل أن يعملوا بها، وإنه كاد أن يبطئ بها، فقال عيسى عليه السلام: إن الله تعالى أمرك بخمس كلمات لتعمل بها وتأمر بنى إسرائيل أن يعملوا بها، فإما أن تأمرهم وإما أن آمرهم، فقال يحيى: أخشى إن سبقتنى أن يُخسف بى أو أُعذَّب؛ فجمع الناس فى بيت المقدس، فامتلأ المسجد وقعدوا على الشُّرَف، فقال: إن الله تبارك وتعالى أمرنى بخمس كلمات أن أعمل بهن، وآمركم أن تعملوا بهن.

١ - أولاهن أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئًا، وإن مثل من أشرك بالله كمثل رجل اشترى عبدًا من خالص ماله بذهب أو وَرِق فقال: هذه دارى وهذا عملى، فاعمل وأدِّ إلى، فكان يعمل ويؤدى إلى غير سيده! فأيكم يرضى أن يكون عبده كذلك؟

٢ ـ وإن الله يأمركم بالصلاة، فإذا صليتم فلا تلتفتوا؛ فإن الله ينصب وجهه لوجه عبده فى صلاته ما لم يلتفت.

٣ ـ وآمركم بالصيام، فإن مَثَلَ ذلك كمثل رجل فى عصابة ـ جماعة ـ معه صُرة فيها مسك، فكلهم يعجب ويعجبه ريحه، وإن ريح الصائم أطيب عند الله تعالى من ريح المسك.

٤ ـ وآمركم بالصدقة، فإن مثل ذلك كمثل رجل أسره العدو، فأوثقوا يده إلى عنقه، وقدموه ليضربوا عنقه، فقال: أنا أفدى نفسى منكم بالقليل والكثير، ففدى نفسه منهم.

٥ ـ وآمركم أن تذكروا الله تعالى، فإن مثل ذلك كمثل رجل خرج العدو فى أثره سراعًا، حتى أتى على حصن حصين، فأحرز نفسه منهم، كذلك العبد لا يحرز نفسه من الشيطان إلا بذكر الله تعالى.

وهو حديث جليل، رواه الإمام أحمد والترمذى. وأنت ترى أن كلاً من توحيد الله، والصلاة، والصيام، والصدقة، وذكر الله، قد فُسِّر بمثَل يوضح معناه، ويبين ما فيه من الخير والنجاة للإنسان.

فتوحيد الله، أن تفرده بما فى قلبك من حب وخوف ورجاء، فالإنسان إنما يتصرف فى حياته بوحى هذه العواطف الكبيرة الأصيلة، وما يتفرع منها. فإذا جعلها لله وحده فقد صار كله لله: قوله وفعله، وضربه فى الأرض، وطعامه وشرابه، غدوه ورواحه، صلاته ونسكه، محياه ومماته. وهذا ما يريده منا الله تعالى وما خلقنا إلا له، وهو معنى التوحيد، وما خلق الله لك هذه العواطف الثلاث إلا لتمدها نحوه، كالخيوط المباركة؛ فتصلك به، وتعلقك بمقامه عز وجل. فإذا أنت صرفت هذه العواطف عن الله ووهبتها لغيره ـ لا قدَّر الله ـ فقد وضعت الشىء فى غير موضعه، وسخرت نفسك لغير خالقك، وهذا عين الجحود والجهل والعمى. وهو الذى فسره المثل تفسيرًا واضحًا بقوله: إن مثل من أشرك بالله كمثل رجل اشترى عبدًا من خالص ماله بذهب أو ورِق، فقال له: هذه دارى وهذه مزارعى أو بساتينى أو مصانعى وأعمالى فاعمل بها ثم احمل الثمر إلى دارى، فجعل العبد يعمل ثم يحمل الثمر إلى دار غير دار سيده! فأى الناس يقبل أن

يكون عبده أو خادمه كذلك؟ فإذا كان أحدنا لا يرضاه، فأولى ثم أولى أن لا يرضى الله لعبيده أن يهبوا لغيره عواطفهم وأعمالهم التى هى ثمار هذه العواطف. وهو مثل مقنع، يشرح الصدر، ويستقر بعقيدة التوحيد على قرار مكين.

والصيام، هو حبس النفس عن شهواتها الظاهرة والخفية، الحسية والمعنوية، وصرف الهمة إلى ابتغاء ما عند الله من زكاة وخير. وهذا هو الصيام الفاضل الكامل.

والصيام بهذا المعنى منهاج تتطور به صفات الإنسان، وتترقى من غلبة دواعى الحس وشهواته إلى سيادة الإرادة التى تبتغى المعنويات من فضل الله ورضوانه؛ وهو المعنى الذى يقرره الحديث القدسى بقوله: «يدع طعامه وشهوته من أجلى»؛ أى يدعهما من أجل ما يطمح إليه فى مقابلهما من رضوانه تعالى، وإحسانه، ورحمته، وبره؛ فيكون بهذا كيان الإنسان الباطن مؤلفًا من حقائق ملكوتية تنتمى إلى صفات الله عز وجل، طيبًا، وشرفًا، وزكاةً، ونورًا؛ فيكون الصائم فى ظاهره كيانًا من لحم ودم ينطوى على كنز من الطيب والطهر، ينفح الناس من نفسه بالكلم الطيب، والعمل الصالح، والخلق الفاضل. وهذا ما يجمله المثل بقوله عن الصيام: «فإن مثل ذلك كمثل رجل فى عصابة، معه صرة فيها مسك، فكلهم يعجب أو يعجبه ريحه، وإن ريح الصائم أطيب عند الله تعالى من ريح المسك».

أما الصدقة، فهى ما يتصدق به الإنسان فى سبيل الله. وحب المال والحرص على إمساكه من الطباع التى جُبلت عليها بشرية الإنسان. وعلى هذا فإخراج الصدقة فى سبيل الله هو قهر نفسى يقاوم به الإنسان ويعالج خليقة الشح فى نفسه، وعلاقة ذلك بالمثل أن قلب الإنسان بما له من ملكات وحواس باطنة عليا، هو حقيقة وجود الإنسان، وزاد ذلك القلب ورحيقه الذى يتزوده ونسيمه الذى ينتشيه هو ذكر الله عز وجل، ومجال عمله وسعيه الذى تتأكد به الحياة الروحية وتتضاعف ويدرك به منازل السعادة والعزة هو المسارعة إلى فعل الخير وإنفاق المال ابتغاء مرضاة الله. والشيطان يتحين من الإنسان غفلة عن الله، فيسوق إليه - فى مثل لمح البصر - من أهواء الباطل فتنًا تجثم على القلب وملكاته، فتنقطع عنه

موارد رحيقه ونسيمه، ويثير فى داخل النفس خلائق الشح وأنانية الحرص على الدنيا، فتعطل فيها كل خاصية إيجاب، ولا تدع بها حركة أو خلجة ما لأى مكرمة، كأنما سلكته فى أثقل الأغلال والسلاسل.. وذلك هو سبيل هلاك المرء، ولا منجاة حينئذٍ إلا أن يراجع المرء نفسه، ويفك حصار البخل والشح بانتزاع الدنيا من قلبه فى صورة ما يخرج من صدقة فى سبيل الله، فيخلص إليه نسيم الحياة ورحيقها، وتنبعث فى إهابه الهمم الناهضة إلى مروءات الحق.. أى يبطل عمل الشيطان، وهذا ما جاء به المثل إذ قال: «وآمركم بالصدقة، فإن مثل ذلك كمثل رجل أسره العدو، فأوثقوا يده إلى عنقه، وقدموه ليضربوا عنقه، فقال: أنا أفدى نفسى منكم بالقليل والكثير، ففدى نفسه منهم».

وذكر الله هو مادة حياة النفوس، وعماد قوتها. والشيطان ـ وهو أعدى أعداء الإنسان ـ لا يفتأ يحتال لصرفه عن الله، فيوسوس له بالشر، ويزين له الشهوات، فإذا انقاد له، فقد نسى الله، ونسيه الله، وانقطع عنه مدد الحياة الإلهية، فهزل قلبه أو مات، وغدا لا حول له ولا قوة؛ والقلب الميت أعجز من أن يمد صاحبه بذرة من ذلك. والحياة فى القلب ليست نبضًا يدق، أو دمًا غزيرًا يفد إليه أو يخرج منه، إنما الحياة كل الحياة، هى ليونته لمعانى الخير، وشوقه إلى مثل الحق، فإذا حيَّ هذه الحياة، عاش صاحبه جنديًا مجاهدًا للخير والحق والفضيلة طول حياته، يستمد من ليونته شدة على أعوان الشر، ومن رقته غلظة[1] على جند الباطل، ومن شوقه غضبًا وكراهة لأنصار الفساد والرذيلة، وليس هناك حياة غير هذه الحياة إلا حياة الأموات الذين يحصون فى الأحياء ظلمًا أو جهلاً. والقلب الحى يستمد سر حياته بل سر بطولته من حضور الله فيه، وليس أبغض إلى الشيطان من هذا، فهو لا يكف لحظة عن استدراجه بعيدًا عن مصادر الحياة، بما ينسيه ذكر الله عز وجل. والإنسان هو قلبه الحى، فمن لا قلب له فهو هيكل فارغ، لا يقام له وزن فى الدنيا ولا فى الآخرة. لهذا اقتضت رحمة الله عز شأنه، أن يلفتنا إلى خطره

(١) مما رسم الله لنا قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ [التوبة: ١٢٣].

علينا، وأن ينادى فينا بالفرار منه إلى حصن الأمان، إلى ذكره عز وجل: ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [الذاريات: ٥٠]، وقال فى حديثه القدسى على لسان رسوله ﷺ: «أنا مع عبدى ما ذكرنى وتحركت شفتاه بى». ومن كان فى معية الله فهو القوى الغالب، الذى لا يقف لقوته عدو، ولو اجتمعت له الإنس والجن، وذلك قوله عز وجل فى الحديث القدسى: «إن عبدى كل عبدى الذى يذكرنى وهو ملاق قرنه[1]»، فإذا كانت هذه المعية الشريفة تكسبه كل تلك القوة فأولى ثم أولى أن تكون عصمة وحرزاً له من كل شيطان أو إنسان يبغيه بسوء. وهذا المعنى هو الذى يشرحه المثل بقوله: «فإن مثل هذا كمثل رجل خرج العدو فى أثره سراعًا، حتى أتى على حصن حصين فأحرز نفسه منهم، كذلك العبد لا يحرز نفسه من الشيطان إلا بذكر الله تعالى».

هذان مثلان؛ أحدهما من الكتاب، والآخر من السنة. وبقى أن نورد مثلاً من الأمثلة التى لا يمكن أن تسمو إلى هذين المقامين الكريمين: هبك وقفت تقرر ما شرع الإسلام من عقوبات عادلة، وحدود رادعة حازمة، تقطع الشر وتستأصل الجريمة؛ ثم بدا لك أن ترد على السخفاء الذين يعترضون بأن فى بعض هذه الحدود قسوة وهمجية؛ فلا عليك أن تقول ما قاله أحد الإخوان فى هذا المقام: إن الطبيب الحكيم عليه أن يعالج مريضه، بما يقطع عنه المرض ويكفل له الشفاء والصحة، فإذا اقتضى العلاج أن يسقيه الدواء المر سقاه، فإن لم يسقه فهو طبيب خائن لمريضه.

وإذا اقتضى العلاج أن يفتح بطنه، أو يشق عضواً من أعضائه، فمن الجهل أن نسمى ذلك قسوة ووحشية، إن هو إلا الرحمة التى تسوق إلى المريض المسكين سعادته وقوته. وإذا اقتضى العلاج أن يبتر الطبيب إصبعًا أو ذراعًا أو نحو ذلك إنقاذًا لحياته، فالحكمة فى المسارعة إلى هذا الإجراء، الذى ظاهره القسوة والألم.

فإذا كان ذلك كله لا اعتراض عليه، بل توجبه المصلحة، فكيف يسوغ فى

---

(١) قرنه: كفؤه ومنازله.

عقول المعترضين أن يعترضوا على المشرع الحكيم، الذى يستأصل بتشريعه جذور الشر والفوضى؟.. وهل المشرِّع إلا طبيب؟ ذاك يعالج أمراض المجتمع، وهذا يعالج أمراض الأجسام. إن مهمة الطبيب أن يشفى مريضه من علته، وأن يضع له أفضل القواعد الصحية التى يتبعها فى طعامه وشرابه، ونومه ورياضته، حتى يعيش دهره معافى. وكذلك المشرع: مهمته أن يشفى المجتمع من علته، وأن يضع له أفضل القواعد والحدود النفسية والاجتماعية والسياسية والمالية، ونحوها، مما تنحسم به عوارض الانحلال والفوضى، ويتماسك بناء المجتمع، ويستقر به الأمن على الأعراض والأموال والدماء.

وكما أننا نقيس نجاح الطبيب بدرجة شفاء المريض وانتظام صحته، يجب أن نقيس نجاح المشرع بمقدار ما ينال المجتمع من حصانة ونظام، وتَرَقٍّ فى معارج الإنسانية ومطالب الروح.

وكل ما يطلب من الطبيب أن لا يلجأ إلى الدواء المر إلا حين لا يجد غيره، وأن لا يلجأ إلى بتر الأعضاء أو شقها إلا بعد اليأس من طرق العلاج الأخرى. وكذلك المشرع، كل ما يطلب منه أن لا يقسو على غرائز المجتمع، ما دام إرضاء هذه الغرائز لا يلحق ضرراً ما بالمصالح العامة أو الخاصة، وأن لا يعنف فى اختيار العقوبات إلا عندما يرى أن العقوبات السهلة غير كافية لقمع نزوات الشر، ومحق تطلعات العدوان الأنانى.

وهذا نفس ما سنَّه المشرِّع الإسلامى أو طبيب المجتمع الإنسانى. فقبل أن يضع حد السرقة مثلاً، قرر لكل محتاج حقه فيما تجبيه الحكومة من المال، الذى هو مال الله، فإذا تعطل من العمل موّلَتْه الدولة إن كان من أهل الأسواق، أو دبرت له عملاً إن كان من الصناع وذوى الحرف، أو أسعفته بما يكفيه حتى يعمل بما يكفيه. وإذا أصيب فى نفسه أو ماله، وجب على الحكومة أن تدبر أمره بما يَرْفُق به. وإذا أدركته الشيخوخة، فأقعدته عن العمل وليس له مال ففى بيت المال، أى خزانة الدولة، حقوقه مذخورة له لمثل هذا اليوم. فإذا توفى وترك ذرية ضعافًا فقراء لا كافل لهم، فالإمام - أى الحاكم - ملزم بتدبير أمرهم، حتى يغنيهم الله من فضله.

هذا هو روح التشريع فى هذه المسألة. فإن عجز المال عن الوفاء بمطالب

المحتاجين من المستحقين، فلتجمع لهم الدولة ـ بحكم القانون، أو بقوة السلاح ـ من القادرين ما يسد حاجتهم. فأى اعتدال أرضى للنفوس من هذا؟. . فإذا جاء المشرِّع بعد ذلك كله وقال: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِّنَ اللَّهِ﴾ [المائدة:٣٨]، كان هذا عين الحكمة، ومنتهى العدل.

ذلك أن الشارع إنما ينظر فى عقوبة السرقة إلى مكان السرقة من بنية المجتمع، على شأنه فيما يشرع من حقوق وأحكام وحدود. فالمجتمع فى الإسلام بنية، قوامها العقيدة، والاقتصاد، والعمل؛ فى تفصيل لسنا بصدده. ونعنى بالاقتصاد الثروة العامة، فهى لله أولاً، ومن الله للمجتمع؛ لتكون فى مطالب العقيدة، ودعم مؤسساتها ومعالمها، والذود عنها. وذلك يثمر فى الأذهان والضمائر أن الثروة العامة هى قوام أمرهم عامة، وأنها مورد يتضامن فيه كافتهم بالوجدان والفكر بحيث ينشأ فى ضمير كل فرد منطق واضح وإحساس عميق بمكان هذا المال من حياته، يفرح لنمائه، ويحرص على مقاومة آفاته ودفع أسباب التلف عنه، لأنه إنما يدفع عن نفسه، فتراهم فى هذا التضامن الجماعى كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى؛ وذلك هو «حقيقة التضامن»؛ فليس التضامن اقتراحًا يقترحه مصلح، ولا خاطرًا يرد على بال مجتهد أو مشرع، إنما هو «حقيقة كونية معنوية» ينشئها فى الصدور إيماننا بالله خالق كل شىء. ليست المسألة مسألة قانون جيد أو ردىء، إنما هى وحدة الإحساس لدى أفراد المجتمع بهذا التضامن ورسوخ حقيقته فى مكان اليقين من الفؤاد، بحيث يجد كل فرد نفسه ـ بيقينه ووجدانه ـ منبعثًا إلى العناية المتجددة بالمال، ناظرًا إلى مكانه من مصالحه لارتباطه الوثيق بازدهاره وعلو شأنه.

فإذا زال هذا الإحساس، وامَّحى هذا اليقين، ووهنت بواعث العمل التضامنى، وانحلت رابطة الأخوة والوحدة، قامت الفردية مكان ذلك كله، وذهبت الأنانية تنفث سموم الحسد، والفرقة، واستحلال حرمة الغير وماله. فإذا لم يبادر ولى الأمر عند أول بادرة لهذا الانحلال. . إذا لم يواجه أول نذير بما يحسم شره فى غير هوادة، استشرى خطره، وأتى البنيان كله من القواعد، فلا مجتمع، ولا عقيدة، إنما جماعات الغدر واللصوص، المجترئة على القانون، المتسلحة بأخطر ما

ابتكرت الحضارة من أسلحة الدمار.. وهذا هو حقيقة هلاك الأمم فى ميزان الإسلام. فإذا جاء الإسلام يحض المجتمعات، ويعصم ملكية الأموال بقطع يد السارق، فإنه لا ينظر إلى عدوان فرد على مبلغ ما من مال غيره، إنما ينظر إلى العاقبة الخطيرة التى ألمعنا إليها.

وهذا الروح الحكيم، هو ما يطالعك فى كل شرع يشرعه الإسلام، وفى كل عقوبة يقررها، فهو يسن لكل غريزة حقوقها الطبيعية بقسطاس معتدل، لا يعنتها بالحرمان، ولا يتملقها بالغلو والطغيان، فإذا أرضاها بالحلال، إرضاء موسعًا فيه، فقال مثلاً فى الزواج: ﴿فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ﴾[النساء: ٣]، أقام عقوبة الجلد أو الرجم لكل من يقع فى جريمة الزنى.

فإذا أردنا أن نعرف نجاح مشرِّعنا ونجاح مشرِّعهم؟ فلنسأل ماذا أشبع تشريعنا من الفقراء، وماذا أشبع تشريعهم، وإلى أى حد نجح مشرعنا فى قطع دابر السرقة، وإلى أى حد نجح مشرعهم؟.. ولنسألهم: لقد عالجنا طهارة الأعراض وعالجتموها، فهل تظنون أنكم بلغتم فى حسم الشر، وتطهير المجتمع، وحل أزمات الزواج، هل بلغتم فى ذلك ما بلغناه؟.. هل تستطيعون أن تقولوا نعم، وجيوش الشبان والكهول العاطلين من الزواج يحدثونكم بما يلقون من شبع ورى، فيما يبذل لهم من حرمات وأعراض وهم آمنون؟ هل تستطيعون أن تقولوا إن شرعكم وعقوبتكم نجحت فى قمع نزوات الشر، وإلزام الرقعاء السخفاء حدود الاعتدال والعفة؟!

إذًا هو مشرِّع خائب أو خائن، يجب أن يضرب وجهه بتشريعه، كالطبيب الخائب أو الخائن، يجب أن يضرب وجهه «بروشتة» الدواء إذا هو عجز أو فرَّط فى علاج مريضه. إننا لا نريد إلا مجتمعًا صحيحًا معافى من العلل، فأيما علاج كفل لنا ذلك فى حزم وحكمة، فهو الشرع الواجب الاتباع، وإلا كانت الفتنة والفوضى، ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾[القصص: ٥٠]، ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾[المائدة: ٤٩، ٥٠].

بهذا المثل الذى تشبه به المشرِّع بالطبيب، وتحلل عمل كل منهما وتقيسه بالآخر، تبلغ بمعناك قرارة القلوب، وتقطع كل حجة لجاحد أو مغرور.

٣ ـ ومن قبيل ضرب الأمثال: سياق الحوادث للعبرة. وهو غير القصة، فالقصة تسوقها لتعرض بها معناك، وتبث فيها تعاليمك، فيعينك النمط القصصى على توضيح مرادك، وإظهاره حيًا مؤثرًا فى صورة عملية، أما سوق الحادثة للعبرة فلا يراد به ما يراد من القصة، وإنما يراد به الاعتبار بالخاتمة، ردعًا للقلوب عما هى عليه، أو تحذيرًا لها وإنذارًا، أو تنشيطًا لها وترغيبًا، وهذا النوع من ضرب الأمثال نتعلمه من القرآن الكريم، فقد ساقه الله عز شأنه فى مواضع كثيرة منه.

فالكفر بنعمة الله وعدم القيام بحقها يعقب زوالها، والعيش من بعدها عيشة ضنكًا. هذه سنة من سنن الله فى خلقه، نقرؤها فى القرآن ونرى مصداقها فى شئون الحياة.

ولقد قال عز وجل: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾ [إبراهيم:٢٨]، وقال: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [النحل:١١٢].

وقد كان العرب يعرفون دولة سبأ، وما كان أهلها يتقلبون فيه من نعيم، ويعرفون حادثة السيل المشئومة، التى أتلفت أرضهم، وخربت ديارهم، وفرقت جمعهم، وشتتتهم فى أنحاء الجزيرة العربية، يطلبون عيشها الخشن فى رمالها المقفرة، حتى ضرب بهم المثل، فقيل لكل جمع يتفرق: «تفرقوا أيدى سبأ»؛ كان العرب يعرفون ذلك فساقه الله عز وجل فى هذا المقام الذى قررناه تحصيلاً لعبرته فقال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلاَّ الْكَفُورَ﴾ [سبأ:١٥ ـ ١٧].

وهذا النوع من ضرب الأمثال شائع جدًا بين الناس، وهو من مألوفهم فى النصائح والمواعظ، فلا نطيل بذكر أمثلة له، ففى حوادث الأفراد والأمم مادة

عظيمة لمن يطلبه، غير أنه يلاحظ أنه كلما كانت الحادثة قريبة العهد، أو حاضرة فى الذهن، كانت أعظم وقعًا، وأبين عبرة.

٤ ـ **ومن قبيل ضرب الأمثال: القصص الرمزية.** وهى قصص يضعها مؤلفها ولا يريد ظاهر معناها، بل يريد معنى مستوراً يكشفه بعد الانتهاء منها، أو يشير إليه قبل البدء فيها، ونحن نوصى به كثيراً، فقد يكون الداعية فى مقام لا يحسن فيه التصريح، فيسعفه مثله القصصى الرمزى بمراده. هذا إلى أن فيه طرافة، وتجديداً للنشاط النفسى. وقد يغرب المؤلف قليلاً، ويطالعك فى قصته بشىء من الأوضاع الشاذة غير المألوفة أو غير المعقولة، فتعذب القصة، وتفيض طرافتها حلاوة، فتقبل عليك العقول بأزمتها، فإذا انتهيت، وشرعت تحل العقدة، وتوضح الرموز، لمعت الأنوار فى العقول والقلوب، واستفاض الرضى عن معناك فى النفوس، كيف وقد فسرت الشىء بالشىء، وأصبح ما كان غير معقول من الأوضاع الشاذة معقولاً وشاهداً. على أن الإنسان يقيم فى حياته على كثير من الأوضاع غير المعقولة وهو لا يشعر، فإذا استكشف السامع تلك المناقضة فى نفسه، عجب لحاله، وكنت أنت له الرائد الموفق فى هذا الاستكشاف.

وإنا نسوق لك هذا المثل الرمزى نموذجًا لهذا النوع من ضرب الأمثال بعد التمهيد له بما يأتى:

أكثر الناس يغترون بزينة الحياة الدنيا، فيجعلونها غايتهم ويصرفون إليها جهودهم وتفكيرهم، ويجمعونها ويثمرونها، ويستغرق هذا الجمع والتثمير أوقاتهم ومشاعرهم، فلا يفكرون فى الآخرة ولا يعملون لها شيئًا، فبينما ترى دنياهم عامرة بالزينة وآثار السعى، ترى آخرتهم أفقًا مهجوراً قفراً ليس به إلا رسوم الضيعة الموحشة، وهذا من سوء رأى الإنسان، وفساد تدبيره، وغفلته عن مصيره الذى سيصير إليه لا محالة. هذا معنى حق ولكنك إذا سقته مجرداً كما سقناه الآن، يكون ضعيف الأثر فى قلوب الغافلين. ولقد قرأنا هذا المعنى فى موعظة لأبى حازم الواعظ الزاهد المشهور، فقد سأله سليمان بن عبد الملك فيما سأل: «يا أبا حازم، لماذا نخاف الموت؟ قال: لأنكم عمرتم دنياكم وأخربتم آخرتكم، والإنسان يفزعه الانتقال من العمار إلى الخراب». قرأنا هذا المعنى فى هذه الموعظة

فكان له أثر عميق فى النفوس. ولكن هل ترى هذا الأثر العميق يبلغ عمق الأثر الذى تبلغه القصة الرمزية التالية، حين تعرض هذا المعنى نفسه، فى أسلوبها الجذاب؟

قالوا: كان من عادة مملكة من الممالك، أن تولّى عليها ملكًا لمدة ما، سنة أو نحوها، ولكنهم يشترطون على من يقبل الملك والتنعم به أن يسيروا به فى نهاية المدة إلى صحراء مجدبة لا ماء فيها ولا زرع ثم يجعلونه فى هذه الصحراء، لا يبرحها، لا طعام معه ولا ماء، ولا سبيل إلى أن يجيئه طعام أو ماء، حتى يموت المسكين ميتة تعسة من الجوع والظمأ، فى هذه الصحراء الصامتة الموحشة. ومر بهم يومًا سائح غريب، فرآهم فى حيرة وهرج ومرج، فسألهم عن أمرهم فقالوا: لا نجد من يقبل أن يكون ملكًا علينا، لم يقبل ذلك أحد من الوطنيين ولا من الأجانب، فهل تقبله أنت؟ فقال الرجل: ولم لا؟ وهل يرفض الملك عاقل؟ فقالوا له: أتعرف ماذا نشترط على من يتولى هذا الملك؟ وماذا تكون عاقبته؟ فقال: وماذا تشترطون؟ قالوا: نشترط كذا وكذا. فبهت الرجل، وسكت قليلاً، وقال: أو ما عندكم غير هذا؟ قالوا: هو ذلك فقط. فأطرق وفكر ودبر، وكان عاقلاً أريبًا، ثم رفع رأسه وقال لهم: قد قبلت.

أقبل الرجل على ملكه يدير شأنه بسياسته الحكيمة ويقيمه على سنة العدل، ففرح به الناس، وانتظمت أحوالهم، واتسعت ثروتهم. ولكنه مع ذلك لم تلهه زينة الملك وأبهة السلطان عن مصيره الأسود الذى ينتظره فى الصحراء المقفرة؛ فأخذ يعمل جهده لتعمير هذه الصحراء، فأوفد إليها المهندسين ليخططوا فيها حدائق وبساتين وقصورًا، وأرسل إليها العمال والآلات والمواشى وكل ما هو ضرورى لإنجاز هذه المهمة. وما أسرع ما تم ذلك، فشُقت الأنهار والترع، وجرت إليها المياه العذبة، وغرست الأشجار الجميلة، وأقبل الفلاحون يزرعون مختلف الزروع، وقام للملك هناك قصر جميل وقصور أخرى لمن يحبون الإقامة هناك، حتى صارت الصحراء بذلك جنة فيحاء.

ومضت الأيام والناس يجهلون ما صنع الملك بالصحراء، وانتهت المدة، فأقبلوا عليه وقالوا: قد انتهت مدتك أيها الملك، فتفضل إذًا إلى مصيرك بالصحراء،

فأجابهم فى ثقة واطمئنان ورضى وابتسام: نعم.. وعجب الناس لثباته، فلم يضطرب، ولم يزغ بصره من الهلع، وساروا به نحو الصحراء، وهم فى عجبهم هذا لا يدرون سر اغتباطه وسعادته، إلى أن بلغوا الصحراء، فما راعهم إلا البساتين، والحدائق، والزروع، والدور قائمة وسط هذا النعيم البهيج. فدهش الناس وأقبلوا على الملك يسألونه: ما هذا؟ فقال لهم: إن من تولى الملك قبلى شغلته لذته العاجلة عن أن ينظر فى مصيره الذى ينتظره فى النهاية، أما أنا فلم تشغلنى العاجلة عن بشاعة المصير المحتوم، فدبرت له ما دبرت، حتى إذا انتهت المدة انتقلت إلى مقام جميل، فيه الرفاهة والخير الجزيل.

هنالك فرح به أهل المملكة وقالوا له: أيها الملك العاقل، أنت الرجل الحكيم الذى لا يصلح أن يتولى أمرنا غيره، فارجع بنا إلى العرش فإنا بك مستمسكون.

وإنك لترى فى هذه القصة بعض أمور غير معقولة، تكفَّل الخيال بتحسينها؛ كاشتراط أهل المملكة على من يتولى الملك أن ينزل عنه فى وقت معين وأن يصير إلى الصحراء لا محالة، فهذا من العجب بمكان لا يصدقه العقل، ولكن ألا ترى أن كلاً منا سوف يترك هذه الحياة الدنيا وزينتها يومًا ما، فى أجل محدود؟ وأنه صائر إلى وحشة القبر لا محالة؟ فلِمَ يكون هذا أقل عجبًا من حال الملك الذى ينقل من أبهة الملك إلى وحشة الصحراء؟ ألست ترى مطابقة كل حال منهما للأخرى، مما يشرح الصدر وينبه عقل الإنسان إلى أمور عجيبة تحيط به وهو غافل عنها.. إنه مثل يكشف الغطاء ويزيل الغفلة، فما أحوجنا إلى الكثير منه! ولسنا نريد أن نمضى فى تحليل بقية هذه القصة الرمزية فهى واضحة.

وتستطيع أن تجعل الكثير من القصص الخرافية قصصًا رمزية إذا أنت أحكمت اختيار ما يطابق مرادك، وقد أعجبنى من هذا ما قرأت لتلستوى، الفيلسوف الروسى المعروف، فى أحد كتبه.. فقد حمل على طبقة الأغنياء الذين استأثروا بحكم البلاد وخيراتها، ومضى يتدفق فى حملته، ويبين أن هؤلاء المترفين لا عمل لهم فى الحياة، فهم يعيشون كَلاًّ على الطبقة الفقيرة، هم الطبقة العاجزة والفقراء هم الطبقة العاملة، ومع هذا فالخير والسلطان لهم، والفقر والحرمان والذل لغيرهم، ماذا يقدم هؤلاء للحياة؟! إن الحياة جد وعمل وكفاح واستخراج للرزق

من شقوق الأرض، أو من بين المطارق، فمن جد وجد، ومن زرع حصد، ومن عمل أكل من عمل يده، فأى عمل يعمله هؤلاء المترفون، وهم يمسون ويصبحون فى أعطاف النعيم؟ إن أحدهم يقضى نهاره فى الترهل والكسل، واللهو واللعب، وإنه ليقضى ليله فى العبث والمجون، والسمر القبيح وغير القبيح.. فأى شىء من هذا يسمى عملاً ترضاه الحياة؟ أى شىء من هذا يفلح الأرض أو يطرق الحديد أو يثمر المال أو يجلب الثروة؟.. فيا عجبًا لهؤلاء الكسالى! كيف حصّلوا هذا المال الوفير، والخير الكثير، والسلطان النافذ، وهم لا يعملون شيئًا؟

إن الحياة ضنينة أن تمنح خيرها إلا للعاملين، ولكل واحد من أبناء الحياة رسالة يؤديها إليها: رسالة من العمل المثمر، والجهد الإيجابى الذى يدفع عجلتها إلى الأمام، والقوة التى ينفخها فى كيانها من روحه، ثم هى تمنحهم أجورهم بعد ذلك مقابل ما يمنحونها من قوة وحياة، تمنحهم بقدر ما يمنحون، فأكثرهم حظًا منها أكثرهم عملاً لها، فما جدوى هؤلاء العجزة على الحياة؟ وأى رسالة أدوها إليها غير الكسل والقعود والغطرسة على عباد الله العاملين؟.. ترى هل اختل قانون الحياة، فأضحت تمنح العجزة والكسالى، وتحرم العاملين الدائبين؟ إن قانون الحياة لا يتخلف، وليس للعاجز إلا أن يعيش على عطف العاملين المجدين وفضل ما يجودون عليه به. إذًا فكيف عكست الأوضاع، وغدا الفقر والعرى والجوع والضعف من نصيب العاملين، وانتقل المال والأمر والنهى والتحكم إلى جانب المتبطلين القاعدين؟

ليت هؤلاء المقعدين إذ قعدوا عن العمل، وانحازت إليهم الثروات، والخيرات، والسلطان، حمدوا لأهل العمل فضلهم، ورعوا لهم حقوقهم فأكرموهم، وأعزوهم، وكسوهم، وأطعموهم، ليت! وهل ينفع شيئًا ليت؟ إن القوم على عجزهم وعقوقهم للحياة، لم يكتفوا بظهور وضعهم الشاذ، فراحوا يلهبون ظهور العاملين المكافحين بسياط الحكم، ويضيقون عليهم الخناق بقبضة السلطان، ويحتقرونهم، ويرهقونهم بما ورثوه عن آبائهم من تكبر وطغيان. فلم يبق منهم إلا عيون غائرة، ووجوه شاحبة، وبطون جائعة، وأجسام مهدودة بالتعب والمرض. لقد استوى هؤلاء العجزة والكسالى على أكتاف أهل العمل المجدين،

فاستمرءوا الركوب، وخشوا أن يلقيهم هؤلاء الضحايا عن كواهلهم، فأحكموا القبض على أعناقهم، وهددوهم إن أبدوا حركة تمرد أن يخنقوهم، فقضى على هؤلاء التعساء أن يشقوا بمصيبتهم إلى ما شاء الله.

قال الفيلسوف كلامًا شبيهًا بهذا أو قريبًا منه لا أذكر نصه، وحين بلغ هذا الحد من القول ذكر قصة خرافية من خرافات كتاب ألف ليلة وليلة، أجاد الاستشهاد بها، فقال: إن مثل هؤلاء العجزة المقعدين مع ضحاياهم كمثل ما جاء بألف ليلة وليلة من أن شابًا قوى البنية، صحيح البدن، رحيم القلب، كان يمشى فى مرج واسع جميل، فمر بقزم عليل، خائر القوى، مهزول الجسم، دقيق الذراعين، كأنما هما ذراعا قرد، نحيل الساقين، فهما لا تقويان على حمله، كأنما هما قطعة حبل، فلما بصر بالشاب ناداه، وأخذ يشكو له مرضه وجوعه، ويلين له القول، ويرجوه أن يحمله إلى مكان عيَّنه له، لأنه لا يقوى على السير، فرقَّ له الشاب، وحمله على كتفيه، فما أن استوى عليه حتى لف ساقيه النحيلتين حول عنقه، وقال له: أيها الشاب، عليك أن تحملنى الدهر، تذهب بى وتجيء وأنا على كتفيك، وتمضى إلى الشجر فألقم منها الثمار وأنا على كتفيك، وترد بى الأنهار فأشرب من مائها وأنا على كتفيك، لا أريحك لحظة، ولا أعطيك فرصة ترتاح فيها منى، وحذار أن تحاول التخلص من شأنك هذا، فإنى أخنقك وأقضى عليك. ثم ضغط بساقه على عنق الشاب ضغطة أذهلته، وأطلق صيحة هائلة من حلقه المخنوق، فانعقد الدم فى وجهه، وجحظت عيناه، وجعل يتوسل إلى القزم أن يخلى له سبيل الهواء وله عليه ما يشاء، فخلاه له. وقضى الشاب المسكين وقته يحمل هذه المصيبة على كاهله لا يشرب إلا إذا أذن له قزمه، ولا يأكل إلا ما يفضل له من طعامه، حتى انهد جسمه، وتعس عيشه، وضاقت به الدنيا، وصاحبه لا يبالى ما يصيب هذه المطية الذلول من شقاء.

٥ ـ ومن قبيل ضرب الأمثال: ما يضعه الوضاعون من الحكم والحكايات على ألسنة الطيور، وأنواع الحيوان. وهذا النوع يعظم من شأن الحكمة فى نفس السامع، لصدورها من مصدر لا يجيد من الكلام ما هو حكمة أو غيرها.

ولقد حكوا الكثير من هذا نسوق إليك واحدة منه:

زعموا أن رجلاً صاد قُبَّرة ـ والقُبَّر نوع من العصافير ـ فقالت له: يا هذا، ماذا تصنع بى؟ فقال: أذبحك فأطبخك فآكلك، فقالت: إنى لا أسمن ولا أغنى من جوع، فخير لك أن تدعنى وأعلمك ثلاث خصال نفيسة، وهى أجدى عليك من أكلى؛ فأما الأولى فأعلمكها وأنا فى يدك، والثانية إذا صرتُ على هذه الشجرة، والثالثة إذا صرت على الجبل، فقال: هات. فقالت: لا تأسفنَّ على ما فاتك. فخلّى عنها، فلما صارت فوق الشجرة قالت: إذا سمعت بأمر لا يقبله العقل فلا تصدق أنه حصل أو سيحصل، ثم طارت إلى الجبل، فقالت: يا شقى لو ذبحتنى لوجدت فى حوصلتى درة زنتها عشرون مثقالاً ـ أى ثلاثون درهمًا، (٥,٢ أوقية) ـ فعض الرجل على شفتيه ندمًا وأسفًا، ثم سكت قليلاً وقال: هات الثالثة. قالت: يا مسكين لسرعان ما نسيت الاثنتين، فكيف أعطيك الثالثة؟ ألم أقل لك: لا تأسفن على ما فاتك؟ وها أنت ذا تأسف على أن فُتُّكَ. وقلت لك: إذا سمعت بأمر لا يقبله العقل، فلا تصدق أنه يحصل أو يكون، وها أنت ذا تصدق أن فى حوصلتى درة تزن عشرين مثقالاً مع أن عظمى وريشى وجسمى كله لا يزنها.

وهذا يبين لك بعض طباع الآدمى الذى يستحسن الحكم استحسانًا نظريًا فقط، حتى إذا كان فى ميدان التجربة، والحياة العملية، غلبت عليه موازين الطمع، ونسى منطقه وحكمته. فهل يعتبر الإنسان حتى لا يكون سخرية لصغار الحيوان؟

ثالثًا: الالتفات إلى الآثار

ومن خصائص العقلية العملية، ذات النظر الواقعى، أن تقف على الآثار والأطلال والذكريات والمخلفات، لا وقوف الجامد الغافل المغلق، بل وقوف الحى المنتبه ذى الوجدان المتحرك اليقظ، فيناجى الآثار، ويستخبرها ما فعل الليل والنهار، ويكلف خياله أن ينصب سرادق هذه الحياة الماضية، وأن يقيم معالمها، وينفخ الحياة فى أصحابها، وأن يقف منهم بعد ذلك بمرصد يرقب حركاتهم، ويستمع إلى كلماتهم، ويدرس معاملاتهم، ويتأمل اضطرابهم بين مختلف العواطف الخيرة والشريرة، فإذا استوى له كل ذلك، ونبض به قلبه، وحسب نفسه

فى حياة قائمة حقًا، ذكر أن الذين يراهم الآن إن هم إلا أموات قد صاروا إلى البِلَى، ومضوا مع الزمن إلى حيث لا يعلم إلا الله؛ فيرق ويلين ويخشع، وكأنما انزاح عنه ألف غطاء وحجاب من الركود والغفلة.

أيتها الآثار: حدثينا عن أصحابك.. ماذا كانت قلوبهم وعواطفهم وهم ينشئونك؟ أكانوا غافلين عن مآلهم، سارحين فى لهوهم وآمالهم؟ أم كانوا ذاكرين مشمرين فى سفرهم إلى الله والدار الآخرة؟

أيها الأحياء: إن هذه الآثار تخبركم أن أصحابها مضوا إلى غايتهم، وهم أشد ما يكونون تعلقًا بالحياة، وإنكم كما سافروا لا محالة مسافرون، فتزودوا لسفركم هذا بتقوى الله عز وجل، تزودوا بما يصلح نفوسكم ويؤهلها للتجانس مع كنه الحياة الآخرة، وأوضاعها ونعيمها، واحذروا أن تسافروا إليه وأيديكم صِفْرٌ من كل خير.

ليكن الوقوف بالآثار شبيهًا بهذا أو أحسن منه، يذكِّرنا بحقيقة وضعنا فى هذا الكون العميق الخطير، ويذكِّرنا الله عز وجل، وما يجرى من تصاريف القدر على خلقه فى كونه العجيب.

إنك يا أخى داعية، مهمتك الأولى إيقاظ القلب وإحياء مواته، ومثل هذا الوقوف يصل بك إلى غايتك. لا تقف لتدرس هذه الدراسة الجافة، فتقول: إنهم كانوا يستعملون من أدوات المطبخ كذا وكذا، وكان لهم من أدوات الزينة كيت وكيت، وكانوا يقصرون الملابس أو يطيلونها، ويوسعونها أو يضيقونها، وكانوا يحرثون بالمحراث الذى نحرث به، وكانت طقوس عبادتهم تشابه طقوس العبادة عند أمة كذا، إلى آخر ما يجرى عليه الأسلوب المدرسى أو الجامعى، ثم ينتهى الدرس أو الرحلة، والطالب مغلق لم يستفد غير رسوم ميتة.

ولسنا نقصد آثار السابقين القدماء أو المحدثين فقط، بل نقصد كل أثر، ولو كان أصحابه أحياء، فآثارى السابقة، وآثارك الماضية، وآثار غيرنا من المعاصرين، فى كل منها واعظ يتكلم، لا يسمعه إلا القلب الذى يريد أن يفهم ويتعلم، فى كل منها سطر من قضاء الله، يتلو عليك آية من كتاب الوجود المتغير المتبدل، إذا أصغيت إلى وحيها، وأحسسته يتخلل شعاب نفسك، ويرطب جوانبها بحنين

الذكرى، إذا أصغيت وأحسست، ثم ترجمته للناس فى لباقة وخشوع؛ ألنتَ القلوب، وأحييت المشاعر، وأنرت البصائر.

ولست هنا بصدد التحدث عن الوقوف على الآثار لكل من يعنيه الوقوف على الآثار، بل أورد منه بعض ما يتصل بمهمة الداعية فقط، فلا تطالبنى بكلام جامع مانع، يشبع الأدباء والشعراء، ويعجب علماء الآثار ورجال التاريخ ونحوهم.. فلسنا نحب للداعية أن يدرس قواعد وفنونًا، إنما نريد له أن يلين قلوبًا، ويثير فِكرًا وعِبرًا. وفيما أوردناه سابقًا إشارة خاطفة، تشير إلى الطريق.

وقد تعلمنا هذا الوقوف على الآثار، والتأمل فى سطور الأيام والليالى، من القرآن الكريم، من الكتاب الجليل، الذى يشرح لكل داعية إلى الله أفضل وسائل الدعوة إليه عز وجل.

فنرى الله يندبنا إلى السياحة فى الأرض، والتأمل فى آثار الماضين وذكرياتهم، فيقول: ﴿قُلْ سِيرُوا فِى الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ [النمل:٦٩].

ويرسم لنا منهاج التأمل فيقول: ﴿أَوَ لَمْ يَسِيرُوا فِى الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [الروم:٩].

ويزيد عز شأنه فى العبرة، فيأمر بصفة خاصة أن نتأمل آثار أولئك الذين أنزل عليهم عذابه، لما فسقوا عن أمره، فأهلكهم وتركوا مساكنهم من بعدهم خلاء: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنْ بَعْدِهِمْ إِلاَّ قَلِيلاً وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ﴾ [القصص:٥٨]. وكم فى قوله تعالى: ﴿فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنْ بَعْدِهِمْ﴾ من عبرة تلين القلوب والمآقى، وتكسر النفوس للحى الوارث الباقى، ﴿وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ﴾، ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِى وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ ۝٢٣ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ﴾ [الحجر:٢٣، ٢٤].

ويشير الله إلى المساكن والقصور والآثار، لكى يقف المتأمل وقفة يناجيها أو يناجى أهلها الذين عمروها، ثم خلفوها وراحوا: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ۝٤٥ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِى الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِى فِى

الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٥، ٤٦].

بل إن الله سبحانه ليذكر أن هذا التأمل هداية، ويلفتنا إلى تحصيل الآيات من الديار التى نمشى خلال مساكنها الخاوية الصامتة، فكم فى صمتها من عظة لمن يسمع: ﴿أَوَ لَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلا يَسْمَعُونَ﴾ [السجدة: ٢٦]، ويبين لنا عز شأنه أن هؤلاء الذين أصبحت منازلهم خاوية من بعدهم ما حاق بهم غضب الله إلا لأنهم أعرضوا عن معين حياتهم وسبب صلاحهم، وعاندوا ومكروا لإحباط أمره سبحانه، وأن المؤمنين الذين كانوا يعاشرون هؤلاء ويساكنونهم قد أنجاهم بما آمنوا وكانوا يتقون، وهذا أبلغ فى العبرة، وأكمل للموعظة: ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ [النمل: ٥٠ ـ ٥٣].

وأخيرًا ترى أن الله عز شأنه يجعل هذه الآثار فى مقام الواعظ البليغ، ويجعلها حجة على الغافلين، حين ينزل بهم عذابه: ﴿وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوَ لَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾ وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾ وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِندَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ ﴿٤٦﴾ فَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ﴾ [إبراهيم: ٤٤ ـ ٤٧].

وكثيرًا ما يصرح الله سبحانه بأسماء هؤلاء السابقين وخطاياهم، فذكر الأثر مقرونًا باسم صاحبه وخطيئته وعقوبته أبعد غوصًا بالموعظة فى أعماق القلب، وإليك نبأ قوم لوط على سبيل التمثيل: أرسل لوط عليه السلام إلى أهل سَدُوم (شرق فلسطين) مكان البحر الميت الآن. وقد كانوا يقطعون السبيل، ويأتون فى ناديهم المنكر، فكان من أمرهم، بعد أن أنذرهم رسولهم، أن أمطرهم الله مطر السوء، وزلزل الأرض بديارهم فجعل عاليها سافلها، وظلت آثارهم باقية، تقص نبأهم على المعتبرين. وفيهم يقول الله عز وجل: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ [الحجر: ٧٥]، نعم فى ذلك آيات للمتوسمين، وأى آيات!!

كم يقرأ تلك القصة قارئ من المحجوبين، فيداخله الشك والعياذ بالله فى

صحتها! فاعلم يا أخى أن ذلك حق كل الحق، وفيه العبرة كل العبرة، فقد دمر الله هذ القرية بما أمطر عليها، وبما زلزل بها، وفى مكان هذا الزلزال انشقت الأرض فحدثت البحيرة الصغيرة التى تسمى الآن بحيرة «لوط» أو «البحر الميت»، وهى تسمية قديمة. فهؤلاء الصرعى تحت أنقاض قريتهم سرى اسم الموت منهم إلى البحر الذى غمر أماكنهم بمائه، وظلت بقايا الأنقاض على شاطئه، تطالع المارين بما كان من أحداث خطيرة فى تلك القرون الخاليات، قال الإمام ابن كثير فى تفسيره[١]: «إن الله أهلكهم بأنواع من العقوبات وجعل محلتهم من الأرض بحيرة منتنة قبيحة المنظر والطعم والريح، وجعلها بسبيل مقيم، يمر بها المسافرون ليلاً ونهاراً». ويقول أستاذنا العلامة المرحوم عبد الوهاب النجار فى كتابه قصص الأنبياء طبعة سنة ١٩٣٢ ص ٩٣: «وأعتقد أن البحر الميت ـ المعروف الآن ببحر لوط أو بحيرة لوط ـ لم يكن موجوداً قبل هذا الحادث وإنما حدث من الزلزال الذى جعل عالى البلاد سافلها وصارت أخفض من سطح البحر بنحو أربعمائة متر». ثم التفت إلى ما يقوله الأستاذ بعد ذلك رحمه الله: «وقد جاءتنا الأخبار فى السنتين الماضيتين «سنة ١٩٣٠ ـ ١٩٣١» بأنهم اكتشفوا آثار مدن قوم لوط على حافة «البحر الميت». وصدق الله العظيم: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ﴾».

ولقد أطلنا بعض الشىء ليقوى يقين المؤمن بما يقول الله عز وجل شأنه، ويزول شك الضعيف الملحد. والآن فلنمض فى سبيلنا الذى رسمه الله لنا من التأمل فى ديار هؤلاء الهالكين، فكان العرب يرون هذه الديار المدمرة فى سفرهم إلى الشام، ذهابًا وإيابًا، قال عز شأنه: ﴿وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا لا يَرْجُونَ نُشُورًا﴾ [الفرقان: ٤٠]، ﴿وَإِنَّ لُوطًا لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ إِلاَّ عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ﴿١٣٥﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا الآخَرِينَ ﴿١٣٦﴾ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِاللَّيْلِ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ [الصافات: ١٣٣ ـ ١٣٨].

وحادثة لقوم آخرين نسوقها على سبيل المثال أيضًا: هى حادثة قوم عاد، أصحاب الأحقاف فى جنوب جزيرة العرب، فقد أهلكهم الله بالريح العقيم،

(١) جـ٤ ص٣٠.

﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ۝٧ فَهَلْ تَرَى لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٧، ٨].

لم يبق من هؤلاء البائدين إلا مساكنهم، كانت تتراءى للعرب الرحَّل والمسافرين، ولكنها طمرت الآن تحت الرمال، بما سفَتْ عليها السوافى، فلعل الله يقيِّض لها من يكشف عنها، قال عز وجل عن العذاب الذى أرسله عليهم: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٢٤ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لا يُرَى إِلاَّ مَسَاكِنُهُمْ﴾ - وهذا شاهدنا من الآية - ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأحقاف: ٢٤، ٢٥]، ولقد خاطبنا الله عز وجل بما يصح أن نخاطب به نفوسنا فى كل وقفة على مثل هذه الآثار، فقال: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلا أَبْصَارُهُمْ وَلا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [الأحقاف: ٢٦]، ويقول عز وجل بعد هذا بقليل تكميلاً للعبرة: ﴿فَلَوْلا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [الأحقاف: ٢٨].

أرأيت يا أخى هذا المنهاج الكامل الذى يقرره الله؛ ليكون دستورنا فى النظر إلى الآثار؟ أرأيت كيف جعل السمع الأبصار والأفئدة مناط التبصر فى آيات الله لتحصل العبرة وأسباب الصلاح منها؟.. أرأيت بقوله: ﴿فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلا أَبْصَارُهُمْ وَلا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ﴾ لماذا؟ لأنهم ﴿كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾. وآيات الله ليست هى المتلوَّة فى كتبه فحسب إنما هى مع ذلك آياته المشهودة فى الآفاق.. فهل رأيت منهاجًا مثله يحيط بأطراف الموضوع وخطواته هذه الإحاطة؟ لقد سنه الله لسيد الدعاة، ولكل داعية من بعده، فكان عليه السلام يرى أن الوقوف على آثار الظالمين دون تأمل تتحرك به نفس الإنسان؛ فيخشع قلبه، وتندى عينه، ويرى أن الوقوف الجامد الخالى من العبرة يجلب سخط الله وغضبه، وهذا من صميم الحق، فلا نطيل بشرحه والبرهنة عليه، فتأمل فيه ينكشف لك وجهه. وكان عليه السلام يَسْتَنُّ بهذا السَّنَن الإلهى، ويعلم أصحابه كيف يقفون على الآثار.

خرج عليه السلام إلى غزوة تبوك، وفى الطريق إليها، تقع مدائن صالح أو ديار ثمود، وهى بيوت منحوتة فى الصخر، كما ورد فى القرآن الكريم، ونحن نعرف شأن هؤلاء، قبل أن يُبعث إليهم صالح عليه السلام، وبعد أن بُعث، ونعرف عصيانهم لنبيهم وتمردهم على حكم ربهم، حتى أرسل عليهم صاعقة فأخذتهم الرجفة فأصبحوا فى ديارهم جاثمين.

ولما اقترب رسول الله ﷺ من ديار ثمود - وهى لا تزال ظاهرة إلى اليوم - ثارت ذكرى الظلم والظالمين بنفسه، وهى ذكرى بغيضة، فسجَّى ثوبه على وجهه، واستحثَّ راحلته، وقال: «لا تدخلوا بيوت الذين ظلموا أنفسهم إلا وأنتم باكون، خوفًا أن يصيبكم ما أصابهم».

ولسنا نرى وصفًا أبلغ فى الدلالة على الوجدان المرهف والطبيعة الحية، بل لسنا نرى عملاً أعظم دلالة على حساسية الشعور من فعله ﷺ: «سجى ثوبه على وجهه واستحث راحلته».

إن التعاليم حية، بل حارة قوية فى قلبه عليه السلام، فهو غير محتاج إلى مشهد ينبه قلبه «حاشاه». إن المشهد يقع من قلبه ﷺ كما يقع المشهد من عين أحدنا، فانظر إلى السرعة الخاطفة التى تدرك بها عينك جمال الشىء أو قبحه، فتنشرح له فى الحال أو تشمئز. وانظر إلى السرعة الخاطفة التى ترى بها وجه حبيبك فتنبسط إليه، أو وجه عدوك البغيض فتنقبض لفورك منه، وليس أبغض إلى قلب رسول الله من وجه الظلم والظالمين، والكفر والكافرين، فما أن وقعت عين رأسه وعين قلبه على مشاهد ثمود، حتى شهد فيها غفلتهم عن ربهم وإعراضهم عن آياته وصدر رشدهم وصلاحهم، فظلموا أنفسهم وجهلوا حقيقة الحياة. . وما أن شهد ذلك حتى ثار وسخط، واستعاذ بالله، وسجى ثوبه على وجهه، واستحث راحلته. فيالله لهذه النفس الحية، البالغة ذروة الحياة والإحساس!

ولكن أصحابه ليسوا كهيئته ﷺ؛ فهم محتاجون إلى التذكير، وهو يخشى عليهم أن يلفتهم الإعجاب بهذه البيوت والقصور المنقورة فى الصخر عن العبرة والتأمل، فتقسو قلوبهم، فإذا قست كانوا أهون شىء على الله وعلى عدوهم. . قال لهم: «علام تدخلون على قوم غضب الله عليهم؟»، فناداه رجل فقال:

نعجب منهم يا رسول الله، فقال عليه السلام: «ألا أنبئكم بما هو أعجب من ذلك؟ رجل من أنفسكم، ينبئكم بما كان قبلكم، وما هو كائن بعدكم، استقيموا وسددوا، فإن الله عز وجل لا يعبأ بعذابكم شيئًا، وسيأتى الله بقوم لا يدفعون عن أنفسهم شيئًا».

وأهاب بهم جميعًا: «لا تدخلوا على هؤلاء القوم المعذبين إلا أن تكونوا باكين، فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم، لا يصيبكم مثل ما أصابهم».

والحق يا أخى أن هذا تعليم سام جدًا، فإن الأثر العجيب إذا كان لظالم وأُعجب به الإنسان، فقد أعجب بالظلم من حيث لا يدرى، وأدخل على قلبه الفساد والجمود وهو لا يشعر، وما الإنسان إلا قلبه الحى، وضميره المعتبر الذكى، فإذا فقده هان شأنه فلا يستطيع أن يدفع عن نفسه شيئًا؛ فانظر - يا رعاك الله - إلى حرص رسول الله ﷺ على حياتنا ويقظة بواطننا. يا قوم: من يريد الحياة فليتعلم أسرارها من رسول الله ﷺ. والله إن قلمى لا يكاد يطاوعنى أن أغادر هذا الموقف من مواقف الرسول عليه السلام لأمضى إلى ما أنا بسبيله من أجزاء هذا الكتاب.

والالتفات إلى العهود السابقة، وما كان للمرء فيها من ذكريات، أمر من طبيعة الإنسان، فلنوجه هذه الطبيعة وجهتها النافعة، فإذا ذكر هذه العهود أو أماكنها، فليجعل الذكرى حياة لقلبه، ورجوعًا إلى ربه.. فإذا كانت خيرًا فهى خير، وإذا كانت شرًا وفسوقًا ومجانة اعتصر الخير منها أسفًا وتوبة، وكان منها له حياة.. وإن كانت لا من الخير ولا من الشر، فليوازن بين حاله اليوم وحاله بالأمس، ثم ليخرج منه بعبرة.

كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يرعى وهو صبى إبل أبيه الخطاب فى بعض شعاب مكة، وكان عمر الصبى يرى نفسه هينًا على أبيه، لأنه كان غليظًا عليه يؤذيه ويتعبه. ودارت الأيام، وانبثق نور الدعوة المحمدية، ودخلها عمر، ثم هاجرت الدعوة إلى المدينة، فانتقل إليها عمر. ودارت الأيام والأعوام أيضًا، وانتقل رسول الله ﷺ إلى الرفيق الأعلى، وأبو بكر من بعده. ودارت الأيام دورة ثالثة، فإذا الإسلام مبسوط الرقعة، مرفوع الراية، نافذ الكلمة، وإذا عمر سيد

الناس جميعًا وأمير المؤمنين، ومدبر أمرهم بعد صاحبيه. ونسى عمر شعابه القديمة والإبل التى كان يرعاها هناك، وذهب مرة إلى مكة للحج فى رفقة من أصحابه، فإذا به فى إحدى جولاته يرى نفسه فى هذه الشعاب، وإذا بقلبه الذكى المرهف يقف فجأة ويتذكر عهود صباه فى هذه المراعى المجدبة، ويذكر ما كان من شأنه المغمور بين أقرانه الرعاة المغمورين، وما صار إليه اليوم من علو السلطان ونباهة الذكر. فيعجب لتصاريف الله التى تقلبت به بين الأمس واليوم هذا التقلب، ويصل به العجب إلى عمق العبرة، فيقول لصحبه: «لقد رأيتنى فى هذه الشعاب أرعى إبل الخطاب، وكان غليظًا يُدْئِبنى، ثم أصبحت وليس فوقى أحد»، ولا يجد تصويرًا يصوغ به مشاعره الرطبة إلا أن ينشد هذا البيت من الشعر:

لا شيءَ مِمَّا تَرى تَبْقَى بَشاشتُه ... يَبْقَى الإلهُ ويَفْنَى المالُ والولَدُ

من هذا يا أخى ترى ضرورة الحرص على الاستفادة من ذكر الآثار، واستحضار الذكريات، ونسأل الله توفيقًا فى ذلك نبلغ به ما نريد، فإنه يحتاج إلى فطنة وكياسة، وطبع حى متأثر.

رابعًا: النظر إلى صور المعنويات، وآثارها المحسوسة وأوصافها

وهذا مظهر رابع لخصائص العقلية العملية، التى تخاطب الناس بلغة الواقع، فعلى الداعية حين يتكلم عن الفضيلة والرذيلة، والخير والشر، والحق والباطل، وما إلى ذلك، أن يتجنب ما وسعه التجنب تحليل هذه المعنويات، والتكلم عن معانيها التجريدية، وفلسفتها النظرية، وأن يكف عن الجرى وراء الفروض والتخمين، وأن يكتفى بتناول صور هذه المعنويات، وآثارها العملية. فذلك هو الذى يراه الناس ويعقلونه، وهو الذى يحسه الناس ويتأثرون به، وهو الذى تتقرر به عواقبهم فى دنياهم وأخراهم. أما أن نصدع رءوسهم بالبحث عن الأخلاق مثلاً: ما أصلها، وكيف تتكون؟ فهذا ما لا شأن لعامة الناس به، ولا يتوقف عليه نفع لهم فى الدنيا ولا فى الآخرة. فحسب الجميع من الخلق الأصيل أن يروا حسن أثره فى القلب، وطيب ثمره فى عالم الواقع.

ونحن نتعلم هذا من القرآن الكريم، فانظر مثلاً حين أراد الله عز وجل أن يتحدث عن صفات فاضلة، تخلق بها قوم فاستحقوا رضاه، لم يذكر أصلها وفصلها، كما تذكر كتب الأخلاق، بل سَنَّ لنا ذلك السَّنَن الواضح، الذى يفهمه كافة الناس؛ لأنه يظهرها لهم فى صورة عملية واقعية، فقال: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا ﴿٦٣﴾ وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا ﴿٦٤﴾ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾ وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾ وَالَّذِينَ لا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴿٧٢﴾ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلامًا﴾ [الفرقان: ٦٣ ـ ٧٥].

وإنك لا ترى فى هذا الكلام المشرق شيئًا يكُدُّ الذهن، أو لفًا ودورانًا يورث السأم والملل، بل تراه كثير المعانى، سامى الحقائق، شديد الظهور، يزاحم ضوء الشمس فى الوضوح والجلاء، حتى ليخيل للجاهل أنه ليس شيئًا لقربه من البديهة وهو فى الحقيقة كل شىء فى بابه.

ولست أريد أن أحلل هنا هذا السياق الجميل، الذى تجلت فيه هذه الفضائل تجليًا عمليًا، فى مشية أصحابها، وكلامهم، وصلاتهم فى ليلهم ومناجاتهم لربهم، والقصد فى معيشتهم، والكف عن العدوان والشهوات المحرمة. . . إلخ، ولكنى أريد أن أنص على أن هذا السياق له من قوة التأثير ما ينهض الإنسان، ويحمله على الاقتداء بهذه المثل العملية الفاضلة، وذلك من أسرار الإعجاز، التى لا طاقة للعقول بالتحذيق فى آفاقها، فضلاً عن سَبْر أغوارها وأعماقها.

وطبعى أن رسول الله ﷺ قد أشرب هذا التعليم الحكيم، وطبع على هذا

المنهج القويم، فلم يعمد فى تعليم أصحابه إلى أنواع الفروض والتخمين، بل سار على النهج العملى الذى سنه الله تعالى. ومن طرقه عليه الصلاة والسلام فى هذا:

١ ـ أن يشير إلى الهيئة الظاهرة للعيان، أو يقف عليها ويستنبط منها ما يريد، ومن أمثلة ذلك: أنه كان يكرر فى أحاديثه المعنى السامى الذى يدور حول تقدير الرجال بقيمهم النفسية لا بصورهم الظاهرية، وكان يقرر هذا تقريرًا عمليًا يبلغ به قرارة اليقين، ويطيب له خاطر الفقير والمسكين. مر به يومًا رجل، فقال لرجل عنده جالس معه: ما رأيك فى هذا؟ فقال: رجل من أشراف الناس، هذا والله حَرِىٌّ إن خطب أن يُزوَّج، وإن شَفَعَ أن يُشفَّع. فسكت رسول الله ﷺ، ثم مر رجل آخر فقال رسول الله ﷺ: ما رأيك فى هذا؟ فقال: يا رسول الله، هذا رجل من فقراء المسلمين، هذا والله حرى إن خطب ألا يزوج، وإن شفع ألا يشفع، وإن قال أن لا يُسمع لقوله. فقال رسول الله ﷺ: «هذا خير من ملء الأرض من مثل هذا».

ونلاحظ أن رسول الله ﷺ لم يختر للمقارنة رجلين متماثلين فى المظهر فقرًا أو غنى، ولو أنه فعل وقارن بين فقيرين، ثم حكم بأفضلية أحدهما على الآخر؛ لكانت المقارنة كافية لتثبيت المعنى، وكذلك لو قارن بين غنيين؛ ولكنه عليه الصلاة والسلام قارن بين غنى خَبُثَ باطنه وحَسُنَ ظاهره، وبين فقير طاب باطنه وهان مظهره، وتلك من اللفتات النبوية الدقيقة، التى من شأنها أن تظهر لك المفارقة الشاسعة بين هذين الطرفين. وقال فى هذا المعنى يومًا لأبى ذر: أترى كثرة المال هى الغنى؟ قلت: نعم يا رسول الله، قال: فترى قلة المال هى الفقر؟ قلت: نعم يا رسول الله. قال: إنما الغنى غنى القلب، والفقر فقر القلب.

فهذه أسئلة ألقاها الرسول على أحد تلاميذه، وقد أجاب التلميذ على قدر ما يعرف، فذكر له المعلم الأعظم صلوات الله عليه الحكم الصحيح فى الغنى والفقر؛ ولكن أتراه اكتفى بهذا؟ لا، بل إنه مضى فى أسئلته الحكيمة المثيرة لرواكد النفس. قال أبو ذر: فسألنى عن رجل من قريش، هل تعرف فلانًا؟ قلت: نعم يا رسول الله، قال: فكيف تراه؟ قلت: إذا سأل أُعطى، وإذا حضر أُدخل. قال:

ثم سألنى عن رجل من أهل الصفة[١]، فقال: هل تعرف فلانًا؟ قلت: لا والله. فما زال يجلِّيه وينعته حتى عرفته، قال: فكيف تراه؟ قلت: هو رجل مسكين من أهل الصفة. قال: «فهو خير من طلاع الأرض من الآخر».

وفى كتب السنة ما يفيد أن هذه المقارنة تكررت بصور مختلفة لتقرير هذا المعنى نفسه.

ومما نمثل به لما نحن بصدده أن رسول الله ﷺ مر بالسوق يومًا، والسوق هو الدنيا مصغرة، هذا يبيع وهذا يشترى، وذاك ينادى على سلعته، وآخر مقبل وغيره مدبر، ولكل امرئ شأن يغنيه، فهذا يحدث نفسه بربح، وذاك يتمنى أن يظفر بسلعة رخيصة، فأراد عليه السلام أن يبين لهم قدر الدنيا التى أقبلوا عليها هذا الإقبال، وكانوا قد علموا من قبل أن متاع الدنيا قليل، وأنها لا تزن عند الله جناح بعوضة، ولكن هذا تعليم يقرر القواعد والأحكام العامة تقريرًا تجريديًا، فأحب عليه السلام أن يقرره اليوم لهم عمليًا، وهم فى زحمة الدنيا، ووسائل الإيضاح بين أيديهم.. مر عليه السلام وهو بالسوق بجدى أسَكَّ[٢] ميت، فقال لمن حوله: أيكم يحب أن هذا له بدرهم؟ فقالوا: ما نحب أنه لنا بشىء! وما نصنع به؟ قال: أتحبون أنه لكم؟ قالوا: والله لو كان حيًا لكان عيبًا فيه أنه أسك، فكيف وهو ميت؟ فقال: «والله للدنيا أهون على الله من هذا عليكم».

وكما قرر رسول الله ﷺ المعنى السابق فى أساليب متعددة من الموازنة العملية، قرر هذا المعنى بالوقوف مرات متعددة على مثل هذه المناظر التى تعافها النفس.

٢ - ومن طرقه عليه السلام فى تجلية المعانى الدقيقة الخفية، أن يلفت النظر إلى ما لهذه المعانى من آثار محسوسة فى القلب، لا تخفى على الإنسان.

سئل رسول الله ﷺ: ما الإثم؟ وما الإيمان؟ وما البر؟.. هذه أسئلة عن معانٍ دقيقة خفية، يطلب بها أصحابها تعريفًا وافيًا عن حقيقة ما يريدون، فبماذا أجاب عليه الصلاة والسلام؟

---

(١) الصفة: جانب من جوانب مسجد رسول الله ﷺ، كان يقيم به فقراء الصحابة الذين لا مساكن لهم.

(٢) أسك: صغير الأذنين.

تُرى لو سئل عن ذلك أحد الفلاسفة، أو أحد حملة الإجازات العليا من الجامعات الكبرى، فبأى شىء كانوا يجيبون؟. . أما حامل الإجازات العلمية فكان يذهب إلى بطون الكتب، ليستخرج منها أقوال العلماء، ويوازن بينها ويفاضل، ثم يخرج لك ببحث يظنه يرضى ويشفى، أما الفيلسوف فيعرفه لك تعريفًا تجريديًا يزيد الأمر غموضًا عليك، وقد يتفضل فيملأ الأفق من حولك تحليلات وتعليلات، وفروضًا وتخمينات، مما تخرج منه وأنت تشعر كأنك لم تتصل بشىء مما سألت عنه، ونادم على أنك سألت! ولكن انظر يا أخى إلى إجابة سيد العارفين، وقدوة المعلمين ﷺ:

الإثم: إذا حاك فى نفسك شىء فدعه. . الإثم: ما حاك فى صدرك، وكرهت أن يطلع عليه الناس.

الإيمان: إذا ساءتك سيئتك وسرتك حسنتك، فأنت مؤمن.

قال وابصة بن معبد: «رأيت رسول الله ﷺ، وأنا لا أريد أن أدع شيئًا من البر إلا سألت عنه، فقال لى: ادنُ يا وابصة، فدنوت منه، حتى مست ركبتى ركبتيه، فقال لى: يا وابصة، أخبرك ما جئت تسأل عنه؟ قلت: يا رسول الله أخبرنى، قال: جئتَ تسأل عن البر والإثم، قلت: نعم، فجمع أصابعه الثلاث، وجعل يَنْكُتُ بها فى صدرى، ويقول: يا وابصة، استفت قلبك: البر ما اطمأنت إليه النفس، واطمأن إليه القلب، والإثم ما حاك فى القلب وتردد فى الصدر، وإن أفتاك الناس وأفتوك».

وما أحب أن أعلق هنا بشىء، لأنى أريد أن تسائل نفسك عن مبلغ رضاك، واطمئنانك إلى سداد هذه الإجابة، التى تصل بينك وبين هذه المعانى بصلات قلبية وثيقة. فعليك يا أخى بهذا النهج الفطرى العملى، فإنه نهج يعرض عن كل ما لا تأثير له فى الموضوع، ويتناول ألوان الأحاسيس التى هى ثمر ذلك كله، والتى ينبعث الإنسان بقوتها إلى البر أو الإثم.

وقال عليه الصلاة والسلام: «فى القلب لَمَّتان: لَمَّة من الملك؛ إيعاد بالخير وتصديق بالحق، فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله سبحانه وليحمد الله. ولَمَّة من العدو (الشيطان)؛ إيعاد بالشر وتكذيب بالحق ونهى عن الخير، فمن وجد ذلك

فليستعذ بالله من الشيطان الرجيم، ثم تلا قوله تعالى: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلاً وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:٢٦٨]».

جزى الله عنا مولانا رسول الله ﷺ ما هو أهل له، بل ما الله أهل له. أى نفس هذه يا أخى؟! اقرأ الحديث، بل اقرأ كل ما سبق من أحاديث، وخبرنى: ماذا أراد لنفسه منا؟ إنها كلها لنا، فقد وقف حياته يعلمنا ويطهرنا، ويذود الشيطان عنا، ويحرص على سعادتنا، ويقول فى صدق وحنان: «إنما أنا منكم كالوالد من ولده». ماذا أخذ رسول الله لنفسه؟ لقد خرج من الدنيا ودرعه العزيزة مرهونة عند يهودى على حفنات من شعير!

لا نقرأ إلا تعليمًا للحقائق، وتوجيهًا للخير، وإيقاظًا لملكات القلوب، ونلمح ـ من خلال ذلك ومن وراء ذلك ـ قلبًا يفيض حنانًا، ورحمة، وحرصًا عجيبًا على سعادتنا.. حرصًا عميقًا نشهده فى كل كلمة، ونحسه فى كل عمل، كأشد ما يستغرق الرجل فى خير أبنائه. صلى الله عليك يا رسول الله صلاة دائمة وسلم تسليمًا كثيرًا.

ونقول مرة أخرى: أى نفس هذه؟! إنك تراه يا أخى يعلِّم هذا التعليم العجيب، وهو يحرص على تحذيرك وتنبيهك. فللقلب جانبان، فى كل جانب لِمَّة، واللِّمة: الشَّعَر الذى يجاوز شحمة الأذن مسترسلاً إلى المنكب ليقترب منه، إحدى اللمتين بيد الملك والأخرى بيد الشيطان، فهما يتجاذبان القلب من هاتين اللمتين، ولكل جذبة منهما خواطر فى الصدر، فجذبة الملك تبعث خطرات الخير وتصديق الحق بإذن الله، وجذبة الشيطان تبعث خواطر الشر وتكذيب الحق والشك فيه. أرأيت يا أخى هذا التنبيه العجيب وهذا التعليم السديد، الذى يحيلك إلى أعماق نفسك، ويلفتك إلى الانتفاع بتحليل خواطرك؟ فمن وجد خواطر الخير فليعلم أنه من الله سبحانه وليحمد الله عليه، ومن وجد خواطر الشر فليفر إلى الله مستعيذًا به من الشيطان الرجيم، ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلاً وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾.

وإننى يا أخى أدعوك معى إلى الاستغراق فى الإعجاب التام بجمال التعليم، وبجمال الرحمة فى قلب النبى ﷺ، فرحم الله عبدًا أدام الإصغاء إلى هواتف

قلبه، فما كان من هواتف الخير استجاب له وأمضاه وأنفذه، وما كان من هواتف الشر قمعه بالمجاهدة والتطهير والفرار إلى الله سبحانه وتعالى.

٣ ـ وصف هذه المعانى بأقرب أوصافها العملية، التى تبين أو تمثل حقيقتها، على أن يكون هذا الوصف مرغِّبًا أو منفرًا. فالذى يسأل الناس مثلاً إنما يريق ماء وجهه، وأكرم شيء على الإنسان وجهه، فانظر كيف يصور رسول الله ﷺ المسألة تصويراً يصد عنها وينفر منها.. قال عليه الصلاة والسلام: «لا تزال المسألة بأحدكم حتى يلقى الله تعالى، وليس فى وجهه مُزْعة[1] لحم». وقال: «إنما المسائل كُدوح[2]، يكدح بها الرجل وجهه، فمن شاء أبقى على وجهه ومن شاء ترك».

وقال على كرم الله وجهه: قلت للعباس: سَلِ النبى يستعملك على الصدقة ـ أى يكون من الأمراء الذين يشرفون على جبايتها ويأخذون أجرًا عليها ـ فسأله، فقال عليه الصلاة والسلام: «ما كنت لأستعملك على غسالة ذنوب الناس». وهذا الوصف حق، توصل إليه النبى عليه السلام بملاحظة معنى قوله عز وجل: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣].

وذكر عند رسول الله ﷺ رجل ينام كل الليل حتى يصبح، فقال: «ذلك رجل بال الشيطان فى أذنه».

وذلك أن الذى لا تحدثه نفسه أن يقوم من الليل، فيصلى، ويستغفر، ويدعو الله عز وجل، إنما هو رجل غافل، محجوب عن حقيقة الخير، جاهل بأوقات المغانم؛ رجل يسخر به الشيطان، ويبول فى أذنيه الفارغتين، استهزاء بغفلتهما عن نداء الله فى الثلث الأخير من الليل: هل من مستغفر فأغفر له؟ هل من تائب أتوب عليه؟... إلى آخر الحديث القدسى المعروف. فنعوذ بالله من الغفلة عن ذكره بالليل والنهار.

وقال عليه الصلاة والسلام: «الجمعة ـ أى صلاتها ـ حج المساكين»، وهو وصف صادق يلم بحقيقة الجمعة من هذا الوجه خير إلمام، فالمساجد بيوت الله، والكعبة المشرفة بيته عز وجل، لكنها تمتاز بأنها أعظم البيوت قدرًا وبركة. فالحج

---

(١) مزعة: قطعة.

(٢) كدوح: خدوش.

إلى المساجد يوم الجمعة لزيارة الله كالحج إلى زيارته عز وجل فى بيته المعظم، مع مراعاة أن الفرق بين حج المساجد وحج البيت الأكبر، كالفرق الشاسع بين حرمة هذه المساجد العادية وحرمة بيت الله الحرام، لكن الله عز وجل بفضله وكرمه يطَّلع على المساكين من عباده، الذين تقعد بهم حالهم عن الحج الأكبر، فيكتب لهم مثوبة حج بيته الحرام. فطوبى للمساكين، عيال الله فى الأرض، وأولى الناس برعايته وحمايته، فاللهم ارحمنا برحمتك إياهم، واجعلنا منهم، واحشرنا فى زمرتهم تحت لواء رسولك الكريم.

ومن حديث لرسول الله ﷺ: «ارتعوا فى رياض الجنة! قالوا: وأين رياض الجنة؟ قال: مجالس الذكر، فاغدوا وروحوا فى ذكر الله، وذكِّروه أنفسكم».

وقد قدمنا فى كلمة سابقة، أن ذكر الله نفحات تتنزل من رياض ملكوته، تعجل للإنسان أرواح الجنان وهو فى قرارة الدنيا، وكان بعض الصالحين يقول: «من أحب أن يستوطن الجنة وهو فى الدنيا؛ فليستوطن مجالس الذكر». ويقول بعضهم فى هذا: «إن فى الدنيا جنة من لم يدخلها لا يدخل جنة الآخرة». وهذا كله مأخوذ من الوصف الحقيقى الذى أبان به عليه السلام حقيقة الذكر.

ويقول عليه السلام: «إن المؤمن يُنضى شيطانه[1] كما ينضى أحدكم بعيره فى السفر». وما نرى وصفًا أصدق ولا أبين من هذا الوصف، الذى يشرح اجتهاد المؤمن فى سفره إلى الله عز وجل، فإنه سفر يبادر فيه بالطاعات والباقيات الصالحات، ويتحصن فيه بدوام الذكر، فلا يجد شيطانه فرصة للقبض على عنانه، وتحويله عن غايته.

ولكل إنسان شيطان يلزمه من مولده إلى مماته، كما يقول عليه السلام، وشيطان المؤمن الجاد فى سيره يلهث من وراء صاحبه حتى يلحقه الضنى والهزال، وليس أطيب لقلب المؤمن من هذا الوصف، ولا أبعث منه على مضاعفة الجد والحذر.

هذه يا أخى أحاديث تتناول وصف بعض الرذائل، ووصف بعض الفضائل، سقناها على سبيل التمثيل لأسلوب من أساليب الدعوة إلى الله، وهو الذى

(١) ينضى شيطانه: يضنيه ويلحق به الهزال.

وضعناه عنوانًا للمظهر الرابع من مظاهر العقلية العملية فى صدر هذه الكلمة.

وهى أوصاف كما رأيتها تمتاز بميزتين أصيلتين: الصدق التام فى بيان الحقيقة، ثم إثارة شعور البغض أو الرضى إثارة قوية، تنفِّر من الرذيلة، أو تستحث الهمة إلى الفضيلة، وحذارِ يا أخى أن تظن أن هـذه أوصـاف وضعت كيفما اتفق، بقصد الترهيب والترغيب فقط، هيهات هيهات، إن هذا شأن البشر العادى، أما رسول الله ﷺ، فإنه لا ينطق عن الهوى، ولا يحدث إلا بميزان، فهو الوصف الصادق الذى يقتنص الحقيقة، ويضعها بين يديك. وحذار مرة أخرى، أن تظن فى هذه الأوصاف شيئًا من إرادة التمثيل والمجاز، كما يظن بعض ضعاف العقول أحيانًا، فإن مقام رسول الله ﷺ من جلالة القدر بحيث ينتهى مثلى ومثلك ومن هو أكبر منى ومنك عن أن يقتحم حرمته، فيؤول كلامه، ويصرفه عن ظاهره بغير موجب، ولو أراد رسول الله ﷺ غير الظاهر من لفظه، لكان فى التشبيه وضرب الأمثال، وأنواع الاستعارات، وغير ذلك من ألوان البيان العربى، ما فيه الكفاية لبيان مراده.

وقد ساق رسول الله ﷺ الكثير من مراده فى تشبيهات، وضرب أمثال، واستعارات وكنايات، حين رأى المقام يقتضى ذلك، فكن على هذا يا أخى فى تفهم كلمات الرسول، وتفهم كلام الله عز وجل، فهو أبقى على عقيدتك، وأنزه لعرضك ودينك.

أقول هذا حتى لا يترك أحدنا لنفسه الحبل على الغارب، فيصف الفضائل بما يشاء من الأوصاف الحسية التى تحلو فى بيانه الصناعى، ويصف القبائح بما يرضاه الفن الدارج.. لا، إننا نصف الحق، فعلينا أن نستقى هذه الصفات من المصدر الذى تعلمنا منه الحق: الكتاب والسنة، فإذا عدوتهما لحقك الخطأ، وظهر التناقض فى كلامك بعد قليل. هذا شأن الورعين فعليك به، والتزم منهاجهم فى كل وصف تريد أن تقرب به حقيقة من الحقائق إلى أفهام الناس وقلوبهم.

ولنضرب لك مثلاً من كلام السلف تنسج على منواله إن شاء الله، فمثلاً يقول عبد الله بن مسعود رضى الله عنه: «شيطان المؤمن مهزول»، وهو وصف يأخذ من معين الحديث الذى سقناه منذ قريب. ويقول فى هذا المعنى نفسه قيس بن

الحجاج: «قال لى شيطانى: دخلتُ فيك وأنا مثل الجزور[١]، فصرتُ الآن مثل العصفور، قلت: ولم ذاك؟ قال: تذيبنى بذكر الله».. فهى محاورة تصور ما بين المؤمن وشيطانه، بحيث لا تعدو ما أوضح رسول الله ﷺ من ذلك.

وهاك مثلاً آخر، وهو يأخذ من معنى الحديث الذى يصف الصدقات بأنها غسالة ذنوب الناس.

قال أسلم مولى عمر بن الخطاب رضى الله عنهما: «قال لى عبد الله بن الأرقم: دلنى على بعير من العطايا، أستحمل عليه أمير المؤمنين - أى يطلبه من أمير المؤمنين ليحمل عليه أثقاله ويقضى مآربه - قال أسلم: فقلت له: نعم، هذا جمل من إبل الصدقة». وهنا عف عبد الله بن الأرقم عن هذا الجمل، لأنه كان يرجو جملاً من الغنائم، أو مما شُرى أو حُبس للمصالح العامة، فقال لأسلم يصور له زهده فى جمل الصدقة: «أتحب لو أن رجلاً بادنًا فى يوم حار غسل ما تحت إزاره ورُفْغَيْه[٢]، ثم أعطاكه فشربته؟ قال أسلم: فغضبت، وقلت: يغفر الله لك، لم تقول لى مثل هذا؟ قال: فإنما الصدقة أوساخ الناس يغسلونها عنهم».

هؤلاء يا أخى كانوا ينظرون إلى كلام رسول الله بالمنظار المكبر، أستغفر الله، بل بالمنظار الذى يرى المعانى على حقيقتها كبيرة عظيمة، منظار القلب المتدبر الواعى، ثم يأخذون من قلوبهم ما يشاءون، فيتصرفون فيه على ما رأيت.

وقد يأتى شىء من هذا القبيل فى باب مصادر الداعية إن شاء الله تعالى. جمعنا الله وإياك على الحق الذى اجتمعوا عليه إنه قريب مجيب.

خامساً: مقابلة الحقائق المغيبة كالسمعيات بأحوال دنيانا العملية

قد وصف الله لنا أحوال الجنة والنار، ووصف الحساب والميزان، ووصف عرض الناس عليه، وما يكون من حسرة يومئذ وندامة، ووصف زلزلة الساعة وما لها من هول شديد، وتحدث عن ملائكة الرحمة، وملائكة العذاب، ووصف العرش والكرسى، وذكر اللوح والقلم، وذكر غير ذلك من حقائق لا شك فى

---

(١) الجزور من الإبل يقع على الذكر والأنثى.
(٢) رفغيه: إبطيه.

وجودها، ولا شك فى أننا لا نستطيع أن نبصرها أو نحسها؛ لأننا لم نجهز بالمدارك التى تدرك هذه الحقائق العليا، كالذى يولد فاقدًا حاسة الشم مثلاً، لا يستطيع أن يجد ما للعطر والمسك والزهر من ريح طيب، لأنه لم يجهز بالحاسة المختصة بإدراكه؛ فإذا أراد الله عز وجل أن يطلع أحدًا من خلقه على شىء من هذه المغيَّبات، كان ذلك بغير حواسنا العادية؛ يرفع عنه الحجاب فيرى ما شاء الله أن يرى: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا (٢٦) إِلاَّ مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا﴾ [الجن: ٢٦، ٢٧].

وقد جاءت سنة رسول الله ﷺ مفصِّلة لما أجمل القرآن الكريم من هذه الحقائق المغيبة.

وهذا باب خطير، لو أحسنا عرضه على الناس حتى أحسته قلوبهم، وتمثلته نفوسهم، لأنقذنا الإنسانية من شر مستطير، ولفتحنا لها بإذن الله أبوابًا تنفذ منها إلى سعادة الدنيا والآخرة، فإن الناس أصيبوا بالغفلة عن معادهم، وكثير منهم أصيب بالشك فيما بعد الموت من حياة وحقائق، وأصيب بغير ذلك من إنكار الجن والملائكة وكل ما يقال عنه أنه وراء المادة، وهذه الآفات التى أدركت أكثر الناس حجبتهم عن خير كثير، أو عن الخير كله، وجعلتهم لا يؤمنون إلا بالمدنية المادية وما فيها من المتاع الأدنى، فهم يتنافسون فيها كالمساعير، ويتقاتلون عليها كالمجانين، ويذهبون فى هذا التنافس والتقاتل إلى أبعد مدى من الشناعة.. إلى مدى نحسب معه الوحوش أقرب إلى الإنسانية منهم، ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً﴾ [الفرقان: ٤٤]، إذًا فلندعُ هؤلاء إلى الإيمان بالغيب الذى جحدوه، ولندعُهم إلى الإيمان بما بعد الموت من حياة وحقائق، حتى تعود إليهم إنسانيتهم وسلامهم وسعادتهم.

والمدار هنا على حسن عرض هذه الحقائق، فيجب أن تعرض عرضًا يلمس بها القلوب لمسًا، فتفيق فجأة، أو تفيق بالتدريج.

فى الناس أقلية يزعمون أنهم خاصة أهل الفكر، فهم يحتاجون إلى أن تعرض عليهم هذه الحقائق فى أساليب علمية، وقضايا منطقية، فلتدع هؤلاء بمنطقهم إذا استطعت، أما الجماهير فمن أقرب الوسائل إلى التأثير فيهم أن تعرض كل حقيقة

من هذه الحقائق بعد أن تختار لها ما يقابلها من أحوال دنيانا العملية، فتعرض الحقيقة وشبيهها، وتعقد بينهما شبه مقارنة، فإن هذا مما يفتق لها أغلفة القلوب وينفذ بها إلى سويدائها. ونوصى هنا بكثرة التذكير وتلاحقه، فإن طول الأمد ينسى، فتقسو القلوب.

وقد وقف أحد الإخوان مرة يتكلم فقال: إن ملكًا عظيمًا أراد أن يحدث فى ملكه منصبًا خطيرًا، هو منصب النيابة عنه فى ناحية هامة من ملكه، فاستشرف لذلك كبراء المملكة وأمراؤها، وأخذ كل منهم يبدى من التلميحات ما يكاد يصرح برغبته فى تولى هذا المنصب، وفيما هم كذلك فاجأهم الملك بأنه سيختار شخصًا ليس فى حسبانهم، شخصًا من عامة الناس لا يؤبه لشأنه، وكلفهم أن يقروا له بالتعظيم، احترامًا لأمر الملك، واختياره إياه، فنزل الجميع على إرادة الملك طائعين، إلا شخصًا أكل الغيظ قلبه، وملأ الكبر نفسه، فأبى أن يقر لهذا الوضيع - فى زعمه - باحترام أو تعظيم، وعصى أمر الملك، فطرده الملك من نعمته، وأعلن عليه غضبه. فاغتاظ هذا المطرود وأخذ يقول: سوف ترى ما يحصل من هذا الذى قدمته علىَّ؛ سوف أتحبب إليه وإلى أبنائه حتى يجحدوا جميلك، ويبتعدوا عنك؛ ويكون أكثرهم معى على ما يغضبك، فأخرجهم من كرامة قربك، وعزة الجاه بك.

وكان الملك رحيمًا بهذا الرجل وذريته؛ فأخذ يرسل إليهم يذكرهم عداوة هذا الخبيث المطرود، ويحذرهم منه، وينهاهم أن يطيعوه فى شىء، وينذرهم بأن العاقبة إذا أطاعوه لن تكون إلا الطرد من عزة المنصب ونعمة الملك، إلى حيث الهوان والشقاء.

ومضى الأخ يقول: والعجيب أيها الإخوان، أن هذا الشخص الذى ولى المنصب الخطير وذريته من بعده، سرعان ما نسوا عداوة هذا العدو المبين، فصار أكثرهم يعرض عن تحذيرات الملك، ويستمع إلى حلاوة حديث عدوه الجذاب وإنها لحلاوة فيها السم الناقع، فإذا مال أحدهم إليه ظل يستدرجه حتى يوقعه فى غضب سيده، فيكون من المطرودين. فهل هذا من العقل والحزم؟ وهل هو من الإقرار بجميل الملك وشكر نعمته؟ هل من العقل والحزم أن ينقاد هؤلاء إلى عدوهم

اللدود الذى طرده الملك بسببهم؟ هل من العقل والحزم أن يقتربوا منه، فضلاً عن أن يطيعوه فى شىء يغضب سيدهم ولى نعمتهم؟

قال الأخ: أيها الإخوان إذا كنتم تعجبون لهذا الشأن أو تستبعدون حدوثه، فاعلموا أنه قد حصل فعلاً، وإننا نحن الواقعون فى هذا الذى نستبعد.. فإن الملك العظيم هو الله عز وجل، والمنصب الخطير هو منصب النيابة والخلافة عنه فى هذه الأرض، وكبار المملكة هم ملائكته، الذين قال لهم: ﴿إِنِّى جَاعِلٌ فِى الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]، فكأنهم استشرفوا للمنصب وأحبوا أن يؤثرهم الله به، وأرادوا أن يشيروا من بعيد فى أدب جم إلى استحقاقهم هذا الشرف، فقالوا: هل يكون جديراً بهذا المنصب إلا من يصلح له ولا يفسده: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [البقرة: ٣٠]، فكأنهم يشيرون إلى خصوصياتهم العالية التى ترشحهم لهذا الأمر الخطير، وانظر إلى قولهم: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾، فأجابهم الله عز وجل: ﴿إِنِّى أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠].

وأعلن الله حقيقة الشخص المختار، فإذا هو قبضة من تراب الأرض لا أقل ولا أكثر، وأمرهم أن يعظموه لأن الله عظمه ورفعه:

﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّى خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِى إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [ص: ٧١ ـ ٧٨].

هذه يا إخوان قصتنا مع هذا العدو اللدود، يقصها الله علينا، فماذا كان من شأننا معه؟ لقد وقعنا فيما كنا نستبعده ونستنكره من الرجل وذريته، وما هذه الذرية إلا نحن، وما الخطأ الشنيع إلا خطؤنا نحن.

لقد ثار العدو فقال: ﴿رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ [الحجر: ٣٩، ٤٠]، ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا

مذحورًا لمن تبعك منهم لأملأن جهنم منكم أجمعين ﴾ [الأعراف: ١٧، ١٨].

فانظروا يا إخوان إلى أى مدى بلغ حرص هذا الشيطان على إهلاكنا وإخراجنا من رحمة الله؟ كل هذا لعداوته وحقده الذى لا يطفئه إلا أن يكبنا على وجوهنا فى نار جهنم، وهيهات أن يطفأ هذا الحقد أو تذهب هذه العداوة.

وكان من رحمة الله بنا أن نبهنا إلى هذا العدو وحذرنا من كيده: ﴿ يا بنى آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ﴾ [الأعراف: ٢٧].

﴿ إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوًا إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير ﴾ [فاطر: ٦].

ويلفتنا إلى الحرص على عزة الخلافة، ويحذرنا أن ننحرف إلى موالاة هذا العدو فيقول: ﴿ أفتتخذونه وذريته أولياء من دونى وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلاً ﴾ [الكهف: ٥٠].

وصور لنا حقده الذى لا يهدأ، فذكر أنه لا يزال بفريسته، يستجرها بعيدًا عن الله، حتى تقع فى قبضته؛ فيسومها الحرمان من الرحمة والكرامة، ثم يكبها أخيرًا فى نار جهنم، فإذا بلغ أمنيته؛ وقف يتشفى بمنظرها وهى تحترق فى نار السعير، ويصب فى أذنها من التهكم والسخرية ما يقطع القلب غيظًا وألمًا: ﴿ وقال الشيطان لما قضى الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لى عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لى فلا تلومونى ولوموا أنفسكم ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخى إنى كفرت بما أشركتمونى من قبل إن الظالمين لهم عذاب أليم ﴾ [إبراهيم: ٢٢].

وأخذ الأخ يتكلم عن غفلة الإنسان عن رسالته فى خلافة الأرض وما فيها من عزة وكرامة، ويتكلم عن غفلته عن عداوة الشيطان الرجيم الذى لا أَرَبَ له إلا أن يهلكنا، ويتكلم عن غفلتنا عن تحذير الله وإنذاره، حتى انتهى بوجوب الخروج عن هذه الغفلات كلها، والإقامة على الحذر والخشية والتنبه؛ أى الإقامة على ذكر الله وشكره.

وليس هذا النوع من قبيل ما تقدم فى ضرب الأمثال، فإن ما سقناه هناك إنما هو خاص بتشبيه حال المعنويات بحال تناسبها من الواقع، أما هنا فمقارنة بين أمور واقعة فعلاً فى عالم لا نراه وبين أمور تشبهها بعض الشبه تقع فى عالمنا المنظور.

والقصتان اللتان ذكرناهما الآن، ليستا من نسج الخيال - نستغفر الله - فإن إحداهما حصلت فعلاً فى الملأ الأعلى، والأخرى مما يقع أو مما يجوز وقوعه فى عالمنا.

وبهذه المقارنة نقيس الغائب بالحاضر، حتى تنقشع عن القلب حالة الغموض والإبهام التى تحيط بهذه السمعيات، فيشاهدها القلب حتى لكأن الإنسان يراها رأى العين. كما يقول سيدنا حارثة رضى الله عنه، فى الحديث المشهور: «يا رسول الله عزفت نفسى عن الدنيا، فأسهرت ليلى، وأظمأت نهارى، حتى لكأنى أرى عرش ربى بارزًا، وكأن الجنة عن يمينى والنار عن يسارى والصراط تحت قدمى».

ومما نسوقه على سبيل المثال أيضًا: أن من عادة الملوك الحكماء أن يكافئوا أهل الجد والإخلاص الذين يعملون غير ناظرين إلى جزاء مادى. هؤلاء الصادقون الذين يرضون سيدهم، يكونون فى نفسه فى المحل الرفيع، فإذا قدموا عليه يومًا أفاض عليهم كرامته، وتلقاهم بما يشرح صدورهم، وأمر حاشيته «والتشريفاتية» أن يدخلوا عليهم للترحيب بهم والاحتفاء بمقدمهم، والتسليم عليهم.

هذا الذى يحدث فى الدنيا، يحدث خير منه لدى ملك الملوك عز وجل.. اقرأ معى قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ (٢٢) جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ (٢٣) سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٢ - ٢٤].

ويفيض رسول الله ﷺ فى توضيح حال هذه الكرامة بقوله: «إن أول من يدخل الجنة من خلق الله الفقراء المهاجرون، الذين تُسد بهم الثغور وتُتقى بهم المكاره، ويموت أحدهم وحاجته فى صدره لا يستطيع لها قضاء. فيقول الله تعالى لمن يشاء من ملائكته: ايتوهم، فحيوهم، فتقول الملائكة: نحن سكان سمائك. وخيرتك من خلقك، أفتأمرنا أن نأتى هؤلاء ونسلم عليهم؟! فيقول: إنهم كانوا عبادًا يعبدوننى، لا يشركون بى شيئًا، وتسد بهم الثغور، وتتقى بهم المكاره، ويموت أحدهم وحاجته فى صدره لا يستطيع لها قضاء. فتأتيهم الملائكة عند ذلك، فيدخلون عليهم من كل باب، سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار».

هذان أمران أحدهما غيب من غيب الملأ الأعلى، والآخر مما يألفه أهل هذه

الدنيا، ولكن الموازنة بينهما تسر القلوب، وتبعث النفوس على الاشتغال بحقائق هذا الغيب.

ولا تظن أننا ذكرنا فى هذه المقارنة كل ما يجب أن يقال، إنما فتحنا الباب، وأشرنا إلى الطريق فقط، وما عليك إلا أن تستعين بلباقتك فى إتمام المقارنة، فأمامك مثلاً أن ملوك الأرض لا يلتفتون إلا إلى تكريم أهل الثراء والوجاهة ممن يتظاهرون بالإخلاص والعمل. ولكن الله عز وجل لا يقيس بهذا المقياس، فالمعول عليه عنده حقائق القلوب ومعادن النفوس، حتى ليكون أول من يدخل الجنة من خلقه «الفقراء المهاجرون... إلخ». وأمامك غير هذا مما لا نطيل بذكره فهو واضح.

ويذكر الكثير من إخواننا، أن حضرة صاحب الفضيلة المرشد العام للإخوان المسلمين، الأستاذ حسن البنا، كان يعظ الناس بموعظة من هذا القبيل، فيذكر(١) أن أحدنا إذا كانت له قضية، وجاءه إعلان من المحكمة بموعد الجلسة، فإنه يشتغل بأمر هذه القضية فلا يغيب لحظة عن باله، فيستشير أهل العقول الناضجة، ويشرع فى إعداد المستندات، وتوكيل المحامى، واختيار الشهود، فإذا كان يوم الجلسة، مضى إليها وهو منفعل بشتى الأحاسيس، كل هذا وقد يحكم عليه ـ إذا حكم ـ بغرامة مالية، أو سجن شهور أو سنوات.. فإذا حكم عليه كان أمامه فرصة يرفع فيها أمره إلى محكمة أعلى هى محكمة الاستئناف، فإذا حكمت عليه رفع أمره أخيراً إلى محكمة النقض والإبرام.. مع هذه الفرص تراه يوم الجلسة كثير الوساوس والمخاوف.

يقول الأستاذ المرشد: إذا كان حالك يا أخى فى هذه القضية التافهة على ما نرى، فكيف وأنت مدعو إلى قضية كبرى، إعلان الدعوة فيها القرآن الكريم، والمحضر الذى يعلنك بالمحاكمة هو رسول الله ﷺ، وموعد الجلسة يوم الفصل، ومكانها الساهرة(٢)، والقاضى ليس بشراً من البشر، بل هو رب العزة والجبروت،

---

(١) نحن هنا نلخصها فى إيجاز فقط، وإلا فهى مسهبة رائعة. اهـ.

(٢) الساهرة: هى أرض يوم القيامة، والله يقول: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ﴾ [النازعات: ١٣، ١٤].

قهّار السموات والأرضين، وشهودك منك وعليك، وهم لسانك ويداك ورجلاك وجلدك، والحكم أخيراً لا نقض فيه ولا إبرام، لأنه حكم القاضى الذى لا يضل ولا ينسى، ولا غرامة هنا ولا إيقاف تنفيذ، وإنما هنا نار وقودها الناس والحجارة، أو جنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين.

كل ذلك يستشهد له فضيلة الأستاذ - رحمه الله - بالقرآن الكريم وأحاديث رسول الله ﷺ.

وما نحسب إلا أن هذه الأمثلة قد جلَّت لك حقيقة ما نريد.

سادسًا: النظر فى آيات الله فى الآفاق ونعمه السابغة على الناس

• تمهيد:

يا أخى، ها هو ذا الكون أمامك، تملؤه آيات الله سبحانه، فى السماء والأرض، وها أنت ذا تنظر إليه بعينك، وتصغى إليه بأذنك، وتذوق طعومه بفمك، وتشم روائحه بأنفك، وتسير فى فجاجه برجليك، وتعالج مواده بيدك، فأنت متصل به وهو متصل بك، لا ينفك أحدكما عن الآخر.

هذه حقيقة لا تقبل المراء، فهى من الأمور الواقعة تحت الحس، وإدراكها من البديهيات التى لا تقبل الجدل.

فأنت إذ تقول إنى أرى سماء وأرضًا، وشمسًا وقمرًا، وجبالاً وأنهارًا، وزرعًا وأنعامًا وناسًا؛ أرى ذلك كله، أرى شخوصه، وأسمع أصواته، وأشم روائحه، وألمسه ويلمسنى، وأتسرب إليه ويتسرب إلىَّ - حين تقول هذا، إنما تعبر عن شىء ملموس، واقع تحت حسك وحس الناس جميعًا.

• ماذا فهمنا من الكون؟

ومن حقنا أن نجعل هذا الكلام مقدمة لنتيجة منطقية مترتبة عليه هى: أن الإنسان لا بد أن يكون قد أحاط بهذه الأشياء التى اتصل بها واتصلت به، وتسرب

إليها وتسربت إليه، فأشبعها نظراً وتأملاً، حتى أفضى إلى أسرارها وعرف أقدارها. . أليست هى أول شىء طالعه فى هذا الوجود؟ ومعرفتها أول بدهية حلت فى خزانة معارفه؟

لا نطلب إليه أن يحيط بها إحاطة علمية، على معنى الاستيعاب الفنى الاصطلاحى الجامع، فهذا جدّ عسير، إنما نطلب أن يكون نظره إليها نافذاً إلى دقائق تكوينها وعجائب الصنع فيها، حتى يستشعر جلال وجمال ما فيها من معالم الصنع ووفور النعمة والعناية. هذا ما نرتبه بل ما يرتبه المنطق على المشاهدة الساذجة الأولى. . فهل ساير الإنسان هذا المنطق؛ فترقى فى نظره إلى الوجود، مبتدئًا من النظر الأولى السطحى إلى النظر الشامل النافذ، المثير لعواطف الإعجاب؟ أم أنه اكتفى بالنظرة العابرة الغافلة، ووقف لا ينقل قدمًا على قدم؟

• طفولة الإنسان:

إنه رأى السماء وهو طفل، ويرى السماء الآن وهو رجل، فهل تغير نظر الرجولة عن نظر الطفولة؟. . إنه رآها وهو طفل شيئًا أزرق يغطى الدنيا، فهل تأمل فيها وهو رجل؟ هل تأمل فى سعة أقطارها، وامتداد أرجائها، وعظمة خلقها؟ هل حاول أن يمد يده إليها ـ مثلاً ـ لينظر حقيقة عجزه عن أن ينالها؟ هل فكر فى أن يقارن بين ما يصنعه هو بيده وبين ما صنع الله فى هذه السموات الهائلة الرائعة، لينكشف لقلبه خطورة هذه الآية الضخمة المعجزة؟ هل حدّق بعين قلبه فى هذا المخلوق الجليل العجيب، باحثًا عن خالقه المقتدر العظيم، الذى يصنع ما تراه العيون، وهو مستتر بلطفه عن العيون؟ هل نظر إليها هذا النظر وهو رجل؟ أم ظل ينظر كما كان وهو طفل؟. . لا مراء أن نظر الرجل إلى السماء، وإلى غيرها من آيات الله، لا يعلو نظر الطفل، فالرجل من هذه الوجهة طفل كبير؛ لم يتقدم فى نظره إلى الوجود تقدمًا يذكر، بل إن الإنسانية فى تاريخها الطويل لم تتقدم فى هذا المضمار تقدمًا يسمح لنا أن نقول إنها غادرت به طور سذاجتها الأولى وطفولتها الغافلة اللاهية.

• الإنسانية بين نظرة ونظرة:

إن تقدم الإنسانية الصحيح مرهون بالانتقال من النظر الساذج إلى النظر القوى الفاحص، الذى يفتح عين صاحبه وقلبه على روعة الآية التى ينظر إليها، ويبث فيه الانفعال بما فيها من عبر وحكمة. أو هو النظر الذى يبصر الأشياء فى إطار صلتها بخالقها وصانعها تعالى. فى هذا النظر تقدم الإنسانية وكمالها، فإن النظرة عنوان صاحبها أو عنوان حياته الباطنية: فإذا كانت نظرة جامدة فهى عنوان الباطن الجامد، والشعور الخامد، والقلب المحجوب.

وإذا كانت نظرة قوية حية، فهى آية الباطن القوى الحى، والوجدان المنفعل المياد، والقلب اليقظ الفياض بمختلف المشاعر الكريمة. وإنما يكون ذلك حين يبصر العقل طابع المخالفين فى الأشياء.

فانظر يا أخى إلى الإنسان وغفلته، بل وبلادة مداركه الباطنة.. ينظر إلى السماء، وينقل طرفه فى أنحائها، فلا تحرك فيه إحساسًا من أحاسيس الروعة والجلال!! وينظر إلى الشمس مسخَّرة فى السماء، فلا يتقطع وجدانه إعجابًا بها ودهشة لشأنها!! بل ينظر إلى هذا وغيره كأنه لا خطر له، بل كأنه لا وجود له.

إنه الإنسان الطفل، وإن بلغ من العمر ما بلغ!! وإنها الإنسانية الأولى، وإن قطعت من الأجيال والأحقاب ما قطعت. نعم هى الطفولة التى تقتضيك أن ترثى لصاحبها، وتعطف عليه، الطفولة التى لا تفهم إلا ما يدور فى محيطها الصغير، وتنفض يدها معرضة عما يدور بين الرجال ذوى المواهب الكبار. انظر إلى الطفل يرى رجالاً يتحدثون فى شأن ما، فيسمع كلامهم، ولكنه لا يفقهه، ولا يروقه، فيعرض عنه، فإذا رأى أطفالاً يلعبون أو يتحدثون أسرع إليهم، وفهم عنهم، وذاب فيهم، وفرح بهم. وهؤلاء الرجال، أستغفر الله، بل الأطفال الكبار، يعلن فيهم ماركونى: أنه سيدير زراً فى إيطاليا لينير به مصباحًا فى استراليا؛ فيعجبون، ويجعلون هذا النبأ حديث مجالسهم، وسمر أنديتهم، وكلهم تمجيد لهذه

المواهب، وتكريم لقدرة مخترعهم الكبير[1] .. بينما السماء تطل عليهم كل ليلة، بما لا يحصى من ملايين المصابيح لا مصباح واحد، ينيرها الله عز شأنه بغير زر.. مصابيح تضىء ولا زيت لها! وتنير ولا كهرباء فيها! فأى النبأين أحق بالإعظام، وإطالة التعجب والاهتمام؟ ولكنك ترى الأطفال الكبار لا يعيرون مصابيح السماء لفتة واحدة، ولا يجعلون لها فى أحاديثهم ساعة من ليل أو نهار. ذلك أن هذه الكواكب المطلة من علياء سموات الله، تحدث عنه أحاديث العظمة والجلال، وهى أحاديث لا يفهمها إلا كبار الرجال لا كبار الأطفال!.

• مرض يجب أن يزول:

وإن تعجب يا أخى، فاعجب لبقاء الإنسان طفلاً وعوامل النضج مزدحمة فى فؤاده، تنتظر وقفة واحدة على آية من آيات الله، تتأثر بروعتها، فإذا هى تتحرك وتجيش وتبعث الحياة والنمو فى قلبه. وإن تعجب كذلك فاعجب لهذه الإنسانية، التى تقضى أعمارها تحت سماء باهرة الآيات، معجزة المشاهدات، وفوق أرض ضخمة الجبال، جليلة البحار، رهيبة الصحارى والقفار، حافلة بأسرار الله فيما خلق من نبات وحيوان وجماد، وهى مع ذلك تمضى ذاهلة، كأنها لا تعيش تحت شىء، ولا فوق شىء!.. ولو أن هذه الآيات التى تملأ الآفاق أمر خفى، أو يحتاج إلى كد ذهن، لالتمسنا لها المعاذير فى هذا الإعراض، بل فى هذا العمى، ولكنها أشياء بارزة للعيان شاخصة للحواس، تعترض المرء فى كل وجه، وتفرض نفسها عليه فى كل وقت.

أليس من العجيب أنه تخلص من كل ذلك، فلم يلتفت إليه، ولم يتأثر به؟ بل أليس من المحزن المؤلم أنه لم يتخلص منه إلا لانطماس باطنه، وامتلاء وجدانه بالكثافات المظلمة الثقيلة؟

إن هذه البلادة، وهذه الغفلة، هى مرض الإنسانية الشائع، إذا مرض به القلب فسد وأظلم، وماتت مشاعره، فلا تتأثر بشىء من آيات الله.. ترى عين رأسه ما تراه دون أن ينطبع على صفحته شىء من هذه المرائى، ﴿فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن

(١) كتبت ذلك فى مطلع الأربعينيات.

تعمى القلوب التي في الصدور﴾ [الحج: ٤٦].

قال أحد الإخوان: يخيل إليَّ أن هذه الغفلة أمر طبعى، وليست مرضًا من أمراض القلوب، وأن آيات الله فى الآفاق ليس من شأنها أن تثير العواطف هذه الإثارة.

فقال له صاحبه: لا؛ ليس الأمر كما يخيل إليك، ولأضرب لك مثلاً يزيل عنك كل تخيل فاسد، فتابعنى فيه:

يحلم بعض من ينظر إلى مستقبل الإنسانية بتشاؤم، أن ستقوم بيوت بل مدن كاملة تحت الأرض، طلبًا للأمان من مصائب الحروب، وويلات الغارات.. فافرض معى أن مدينة من هذه أنشئت، وأن الناس فيها ألفوا العيش فى التهوية الصناعية، والإضاءة الصناعية، بعيدين عما على وجه الأرض من نعم الطبيعة وهباتها.. وافرض أن مولودًا ولد فى هذه المدينة وترعرع فى ربوعها وميادينها، لا يرى إلا مصابيح الكهرباء تضىء بالليل والنهار، ويرفع بصره إلى سماء المدينة فلا يجد إلا سماء من المسلح أو غير المسلح، محمولة على دعائم قوية عالية. واستقر فى رُوع هذا الصبى أن الدنيا هكذا، وأن طبيعة هذه الحياة تجرى على هذا الأسلوب. وكبر الصبى، وصار شابًا، ثم عرض له يومًا أن يسافر إلى ظهر الأرض، فسافر.. وهنا أترك لك أن تتصور الشاب وهو قائم يحدق فى روعة السماء، وهو ينظر إليها لأول مرة، ويقارن بينها وبين سماء مدينته، فهناك سماء تقيد البصر، قائمة على عمد، وهنا سماء رائعة، يسرح الطرف فى آفاقها علوًا واتساعًا، رفعها خالقها بلا عمد، وأمسكها بلا دعائم.. ما لى أتحدث!! إن كل حديث يعجز عن تصوير كيان هذا الشاب، وهو يجيش بانفعالات الدهشة لهذا المشهد الجليل الرهيب!! تأمل الشاب، وهو ينظر فى دهشته إلى الشمس، فيراها مشرقة الضياء، باهرة اللألاء، تغمر الوجود بفيض نورها، فيستحضر الفرق الهائل، بل الآماد الشاسعة، بين أضواء هذا السراج السماوى العجيب، وأضواء مصابيح مدينته الباهتة.. فيرى أن لو اجتمعت هذه المصابيح فى قوة واحدة واتحدت طاقاتها فكانت طاقة واحدة، لما بلغت شيئًا مذكورًا فى بَهْرة أنوار هذا السراج العالمى الوهاج!.. وينفعل الشاب، إذ يرى هذا السراج غير محمول على

قائم، ولا معلق فى شىء، كمصابيح مدينته، ويزيد به العجب، إذ يراه يجرى فى فضائه الشاسع، متنقلاً من الشرق إلى الغرب، فكيف يتنقل؟ وبأى قوة يتحرك؟ ومن أين له هذا الضوء؟ ومن يدبر له هذا كله؟

ثم تصورّ حال هذا الشاب، وقد جن الليل، وتغير المنظر، وظهرت فى السماء هذه الكواكب الدرية تملأ أقطارها فى كل جهة.. إنه لشىء يذهل اللب، ويملأ القلب حيرة، ويقطع الأنفاس من الاستغراق فى الدهشة والعجب.

وتصوره حول منتصف الليل، وقد ظهرت له فلقة من النور الوضىء، فأخذت تمسح ظلمة الليل عن وجه السماء، وتلقى من نورها الوديع على الأرض الغارقة فى الوحشة والسكون.. أى نظام هذا؟ وأى جمال هذا؟ وأى آيات هذه فى هذا الكون الرائع العجيب؟ إنك يا أخى لو صحبت هذا الشاب يومًا وليلة، وأخذت ترقب ملامحه الظاهرة، وتستشف خوالجه الباطنة، لرأيت حقًا كيف يجب أن ننظر إلى آيات الله، ولحكمت قطعًا بأن بواطن الناس مطموسة، حيث لا تتحرك لوحى العظة فى هذه المشاهد الجليلة المحكمة.

• **علاج:**

والآن: هل من سبيل إلى علاج هذا المرض، فيزدهر باطن المرء، ويجيش بالحياة النامية؟ هل من سبيل إلى إزالة هذا الحجاب الكثيف، فينكشف قناع قلب الإنسان؛ فيرى الله من خلال كل شىء، كأن له فى كل شىء نافذة يطل منها على الملأ الأعلى؟.. وبعبارة أوضح: هل من سبيل إلى ارتقاء الإنسانية وتجاوزها دور الطفولة العاجزة إلى حياة الرجولة القوية المدركة؟

نعم: السبيل ميسرة ممهدة، ولسنا نتكلف لذلك جهدًا فى البحث، ولا مشقة فى التفكير، وإن كأس الشفاء على أفواهنا، لا ينقصنا إلا أن نرتشفها هنيئًا.. نعم لا ينقصنا إلا أن ننظر لكل شىء أمامنا نظرتين فى نظرة طويلة واحدة، أما النظرة الأولى: فهى نظرة العين الباصرة، وهى التى لا ترى من الشىء إلا صفحته الخارجية الصماء، وأما الثانية: فهى نظرة العين الباطنة التى تنظر إلى الشىء على

أنه فعل فاعل فتظل تبحث عن القائم عليه والمدبر لشأنه، حتى تفضى إلى الله سبحانه وتعالى. هما نظرتان فى نظرة، وما عليك حين تنظر إلا أن تنبه عينك الباطنة الغافلة، وتوقظ كيانك الداخلى الراقد، فإذا نبهتها وأيقظته، ووصلت الباطن بالظاهر، والظاهر بالباطن، فقد وصلت نفسك بالوجود، وسرت تيارات قلبك إلى ملكوت الله الأعلى، وهذا عين الحياة، وكمال الرقى والتقدم.

أرأيت سهولة هذا العلاج؟ . . إنه علاج ناجع، بقدر ما هو هين سهل.

• اعتراض وجوابه:

قد يبدو لسائل أن يسأل: كيف تتهم الإنسانية بالقصور والطفولة والمرض، وهى هى التى تطالع الدنيا كل يوم بجديد فى العلم والصناعة والاختراع؟ وهى هى التى فاقت فى هذه النواحى كل ما سبقها من الأجيال والقرون؟

ونحب فى دفع هذا الاعتراض أن نحتكم إلى قضية مسلمة من الجميع . . فإن الناس جميعًا يقولون: العلم نور. . وثمرة هذا النور أن ينظر به صاحبه حقيقة ما يراه، أليس كذلك؟ . . ونحن لا نكلف هذا العلم أن يكشف لنا المخبوء، أو يأتينا بمعجزة، بل نكلفه أن يمد صاحبه بنور، لينظر حقيقة السماء التى فوقه، والأرض التى تحته، وما حقيقة كل منهما، بل حقيقة كل كائن فيهما إلا أنه «خلق خالق وصنع صانع»، ولكن الإنسان لا يبصر من ذلك أكثر مما يبصر الحيوان الأعجم المطموس.

العلم نور حقًا. . نور للبصائر لا للأبصار، فإذا حل هذا النور فى بصيرة ما أبصرت كما تبصر العيون، وفوق ما تبصر العيون. فخبرنى بربك، إذا كان علمهم هذا علمًا صحيحًا كاملاً، فأين ثمرته؟ وأين نوره، إذا كانت بصائر أهله لا تبصر من البدهيات شيئًا، لا تبصر الفعل مسنداً لفاعله؟ إن قصارى هذا العلم، أنه علم الرءوس كيف تفكر فى خدمة الأجسام: علمها كيف تعد الطعام، وكيف تدبر الأموال، وكيف تصرف التجارات، وكيف تصنع الآلات. . آلات الزراعة جريًا وراء الثمرة ومضاعفة الغلة. . وآلات القتال؛ ليفتك القوى بكل من يحرز رغيفًا

دونه. وعلمهم السياسات كيف يبنونها فى دهاء على جلب المنافع واغتنام المصالح. وعلمهم الهندسة، فوفرت لهم ماء الرى، وأصلحت الطرق، وأقامت العمارات، وكشفت قوانين الحركة، فدارت عليها الآلات، وسددت بها القذائف إلى الأهداف. وعلمهم الطب، فعالجوا به الأجسام، وقاوموا جراثيم الأمراض، وأحاطوا البدن بأسباب الوقاية محافظة على سلامته. واخترعوا التلغراف والتلفون، استنجازاً لقضاء المصالح فى أقرب وقت. وأجروا القطار والسيارات تخفيفًا للعناء عن الجسم، ومبالغة فى إحاطته بأسباب الترف. وجاءوا بالراديو والتلفزيون وأنواع المخترعات.. جاءهم العلم بهذا كله، فما زاد على أنه مسخر فيه لإملاء الجسم، ورغبة المعدة، ووحى الترف، وكل هذا ليس من النور فى شىء، لأن الإنسان لا يرى فيه أنه أثر صفات الخالق سبحانه وتعالى.

وعلم الله ما نبخس هذا العلم قدره، فإنه ضرورى لأداء مهمة أو ضرورة معينة، هى عمارة الأرض بأنواع الزرع، والبناء، والصناعة، والآلات النافعة.. وهى مهمة جاءت بها نصوص الدين فى الكتاب والسنة.

وإنما الاعتراض أن تزعم لهذا العلم المحصور فى هذه الحدود، أنه مصدر الحياة والنور لمعانى الإنسان العليا، فهو زعم خاطئ، يقع فيه أكثر الناس، فما كان لعلم مسخر لدواب البدن العمياء أن يقوم بما ليس من وظيفته، ويمنح ما ليس فى طبيعته. فمن أين النور لعلم إذا نظر لشىء لا ينظر إلا إلى ناحيته المادية، يقيسها ويزنها ويستكشف خفايا ذراتها؛ ليصل من ذلك فى النهاية إلى نتيجة يذهب نفعها إلى الكيان الحيوانى، ولا يصل منها أثر يذكر إلى الكيان المعنوى؟!! فإذا ترقت الإنسانية بهذا العلم، فإن ترقيها معترف برقى قشرتها الأرضية، وناحيتها المادية، لا فى ناحية العبرة والحكمة التى تحيى بها حقيقة الإنسان.

- **فساد الحضارة الغربية:**

فحضارة الغرب إذًا وعلمها، وكل ما فيها، أعجز من أن تمد باطن الإنسان بما يحييه، ويصله بالوجود. وبعبارة أخرى: أعجز من أن تمد قلبه بنور يرى به لباب

الوجود، وحقائق الحياة. لقد خلت حضارة الغرب عمليًا من كل منهاج ووسيلة لإيقاظ الضمائر، وتنمية الحواس الباطنة، لأنها لا تعترف بكيان الإنسان الباطنى، وما له من خصائص فياضة بالخير والكرامة، وما له من ملكات تبصر الخلق مسندًا إلى الخالق، وتفترضه حيوانًا مغلق الباطن كالآلة الصماء. فكيف تبلغ الإنسانية رشدها وتنال حظها من النور والعلم الصحيح ما دامت تجهل أن الرشد فى القلوب لا فى المعدات، وأن النور فى البصائر لا فى الأبصار؟ لقد قلنا: إن تقدم الإنسانية الصحيح مرهون بالانتقال من النظر الساذج إلى النظر الفاحص، الذى يفتح عين صاحبه وقلبه على جلال الآية التى ينظر إليها، ويبث فيه الانفعال بما فيها من أسرار الله وحكمته.

قلنا هذا لأنه السبيل السهل إلى تغذية الكائن الإنسانى المستكن فى باطن الإنسان، أو هو العصب القوى الذى يصل هذا الكائن بمصادر حياته السماوية. وخلو هذه الحضارة من كل منهاج عملى أو عناية جدية تبعث الإنسان على حسن التأمل فى آيات الله جعل هذا العصب ضامرًا أو مبتورًا، وترك هذا الكائن النبيل الكريم يعانى فى باطن صاحبه عزلة عن الحياة، وحرمانًا من النور والغذاء. وما نحسب هذا الكائن قد سعد يومًا ما بمثل ما سعد فى الحقبة النورانية، التى أتاحها له رسول الله ﷺ، وصحابته الأبرار رضوان الله عليهم، ولكنه ما كاد يهنأ بها حتى خلف من بعدهم خَلْف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات، فأصابتهم نكسة، ارتدوا بها أطفالاً؛ وكان الظن بهذه الحضارة العالمة، أو حضارة النور كما ينعتونها ظلمًا، أن تلتفت إلى مصدر الرشاد فى الإنسان، ومنجم العبقرية فيه، وأن تحسن الانتفاع به، ولكنها ضلت على علم، فلم تلتفت لغير الكائن الحيوانى، الذى يخرج من التراب، ويعود للتراب، ويتغذى من التراب.

• كتاب منشور:

وإنا لا نستطيع أن نتصور داعيًا عمليًا، يدعو الناس إلى الله، دون أن يلفتهم إلى ما يحيط بهم من آثاره سبحانه وتعالى، فهى شواهده الدالة عليه، المتحدثة

عنه بأوضح بيان وأفصح لسان. ولقد سردنا فيما سبق بعض المنازع العملية التى تنزع إليها العقلية الواقعية فى دعوتها إلى الله، وفى رأيى أن الالتفات إلى آيات الله ونعمه أقربها جميعًا إلى الفطرة، وأيسرها سبيلاً إليه سبحانه.

فهذا الوجود الذى أمامك هو كتاب الله المنشور، وهذه الكائنات العجيبة التى تملؤه هى سطور حية، تقرأ فيها قدرته سبحانه، وعلمه، وحكمته، وكرمه، ووده، وبره، وعظمته. فإذا وقع نظرك أو سمعك أو يدك على شىء ما، فقد وقع فى الحقيقة على مستودع خطير لحكم الله وعبره.

ومن جميل تقديره سبحانه، أنه جعل مطالعة هذا الكتاب ميسورة للعالم والجاهل، والقارئ والأمى، فما على المرء إلا أن ينظر، أو يسمع، أو يلمس.. إلخ، ثم يفكر فيما وقع عليه حسه فى إطار نسبته إلى الخالق تعالى، أى فى إطار أنه صنع الله، فإن هذا التفكير يشهد فى معالم الصنع ودلالاته الكثير من العبر والآثار الدالة على معانى صفاته جلّ شأنه، فيثير فى القلب إحساسات رقيقة، ووجدانات عالية كأنما تسربت روح العالم الكبير إليه، فإذا بلغ هذه الدرجة، فقد اتصل ما بينه وبين الله سبحانه، وانفتح له الملكوت الفياض بالسيالات الروحية، فيهتز القلب، وتخشع النفس، وتفيض العين، ويستنير الطبع، فإذا بالإنسان فى هذه اللحظة قد صار قبضة من نور الله عز وجل، قلبه نور، وعقله نور، ولحمه نور، وعظمه نور، وفوقه وتحته وخلفه وأمامه، كل ذلك نور على نور.

فإذا أحس الإنسان بقلبه يختلج، وبدنه يرتجف، ودمعه يفيض، فليعلم أنه قد فهم سطراً من كتاب الوجود، فإن ثمرة التأمل أن تنفذ إلى بعض آثار صفات الخالق، وفى الآثار عبرة، والعبرة إشعاع رقيق يسطع فى القلب، ليصله فى رفق بالله سبحانه وتعالى. فإذا أفضيتَ إلى الله، وخرّتْ مشاعرك ساجدة خاشعة راجية محبة، بلغتَ من أسباب الفهم والمعرفة ما لا يبلغه إلا الراسخون فى العلم، ولو كنت ممن لم يقرءوا كتابًا أو يجلسوا إلى أستاذ فى مدرسة أو جامعة.

• **الداء والدواء:**

فاحرص على هذا المنزع يا أخى.. واعلم أن القرآن الكريم تكفل بكل داعية، فرسم له المنهاج، وشرح له وسائل العلاج، بعد أن بين له المرض.

١ ـ فالمرض هو انطماس الكائن الباطنى للإنسان، وفساد حواسه، بحيث لا يبصر، ولا يسمع، ولا يفقه شيئًا، فيغدو به صاحبه فى حكم الأموات وإن أضافه فن الإحصاء ظلمًا إلى الحياة والأحياء، ﴿إِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ وَمَا أَنتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَن ضَلالَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلاَّ مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾ [النمل: ٨٠، ٨١].

والمدار كله على أن يصح هذا الكائن الكريم، وتسلم له حواسه، أما حواس البدن فليس عليها معول كبير: ﴿فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

فلكل شخص عينان: عين ظاهرة، هى عين رأسه، وعين باطنة، هى عين نفسه، والعين الظاهرة لا ترى من الشىء إلا صورته السطحية، وهى أمر تافه لا قيمة له، يتعلق باللون، والحجم، والشكل، والمادة، ونحوها.

أما العين الباطنة فتدرك حقيقته، وحقيقة كل شىء هى أنه مخلوق لله، هى العبرة التى تريك أصابع الله سبحانه وتعالى فى تكوينه وتدبيره والقيام على حفظه، وهنا يشف الشىء أمام هذه العين، فتطلع منه على الله عز وجل، فإذا وجدت الله يا أخى وجدت كل شىء.. وجدت الحياة، ووجدت النور والعلم، ووجدت الثروة والغنى، ومن وجد كل هذا فى قلبه لا يضيره ما فاته من الدنيا، أما إذا حجب عنه، فلن يغنيه قليلاً أو كثيراً أن تكون عينه الظاهرة أقوى العيون، وأذنه أسمع الآذان؛ فليست المسألة صوتًا يسمع، أو شبحًا يرى، فذلك ما تراه الأنعام وتسمعه، وإلى هذا تشير الآية الكريمة: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لا يَسْمَعُ إِلاَّ دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٧١].

قال الإمام ابن كثير: «أى مثلهم فيما هم فيه من العمى والضلال والجهل كالدواب السارحة، التى لا تفقه ما يقال لها، بل إذا نعق بها راعيها لا تفقه ما

يقول ولا تفهمه؛ لأنها تسمع صوته فقط».

ويقول الإمام الزمخشرى: «ومثل داعيهم إلى الإيمان، فى أنهم لا يسمعون من الدعاء إلا جرس النغمة ودوى الصوت من غير إلقاء أذهان ولا استبصار، كمثل الناعق بالبهائم التى لا تسمع إلا دعاء الناعق ونداءه، الذى هو تصويت بها وزجر لها ولا تفقه شيئًا آخر ولا تعى، كما يفهم العقلاء ويعون».

فحقيقة المرض على هذا صمم يصيب الكائن الكامن فى المرء، وعمى وبكم يتركه فى ظلمة ولا حركة به، وهو ما تجمله الآية الكريمة: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَن يَشَإِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام: ٣٩].

٢ - أما ظواهر هذا المرض، فهى كما يصفه الكتاب العزيز: الإعراض عن التأمل فيما تقع عليه الحواس، والاكتفاء بالنظر العابر، والسمع الظاهر، فيرى الإنسان الشىء وكأنه لا يراه.

تبدو له روائع الآيات والآثار، فلا تحركه روعتها، ولا تثيره رؤيتها؛ لأنه لا يدرك بالعين المثيرة، فيمضى كالراقد، الذى يفتح عينه، ويذهب ويجىء وهو نائم، على نحو ما يصف الشاعر الحكيم:

يا ناظراً يَرْنُو بعينَىْ راقد ومُشاهداً للأمر غير مُشاهد

وإلى هذا يشير قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٢]، وقوله سبحانه: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ [يوسف: ١٠٥].

٣ - أما العلاج الناجع لهذا العمى، بل لهذا الموت، فهو كما وصف القرآن أيضًا: التأمل فى آيات السموات والأرض، وفى أنفسنا وما أسبغ علينا من نعم ظاهرة وباطنة، على ما أشار إليه عز وجل بقوله: ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ (٢٠) وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٢١) وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ [الذاريات: ٢٠ - ٢٢].

نعم: فالتأمل هو الذى ينقل صور المشاهدات من الحس الظاهر إلى الحس الباطن، فيتم التفهم والتأويل والموازنة والتعليل، وهذا معنى حياة الباطن وسمعه وبصره.

فإذا لم يكن تأمل لم يكن شيء من هذا؛ فالتأمل هنا يقوم بمهمة عصب الإبصار فى العين الظاهرة، فإن رؤية الأشياء لا تتم بمجرد انعكاس صورها على شبكة العين، بل لا بد من انتقال هذه الصورة بواسطة العصب البصرى إلى مركز الإدراك والوعى، وهو المخ.. فإذا انقطع هذا العصب أو أدركه تلف لا تتم الرؤية، ولا يصدر المخ حكمه على شيء. وكذلك التأمل: فهو عصب الإبصار، الذى ينقل المشاهدات إلى مركز الإدراك الباطنى، وهو القلب، حيث تتم المشاهدة، ويسرى رحيق العبرة فى البدن كله.. فإذا انقطع التأمل، بقى القلب مغلقًا، لا نافذة له يطل منها على عالم الحقائق، وكان شأن صاحبه كشأن الحيوان الأعجم، فى اقتصاره على رؤية الصورة الظاهرة للأشياء.

• منهاج العلاج:

وحين يذكر القرآن أن فى السماء والأرض والنفس آيات وشواهد للموقنين لا يكتفى بمجرد الإشارة، بل يذكر ما هى هذه الآيات، فينص عليها بالاسم أو الصفة أو الوظيفة، حتى يبلغ الكلام إلى الأسماع والقلوب، ويكون السبيل إلى العلاج خاليًا من كل غموض. وما نستطيع أن نورد كل آيات القرآن التى ورد النص فيها على هذه الشواهد الربانية، بل نورد آية واحدة، على سبيل المثال، اعتمادًا على أنك غنى عن غير إيراد الكل بمطالعته فى المصحف الشريف. قال الله عز وجل: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِى تَجْرِى فِى الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ﴾ إن فى ذلك كله ﴿لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤].

ولو أن القرآن الكريم اكتفى بهذا الإجمال لكان فيه غناء، ولكنه أراد التمثيل والتفصيل؛ فتناول كل آية من هذه الآيات بالبيان والتحليل، حتى ليفتح البصر والبصيرة على مواطن العبرة فيها:

(١) فمِنْ خَلْق السموات: الشمس والقمر، والنجوم والكواكب، وقد ذكر فى آياته الكثيرة عجائب هذه المخلوقات السماوية الجميلة الجليلة، وهى فى المصحف

فى متناول كل قارئ، فلا نطيل بذكرها.

(٢) وتحدث عن الأرض وحدها بتفصيل كافٍ لاستخراج العبرة.

(٣) وتناول الليل والنهار بكلام خاص.

(٤) واختص الفلك والسفن بمثل هذا.

وأفرد كلاً من: (٥) المطر، (٦) والزرع، (٧) والدواب، (٨) والسحاب. أفرد كل شىء من هذا بنصوص تكشف للمتأمل آثار رحمة الله، وإنا لنسوق بعض أمثلة لهذا التفصيل صدر سورة «الرعد»:

١ - يقول الله عز وجل فى خلق السماء: ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُم بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾ [الرعد: ٢].

٢ - ويقول عن الأرض: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الرعد: ٣].

٣ - ويقول عن النبات: ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الرعد: ٤].

وفى صدر سورة النحل طائفة كبيرة من الآيات والنعم ختمها الله بقوله: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النحل: ١٨].

ويشرح له منهاج النظر إلى نفسه وأخص الأشياء به بمثل قوله: ﴿فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥ خُلِقَ مِن مَاءٍ دَافِقٍ ۝٦ يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ﴾ [الطارق: ٥ - ٧].

﴿فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ ۝٢٤ أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ۝٢٥ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ۝٢٦ فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ۝٢٧ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ۝٢٨ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ۝٢٩ وَحَدَائِقَ غُلْبًا ۝٣٠ وَفَاكِهَةً وَأَبًّا ۝٣١ مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾ [عبس: ٢٤ - ٣٢].

وإنى أترك لك أن تجرب بصيرتك وفكرك، فتأمل وحدك فى هذا.

- **النظر إلى الكيف لا الكم:**

وحين يطلب إلينا النظر فى هذا وغيره لا يتركنا ننظر كما نشاء، نظر الغفلة والجمود، بل يرسم لنا منهاج النظر الحق، الذى ينشئ بيننا وبين الملأ الأعلى أوثق الصلات، فى أقرب وقت، فيعلمنا أن ننظر إلى الكيف لا الكم. . والكيف لباب وعبرة، والكم صور وأحجام. . والكيف يدرك بالقلب، والكم يدرك بالحواس الظاهرة.

انظر قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ [ق: ٦ - ٨].

وقوله عز وجل: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ﴾ [الغاشية: ١٧ - ٢١].

ويزيد على هذا، فيذكر لنا أنواعًا من النظر إلى الكيف، لنقيس عليها، أو نفرع منها، فتارة يفترض لك الفرض، ويجعلك تسرح فيه بقلبك وعقلك حتى تقع على لب العبرة من خلاله: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [القصص: ٧١، ٧٢].

وتارة يسائلك مساءلة تفتق الحجب، وتقف بك وجهًا لوجه أمام عرش الله عز وجل: ﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ﴾ [الواقعة: ٥٨، ٥٩]، ﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ﴾ (تعجبون فى ندم وأسف) [الواقعة: ٦٣ - ٦٥]، ﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ ﴿٧١﴾ أَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ﴾ [الواقعة: ٦٨ - ٧٢].

- **ثمرة العلاج:**

وأخيرًا، لا يقف الله عز شأنه بمدارك البشر المتأملين عند هذا الحد، بل يسمو بهم إلى قطف الثمرة النهائية. . يسمو بهم سموًا يبعثهم إلى التفكير فى معانى الجد والحكمة الحازمة التى تبدو لذوى البصائر فى خلق السموات والأرض. فما كان الله هازلاً ـ سبحانه ـ حين خلق السموات وما فيها من آيات، وما كان لاعبًا ـ تعالى شأنه ـ حين أخرج الأرض إلى هذا الوجود؛ إن هو إلا الأمر الخطير، والجد الذى لا هزل فيه، أبرمه الله، وسلكه فى نواميس حكمته: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ (٣٨) مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ [الدخان: ٣٨، ٣٩]، ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ (١٦) لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لاَّتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّا إِن كُنَّا فَاعِلِينَ (١٧) بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ١٦ ـ ١٨].

وهذه ذروة التفكير، وقمة المنازل التى يحلق حولها الربانيون. . يسمو إليها الإنسان، حين يهبط بتفكيره إلى قرارة نفسه، وأعماق فطرته: ﴿أَوَ لَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ﴾ [الروم: ٨].

ومع كفاية هذا التعليم، فإن الله عز وجل قد ذكر لنا بعض ما يقوله أولو الألباب حين التأمل فى آياته؛ لنقيس عليه، ولنطمئن إليه، إذا وجدناه صورة لما فى خواطرنا، وترجمة مسايرة لمشاعرنا: ﴿وَالَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ (١٢) لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ (١٣) وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾ [الزخرف: ١٢ ـ ١٤].

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُولِي الأَلْبَابِ (١٩٠) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩٠، ١٩١].

هذا طرف من هدى القرآن، وطبه لأمراض الإنسان. فهل رأيت بربك هديًا

يقارب هذا الهدى، وينهل من هذا الطب؟.. إنه رحيق الشفاء، وسر الخير والسعادة، والنعمة التى بشر الله بها أولياءه وأمر بالحمد عليها قبل وقوعها، إشعاراً بجلالة قدرها ونفعها: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [النمل: ٩٣]، ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت: ٥٣].

أما الضالون من أهل الشقوة، فهم بعيدون عن هذه النعمة، وقد أنذرهم الله حجاباً يصرفهم عن التأمل فيها، ويحرمهم حظ الدنيا والآخرة: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ...﴾ إلخ [الأعراف: ١٤٦]، أى يصرف قلوبهم عن التفكير فى شأنه سبحانه.

• مثال تطبيقى:

والله عز شأنه بعد تقرير هذا العلاج وبيان أثره فى شفاء القلوب، يضرب لنا مثلاً واقعياً من واقع التاريخ، ليشرح بأسلوب عملى أن الإنسان إذا نظر فيما حواليه من الآيات والآلاء، نظر التأمل والاستهداء، زال عنه الحجاب، ورق قلبه، وأشرقت بصيرته، فأفضى إلى الله الذى لا إله غيره.. ضرب لذلك مثلاً واقعياً تمت به العظة، وختمت العبرة أطيب الختام، ذلك قوله سبحانه: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٧٥ - ٧٩].

• توجيه ونماذج:

ونحن نوصى كل داعٍ إلى الله أن يدخل هذا المنهاج فى حسابه، ويجعله من عدته وعتاده، فقد رأى قوة أثره فى القلوب، ورأى أن الله سبحانه دعا به الناس إليه، وما حثهم فى القرآن على شىء أكثر مما حثهم على أن يجعلوا التأمل سبيلهم

إلى الحياة، فعلى الداعية أن يأخذ بما رسم الله، وأن يفتن فى بعث سامعيه على النظر والتفكير والاعتبار بحسب ما تهديه إليه قريحته وسليقته.

• نماذج:

ونحن نضع بين يديك - أيها الأخ - أمثلة مما وعظ به المهتدون، واحتالوا به لإثارة انتباه الناس وتأملهم فى عجائب الله.

١ - وعظ سيد الدعاة ﷺ، فبسط كفه، وتفل عليها، ووضع أصبعه بجانبها وقال: يقول الله تبارك وتعالى: يا ابن آدم، أنَّى تعجزنى وقد خلقتك من مثل هذه، حتى إذا سوَّيتك وعدَّلتك، مشيت فى بُرْدين، وللأرض منك وئيد، فجمعتَ ومنعتَ، حتى إذا بلغت التراقى قلتَ أتصدق، وأنّى أوان الصدقة؟

وتأملك فى هذا يغنينى عن شرحه والتعليق عليه.

٢ - وعظ الإمام أبو حنيفة، رضى الله عنه، يومًا، وقد حضره قوم من غلاظ القلوب، وكانت عظة عملية موفقة.

أظهر للناس أنه مفكر فى أمر خطير، فلما سألوه عن شأنه قال: إنى مفكر فى أمر قد أُخبرت عنه: ذكروا لى أن سفينة فى البحر موقرة بأنواع المتاجر، وليس بها أحد يحرسها ولا يسوقها، وهى مع ذلك تذهب وتجىء، وتسير بنفسها، وتخترق الأمواج العظام حتى تتخلص منها، وتدخل المرافئ وتخرج منها، وتسير حيث شاءت، فلا تتجه إلا إلى ما هو مطلوب من غير أن يسوقها أحد. فقالوا له: هذا شىء لا يصح أن تشغل به نفسك لأنه لا يقوله عاقل، ولا يصدقه أحد. فقال: أيها الناس، إنكم أنتم الذين تقولون هذا الكلام تقولونه بلسان الحال، إن لم يكن بلسان المقال. فهذه سفينة الموجودات بما فيها من العوالم العلوية والسفلية وما اشتملت عليه من الأشياء المحكمة، فهلا تأملتم عجائبها وحكمة المصرف لها، أم أنها تغدو وتروح بغير مدبر يصرفها؟

فخشعت قلوب الناس لموعظته، وأسلم منهم من كان على غير الإسلام.

٣ - ووعظ الإمام الشافعى رضى الله عنه فقال: هذا ورق التوت، لونه واحد، وطعمه واحد، يأكله الدود فيخرج منه الحرير، ويأكله النحل فيخرج منه العسل،

وتأكله الشاة والبقر فتلقيه بعرًا أو روثًا، وتأكله الظباء فيخرج منه المسك، وهى شىء واحد، فتبارك الله أحسن الخالقين.

٤ ـ ووعظ الإمام أحمد بن حنبل رضى الله عنه، فقال: ها هنا حصن حصين (وأشار إلى شىء بجانبه عليه غطاء) حصن أملس ليس له باب ولا منفذ، ظاهره كالفضة البيضاء، وباطنه كالذهب الإبريز، فبينا هذا الحصن كذلك، إذ تصدَّع جداره فخرج منه حيوان سميع بصير، ذو شكل حسن، وصوت مليح.

فلما أثار الإمام أشواق الناس وبعثهم على التطلع كشف الغطاء فإذا بيضة مشقوقة، وبجانبها فرخها الصغير، الذى خرج منها حديثًا إلى هذه الدنيا.

فسبحان من يخرج الحى من الميت، ويخرج الميت من الحى، وهو على كل شىء قدير.

هذه يا أخى أمثلة فتقت لك من جوانب الموضوع، وقدمت لك ألوانًا مختلفة من التفكير، وسيسهل عليك بعدها إن شاء الله، أن تحذو حذوها، وتستقى من معينها. ونختم هذه الأمثلة بمثال وضعه أحد الإخوان، قال: كان أحد العلماء يجلس ذات ليلة بين مريديه، وهو من أهل البصيرة، فأراد أن يبعث أبناءه وتابعيه على التأمل العميق الذى يسبحون به أو يغوصون فى بحار الحقيقة، فيستخرجون لآلئ المواعظ والعبر.. فأمر بإطفاء الأنوار فبدا المكان مظلمًا صامتًا موحشًا يلفه الليل بسكونه وهدوئه، ثم قال: يا أبنائى، فى هذا الظلام الساكن نستطيع أن نستنزل من السماء رزقًا لأرواحنا، وحياة لقلوبنا، فلا تفوتنكم هذه الفرصة، فليذكر كل منكم فى نفسه ماذا كان قبل أن يخلق؟ وماذا حصل حين أراد الله أن يجىء به إلى هذه الدنيا؟ ومن أى شىء خلقه الله؟ وليتتبع الأطوار التى تنقل فيها حتى صار رجلاً عاقلاً، مدبرًا قويًا، وليتابع رحلته إلى الموت حتى يبلغ الجنة أو النار.

قال الأخ: فسكت المريدون.. وأخذوا يتأملون، ويسبحون ويتنقلون فى سلسلة المواعظ والحكم.

وأراد الشيخ أن يعرف أحوالهم فى تفكيرهم فأخذ يسألهم من آن لآخر: أين أنت الآن يا فلان؟ فقال أحدهم: أنا الآن نطفة، ثم قال آخر حين سئل بعد قليل:

أنا الآن فى القبر، وقال ثالث حين سئل بعد صاحبيه بفترة: أنا الآن على الصراط. وكان الأخ يجرى على لسان كل مريد وصفًا تحليليًا لمشاعر المتأمل فى النطفة، ولمن هو فى القبر، ولمن هو واقف على الصراط.

وليس يعنينا أن ننقل لك ما قال صاحب القبر ولا ما قال صاحب الصراط، فإننا نحن بصدد التأمل فى آيات الله الظاهرة لنا، فننقل لك ما أجراه الأخ على لسان صاحب النطفة؛ سأله شيخه: أين أنت الآن يا فلان؟ قال: أنا الآن يا سيدى نطفة، كريهة الرائحة والمنظر، قطرة من ماء مهين، أتأمل فيها وفى مهانتها وضعفها، ثم أنقل التأمل إلى نفسى، وأنا رجل قادر عاقل، فيروعنى الفرق الهائل بينى وبينها، بينى وأنا ماء وبينى وأنا رجل، ولا أكاد أصدق أنى كنت هذه النطفة يومًا من الأيام! إنها يا سيدى قطرة، لو تركت بغير عناية لضربها الهواء وفسدت وأنتنت، فسبحان من حفظنى حين كنت لا أستطيع أن أحفظ نفسى. . إنها الآن أمامى، لا تسمع ولا تعقل، فيا عجبًا؛ من سيهب لها العقل لتصير رجلاً مفكرًا، ينصب المكائد والحيل، أو يبهر الناس بعلمه وثمار عقله؟ ومن سيهب لها السمع؟ ويركب لها البصر؟ وكيف يتم هذا كله؟ ومن خلال هذا التساؤل انشق لى نور قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [الملك: ٢٣].

وإن التأمل ليمتد بى، حتى يلقينى فى تساؤل آخر: ترى لو أمسك الله عن هذه النطفة، فلم يهب لها العقل، فهل تهبه لنفسها؟ وإذا أمسك فلم يمنحها السمع والبصر، فمن يستطيع أن يبث فيها حقيقة السمع والبصر؟ . . وهى أسئلة تشرق على قلبى فتتلو على قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ﴾ [الأنعام: ٤٦].

ولقد أخذت أتصور الناس جميعًا، عالمهم وجاهلهم، قويهم وضعيفهم، جاءوا فوقفوا حول هذه النطفة، وأخذ بعضهم يستعين ببعض، لعلهم أن يركبوا لها أقل عظم من عظامها، أو أرق عصب من أعصابها، أو شعرة واحدة من شعرها؛ فباءوا بالعجز والفشل، وكأن الآفاق من حولهم تشيعهم بقول الله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ

وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾ [الحج: ٧٣].

واسترسل بى التأمل فتساءلت إذا كان هذا سر الله وصنعه فى قطرة واحدة من ماء مهين، فكيف سره وصنعه فى أقطار السموات والأرض؟.. إنها لجج لا يحيط بكُنهها إلا من وسع كرسيه السموات والأرض، وهو العلى العظيم.

وهنا قاطع الشيخ تلميذه وقال: أمسك يا بنى؛ حسبى هذا منك، فقد هُديت إلى المنهج القويم؛ والحمد لله الذى هدانا لهذا، وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله.

وبعد: فقد ذكرنا لك يا أخى بعض الاتجاهات التى تتجه إليها العقلية الواقعية فى تفكيرها وتعبيرها، وهى عقلية ضرورية للداعية كما ذكرنا فى مواطن كثيرة؛ فإذا كنت تتمتع بهذا النوع من التفكير، فاحمد الله عليه، واسأله المزيد من فضله، وإذا كانت الأخرى، فقد بينا لك بعض المنازع، وما عليك إلا أن تترسمها، وتنهج نهجها، وتقيس على مثالها، وتتدرب عليها، حتى تكسب لنفسك بعض خصائصها النافعة، والله لا يضيع أجر العاملين.

❋ ❋ ❋

الفصل الثانى

الروحانية الاجتماعية

• تمهيد:

أيها الأخ الكريم: لا تحسبن هذا العنوان يسلمك لأوهام غامضة، أو ظنون تهوى بك إلى أودية مجهولة؛ فقد أَلِفَ القراء أن يجدوا صعوبة فيما يقرءون عن الروح والروحانية، وسأمًا يصرفهم عن قراءة ما لا يفهمون، واستقر فى أذهان الكثيرين أن الكلام فى هذه المباحث محفوف بالمخاطر والزلل، لأن كاتبها يطوِّح بنفسه فى آفاق من الظنون والفروض ليس فيها معالم للاهتداء، ألم يقل الله تبارك وتعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ [الإسراء: ٨٥].

• مادة وروح:

أقول: لا تحسبن هذا العنوان يطالعك بشىء من هذا، فإنا قد أردنا به كلامًا هينًا سهلاً، ومعانى فى غاية الوضوح، فالإنسان مؤلف من مادة وروح، وللمادة نظامها وعالمها الذى تقوم به، وللروح خصائصها وعالمها الذى تحيى فيه، والإنسان - وقد خلقه الله فى أحسن تقويم - مطالب أن يكون له حياتان: حياة مادية يؤدى بها ما لبدنه من الحقوق فى حكمة ونظام، وحياة روحانية يحياها وراء عالم المادة، يؤدى بها ما لروحه من الحقوق. فإذا أقبل الرجل على نفسه فقام بحق بدنه وحق روحه، فقد أنصف إنسانيته، وساير سنة الله، وعاش فى سلام الدنيا والآخرة.

وإذا جنح إلى إحدى الناحيتين وانصرف عن الأخرى فقد ظلم نفسه وعرض صفحته لسنة الله، ومن عرض صفحته للحق هلك، ولن تجد لسنة الله تبديلاً.

فالرجل الذى يعيش عيشة أهل هذا العصر، مقبلاً على المال، منافسًا على

المادة، مستغرقًا فى مطالب البدن، مشغوفًا بالجاه الفارغ، والمظاهر الخادعة، مسخرًا إدراكه الحسى والقلبى لهذا المتاع الباطل، رجل مفتون عن حقيقة نفسه، محجوب عن رؤية لب الحياة، أرادت له سنة الله أن ترقى بإنسانيته إلى أفق أعلى، فانسلخ من تلك الكرامة، وأخلد إلى الأرض.

والرجل الذى يقبل على مطالب روحه؛ فيقضى نهاره صائمًا، وليله قائمًا، معرضًا عن طيبات الحياة الدنيا، فلا يلبس إلا الخشن، ولا يأكل إلا اليابس الجاف، لتضعف قواه الحيوانية، وتعظم على حسابها قواه الروحية، رجل جاهل أيضًا بحقائق الحياة، غافل عن سنة الله، مضيع لحقوق بدنه، أو مضيع لإحدى ناحيتيه، وكفى بذلك خسارة وتعطيلاً لأمر الله فيه. وقد رووا أن رسول الله ﷺ زار عبد الله بن عمرو بن العاص، وكانت امرأته تَلْطُفُ رسولَ الله ﷺ، فقال: كيف أنت يا أم عبد الله؟ قالت: كيف أكون وعبد الله بن عمرو رجل قد تخلّى عن الدنيا؟! قال لها: كيف ذلك؟ قالت: حرم فلا ينام، ولا يفطر، ولا يطعم اللحم، ولا يؤدى إلى أهله حقهم، قال: فأين هو؟ قالت: خرج ويوشك أن يرجع الساعة، قال: فإذا رجع فاحبسيه علىَّ. فخرج رسول الله ﷺ، وجاء عبد الله، وأوشك رسول الله فى الرجعة، فقال: يا عبد الله بن عمرو، ما هذا الذى بلغنى عنك أنك لا تنام؟! قال: أردت بذلك الأمن من الفزع الأكبر، قال: وبلغنى أنك لا تفطر! قال: أردت بذلك ما هو خير منه فى الجنة، قال: وبلغنى أنك لا تؤدى إلى أهلك حقهم! قال: أردت بذلك نساء خيرًا منهن، فقال رسول الله ﷺ: يا عبد الله بن عمرو، إن لك فى رسول الله أسوة حسنة، فرسول الله يصلى - متهجدًا - وينام، ويصوم ويفطر، ويأكل اللحم، ويؤدى إلى أهله حقوقهم، يا عبد الله بن عمرو: إن لله عليك حقًا، وإن لبدنك عليك حقًا، وإن لأهلك عليك حقًا.

وبهذا الحكم الأصيل رسم لنا رسول الله ﷺ منهاج الحياة السليم الصحيح، وبين أن الإفراط مذموم، ولو كان فى إقبال العبد على حياته الروحية، فإن الله لا يقبل من عبده أن يعطل سنته، ثم يزعم أنه يعجل إلى مرضاته.

• كياننا الحقيقى:

فالمرء على هذا مقسم بين واجبين، مطالب أن يعيش فى عالمين، مكلف أن يربى فى نفسه شخصيتين، ونحن بهذه الكلمة لا نريد أن نحض على حقوق البدن، فالناس قد جنّوا بها وعموا فيها؛ وإنما نريد أن ننبه إلى حقوق الحياة الأخرى، فكثير من الناس يعيش ما يعيش وحياته دائرة فى محيط المادة، لا يسرق نفسه لحظة ليعيش بها فى عالمه الآخر، ثم يموت دون أن يؤدى لإنسانيته حقًا من الحقوق.

لقد قلنا إن للإنسان رسالتين، رسالة يقوم بها على تربية شخصه الحيوانى، وأخرى يقوم بها على مطالب كائنه الروحى المستكن فى هيكله، وأشرف هاتين الرسالتين - بلا مراء - رسالة الكائن الروحى؛ فالكائن الحيوانى ناحية مشتركة بين الإنسان وكل ما خلق الله من حيوان. أما هذا الكائن العالى، فهو السر الذى امتن الله به على بنى آدم حين قال: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٠].

فرسالة الإنسان الجديرة به، هى واجبه نحو كائنه المعنوى وعالمه الروحانى، وبمنطق هذه القضية، نستطيع أن نحصى أعمار الناس بما قضوا فى هذا العالم العالى من لحظات، ونقيس أقدارهم بالنظر إلى جسامة شخصهم القدسى العالى لا شخصهم الذى يجرى عليه ما يجرى على بهيمة الأنعام.

وكثيرًا ما نقرأ أن فلانًا أنعم عليه برتبة الباشوية[1]، بمناسبة اعتزاله الخدمة اعترافًا بفضل رسالته التى أداها فى القضاء أو غير القضاء من مناصب الدولة، فهل أدى هؤلاء - حقًا - رسالة بليغة للحياة؟ كم يحال إلى المعاش ويعفى من الخدمة أناس ليسوا من كبار الموظفين، فلا ينعم عليهم بشىء، ولا تكتب الصحف عن رسالتهم شيئًا؛ فهل الرسالة فى عرف هؤلاء أن يتدرج الإنسان فى مناصب الدولة حتى يبلغ أعلاها، فإذا لم يبلغها فهو مخفق لا يستحق الالتفات؟ الواقع أن هذه أوهام باطلة ومقاييس فاسدة، فرسالة الإنسان هى رسالته نحو معانيه

(١) كتبنا هذا قبل إلغاء الألقاب.

الإنسانية؛ فإذا أداها فقد خدم أمته وخدم الإنسانية كلها ولو لم ينل من المناصب شيئًا، وإذا أهملها فلا رسالة له ولو بلغ رياسة الدولة، وقد يجتاز الواحد من هؤلاء الستين من عمره وشخصه الحقيقى ابن شهر واحد أو ابن يوم واحد، وقد تراه فيملأ نظرك ولو كُشف القناع عن قلبك لرأيت إنسانه الباطن ضعيفًا مهزولاً، أو لم تجد شيئًا يقام له وزن.

والآن.. فما معنى أن يعيش الإنسان فى عالمين، وأن يربى فى كيانه شخصيتين؟ إن المعيشة فى هذا العالم المادى معروفة، وتربية الكائن الحيوانى غير مجهولة، فهى تعهده بالطعام والشراب والرياضة والوقاية من الأمراض، فما معنى أن نحيى فى عالم آخر ونربى شخصية أخرى، لا تراها العيون؟ كيف نربيها؟ وكيف نغذيها؟ ومن أين يأتيها هذا الغذاء؟

• كيف يخطئ المرء فى حق نفسه:

وهذا تساؤل يفرض علينا أن نقف على النقطة التى يبدأ منها خطأ الناس حين ينظرون إلى الحياة، أو يذهبون فى مذاهبها، فإذا عرفنا وجه الخطأ وحقيقة الصواب انكشف لنا ما نسأل عنه.

فغذاء الجسم: طعام وشراب يخرج من هذه الأرض، ووسيلة تحصيله: اليد والرجل والعين والأذن واللسان، وما وراء ذلك من ملكات البدن وجوارحه. وغذاء الكائن الروحى عبر ومعارف من ملكوت السموات والأرض، ونفحات تهبط على القلب من رياض أنسه سبحانه وتعالى، ووسيلة تحصيله من آفاقه العلا هى التفكر فى آيات الخلق وتبين آثار صفات الصانع تعالى.

والإنسان بخير ما ظلت قواه البدنية تسعى فى الأرض، وما بقيت مواهب فكره - أى قلبه - دائرة حول معالم الآيات وآثار الصفات، فإذا هو قسر القلب على غير ما يُسر له، وحوَّل أشواقه عن أرزاق العالم الأعلى إلى متاع العالم الأرضى الأدنى، فقد قطع عن كائنه الروحى مدد حياته الأصيل، وسامه أن يتجرع ما ليس من طبيعته، يتجرع ما يخنقه من أهواء باطلة وشهوات حسية ضارة، فيذبل ويضمر، ويظل فى هذا المحيط الخانق، وصاحبه سارح غافل عنه، حتى يقضى

الله أمراً كان مفعولاً.

فوجه الخطأ هو قسر القلب على غير ما يسر له، هو أن نقطع عنه وارد زاده من عِبَر الآيات، والتفكر فى آثار صفات الخالق عز وجل، ونبدله من ذلك أهواء الدنيا وزينتها الباطلة، فيضطرب تنافس الناس فى الخارج، ويختل الكيان الباطنى للشخص.

ولقد قلنا: إن الله زود البدن بجوارحه وملكاته لتسعى له فى تحصيل زاده من الأرض، فلو كانت هذه الجوارح غير كافية لذلك لما قصّر الله سبحانه عن أن يهب له ما يفى بحاجته؛ فهل هناك شخص واحد يدّعى أن اليد والرجل وسائر الجوارح ومن ورائها ملكات العقل غير كافية؟.. إذًا فما محل هذه القوى القلبية، وكيف نتزلها من سمواتها العلا لتعمل مع الجوارح جنبًا إلى جنب؟!... وهب جدلاً يا أخى أن قوى القلب خلقت لتعمل مع الجوارح فى خدمة البدن، فأين ما زودنا الله به لخدمة الجانب الروحى الباطنى؟.. أين هو؟.. هل حابى الله إحدى الناحيتين ـ حاشاه ـ وظلم الأخرى؟.. هل ذكر الكائن الحيوانى فزوده بكل القوى، ونسى ـ سبحانه ـ أن يزود الكائن الروحى بشىء؟!

نريد للإنسانية أن تستقبل أمرها على بصيرة، فما ظلمنا الله شيئًا، ولكن الناس أنفسهم يظلمون، ونريد للإنسان أن يقدر نفسه بالميزان الصحيح الذى يقدره الله به.

هل نظلم البدن إذا أعطيناه كفايته من الدنيا، وأطلقنا مشاعر القلب لتسعى فى مطالب الكائن الآخر؟.. من الإنصاف لأنفسنا وللحقيقة أن نقول: لا ظلم فى هذا.. ولكن من الإنصاف أيضًا أن نعترف بأن الموازين التى تقرر كفاية البدن غير معلومة، وأن الخطوط أو الحواجز الفاصلة بين قوى البدن والقلب غير ظاهرة؛ فما هى كفاية البدن؟ وكيف نصرف قوى القلب إلى رسالتها الخاصة؟

والذى أراه أن هذه المشكلة يسيرة الحل، إذا نحن رجعنا إلى طبيعة الأشياء واستفتينا فطرة الله التى فطر الناس عليها؛ فهل كفاية البدن شىء غير إسعافه بضروراته التى يقوم بها كيانه؟ طعام يسد الجوع، ولباس يستر الجسم. هل يفرض المنطق غير هذا؟ وهل يطلب العقل شيئًا آخر؟.. يقول فقيه الوجود ﷺ لرجل

سأله عما يكفيه من الدنيا: «يكفيك ما سد جوعتك، ووارى عورتك، وإن كان لك بيت يظلك فذاك، وإن كان لك دابة فبخ بخ!!». أما أنه لو تكلمت أعضاؤه لضرعت إلينا أن نكف عن إجهاد المعدة وحشو الأمعاء وإرهاق الأعضاء بما هو فوق الحاجة، فإن سلامتها مكفولة بالضرورى، أما ما زاد على الضرورى فهو نذير العلة القريبة أو البعيدة.

ويقرر رسول الله ﷺ هذا المنطق الفطرى بقوله الحكيم المشرق: «ما ملأ آدمى وعاء شراً من بطنه، بحسب ابن آدم أكيلات يقمن صلبه، فإن غلبت الآدمى نفسه، فثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنفَسه».

هذه كفاية البدن من دنياه، فكيف نفصل قوى القلب حتى تنصرف إلى رسالتها الخاصة فى عالمها الخاص، ويزول خطأ البشر فى نظرهم إلى الحياة؟

نستطيع أن نجيب عن هذا إذا نحن عرفنا حقيقة الدافع الذى يدفع الإنسان إلى الاستكثار من الطعام والشراب واللباس؛ إن المرء لو خلى إلى طبيعته لوقف عند مطالبها، فماذا يخرجه عن هذا الموقف الطبيعى؟ لو أنه يأكل ليؤدى للبدن ما يقوم به أوده وكفى، لاستقامت حالته الصحية والاجتماعية والروحية، ولكنه يأكل أيضًا لتحصيل لذة الطعام والشراب! ويلبس لا ليستر جسمه فقط، بل ليحصل أيضًا لذة الاختيال بزينته بين الناس. فالرغبة فى الاستمتاع عامل ثانٍ يحرك الإنسان إلى هذه المطالب، والرغبة إحدى قوى القلب القوية، فإذا دخلت عاملاً ثانيًا طغت بقواها الهائلة على العامل الأول، فلا يكون الإنسان فى هذه الحالات خاضعًا لقانون طبيعته، بل خاضعًا لسلطان هذه الشهوة التى لا منطق لها، فلا يقف عند القدر الذى يقوم به أوَدُ البدن، بل يذهب مع نداء اللذة حتى يعجزه الذهاب.

ومعنى هذا أن الرغبة فى الاستمتاع بالدنيا هى الدافع الأكبر الذى يحرك الإنسان إلى متاعها الأدنى، مع تعطيل حواس العقل ـ أى القلب ـ أن تجول فى ملكوت الآيات والآثار.

إن الدنيا فى منطق الفطرة دار بلاغ، ولكن تعليق الهمة بها جعلها فى نظر أكثر الناس دار متاع، والفرق شاسع بين البلاغ والمتاع، فمن اتخذها بلاغًا فقد جعلها وسيلة يبلغ عليها ما يريد من ربه لحياة قلبه، ومن اتخذها متاعًا فقد جعلها غاية

يدور حولها برغبات قلبه، وهمة نفسه، وأهواء غرائزه؛ أى أنه يحشد قواه كلها لدنياه، ويجرد حياته الأخرى من كل قوة تسعى فى عمارتها، فيذرها قاعًا صفصفًا لا ترى فيها عوجًا ولا أمتًا.

والخط الفاصل بين البلاغ والمتاع هو الحد الفاصل بين الرشد والهوى، هو الحد الذى يجب أن تقام عنده الحواجز بين حياة المادة وحياة الروح، ليسعى البدن فى محيطه آمنًا كل تدخل يغير عليه نظام بلاغه وكفايته، ويسعى القلب فى رياض آياته محلقًا بمشاعره فى ملكوت السموات والأرض، مفيضًا على كيانه الحقيقى غذاء من النور والمعرفة، وشرابًا من ماء الحياة الطهور.

• يجب أن يحال بين القلب وبين الهوى:

حقًا إن القلب خلق ذواقًا للجمال، ويحب دائمًا أن تدق فيه أفراح السعادة، والقلب الحى هو أكثر القلوب اهتزازًا بنشوة الغبطة، وأشدها شوقًا واستشرافًا لترادف نفحات النعيم، والقلب الميت هو القلب الراكد الجامد، الذى لا حركة به ولا عاطفة.. هذا كله حق، وما تلك المشاعر والأحاسيس فيه إلا ليذوق بها حلاوة ما يفاض عليه من جمال. ولكن من أى أفق يصيب هذا الجمال؟ أمن الأفق الأدنى الذى يرتع فيه الجسم مع سائر الدواب؟ أم من الأفق الأعلى الذى يستمد نعيمه وجماله من حسن معرفة الله سبحانه؛ أى مما فى آيات الخلق ومحاسن الصنع من عبر وحكمة؟

يجب أن يكون للجسم عالمه، وللقلب[1] عالمه، فيسعى الإنسان سعيه البدنى فى حياته الظاهرة، ويسعى سعيه القلبى فى حياته الباطنة.

• تدارك الخطأ بالزهد:

فإذا أردنا أن نسمى هذا الفاصل الحكيم، الذى يقيم المرء بين حياتيه على صراط مستقيم، فليس لدينا له إلا ما سماه به أهل المعرفة، وهو «الزهد»، فمن كان يظن الزهد غير هذا فليراجع نفسه، فليس الزهد روحانية تكفك عن السعى

(١) القلب قد يطلق على العقل.

فى الدنيا وتعزلك عن الناس، وتجعل نصيبك الحرمان من طيبات الحياة، إنما الزهد ما تقرر فيما مضى.

قيل للزهرى: «ما الزهد؟ قال: أما إنه ليس تشعيث اللِّمَّة، ولا قَشَفَ الهيئة، ولكنه صرف النفس عن الشهوة».

وسئل الإمام أحمد بن حنبل: «هل يكون المرء زاهدًا ومعه ألف دينار؟ قال: نعم، قيل: وما آية ذلك؟ قال: آيته أنه إذا زادت لا يفرح، وإذا نقصت لا يحزن».

وقال ابن السماك: «الزاهد هو الذى إذا أصاب الدنيا لم يفرح، وإذا أصابته لم يحزن، يضحك فى الملا، ويبكى فى الخلا»، أى يكون مع الناس فى مؤانسة وبشاشة، فإذا خلا بنفسه ذكر الله ففاضت عيناه.

وسئل سيد العارفين مولانا رسول الله ﷺ عن الزهد فقال: «أما إنه ما هو بتحريم الحلال، ولا إضاعة المال، ولكن الزهد فى الدنيا: أن تكون بما فى يد الله أغنى منك بما فى يدك».

والزهد ما رسم الله فى القرآن الكريم: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ [القصص: ٧٧].

الزهد حالة نفسية تنشأ فى الضمير حين ينال المرء حظه من معرفة الله بالتفكر فى الآيات، فإذا به سعيد بتلك المعرفة، مبتهج، عزيز، غنى، وتستفيض تلك الحالة حتى تعم ذهنه ووعيه كله، فلا يحس نحو الدنيا إلا إحساس الممتلئ الراغب فيما هو خير منها عند الله.

هذا هو الفاصل الذى كنا نتساءل عنه منذ قليل، لنتبين عنده معالم الحياتين؛ فالزهد هو أن تعرف أن الله أراد لك أن تحيى فى حياتين، وأن تثبت وجودك المادى فى حياة المادة، ووجودك الروحى فيما وراء المادة، عاملاً فى الأولى بقوة بدنك وملكاته، وعاملاً فى الأخرى بقوى قلبك وملكاته، محاذرًا أن تنصرف عواطفك عما فى يد الله إلى متاع الدنيا.

فيجب أن تأكل من الطيبات، فما خلقها الله وهو يكره أن تنال منها؛ بل إنه دعا إليها المرسلين والمؤمنين، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا﴾ [المؤمنون: ٥١]، وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ [البقرة: ١٧٢]،

ولكن على أن تؤدى بذلك حق البدن، فتأكل للوفاء بهذا الحق، لا للذة والشهوة والمتعة الحيوانية، فإن ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ [محمد:١٢]. . للجسم زاده، وللقلب زاده، ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [البقرة:١٩٧].

ويجب أن نلبس وأن نتجمل بالجميل والنظيف من الثياب، فإن الله جميل يحب الجمال، ونظيف يحب النظافة، ولهذا يدعونا عز شأنه: ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف:٣١]، ولكن لستر الجسم ووقايته، لا لشهوة الظهور والاختيال أمام الناس. وتأمل يا أخى قول الله تعالى: ﴿عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾، فإن الذى يتزين للمساجد غير الذى يتزين للأندية والمجالس، والذى يتزين لله غير الذى يتزين للناس، والدافع الربانى الذى يحفز إلى التجمل عند العبادة هو دافع سام جليل، لا يدع فى القلب مجالاً لرغبات الرياء والظهور؛ فيجب أن يكون الشأن فى اللباس كالشأن فى الاغتسال والنظافة؛ فالرجل يغتسل وينظف بدنه دون أن يخطر على قلبه أن هذا مما يختال به الإنسان، ويلفت به أنظار الناس إليه، بل يفعله ليؤدى حقًا لجسمه وكرامته. سأل رجل عبد الله بن عمر: ما ألبسه من اللباس؟ قال: «ما لا يزدريك فيه السفهاء، ولا يعيبك به الحكماء».

البس ما طاب لك، على أن لا تتكلف له، ولا يلتفت إليه قلبك، واذكر دائمًا أن لباس الروح خير وأسعد من كل لباس خلقه الله للبدن: ﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ [الأعراف:٢٦].

والحياة تقتضيك أن تتزوج وأن تتناسل، والله عز شأنه شرع لنا هذا، وجعله من سنة الأنبياء: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً﴾ [الرعد:٣٨]. والعقل الحر يحكم بأن غريزة الجنس فى الذكر والأنثى إنما هى نوع من التكليف الإلهى، تؤدى به مهمة إلى الحياة، وليست وسيلة لتحصيل شهوة من الشهوات؛ فلنتزوج لننجب ما يريد الله من النسل وكفى، لا لقضاء اللذة والمآرب من النساء والبنين؛ وهذا ما يقرره الله تعالى بقوله: ﴿فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ [البقرة:١٨٧]، قال الإمام البيضاوى فى تفسير قوله تعالى: ﴿وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ

لَكُمْ﴾: «واطلبوا ما قدره الله لكم وأثبته فى اللوح المحفوظ من الولد؛ والمعنى أن المباشر ينبغى أن يكون غرضه الولد، فإنه الحكمة من خلق الشهوة وشرع النكاح لا قضاء الوطر».

للزوجة فتنة، وللبنين حلاوة، وقد يسرى شىء من هذا إلى القلب فيفسد على المرء ربانيته، وبعبارة أخرى: يقضى على وجوده الحقيقى وحياته التى يقاس بها عمره وقدره؛ ولهذا يحذرنا الله عز وجل بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ﴾ [التغابن: ١٤]؛ ويشرحه رسول الله ﷺ بقوله: «ليس عدوك الذى إن قتلته كان لك نورًا، وإن قتلك دخلت الجنة، ولكن أعدى عدوك ولدك الذى من صلبك، ثم أعدى عدوك مالك الذى ملكت يمينك».

وَاسْعَ فى الأرض، واضْرِبْ فى مناكبها، وابْتَغِ ما فيها من فضل الله ورزقه وثمره، على أن تظل ساعيًا بقلبك فى ملكوت الله، أى مفكرًا فى آيات الخلق، وفيما تتضمن الكائنات من آثار صفات الله.

اعمل فى دنياك، واجمع المال، ولكن لا يلهينك شىء من هذا عن حياتك الأخرى. لا يكن غرضك من جمع الحطام أن تكنز الذهب والفضة، أو تكاثر به بين الناس؛ فهذه همة السفهاء الفارغين، والفتنة التى تدخل على القلوب عبادة المال من دون الله: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [التغابن: ١٥]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [المنافقون: ٩]، ليكن غرضك من جمع المال أن تنفقه فى سبيل الله، وأن تجعله عدة لتأييد دينه.

بهذا يثبت الإنسان وجوده فى الحياتين، ويؤدى رسالته فى الناحيتين، ويحقق معنى الزهد الذى تقاصرت عنه همم العاجزين من عبَّاد الشهوات، فعابوه، وهو زينة الإنسانية، ونظامها الكامل.

• صعوبة تحقيق الزهد:

ومن الواجب أن نقرر هنا أن تحقيق هذا المنهاج ليس بالسهولة التى تبدو على الورق، فنحن محاطون بزينة الدنيا ومغرياتها، من المال، والنساء، والجاه،

والأبناء، وغيرها؛ وكل هذا فتن تتضافر على بسط سلطانها على القلب، وجذب خطامه إلى محيطها المعربد الصاخب، وليس فى طبيعة المرء أن ينجو من سحر فتنة واحدة منها، فكيف بهن مجتمعات؟ هذا إلى أن الإنسان منذ طفولته معبد للذائذ، بحنان والديه، وعطف ذوى رحمه وقرابته: يهدون إليه، ويلطفونه ويعدونه ويمنونه، فلا يكون ذلك إلا بمضاحكة حواسه، ومناغاة غرائزه وشهواته، فيكبر وقلبه مطوع لزهرة الحياة الدنيا، فماذا نرجو من سهولة تحقيق هاتين الحياتين، وهو فى طلاقة هذا المرج الضاحك الناضر الفاتن؟.. إن رسول الله ﷺ يعترف بهذا ويقرره فى حكمة العلى الخبير: «إن الدنيا حلوة خضرة، وإن الله تعالى مستخلفكم فيها، فينظر كيف تعملون».

وما دمنا ننظر إلى حقائق الأشياء، وواقع الأمور، كما يعلمنا رسول الله ﷺ، فيجب أن نكون عمليين واقعيين أيضًا فى محاولة علاجها.

• بين العقل والقلب:

ما موقف القلب حيال هذه الدنيا التى يصفها رسول الله بأنها حلوة خضرة؟ لو أن الإنسان ميكانيكى التركيب، لجعل لبدنه زرًا خاصًا يدير أعضاءه، ولقلبه زرًا آخر يديره فى جهة أخرى؛ فيستريح ويريح. ولكن الإنسان كائن حى مدرك، والحياة سر مستفيض لا يضبط بقيود المادة وسدودها، فما موقف القلب أمام زهرة الدنيا وشهواتها؟

أنتجاهل غرامه وأشواقه، أم ننزل على حكم الأمر الواقع؟

ونحب إزاء ما نلتزم من إنصاف، أن يكون الناس منصفين أيضًا، فهل يريدون أن ينطلق الإنسان فى دنياه مع أهوائه بلا قيد ولا شرط؟ أم لا بد من قيود وشروط وتنظيم؟

لو أن القلب كان مركز المنطق وعدة التنظيم، كما هو مركز الحياة ومعين القوى، لنظم نفسه بنفسه، فأخضع قواه الهائلة لمنطقه، وسيَّرها فى اتجاه المبادئ التى يستحسنها، ولكان للإنسانية شأن غير هذا الشأن، ولكن الله قضى أن يكون مركز التنظيم بعيدًا عن القلب، متخذًا برج قيادته فى قمة الجمجمة، فالقلب

مرجل البخار فى قاطرة الإنسان، والعقل المنطقى قائدها. فإذا كانت المبادئ التى آمن بها المنطق هى التى يسرى رحيقها فى القلب، فاعلم أن السائق آخذ بزمام قاطرته، مهيمن على توجيه قواها إلى ما يشاء. أما إذا آمن العقل بمبادئ، وأشرب القلب مبادئ غيرها، فاعلم أن قبضة السائق منحلة عن عجلة القيادة، وأن القاطرة تمشى بلا عينين، وأن صاحبها ينطلق مع هواه بلا قيد ولا شرط، وهذا شأن الناس جميعًا، أو شأن أكثرهم فى هذه الأيام.

والعجيب من أمر الناس أنهم يعيشون منطقيين مع معداتهم، لأنهم أخضعوا المعدة للعقل، فإذا أفتاها أن هذه الفاكهة الحلوة سامة ضارة، وأن هذه القثاء طيبة لا خوف منها، نزلت على حكمه، وأخذت بمنطقه، وآثرت القثاء على الفاكهة، دون أن تفتنها حلاوتها عن سمومها، ولكنهم ليسوا منطقيين مع قلوبهم لأنهم لم يخضعوها لمشيئة العقل. فإذا قيل لها: هذا مبدأ فى الأخلاق جميل، رفضت أن تكون كالمعدة فى الاستسلام لما يلقى عليها، فيا ليت معدة الإنسان تهضم المبادئ كما تهضم الطعام، إذن لاتسع بالخيرين، ولسرى فيه الغذاءان: غذاء البدن، وغذاء الروح، ولكن للمبادئ معدة أخرى هى المعدة العصية والقلب الشموس.. الصدق فضيلة، والكذب رذيلة.. خبرنى بربك مَن مِن الناس ينكر هذه القضية؟ أى عقل لا يؤمن بهذا المبدأ الجميل؟.. ولكن أى نفس لا تستثقل الصدق عندما يعترض المنفعة؟ وأى قلب لا يستحلى الكذب حينئذ ذاهبًا مع الهوى كل مذهب، منطلقًا بالقاطرة على غير ما يحب السائق؟ والإنفاق فى الخير فضيلة، والشح رذيلة، ما فى ذلك شك، ولكن القاطرة تمشى فى غير هذا الاتجاه، فلماذا؟ ألأن الإنسان يسير فى حياته منطقيًا مع ما يؤمن به عقله من مبادئ، أم لأن عقله ومبادئه فى وادٍ، وقلبه وأهواءه فى آخر؟

كنا نطلب إلى الناس أن يكونوا منصفين، فهل يرضون للإنسان أن يحيى هذه الحياة؟ هل يحبون أن نقول له: إذا ثقل عليك الصدق، وحلا الكذب فى نفسك، فلا بأس، ما دمت تحصل منفعة شخصية، فإن الدنيا حلوة خضرة؟

هل يريدون أن نذم له الصدق ونمدح له الشح، لأن المال زينة الحياة الدنيا، والإنسان منذ طفولته معبد محب لها؟

فإذا سأل سائل: ما موقف القلب من الدنيا الحلوة الخضرة؟ رجوناه أن يضع أمام عينه وعقله وقلبه هذه المفارقة الهائلة، التى تجعل عقل المرء ومبادئه فى واد، وقلبه وأهواءه فى واد آخر، لعل أن يروعه هذا الوضع البغيض، فيطلب أن يلائم بين هذين الشقين المتنافرين، قبل أن يحدد حق الحلواء والخضراء.

الواقع أننا لا نستطيع أن نضع للقلب نظامه، ونحدد موقفه، إلا ونحن مقبلون بعلاج هذا الوضع.

هذا أول شرط وأول قيد، أما بلا قيد ولا شرط فلا. ولكن كيف نعالج هذا الوضع، ونزيل هذه المفارقة الواسعة؟ أيكون ذلك بنقل العقل إلى وادى القلب، وإنزاله على حكم أهوائه؟ أم يكون بنقل القلب إلى الوادى الآخر، وإلزامه ما للعقل من مبادئ قويمة؟

إن ما تقدم كله من تساؤل إن هو إلا خلط فى خلط، ناشئ من الجهل بمعنى العقل وبمعنى القلب. ولنعلم - فى إيجاز شديد جداً - أن من طبيعة القلب أنه منبع الشوق والمشاعر؛ فإذا خلا القلب مما يشغله إلا من خواطر الحس: كالعرض الأدنى، والجاه عند الناس، ولذة الغرائز والجوارح - تعلقت بها مشاعر القلب وأشواقه، وفرضت نفسها على إرادته، وألحت فى تنفيذ مفهومها فى ظاهر الحياة سلوكًا ومعاملات وسيرة تمثل الأنانية فى الحقد والتنافس على الدنيا.

ولكن من فضل الله أنه جعل للعقل حاسة باطنة من وظيفتها أنها تدرك دلالة الكائنات على الله، أى تدرك آثار صفات الخالق تعالى فى الخلق؛ آثار قدرته، وآثار علمه وحكمته، وآثار رحمته وبره، وآثار كرمه وإحسانه، ووده، وعدله، وما له سبحانه من صفات. فإذا استطاع الإنسان أن يتبين آثار هذه الصفات القدسية انتقلت صورها فوراً إلى القلب، وكانت هى حصيلة معرفة صاحبها بالله، لأن معرفة الله إنما هى معرفة صفاته، وكانت هى - أيضًا - عقيدته، وإيمانه بالله. ولكن الذى يعنينا أن آثار صفات الله إذا انتقلت إلى القلب واحتواها الضمير محقت ما به من خواطر الحس، وبادرت مشاعر القلب وأشواقه فتعلقت بها، وصار ضمير الإنسان - أى قلبه - حافلاً بوجدانات كريمة عليا تمثل معانى البر، والرحمة، والكرم، والود، والإحسان، والحكمة، والعدل، وغيرها من صفاته

جل شأنه، فيتطهر ضميره - أى قلبه - من عقد الكراهية، والشح، والصفات الخبيثة؛ وهيمنت الوجدانات الربانية على إرادته، وأخذت تلح عليه أن يحقق مفهومها فى ظاهر الحياة، برًا، ورحمة، وودًا، وسلوكًا حسنًا، ومعاملات فاضلة.

فالأمر كله يرجع إلى «طبيعة الشىء» الذى يشغل فراغ القلب، فإذا كان هذا الشىء هو وارد العبر والحكم التى تمثل معرفة الله عز وجل تعلقت المشاعر والأشواق بمعانى معرفة الله، وصار القلب حافلاً بأشرف القيم وأكرم المبادئ والغايات. وإذا طرأ على الإنسان غفلة، أو عرض له ما يشغله عن التبصر فى آيات الخلق، فتعطلت حاسة الإبصار الباطنة عن إدراك آثار صفات الخالق فى الكون، فقد تعطل ورود واردات القيم العليا، وصار القلب خاويًا من كل إثارة صالحة، وسارعت خواطر الحس فشغلت الفراغ، وتعلقت بها أشواق القلب ومشاعره.. وهكذا دواليك.

فإذا عاد السائل إلى تساؤله القديم: ما موقف القلب من الدنيا الحلوة الخضرة؟ رجوناه أن يضع أمام عينه وعقله وقلبه أمرين لازمين:

١ - المفارقة الشاسعة التى تقيم حياة المرء على وضع غير مرضٍ.

٢ - ضرورة علاج هذه المفارقة، بعقد أواصر الألفة بين أهواء المرء ومبادئه الكريمة، أى جعل أهوائه من جنس هذه المبادئ الكريمة.

• لا بد من التجرد:

فإذا اتخذنا من هذين الأمرين قيدًا ينظم لنا شأن القلب فى هذه الحياة، ألفينا أنفسنا أمام نهج واحد لا ثانى له، ولا خير فى غيره للمرء ولا كرامة، هو «تجريد القلب من كل خاطرة تعارض المثل العليا».

ولكن: ما هى هذه الخواطر؟ وكيف نجرد القلب منها؟

تساؤلان يخطران على قلوبنا وعقولنا، عندما نقف على أبواب هذه المهمة الخطيرة لنشرع فى إنجازها. وما حسن أن نبلغ هذه المرحلة، ثم نسكت عن مواصلة السعى لإتمامها قائلين لمن معنا: حسبك أن تجرد القلب من كل هوًى

وخاطرة تعارض المثل العليا. إننا لا نستطيع أبدًا أن نجرد القلب من شىء لا نعرفه، ولا يمكن أن نشرع فى مهمة غير واضحة المعالم، فما هى هذه الأهواء والخواطر؟

هذه الأهواء هى مجموعة الخواطر والشهوات التى لا يمكن أن تورد على قلبك حركة ربانية، أو نفحة سماوية نورانية، لا يمكن أن تمنحك شيئًا من هذا لأنه ليس من طبيعتها، فهى شهوات الجوارح الحيوانية فى الإنسان، وهى جوارح أرضية غير سماوية، خلقت من الأرض، ومنها غذاؤها وشرابها ونماؤها، فهى لا تنفك ترنو وتهفو إلى لذة المتاع الأرضى الحيوانى، ولا يمكن أن تدرك من أرزاق السماء ومغانمها، إلا بمقدار ما تدركه جوارح أى حيوان آخر... فهى وجوارح الحيوان سيان، مرعاهما واحد، والأرض مائدتهما جميعًا، أو مذودهما إن أردت منطق الفطرة الصحيح. ولأمر ما، يخاطبنا جل شأنه بقوله: ﴿مَتَاعًا لَّكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ﴾ [النازعات:٣٣] بعد قوله: ﴿وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ۝٣٠ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا﴾ [النازعات: ٣٠، ٣١]، ويقول: ﴿مَتَاعًا لَّكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ﴾ [عبس:٣٢] بعد أن يقول عن الأرض: ﴿فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ۝٢٧ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ۝٢٨ وَزَيْتُونًا وَنَخْلاً ۝٢٩ وَحَدَائِقَ غُلْبًا ۝٣٠ وَفَاكِهَةً وَأَبًّا﴾ [عبس:٢٧ ـ ٣١]، ويقول تعالى: ﴿وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ۝٥٣ كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لأُوْلِي النُّهَىٰ﴾ [طه:٥٣، ٥٤]. هى مائدة واحدة لجوارح الإنسان والحيوان، أو مذود واحد، أو سمها ما شئت، بحيث لا تعدو الحقيقة، فمن أغضبته هذه الحقيقة رجوناه أن لا يغضب علينا، وعرضنا عليه أن فى السماء أرزاقًا غير أرزاق الأرض، يفيضها الله على القلوب، لا على المعدات والجيوب، قد أعدها سبحانه وتعالى للممتازين من عباده بالإيمان، لا للذين يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام، فعليه أن يرفع بصره من مذود الأرض إلى مائدة السماء، إذا أراد أن يدّعى لنفسه امتيازًا على البقر والشاء.

وأنت تقرأ قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الأَرْضِ حَلالاً طَيِّبًا﴾ [البقرة:١٦٨]، وتقرأ بعده بقليل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ [البقرة:١٧٢]. فكم من فرق شاسع بين القولين؟!.. هناك فرق بين: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ و﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ .. وأمد بعيد بين: ﴿كُلُوا مِمَّا فِي الأَرْضِ حَلالاً طَيِّبًا﴾

و ﴿كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾، إذ يسند هذا الرزق إلى ذاته سبحانه. وما أحكم التناسب حين يأمر الناس جميعًا أن يأكلوا مما فى الأرض، ثم يخص المؤمنين بالطيبات مما رزقهم من فضله.

فمجموعة الخواطر التى تخدم فى الإنسان ناحيته البهيمية فقط هى التى يجب أن نجرد القلب منها ونبدد ظلامها عنه، حتى يظهر صقاله وصفاؤه.

وهذه المجموعة يمكن تفصيلها فى الفصائل الثلاث الآتية:

(١) خواطر تعلق القلب بمطالب البدن ورغبات الجوارح، تعلقًا يعبد المرء للطعام والشراب واللباس والنساء وأنواع الترف ومتع الحواس الظاهرة.

(٢) خواطر تعلق القلب بمطالب الجاه، ورغبات العلو، والسمعة فى الناس، تعلقًا يعبد المرء لشهوة المنصب والسلطان أو شهوة الغلبة على النظراء والأقران.

(٣) خواطر تعلق القلب بالمال، وتجعل منه زينة للحياة الدنيا، وقد يطلب المال لتحقيق أحد الغرضين السابقين، أو كليهما، فيكون وسيلة لإشباع رغبات البدن، أو عنصراً مؤازراً لشهوات الجاه والاستعلاء. وقد يبدو لهذا كأنه ليس فصيلة ثالثة من الأهواء، ولكن المال قد يُحب فى كثير من الأحيان لذاته، كما يحب الرجل الخيل المسوّمة والأنعام والحرث - مثلاً - بدون نظر إلى متعة البدن، أو شهوة الجاه، فهو على هذا الوجه فصيلة قائمة بذاتها، على ما يصوره تعالى فى قوله عن: ﴿الَّذِي جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُ (٢) يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ﴾ [الهمزة: ٢، ٣].

هذا يا أخى هو الباطل الذى نريد أن نحرر قلوبنا وعقولنا من أوهامه، ونجردها أو نخلصها من أثقاله وآثامه.

فإذا نحن أفلحنا، فقد خلصت لنا الحقائق فى جوهرها الصريح، وسلمت لنا الحرية فى لبابها الصحيح. ولكن كيف نحرر قلوبنا ونخلصها مما هى فيه؟

لقد تميزت لنا الخواطر الباطلة، فكيف نزيح هيمنتها على القلوب؟ هل نكتب الكتائب، ونحشد الجند، ونعبئ الجيش الكثيف، ثم نشن على هذا العدو غارة حازمة قاصمة؟ نعم لا بد من غارة. فما أشبه هذه الأهواء الثقيلة بالعدو الدخيل الثقيل، الذى يحتل ديار غيره؛ فيقضى فيهم بأمره ونهيه، ويسومهم ما لا يقبله الأحرار من فقر وذلة! فإذا رأيت غاصبًا محتلاً جلا عن مستعمرة غنية بدون

معركة، فاعلم أن الأهواء الفاسدة المفسدة يمكن أن تجلو عن «مستعمرة القلب» بدون معركة. وإذا رأيت أمة منكوبة بالاحتلال ظفرت بحريتها وسيادتها بمجرد الأمانى التى تطوف كالأحلام، فاعلم أن الأمانى السلبية والأحلام الفارغة كافية لتحرير القلب من محتله العنيد. أما إذا أقنعك الواقع بأن الأمر جدٌّ لا هزل، وأنه لا بد من معركة حامية تديرها الأمة المغلوبة، وتحشد لها كل ما تملك من إرادة وقوة، فذلك هو الحق، وهو وحده عدة الجلاء، وضريبة الحرية والاستقلال. إذا أقنعك واقع التاريخ القريب والبعيد بهذا، فاعلم أيضًا أنه لا بد من مثل هذه المعركة لتحرير مستعمرة القلب الغالية، ولكن كيف ندير هذه المعركة؟ كيف نعد لها العدد والعُدد؟ ما جندها الذى يجب أن يُعبأ؟ وما سلاحها الذى يجب أن يُهيأ؟ . . الأمر على خطورته بسيط غاية البساطة، والمئونة يسيرة غاية اليسر؟ فجند هذه المعركة فى نفسه هم أبناء هذا القلب، هم شعب هذه المستعمرة القلبية!! وهل للقلب أبناء غير عواطفه وخواطره؟

إن الوطن إذا استعمره العدو فلا سبيل إلى تحريره إلا أن يقوم أبناؤه ويتجمع شعبه على ذلك. فإذا انصرف كل إلى شأنه الخاص، فقد تبددت قواهم، وخمدت جمرتهم، وتبعثرت ذراتهم فى الفضاء، وهيهات أن يتم مع هذا الشأن جلاء العدو، إلا أن يكون أمر من السماء ليس فى الحسبان.

وكذا القلب إذا استعمره العدو، لا سبيل إلى تحريره إلا أن يقوم أبناؤه ويتجمع شعبه على هذا المقصد، فإذا انصرفت كل عاطفة إلى شأنها ومضى كل خاطر إلى سبيله، تفرق الشمل، وانحلت إرادات القلب، وهيهات أن يتم مع هذا خلاص المرء من ضلالات الباطل وأوهامه. لا بد أن يتجمع جند القلب، وأن تعبأ إراداته المختلفة. . لا بد من إرادات العواطف، أو العواطف المريدة (بضم الميم)، فالعاطفة التى لا إرادة لها هى عاطفة منحلة، وخاطر متميع لا يورث إلا الحياة السلبية الراكدة. . العاطفة المريدة هى العاطفة الفاعلة، التى تنشئ للمرء حياته الإيجابية فى الظاهر والباطن، وما المرء فى ميدان الإنتاج إلا عاطفته المريدة الفاعلة، فإذا خلا من هذه الإرادة، فهو شبح فارغ هائم على وجهه، هو والسوائم سيان. فإلى هؤلاء الفارغين نوجه النداء، أن يعودوا إلى نفوسهم، ويجمعوا خواطر قلوبهم،

ويلموا شعث إرادتهم. . فإذا تركز وجود أحدهم فى إرادته، حق له أن يقول: إن الجندى قد تهيأ للمعركة، ولا ينقصه إلا السلاح.

أيها الأخ: أول عدة المعركة أن تكون مريدًا، وأن تحذر العيش بلا إرادة، وما ذلك عليك بعزيز، إذا أردت العيش الكريم، فهل ترى ذلك يكلفك شيئًا؟ هل تراه يكلفك مالاً؟ أو تراه يكلفك جهدًا ومشقة؟ إنه لا يكلفك إلا أن تجعل عواطفك صلبة غير منحلة، وخواطرك متماسكة غير متميعة. . لا يكلفك إلا أن تراقب رجولتك، أو مقومات هذه الرجولة.

• أيها الأخ، كن مريدا:

أما سلاح هذه الإرادات التى تجمعت فى القلب، وتهيأت للمعركة، فماذا عساه أن يكون؟ سيف؟ بندقية؟ مدفع؟ نعم، ولكن سيف من الحق لا من الحديد؛ وبندقية ترمى بشهب من الله، لا بشهب من النار؛ ومدفع يقذف بالحق على الباطل، لا بويلات الرصاص والقنابل. فالحق هو السلاح الذى يجب أن تتزود به هذه الجنود، فإذا زودت بسلاح آخر كانت حربًا على المستعمرة القلبية لا لها. . كانت حربًا على وطنها مع الغاصب المحتل. . كانت كطوائف الخونة المجرمين، الذين يعملون ضد أوطانهم مع الطغاة المغيرين. نعم، فهذه الإرادة أو هذه الإرادات، إن لم يمسك الحق بقيادها، سخرها الباطل فيما يشاء من أغراضه.

فلتتزود هذه الجنود بالحق، فالحق عصمتها، والحق سلاحها فى الوقت نفسه؛ فلتتزود هذه الإرادات بهذا النور، وهذه النار. ولكن كيف نزودها هذا الزاد؟ إن كلمة الحق غامضة غير واضحة المسمى، فكيف نضع هذا السلاح فى أيدى هؤلاء الجنود؟

• التجرد هو الرجوع إلى الفطرة:

اعلم يا أخى: أن الحق مخبوء فى مطاوى وعيك الباطن، فلسنا نحيلك على علم العلماء، ولا فلسفة الفلاسفة، ولا شىء مما يكُدُّ الذهن، بل نحيلك إلى

فطرتك المستقرة فى كيانك، فالفطرة وعاء الحق، وكنانة سهامه وشهبه، هى مستودع نورك ونارك، فليأخذ كل جندى زاده من هذه الكنانة، ولنسلح كل إرادة بسهم من هذه السهام، فما الإرادة إلا وتر مشدود، إذا رمى بسهم من الحق فهى الرمية الحاسمة فى المعركة الفاصلة.

ونريد بهذه الاستعارات والمجازات، أن يرجع الإنسان المريد؛ الإنسان ذو الإرادة المجتمعة، إلى فطرته، ليرى حقائق الحياة على ضوئها، نريد له أن ينظر إلى كل شىء من خلال هذه الفطرة.. إننا نرى الأشياء، فلا نرى كل حقائقها، بل قد نراها أحيانًا على غير حقائقها، لأننا ننظر إليها بحدقة العين المجردة، لا بحدقة البصيرة الكاشفة، فإذا نظرنا إلى كل شىء من خلال هذه الحدقة الأخيرة، سطع الضوء على الحقائق كلها، وتبدد كل ما يغيم على القلب من وهم وباطل.

فالفطرة هى المنظار، أو عدسة المنظار التى تظهر من ورائها حقائق الأشياء فى غير لبس ولا خفاء. والنظرة الفطرية هى سهم نافذ من سهام الحق، يمزق بنصله المرهف أغلفة الباطل التى ترين على ظواهر الأشياء أو ظواهر القلوب، فإذا هى سافرة الحقائق جلية المعادن والجواهر.

فكن مريدًا مجتمع الإرادة يا أخى، وكن فطريًا فى نظرك إلى حقائق الحياة. إذا رأيت شيئًا فتماسك ولا تدع ظواهره تغلبك، وتسوقك معها، أو تسوقك أمامها، بل استجمع له إرادتك، واتئد، وأحضر له فطرتك، أو أحضر له منظارك الكاشف، وانظر من ورائه فى رزانة، فإن المناظر الكاذبة تتبدد بأوهامها وخواطرها، وتنكشف لك حقائق هذا الشىء لعقلك وقلبك.

كم من عيوب شائعة لا يظهر ما فيها من حطة، وكم من أوضاع فاسدة لا يظهر فسادها، وكم خدعتنا المظاهر فقبلنا خداعها، وكم وجدنا الناس يقيسون بالمقاييس الخاطئة فقسنا كما يقيسون.. وكم، وكم، مما لو نظرنا إليه بهذه العين الكاشفة، لبان لنا وجه الحق فيه، وزال عنه خداع الباطل وتمويهاته. والحياة مليئة بهذه الأكاذيب التى خضع الناس لتخييل باطلها، وأنت غنى بمشاهدتها عن التمثيل لها؛ ولكنى فى هذا المقام أريد أن أتحدث عن أكذوبة ضخمة، بل عن باطلة

الأباطيل، التى يتسلل منها كل ما يرين على القلوب والعقول من تخييل وتمويه وأهواء! فقد ضرب الباطل على أقطار هذه الكرة الأرضية فقاعة هائلة من الوهم، فهى تغشى قلوب الناس وعقولهم جميعًا إلا من عصم الله، وقليل ما هم، فهم على بريقها يسيرون، وبوحى خداعها يعملون. أوهمتهم أن الحياة طعام وشراب، وأيام تأتى بالمساءة والإحسان، وبالعطاء والحرمان، فما على المرء إلا أن يجد ويكد، ويتسلح وينافس، فيحصل المال، ويجمع الحطام، وأن يفر جهده من الفقر، وأن يستمسك جهده بأسباب الغنى، وأن يجعل أيامه أيام سرور إن قدر، وأن يدفع عن نفسه ما لا يشتهى إن استطاع، فرسالته تتلخص فى وحى هذه الفقاعة، أو هذه القبة الضخمة من الوهم، فى أنه جاء إلى هذه الأرض ليأكل، ويشرب، ويتناسل، ثم يموت، بل ثم يختم الفناء الأصم قصته إلى الأبد.. هذه هى الفقاعة الضخمة التى ضربت أطنابها على الأرض؛ فاغتر الناس ببريقها، ومضوا فى غفلة مع وهمها وسرابها، يتبع اللاحق منهم السابق، ويأتى الخلف على أثر السلف، ويتصل بهم موكب الخليقة كالقطيع السارح التائه إلى غير غاية.. لا يتساءلون: ما هذه الحياة؟.. ولا لماذا نحن هنا؟.. وأين كنا؟.. وإلى أين نصير؟.. لا يتساءلون؛ بل هى أرحام تدفع، وقبور تبلع، وبطون بينهما لا تشبع، وليس وراء هذا حكمة، ولا غاية. هكذا تقول الفقاعة.. أفهو حق يا أخى؟ أحق أن الله خلقنا لنأكل، ونشرب، ونتناسل، ثم نموت؟.. أترى بعين عقلك أو بعين فطرتك أن هذه الغاية التافهة، والخاتمة الهازلة، مما يعبأ به الله، فيخلق من أجلها إنسانًا فى أحسن تقويم؟.. ويحفل بها فيخلق لها عالمًا رائع الجلال، محكم السنن والنظام، معجز الآيات والمشاهدات؟.. ألم يكن كافيًا لأداء مهمة الأكل والشرب أن يخلقه فى تقويم غير تقويم هذا المخلوق الشاعر، المفكر، العابد القانت الخاشع؟.. أو لم يكن كافيًا لقضائها أن يخلق لها عالمًا ضئيلاً مهلهلاً، يتناسب مع ضآلتها وتفاهتها، غير هذا العالم الرائع المهيب؟ أسَرفٌ هذا من الله؟ أم ماذا يقولون؟.. ثم لماذا خلقه؟ ليأكل ويشرب!.. هل ضاق ذرعًا بخيرات الأرض فخلق لها هذا المخلوق الأكول ليريحه منها؟.. أم به غرام - حاشاه - لأن يتلهى بمنظر هذا اللعب فدأب الدهر يصنع ويلهو؟.. إنه لتساؤل

يفزع السرائر، وتبرأ من إثمه الضمائر، وتهيج الفطرة فتقذف عليه ما يبطله. فسبحان الله عما يصف هؤلاء المبطلون؛ إن حكمته جل شأنه أجل من أن تتعلق بمثل هذه الغاية، وأن تخلق من أجل هذا العبث ذبابة واحدة، فضلاً عن هذا العالم الرائع الجليل: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّاتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّا إِن كُنَّا فَاعِلِينَ ﴿١٧﴾ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ١٦ - ١٨].. فإذا أردت مثالاً للنظر الفطرى فهذا التساؤل من ألوانه، وها أنت ذا قد رأيته سهلاً لا تكلف فيه، لأنه كان يفيض من قلبك وعقلك، أو يفيض من منطق فطرتك الذى لا يخطئ. وإذا أردت مثالاً لمعنى من معانى الحق، فاعلم أن الحق سهل لا تحار الأفهام فى إدراكه، فهذا الشعور القوى الذى ثار بنفسك فأنكرت به وَهْمَ الفقاعة وإثمها هو الحق نفسه، وليس الحق شيئًا غير ذلك. ليس الحق نظريات تدرس فى الكتب ويتعلمها المتعلمون فى المدارس والجامعات، فيمتاز بها قوم على آخرين، إنما هو شعور يفيض فى القلب حين ينظر المرء من خلال فطرته لا من خلال معدته وشهوته.

وبعد: فهذا يا أخى بعض الحقائق الثابتة الأصيلة، التى لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها، هدانا إليها تجريد القلوب من أوهام الباطل، وتعرضها لشموس الحقائق، أو هدانا إليها الرجوع إلى الفطرة السليمة، فإذا حقق المرء لنفسه هذا التجرد القلبى، وعاش فى ضحوة الحقائق السافرة، فإنه يقرأ سطور الحق فى كل شىء، ويشعر كأن روحًا يهبط عليه من خلال كل كائن، فإذا حياة جديدة، وإذا يقظة جديدة، وإذا معارف جديدة.

• أمثلة واقعية لتجرد أهل الجاه والمال:

واعلم يا أخى أن تجرد القلب من أهواء الجاه والملك والمال، ليس معناه الامتناع عن تحصيله بكل وسيلة مشروعة، ولكن على النحو الذى بيناه فى الزهد. فهذا نبى الله سليمان عليه السلام سأل ربه ملكًا لا ينبغى لأحد من بعده، فاستجاب له، ووهب له الملك الذى عرضنا بعض نواحيه فى قصته السابقة، فهل طلبه شهوة فيه، ولأن نفسه نزعت إليه؟ وهل تصرف فيه تصرف المترفين من أهل الشهوات؟

كلا.. لم يطلبه لحاجة نفسه، وإنما طلبه في حاجة ربه وتصرف فيه على ما يحب الله؛ فكان له من الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه، لا بوحي شيطان الهوى، وداعي الأنانية الخاصة.

وكانت له عيون من الطير تتحسس من أحوال الناس، ولكنها عيون خير وهدى، لم يسخرها للوقيعة بأحد، بل سخرها بإذن الله في محاربة الزيغ والضلال، وكان يراسل الملوك، لا باسمه الشخصي، ولا في رغائبه الخاصة، بل كان يراسلهم كما شهد الله له: ﴿إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ (٣٠) أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ [النمل: ٣٠، ٣١].

وكانت له الجيوش التي لا يقوم لها جيش في الأرض، فهل أطغته القوة فسخرها لإذلال الناس، أم سخرها لتأييد الحق والإيمان بالله؟ وهل سير إلى سبأ جنوداً ﴿لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا﴾ [النمل:٣٧] إلا لأن موقفهم من دعوة الإيمان كان يلتبس بمواقف المراوغين المساومين؟

لهذا طلب سيدنا سليمان الملك، أما رغبته وشوقه القلبي، وما إلى هذا من عواطف ومشاعر، فكان كله ناظراً إلى الله سبحانه، متعلقًا بما عنده من مقامات عباده الصالحين، وإنك لتجد مصداق ما نقول في ضراعته الصادقة لله سبحانه: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ [النمل:١٩].

هذا مثال واقعي، ساقه الله عز شأنه، يشرح به معنى الزهد، وكيف يكون الإنسان الصالح ملكًا محاطًا بالجاه وأسباب الترف والفتنة، ونفسه مع هذا ناظرة إلى ما هو أرفع، مسخرة كل ما تملك من جاه ومال وقوة في تأييد الحق، وإرضاء الله سبحانه. فلسنا يا أخي ندعو إلى خرافة، وليس الدين دين تخلف عن حقائق الحياة، فبعدًا لكل غافل أضله هواه، واستعبدته شهوته.

اطلب المال، واطلب الملك، ولكن شتان ما طَلَب وطَلَب.. شتان ما طلب يبعث عليه باعث الشهوة والرغبة في التفاخر والتكاثر.. وطلب يبعث عليه باعث الرغبة في تطهير الأرض من المنكر، وإقامة معالم الحق.

• ويوسف:

وهذا سيدنا يوسف عليه السلام، يطلب المنصب الرفيع من ملك مصر، لا من الله كما فعل سليمان عليه السلام، وليس فى هذا شبهة من نقص تعلق به عليه السلام، فلكل مقام مقال، ولكل ظرف أحكامه وخصوصياته، وطبيعة الموقف هنا وملابساته تقتضيه أن يتوجه ببواعثه الربانية إلى طلب المنصب من الملك تحقيقًا لما أراد الله لأهل مصر من اليسر والكرامة. ويوسف عليه السلام يقول فى ضراعته إلى الله: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ [يوسف:١٠١]، وهى لفتة تشعرك بحسن إدراكه عليه السلام للحقائق العليا، وأن طلب الملك من البشر فى مثل هذه الظروف لا يقل مرتبة عن طلبه من الله. وقد كنا أوجبنا أن يطلب الإنسان المال والجاه والحكم، متوسلاً بكل ما يمكن من الأسباب الطبيعية المشروعة، على أن يكون الطلب صادرًا عن رغبة فى الله لا غير، كما رأيت فى هذين المثلين الكريمين. وهذا يوسف عليه السلام يقول لملك مصر: ﴿اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [يوسف:٥٥]، فهل تراه يطلب الإشراف على شئون التموين بالأسلوب الدنس الذى يلجأ إليه كل مستضعف مستعبد لشهوة الظهور والغرور؟ إنك لا ترى إلا العزة الكاملة فى الطلب، عزة من يطلب لغيره لا لنفسه، بل عزة من يتقدم لأداء الواجب والإنقاذ من خطر يوشك أن ينزل، وإن روح العزة ليطالعك فى صيغة الأمر من قوله عليه السلام: ﴿اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ﴾، بينما يتأدب سليمان مع الله فى الطلب: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي﴾ [ص:٣٥]، ولعل لنا فى قصة يوسف عليه السلام درسًا يعلمنا الدستور الذى تُطلب به الوظائف والمناصب، فهى تطلب بالعزة لا بالذلة، وتطلب لأداء واجب، وسداد ثغرة، لا حشرًا بدون موجب، وإسرافًا فى المال العام، وتُطلب بحق الكفاءة والموهبة الصالحة لا بحق المحسوبية ووساطة الوسطاء والوسيطات.

ألا تراه عليه السلام يقول إثباتًا لكفاءته فى غير زهو ـ طبعًا ـ: ﴿اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾، فهل يفهم هذا الدرس حكامنا وشبابنا؟

ولقد أخذ يوسف حظه من الملك، فدفع الله به شدة عن الناس، وكشف غممًا وكروبًا كثيرة، فكانت مصر فى أشد أيام قحطها وجدبها بمنجاة من خطر المجاعة المهلكة. أما هو فلم يفتنه المنصب عن ربه، ولم يَعْلَقْ الترف بذرة من قلبه، وظلت بصيرته تهفو إلى ما عنده من مقامات الإحسان، فيناجى ربه بمعنى مناجاة سليمان: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١].

• ورسول الله:

وهذا رسول الله ﷺ، تنصب بين يديه أموال الجزيرة العربية، وتأتيه أخماس الغنائم، وتئول إليه فَدَكٌ وغيرها فيئًا خالصًا له من دون المسلمين، فما وقف قلبه على شىء من هذا، بل كان يصرفه لفوره إلى وجوه البر، والمصالح العامة، وربما ربط الحجر على بطنه يثبت به قلق معدته الجائعة، فما كان جوعه عليه السلام من إقلال، بل عن غِنًى زهدت فيه نفسه، تقول عائشة رضى الله عنها: «ما شبع رسول الله ﷺ ثلاثة أيام متوالية، ولو شئنا لشبعنا ولكنه كان يؤثر على نفسه».

ولقد رأى عليه السلام جبل أُحُد مرة؛ فعبر عن منهجه هذا بقوله: «ما يسرنى أن عندى مثل أحد هذا ذهبًا، تمضى عليه ثالثة وعندى منه دينار، إلا شىء لدَيْنٍ، إلا أن أقول فى عباد الله هكذا، وهكذا، وهكذا» أى يفرقه بيديه عن يمينه وعن شماله وعن خلفه، ثم سار وقال: «إن الأكثرين هم الأقلون يوم القيامة، إلا من قال هكذا وهكذا ـ أى يفرقه يمينًا وشمالاً ومن خلفه ـ وقليل ما هم».

وبعد: فهذه مُثُل تاريخية واقعية عالية، تؤيد وتوضح ما قلناه، من أن تجريد القلب من أهواء المتاع الأدنى ليس معناه أبدًا الامتناع عن تحصيله، والسعى إليه بكل الوسائل والأسباب الشريفة. إن تجريد القلب ينشئ فى نفس صاحبه حاجات ومطالب لله، فينبعث بنداء هذه المطالب إلى السعى والتحصيل، بهمة لا تقل عن همة المساعير من أهل الشهوات.

وكذلك توضح لنا هذه المثل مهمة المال وغيره من أعراض الدنيا، فهى للإنسان يأخذ منها كفاية بدنه لا غير، ثم يرصد سائره لأحد الأمرين أو لكليهما:

١ ـ تفريج كروب الناس، وتخفيف ما ينزل بهم، وتيسير مصالحهم.

٢ ـ لا بد للحق من قوة مادية تكون من أسباب حراسته ونصرته. والقوة مال، وسلاح، وجنود مدربون، فليرصد المرء من ماله لينفق فى هذه الأغراض، وليعمل على الاستكثار من هذا المال، واستخلاصه من أيدى أعوان الشر وجنوده، بكل ما يسعه من علم وحيلة ووسيلة، «فنعم المال الصالح فى يد الرجل الصالح»، فإذا جاز له أن يفرح بما جمع، فليفرح لا لنفسه، بل لأنه استكثر للحق من أسباب العون والنصير. وهذا من مهمة الأنبياء، ومن صميم نظرهم إلى حقائق الحياة وطبيعة الأشياء.

• من صفات أهل الروحانية الاجتماعية:

إنما فصلنا هذا التفصيل رغبة فى الشرح والإبانة، وقد رأيت أن مجرد خلوصك من كل ما هو باطل يُسلمك إلى الحق الواضح، فترى شمسه دائمة الإشعاع على قلبك، فيقوى شعورك به على الأيام، حتى لا يبقى فيك محل لغيره بل حتى كأنك لست من لحم ودم، إنما وحدة من الشعور القوى، يستقل الحق وحده بحيزها.

فإذا تحقق الإنسان بهذه المعانى، فقد تحققت له الروحانية الاجتماعية، التى يحيى بها حياتين، ويعيش بها فى عالمين: جسمه فى الأرض وحقيقته فى السماء.. جوارحه آخذة فيما يأخذ فيه أهل الدنيا، ومواهبه الإلهية آخذة فيما يأخذ فيه العارفون.. يغدو ويروح بين الناس، وله من دون ذلك غدو ورواح فى الملأ الأعلى.. ويأكل الطعام ويمشى فى الأسواق، وإنه ليسعى مع هذا فى أسواق الله بتجارة أخرى. والعمل من أعماله فى الحقل، أو المصنع، أو الشارع، أو المسجد، يشبه ما يعمله غيره، ولكن شتان ما عمل فى الأرض يرتد إلى الأرض، وعمل يبتغى به مرضاة الله يرفعه الله إليه، وعليه من طيب القول ما هو أزكى من ريح المسك: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَٰئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾ [فاطر: ١٠].

• الروحانية وذكر الله:

واعلم يا أخى أن ملاك الأمر أولاً وأخيرًا هو ذكر الله عز وجل، على كل حال، وفى كل آونة، فهو للقلوب كالهواء للأبدان؛ فإذا ساغ لديك أن تحيى الأجسام بغير هواء، فقد صح لك أن تجيز حياة القلوب بغير ذكر.

قال الإمام ابن تيمية: «ذكر الله للإنسان كالماء للسمك، فانظر كيف يعيش السمك بعيداً عن الماء؟».

هذا قول أهل الحقائق لا أهل المجاز والخيال.

الحياة سر، ومظهرها فى الجسم الحركة، ومظهرها فى الروح ترادف واردات المعرفة الإلهية، واليقظة الدائمة. والجسم لا يكف عن الحركة ما دامت الحياة تسرى فيه، حتى أنه إذا نام لا تكف رئتاه وبعض أعضائه عن العمل والحركة، فإذا انقطعت الحركة كان ذلك آية الموت.

وكذلك القلب: يجب أن لا يكف عن يقظته الربانية، حتى أنه إذا نام صاحبه ظل على يقظته وانتباهه. وهذا تفسير ما وصف به ﷺ من أنه: تنام عيناه وقلبه لا ينام. وتفسير أن رؤيا القلب الصالح تأتى كفلَق الصبح، وهى جزء من ٤٤ جزءاً من النبوة، فإن الله سبحانه يرسل المبشرات بأمر من نبئه؛ فالقلب اليقظان يحس بها فيلتقطها، كما تلتقط الأجهزة اللاسلكية ما فى الأثير من إشارات. أقول: إن يقظة القلب مظهر سريان الحياة الروحية، فإذا كف عن يقظته، وانطفأ نوره وأظلم، كان ذلك آية الموت، على مثال ما تقرر فى الجسم. فذكر الله على هذا لازم لنا فى كل وقت وعلى كل حال، حتى يستمر مدد الحياة واردًا على قلوبنا.

ومن حسن الحظ أنه ليس أسهل على الإنسان ولا أحلى فى قلبه من ذكر الله. فإذا كان فى الصلاة مشقة على بعض النفوس، وإذا كان فى الوضوء ما يشبه الحرج لبرد أو نحوه، وإذا كانت الصدقة تثقل أحيانًا، وإذا كان الزهد ـ على ما بيناه ـ يشق على الإنسان، وإذا كان عمل الجنة حزنًا[1] بربوة كما يقول رسول الله ﷺ، فاعلم أن ذكر الله على كل حال، وفى كل وقت، يدخل على النفوس من الأسرار

(١) الحزن ـ بفتح فسكون ـ: الطريق ذو الحجارة والعقبات التى يصعب معها المسير.

والأنوار ما به تزول كل مشقة، قال ﷺ: «من عجز منكم عن الليل أن يكابده، وبخل بالمال أن ينفقه، وجبن عن العدو أن يجاهده، فليذكر الله عز وجل».

بل إن هذه الأعمال إذا سهلت عليك لا تلبث أن تصير لدى نفسك من الضرورات التى تشتهيها، والتى لا تطيق عنها صبرًا، فإنه يروى أن رسول الله ﷺ كان إذا انتظر الصلاة هامت إليها أشواقه، فيقول: «أرحنا بالصلاة يا بلال»، على نحو ما يفعل عباد البطون، حين يصيحون بخدمهم أو أهليهم: أريحونا بالطعام يا هؤلاء، ولله ولرسوله المثل الأعلى.

وعلى محمل هذه السهولة أمضى رسول الله ﷺ قوله: «إن الجنة أقرب إلى أحدكم من شِراك نعله». وعليه، فلا تضارب بين الحديثين، فهو يقول للمقصِّرين فى ذكر الله: «إن عمل الجنة حزن بربوة» ويقول لمن ذاقوا حلاوته، ووجدوا يسره وبركته: «إن الجنة أقرب إلى أحدكم من شراك نعله».

• معنى الذكر على كل حال:

ورسول الله ﷺ قدوة الذاكرين، فاتخذه قدوتك، تر المثال العالى فى تحقيق الذكر على كل حال. فقد كان عليه الصلاة والسلام يذكر الله إذا تناول الطعام، ويذكره إذا قام عنه، فإذا شرب أو انتهى من الشراب كان على ذكر، فإذا خلع ثوبه أو لبسه، وإذا خرج من بيته أو دخله، فله فى الذكر صيغ مأثورة، وإذا أوى للنوم أو نهض منه كان أول ما يسبق إلى لسانه ذكر الله، بل إنه إذا تقلب من الليل لا يخطر بباله إلا اسمه سبحانه، وإذا خرج إلى سفر أو عاد منه، وإذا ركب دابة، أو دخل قرية؛ فكل هذا بذكر، وإذا لبس جديدًا، أو دخل سوقًا، فالله حاضر فى كل ذلك، وإذا فزع من النوم أو أرِقَ. وإذا أراد جلب رزق، أو حفظ نعمة أعجبته، وإذا أراد دفع هم وضيق أو قضاء دَيْن، وإذا زار المقابر، وإذا أمسكت السماء وأراد الاستسقاء، وإذا هاجت الريح أو أرعدت السماء، أو نزل الغيث، أو فاض المطر وزاد عن الحاجة، أو رأى هلالاً جديدًا، لم يكن له ﷺ من شأن فى هذا كله، إلا تنبَّه قلبه لله سبحانه، فيجرى لسانه بما يشاء من صيغ الذكر.

• طبيعة الذكر فى نفس الرسول:

ولا نستطيع أن نورد هنا أحواله كلها ﷺ، فهى فوق الحصر، وقد جمعت كتب السنة كل ما رواه الرواة منها، وأوردت ما كان له ﷺ من صيغ الذكر فى كلٍّ؛ مما يريك حياته كلها مصورة فى عمل وذكر.

كان عليه السلام شديد الإحساس بمعنى العبودية، لا يغيب عنه أنه عبد الله، يعمل فى ملك سيده، فوق أرضه، وتحت سمائه، باسمه سبحانه لا باسم شىء آخر.. لا يَعزُب ذلك عن عقله وقلبه لحظة، فهو عبد ربانى يرى شرفه فى العبودية، وحياته فى ذكر مولاه، ليس له فى الملك مثقال ذرة، قائم بحق ذلك كله حق القيام، يرى الانحراف عنه أو التقصير فيه هو الهلاك المفزع، فيبكى ويقول: «بعثنى على مثل حد السيف، إن زغت عنه هلكت»، ويدعو: «اللهم لا تكلنى إلى نفسى طرفة عين ولا ما هو أقصر من ذلك».

• الاقتداء بنهج الرسول:

وليس فى طوق أحد أن يسمو فى الذكر إلى أفق رسول الله ﷺ، ولكن فى طوقه أن يجعل هذا الرسول العظيم قدوته، فيقتفى أثره، وينسج على منواله، ولم يتكلف فى هذا مجهودًا بدنيًا يذكر، أو مشقة نفسية تثقل عليه، فما هو إلا أن يكون راغبًا فى معية الله، وأن يتمثل عبوديته له، ويستحضر له قلبه، حتى يبدو له الكون حيًا قويًا، منفعلاً بمعالم الجلال والجمال فيه، وحتى يرى نفسه عبدًا ربانيًا، ليس له من الأمر شىء؛ فالشربة يشربها تحدثه أنها فضل الله عليه، واللقمة يلقمها تخاطبه أنه يأكل ما لا حول له فيه ولا قوة، والعاصفة يراها، فتقول له: يا هذا، إنما تدفعنى يد الله.. وهكذا يتأثر وجدانه بكل شىء، ويؤثر كل شىء فى وجدانه، فيكون له فى كل حال حديث خاص، ومعنًى ربانى معين. أو قل: يكون له فى كل حال صيغة من الذكر خاصة، يصوغها له دوام حضور الله فى سريرته. وخير صيغ الذكر ما أثر عن رسول الله ﷺ؛ لأن قلبه خير القلوب الذاكرة، وآيات الله وأنعمه تؤثر فيه أبين الآثار، وتنطق فيه بأصدق صيغ الحمد

والثناء عليه سبحانه، وصدق هذه الصيغ تلمحه فى مطابقتها لمقتضى الحال تمام المطابقة، فإذا لبس المرء جديدًا، وللجديد لذته أو فتنته وغروره، فموقف العبد الربانى الكامل فى هذا المقام أن يقول: «الحمد لله الذى كسانى هذا بلا حول منى ولا قوة». وإذا ودعت مسافرًا، والمسافر قد أعد لنفسه عدتين: الزاد من الطعام أو النقود، وعدة الرجاء الذى يرجو به نجح مسعاه، فموقف المودع هنا أن يفيض قلبه الذاكر بما يقتضيه المقام: «زودك الله التقوى، ووجَّهك إلى الخير أينما كنت». وإذا لقيت قومًا تكرههم فى الله، أو دخلت على سلطان مخوف، فهل لك عدة غير الله أيها الذاكر؟ إذًا فقل: «اللهم إنا نجعلك فى نحورهم ونعوذ بك من شرورهم». وإذا دخلت سوقًا، والسوق هو الدنيا مصغرة مجموعة فى مكان، هو الدنيا بلهوها وغفلتها، وهو الدنيا بزينتها ومالها، وهو الدنيا بأطماعها وتنافسها ومكائدها، وهو الدنيا بأرباحها وخسائرها، وما ينسى الإنسان نفسه وربه كما ينسى فى هذا المكان، فالذاكر المعتصم بالله يدخل السوق على ذكر يدفع عنه الغفلة، ويصونه أن يصبو إلى المتاع الزائل، فيستفتح رؤيته بقوله: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، يحيى ويميت، وهو حى لا يموت، بيده الخير، وهو على كل شىء قدير».

• نحو الربانية:

ولسنا بصدد استقصاء صيغ الذكر المأثورة عنه ﷺ، فليطلبها فى كتب السنة من أراد الخير لنفسه، فمن عز عليه أن يحفظ، أو شق عليه أن يجد الكتب، فليستقبل أموره وأحواله كلها بهذا القلب الرقيق، فإنه يرى نفسه وكأنه يقرأ فى وجه كل أمر كلامًا ربانيًا، هو صيغة ذكره المناسبة للمقام. وبهذا تطرد الحياة فى القلب، والحركة فى الصدر، واليقظة فى الملكات، فيكون الإنسان حيًا فى الظاهر، وحيًا فى الباطن.. تتصل الحياة الخارجية بحياته الروحية، وتتصل حياته الروحية بالحياة الخارجية، ولكل منهما أثر فى الأخرى، وصدًى يتردد فى آفاقها، فتلبس دنيا الشخص حلة من السماحة والبشاشة والسهولة، وتمحى الكزازة وتعقيدات النفوس

الشحيحة، أو على حد تعبير أحد الإخوان: «يتطهر محيطه من جراثيم الفساد الاجتماعى، فكأن الربانية هى الطهور القاتل لهذه الجراثيم، وكأن قلبه مضخة إلهية تبث هذا «المطهر» فى المجتمع فتطهره وتنقيه». وليس هناك معنى للربانية الاجتماعية غير هذا.

• هذا واجبك أيها الداعية:

والآن.. فإذا عجز الناس أن يحققوا لأنفسهم هذا المنهاج الفاضل، فأنت أيها الداعية لا بد أن تفعله، وأنت المقصود قبل غيرك بهذه الكلمات. لا نطلب إليك أن تكون مفطوراً على العصمة، والعزوف عن المتاع الأدنى، وإنما أن تكون لك مجاهدة قوية، دائمة غير منقطعة، تصل بها نفسك على قدر استطاعتك بروح المبادئ التى تدعو إليها، حتى تكون ممتازاً ممن تدعوهم، فليس سائغًا فى العقول أن يكون الداعية كالمدعوين فى احتياجه إلى البر الذى يدعو إليه، أو أشد منهم حاجة. ودعنى أذكر لك بصراحة أن هذه الروحانية هى وحدها مصدر إلهامك وفقهك لدعوتك، هى الجهاز النابض الفعال فى حياة الداعية إلى الله، هى (الدينامو) المولد لقواه العاطفية، وإلهامات مداركه الباطنية، وما ملكاته البيانية والفكرية واتجاهاته العملية إلا آلات تتحرك، لتعبر عن هذه القوى السيالة، تعبيراً بيانيًا أو عمليًا، فإذا خلا الداعية من هذه الروحانية فقد خلت حياته من (الدينامو)، وظل باطنه فارغًا خربًا، ليس فيه ما يحرك أو يلهم، فإن هو سلك نفسه مع هذا الحرمان فى سلك الدعاة، فهو شخص دخيل أنانى، لا يريد فى الحقيقة أن يدعو إلى الله، وإنما يريد أن يدعو إلى نفسه، فاحذر يا أخى أن تكون فى هذه المنزلة.

إن الطريق إلى هذا الروحانية أو هذا (الدينامو) سهل إذا جمعت همتك على المضى فيه، هو تقوى الله تبارك وتعالى على النحو الذى بيناه سابقًا، أو على نحو أفضل منه إذا استطعت، والله لن يحرمك ثمرة خطوة واحدة تسيرها فى هذا الطريق المبارك المأنوس، فهو الذى يقول، وهو أصدق القائلين: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا

إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانا ويكفر عنكم سيئاتكم ويغفر لكم والله ذو الفضل العظيم﴾ [الأنفال: ٢٩]، فهذا الفرقان هو الروح الملهمة التى شبهناها بالدينامو فى عالم الآلات والحركات.

• بعض معالم الطريق:

ولا بأس هنا أن نضيف إلى ما تقدم معالم توضح للإنسان طريق هذه الحياة وتؤنسه فيها، وتعينه على متاعبها.

أولاً: أن يكثر مطالعة كلام الله عز وجل، فهو جلاء البصائر الكليلة وشفاء الصدور العليلة. فإذا لزم قراءته فى تمهل، وترو، انفتحت أغلاق قلبه، وسطعت أنوار القرآن وبشاشته فى آفاق نفسه، وإلى هذا يدعونا الله تبارك وتعالى: ﴿أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها﴾ [محمد: ٢٤]. وكان عليه السلام يديم قراءته ويسأل الله: «اللهم إنى أسألك بكل اسم هو لك، سميت به نفسك، أو أنزلته فى كتابك، أو علمته أحدًا من خلقك، أو استأثرت به فى علم الغيب عندك، أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبى، ونور بصرى، وجلاء حزنى، وذهاب همى وغمى». وكان ﷺ يأخذ بأيدى أصحابه إلى هذا المنهل العذب، ويفتح أعينهم على أنواره وأسراره، فقد روى أبو سعيد الخدرى عنه عليه السلام: «أعطوا أعينكم حظها من العبادة» فقالوا: يا رسول الله، وما حظها من العبادة؟ قال: «النظر فى المصحف، والتفكر فيه، والاعتبار عند عجائبه». ويقول عليه السلام: «إن القلوب تصدأ كما يصدأ الحديد» قيل: وما جلاؤها؟ قال: «تلاوة القرآن وذكر الموت».

وقد قيل فى تفسير قوله تعالى: ﴿وعرضنا جهنم يومئذ للكافرين عرضا ۝١٠٠ الذين كانت أعينهم فى غطاء عن ذكرى وكانوا لا يستطيعون سمعا﴾ [الكهف: ١٠٠، ١٠١]: أنهم هم الذين يعرضون عن القرآن والتأمل فى معانيه، والتدبر فى آياته. وليس هذا بعزيز عليك يا أخى، إذا أردت أن تأخذ بالأسباب وتدخل البيوت من أبوابها، وتدفع الثمن الذى يسلكك فى أرباب القلوب من الدعاة، أما الاغتصاب بدون مقابل، فهيهات أن يغتصب أحد من الله موهبة من المواهب.. الاغتصاب شأن قطاع الطرق لا شأن الدعاة إلى الله.

ثانيًا: أن تكثر مصاحبة مولانا رسول الله ﷺ فى سيرته المطهرة مصاحبة وجدانية عميقة، تجعلك فى مجلسه عليه السلام إذا جلس، وفى ركابه إذا ركب، وفى معيته إذا سار، وتسمعك قوارع وعظه، وتسرب إلى قلبك رقة مناجاته إذا ناجى ربه فى جوف الليل، أو فى خلوات النهار، وتصل عواطفك بعواطفه صلوات الله عليه؛ حتى تكاد تشعر بخلجات قلبه العظيم إذا غضب، وبشاشته وسماحته إذا تسهل لشىء وتهلل، وتسلكك فى صفوف المؤمنين به، فأنت معهم حين يسامون العذاب، تألم كما يألمون، وتهاجر كما يهاجرون، تهاجر معهم بوجدانك وخيالك وعواطفك، إلى الحبشة أو غيرها من بلاد الله.

فإذا شرع له الجهاد فى المدينة، فأنت تحت لوائه المظفَّر، تشهده ممتطيًا صهوة جواده، وقد لبس لَأْمَةَ الحرب، وتقلَّد السيف، وأخذ برمحه، فهو فارس الميدان، وقائد الفرسان، تزهر عيناه الشريفتان من تحت مِغْفَره ﷺ، فما يصعد شَرَفًا ولا يهبط واديًا ولا ينال من عدو نيلاً إلا وأنت معه عليه السلام، تكاد تضرب إذا ضرب، وتقدَّم إذا أمر، وتفديه بما تملك، وتحوطه بكل ما فى سويداء قلبك من حب وعاطفة.

صاحبْه عليه السلام هذه المصاحبة الكريمة، فإنها تدخلك فى محيطه النبوى الكريم، فيلين قلبك بتيارات روحه ﷺ، ويصفو طبعك، وتتهذب غرائزك، ويستبين لك النهج الصالح، والغاية العليا من الحياة، وكل هذا من الروحانية الاجتماعية التى ندعوك إلى رعاية حقوقها.

ثالثًا: صحبة الأخيار والصالحين وأهل المعرفة بالله، إذا وجدت إلى صحبتهم سبيلاً، ومن علامتهم الاشتغال بعيوب أنفسهم عن عيوب الناس، والتزام أمر الشرع ونهيه فى صدق وطاعة، والقيام على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فى قوة وإيمان، وما تحدثك به نضارة وجه أحدهم عن سعادة قلبه برزق السماء لا برزق الأرض، وفضل الله لا فضل العبيد، فلا يمد يده ولا عينه ﴿**إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ**﴾ [طه: ١٣١].

صحبة هؤلاء تلين القلوب، وتطهر من الذنوب، وهى بيئة طيبة يحيى فيها القلب حياة طيبة.

رابعًا: غض البصر، والعزوف عن مجالس المنكر، فنحن فى عصر تقذفنا موجته المادية بالإباحة التى تكاد تكون مطلقة من كل قيد، فالمرأة متبرجة بزينتها مستعلنة بها فى غير حياء! وأهل المنكر يستعلنون برذائلهم تحت سمع الناس وأبصارهم، والعرف غدا لا يثور لها، بل قد يتلقى ذلك أحيانًا بالقبول والاستزادة. والنظرة يا أخى بريد الشيطان إلى القلب، وركون النفس إلى مجالس المنكر يطفئ ثورتها عليه، ويسلبها الشعور بكراهته.

فغض البصر، ومقاطعة هذه المجالس؛ يقيمان حولك سورًا منيعًا يحفظ قلبك من شرور هذه الإباحة وسمومها، ويرد عنك ضربات موجاتها المتتالية.

لقد سأل أحد الإخوان: ما العمل والموجة المادية يتوالى سيلها حتى غمر قلوبنا وأفسدها؟ فأجابه صاحبه: أقم حولك فى الحال سورًا يحفظك مما ترميك به هذه الموجة، ثم اشرع فى رفع ما فى داخل هذا السور من آثارها وبقاياها، واقذف به إلى خارجه، حتى يجف محيطك، ويفيق قلبك مما يغمره، ويتنفس من الهواء النقى الطهور.. هذا السور هو غض البصر والعزوف عن مجالس المنكر، ورفع البقايا التى بداخله هى تخليص النفس مما دخلها من غريب العادات وفاسد الأخلاق. وهذا أيها الأخ جهد لن تجد فى تكلفه مشقة، إذا أردت أن تدعو إلى الله بقلب سليم.

خامسًا: وعليه بدراسة أحوال الروح، وعالم ما وراء المادة، فى القرآن والحديث، وأقوال الصحابة والتابعين والصالحين، ودراستها فى معجزات الأنبياء وكرامات الأولياء الصادقين، ففى كل ذلك أوصاف نظرية، أو حقائق عملية، تكشف للإنسان كثيرًا من هذه الأسرار الجليلة.

والإسراء وعجائبه، والنار التى صارت بردًا وسلامًا على إبراهيم، وغير هذا مما يطالعك فى القرآن والحديث أنواره وأسراره، إن هو إلا عرض عملى لعجائب هذه العوالم العليا، فعليك بهذا اللباب من حقائق الوجود؛ وحذار يا أخى أن تحاول تعليل شىء من ذلك تعليلاً علميًا طبعيًا، أو تفسيره بمقتضى المنطق العادى؛ فهو من أمر ربى، وأمر ربى فوق قوانين الطبيعة، ومنطق الأمور العادية الحسية: ﴿**وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً**﴾ [الإسراء: ٨٥].

ولا بأس - أخيراً - من قراءة ما كتبه المحدَثون، ولكن حذار الفتنة بما كتبوا؛ فعليك أن تعرض كل ما تقرأ لهم على الكتاب والسنة، فما وافقهما فهو الحق، وما خالفهما فهو الباطل، وما سكتا عنه فاجعله تحت التجربة والاختبار.

دراسة ما وراء الطبيعة فى القرآن والسنة الصحيحة تعود الإنسان الإيمان بالروح وغيب الله الرهيب الخطير، مما لا سبيل إلى فهمه إلا بالقلب، فتنفسح آفاق نفسه، وتنشط الحياة الروحية فى كيانه الباطنى.

سادسًا: ولقد قدمنا الفكر والذكر، ونقول الآن الصلاة والصيام، وأنواع العبادة والقربات. والصلاة أيها الأخ هى: وقوفك أشرف موقف فى هذه الحياة بين يدى الله العلى الكبير، وإن وقوفك هذا الموقف خمس مرات فى اليوم لكفيل أن يصلك بالله، ويجعلك منه فى شىء كثير، وليس مما يصعب عليك أن تجعل الصلاة صلة بينك وبين الله، فإذا اتصلت به وأحسسته ينظر إليك، ويطلع عليك، ويملأ محرابك من حولك، فوقفت خاشعًا مطرقًا وقوف العبد أمام سيده، وأخذ قلبك يخفق بهيبة الموقف ورقة الخشوع.. إذا اتصلت بالله عز وجل خمس مرات فى اليوم هذا الاتصال أو بعضه، كنت ذا قلب حى، تفيض منه الربانية، وكنت أهلاً لأن تدعو إليه، وتتحدث عنه حديث العارف، الذى يجد فى قلبه مادة الحديث. أما إذا لم تتصل، فلم تك من المصلين، أو صليت وكنت من الساهين، فابحث عمن يدعوك إلى الله، قبل أن تسير فى زمرة الداعين إليه.

ولا بد لك أيها الداعية من نوافل فى شتى العبادات تتقرب بها إليه سبحانه، فالله تبارك وتعالى يقول فى الحديث القدسى المشهور: «ولا يزال عبدى يتقرب إلىَّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به...» إلخ. وأن تجعل أكثر ما تتقرب به من الصلاة والدعاء والفكر فى جوف الليل.. لا بد من هذا، فأنت داعية، والدعاة طراز فوق مستوى العامة، والنوافل فى حقهم ترتفع إلى مرتبة الواجبات، وقد عقد كثير من العلماء فصولاً رائعة قوية، بينوا فيها أن النوافل فى حقه ﷺ فرائض: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ﴾ [الإسراء: ٧٩]. ولهذا كان عليه السلام يقوم الليل - كما تقول عائشة - حتى تتفطر قدماه.

فهذا الزاد من تقوى الله، وقيام الليل عدة الداعية على أمر دعوته الثقيل، فهل

ترى يسير المرء بغير زاد أو عدة؟

قد يقول بعضهم: وما له وكل هذا؟ ونقول: وما لنا وما لك، إنك تريد أن تكون داعية، فوصفنا لك بعض الأعباء، فإن رأيتها فوق طاقتك فأت منها ما استطعت، وإلا فإن الله قد عذر أمثالك، فالزم صفوف الضعفاء، واتق الله فى هذا الصف الخطير.

وبعد: فاعلم يا أخى أن الليل مركب الصالحين إلى الله، وناشئ الأسحار أجنحة أهل الأشواق والوجد الإلهى؛ و «أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد»، و «أقرب ما يكون الرب من عبده فى جوف الليل»، ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلاً طَوِيلاً﴾ [الإنسان:٢٦]، ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ﴾ [الطور:٤٩].

• الروحانية الاجتماعية والاعتزالية:

ونريد أن ننبه هنا إلى أمر دقيق هام، سبقت الإشارة إليه، هو أن هذه الروحانية الاجتماعية يجب أن تكون لصاحبها ولغيره، أما الروحانية الاعتزالية التى تقبض صاحبها عن الناس، فلا يتصل بهم ولا يتصلون به، ولا يعلمهم ولا يتعلم منهم، فهى روحانية الضعفاء والأنانيين، روحانية الضعفاء الذين لم يستطيعوا التماسك أمام الشر والفساد، ففروا إلى العزلة، واعتصموا بها، وروحانية الأنانيين الذين يبغون السعادة لأنفسهم فقط، وهى على ما فيها من جمال الوسيلة وسمو المقصد نوع من المرض.

قد تضع الشاب الجَلَد القوى فى قصر جميل، مؤثث بأثاث أنيق، تفد عليه الأرزاق كل يوم بأطيب الطعام، وتبيح له أن يقيم فى هذا الترف، ويستمتع بهذا النعيم، ولكنك لا تبيح له أن يخرج من القصر للرياضة والمشى وتنشيط الجسم.

سيقيم الشاب فى نعيم القصر ويأكل منه، وسينمو جسمه بلا شك، ويسمن لحمه بلا مراء، ولكن لا جدال فى أنه لحم مترهل غير مكتنز، وأنه عارض من عوارض المرض وليس سمة من سمات الصحة والقوة.

فإذا أكل الشاب، ثم خرج للرياضة والمشى والعمل؛ وجعل حياته بين القصر والخارج والأكل والحركة - استقام أمر الجسم واطرد نموه على قانون الصحة -

فالأكل بلا حركة نذير المرض، كالحركة بلا أكل سواء بسواء، وكذلك الذى يعتزل الناس ويخلو للعبادة والتقوى، زاعمًا أنه يربى روحه بهذا الزاد المبارك، ستتفتح آفاق نفسه بلا شك، وستنمو روحه وتتسع بلا مراء، ولكن لا جدال فى أنه نمو الترهل والمرض، لا نمو الصحة والقوة. الروح تتغذى كما يتغذى الجسم، وتترف كما يترف الجسم، وتمرض كما يمرض.. الجسم يتغذى بالأطعمة الأرضية، والروح تتغذى بزاد السماء، والجسم يترف بطيب الطعام والركون إلى لين المهاد، والروح تترف بطيب زادها من العبادة وركونها إلى مهاد العزلة المرىء، فإذا أفضى ترف الجسم إلى مرض أفضى ترف الروح إلى مرض يقابله.

قانون الحياة الطبيعية أنها تمنحك الطعام، لتمنحها أنت العمل والحركة، وتكون بين عناصرها عنصراً مثمراً نافعًا، وفى هذا تقدمها وعمرانها، كما أن فيه صحتك وسعادتك. فإذا منحتك الطعام ومنحتها الكسل والركود، فقد خالفت القانون وعرضت نفسك لقواه النافذة الجارفة، ومن عرض صفحته لسنن الله تهدم وانحطم.

ومن قوانين الاستغراق فى التجريدات الروحية أنه يمنح روحك الزاد، لتمنحه أنت العمل والحركة، وما العمل والحركة هنا إلا أمر بمعروف، أو نهى عن منكر، أو إزالة باطل، أو ثورة على طاغوت جائر، أو إقامة نظام عادل تستقر عليه الفضيلة وتتحقق به المساواة والمواساة، فإذا منحك الزاد ومنحته العزلة والانقطاع أفسدت نفسك بالوقوف عن مسايرة سنن الله، وعرضت نفسك لما ينجم عن هذا التخلف من سقم ومرض.

فالسلامة فى مسايرة قوانين الوجود، والضعف والسقم بل الاضطراب والخلل فى معارضتها والتخلف عنها.

فعلى الداعية إذا أحس من نفسه هذا الانقباض إلى العزلة أن يقاومه، وأن يتوجه بتيارات روحه إلى الناس، يعلمهم ويتعلم منهم، وينير لهم الطريق، ويفتح عقولهم وقلوبهم على حقائق الحياة، يعرض عليهم نماذج من عبادته الصادقة، ومواعظه الحسنة، ومعاملاته المستقيمة، وتوجيهاته النافعة، وغير ذلك مما يتم به التأثر وتكمل القدوة.

إنك داعية والداعية مسئول عن رعيته، فإذا غاب عنها فقد تخلى عن واجبه، وعرض أمته لعبث المبطلين، وغواية الشياطين، ولن يسوغ له هذه العاقبة بحال من الأحوال أنه حسن النية فى الخلوة بربه، وإنا نقرأ فى كتاب الله عز وجل أن عملاً كهذا سبق من موسى عليه السلام، فأوقفه الله به موقف الحساب والمؤاخذة، لأن شعبًا بأسره ضلَّ بغيابه عنهم: ﴿ وَمَا أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَا مُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمْ أُولَاءِ عَلَىٰ أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴿٨٤﴾ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِن بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ ﴿٨٥﴾ فَرَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا ﴾ [طه: ٨٣ - ٨٦].

وإنا لنرى فى سيرة سيد الدعاة ﷺ أنه لم يلجأ إلى هذه العزلة مرة واحدة، مذ أمره الله سبحانه بالدعوة والتبليغ. فقد ظل مع أصحابه وأتباعه لا يفارقهم، فهو معهم فى المسجد، والسوق والحقل، والبستان، وسائر مجالسهم، وكان يصحبهم فى حروبهم وموسم حجهم، ويزورهم فى بيوتهم، ويعود مرضاهم، ويشيع جنازاتهم، ويجاملهم، ويواسيهم، ويشاطرهم ما ينزل بهم من خير وشر، وهو فى كل ذلك مصدر رشاد وهداية، وزاد لقلوبهم وأرواحهم، ونور يمشون به إلى الله عز وجل.

نعم إنه كان يعتكف العشر الأواخر من رمضان، ولكن أين كان يعتكف؟ إنه كان يعتكف فى مسجده الشريف فى وسط المدينة، والمسجد كما كان دار عبادتهم، كان دار ندوتهم ومجلس شوراهم، وما كان ينقطع دخول الناس فيه ليلاً ولا نهارًا، فهو اعتكاف أشبه بمخالطة، ومخالطة أشبه بعزلة، وهو على أى حال اعتكاف لا يعزله عن الناس، ولا يعزل الناس عنه، ولا يدع الرعية للسامرى بدون راع.

شكا أحد الإخوان فقال: كان لى من العبادة كذا وكذا قبل انتظامى فى جماعة الإخوان المسلمين، وكان لى من سهر الليل كيت وكيت، وكان لى من الخلوات والعزلة ما لا أزال أذكر حلاوته وهناءته، وإنى لأحن إلى تلك الأيام، وأتمنى العودة إليها، ترى هل جنَتْ علينا الدعوة، فأضعفت عزائمنا عن العبادة وصرفتنا عن الله؟

فقال له صاحبه: لا يا أخى، إن أيامك هذه خير من السابقة، فقد كنت معتقلاً

فيما مضى، فأصبحت الآن حراً طليقًا، كانت روحك محبوسة عن العمل، فأصبحت الآن تعمل، والعمل قانون السلامة وشارة الصحة، كانت روحك فى معتقلها تأكل وتستمرئ البطالة والكسل، أما الآن فهى فى ميدانها الطليق تأكل، وتمنح الحياة ثمن ما تأكله. قد تقول: إن زادها فى معتقلها كان كثيراً، واليوم أصبح قليلاً؟.. ونقول: لا بأس، فالزاد القليل إذا أثمر عملاً مباركًا خير من الزاد الكثير إذا لم يثمر شيئًا مذكوراً، و «الأكل بلا عمل نذير الهلاك، كالعمل بلا أكل سواء بسواء»، فلا تتمن أيامك الأولى يا أخى، واحمد الله على أن فتح لك ميدان هذه الدعوة الكريمة، وكل ما أرجوه لك، وأنصحك به، أن تضاعف العمل لتشتد حاجة روحك إلى القوت، فيعظم إقبالك على العبادة.

وبعد: فهذا فهمنا للروحانية الاجتماعية، وهذه حملتنا على الروحانية الاعتزالية. فلا تغتر يا أخى بأهل العزلة - إن وجدوا فى هذه الأيام - وبما يظهر لهم من الخوارق والكرامات، فكفاهم إثمًا أنهم يعطلون فريضة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وكفاهم إثمًا أنهم يعطلون فريضة الجهاد، فى وقت أصبح الجهاد فيه فرض عين على كل من يؤمن بالله ورسوله واليوم الآخر. كان عبد الله ابن المبارك يرابط فى سبيل الله بثغر من ثغور المسلمين، وكان صديقه الفضيل بن عياض منقطعًا لعبادة الله فى المسجد الحرام بمكة، فكتب إليه عبد الله يقول له:

يا عابدَ الحرميْنِ لو أبْصَرْتَنا ... لَعلمتَ أنك بالعبادة تَلعَبُ
مَنْ كان يَخضِبُ خدَّه بدموعه ... فنُحورُنا بدمائنا تَتخضَّبُ
أو كان يُتعبُ خيلَه فى باطلٍ ... فخيولُنا يومَ الصَّبيحة تَتعبُ
ريحُ العَبير لكم ونحن عبيرُنا ... رَهَجُ السنابكِ والغبارُ الأطيبُ

ولقد كتب ابن المبارك هذا الكلام لصديقه فى وقت لم يكن فيه الجهاد فرض عين، ومع هذا وصف عبادته بأنها لعب، وهى عبادة تقع فى أشرف بقعة على هذه الأرض. ترى ماذا كان يقول ابن المبارك لصديقه لو أن الجهاد يومئذ كان فرض عين؟ وماذا كان يقول عن العبادة لو أنها كانت فى غير المسجد الحرام؟

لا يصح للداعية أن يطاوع نفسه فى العزلة مهما تزين له المقاصد والأسباب، فصومعة الداعية ميدان دعوته، ومحرابه الذى يستنزل فيه من الله الهدى والمعونة

هو العمل لخير الناس، وإن الله يتجلى على العاملين فى ميادينهم بأفضل مما يتجلى على العابدين فى محاريبهم، وما أبعد الفرق - يا أخى - بين من ينهض إلى الله يوم القيامة ومعه أمة، ومن ينهض إليه وليس معه أحد.

• أثر هذه الروحانية فى الدعوة والداعية:

ونريد أخيراً أن نجمل نفع هذه الروحانية للداعية فيما يأتى:

أولاً: أن الداعية - كما ذكرنا - طبيب يعالج الإنسانية من علتها الكبرى التى تتسلل منها سائر الأمراض. ومعلوم أن دواء هذه العلة ليس مما ينبت فى حقل، أو يخرج من منجم، أو يركب فى صيدلية؛ إنما هو روح إلهى فى ضمير العبد المؤمن يشيع الربانية، فإذا هى للناس شفاء ورحمة، ونور وقوة، ورضى وبهجة، واستقامة وعمل. فهذا القلب الحى الكبير هو «الصيدلية الإلهية»، وكل كلمة تصدر عنه هى «علبة دواء» أو «حُق» فيه شفاء. فما لم تكن أقوال الداعية وأفعاله صادرة من محيطه الروحانى، منبعثة من حياته التى يحياها وراء المادة - كانت أقوالاً غير مغموسة بالنور، لا تمس القلوب بشىء من أسرار الشفاء. نعم قد ينمق المتكلم كلامه، ويوشِّى عبارته، فيثير العواطف، ويحظى بالاستحسان، ولكنه استحسان الزيف والتهريج، أترى المريض يشفيه أن تقدم له «علبة فارغة» و «حُقًا ليس فيه شىء»، وحسبه أنها علبة موشاة بالذهب وأنه «حُق» مطعم بالعاج والصدف مثلاً؟

فهذه الربانية هى الدواء، فإذا خلت أقوال الداعية وأعماله منها فلا بركة فيها.

ثانيًا: أن الداعية لا يبلغ هذه الروحانية إلا بعد تجارب، جرب بها مرارة الحرمان، ومشقة المجاهدة، والصبر على تنفيذ أمر الله ونهيه، وطبق مفردات المنهاج الإلهى على نفسه فى حياته الخاصة تطبيقًا عمليًا لا هوادة فيه، وجرى ذلك كله فى عصبه، وانصهرت به نفسه، فإذا دعا إلى فضيلة بعد هذا، أو نهى عن رذيلة، أو وصف لذة من لذائذ النفس العليا، تكلم عن معرفة ويقين، وتجربة ومشاهدة، فلا يتكلم إلا بالحق المجرب. هذا إلى أنه يجد مادة الكلام حاضرة فى قلبه وعصبه دون رجوع إلى كتاب، فهو نفسه كتاب هذا الحق، وصحيفة تجاربه العملية، وفوق هذا فإن النفس التى صهرتها التجربة ومرارة التنفيذ تطل رائعة من

خلال عينيه، وعضلات وجهه، وخطوط أساريره، وإشارات يده، ونور طلعته، فتتحدث إلى الناس بأفصح مما تتحدث به عبارته. بل إن نبرة الصوت ولهجة الحديث تبلغ من القلوب ما لا يبلغه الحديث نفسه؛ بربك هل نظرت إلى وجه «حسن البنا» وهو يتحدث أو يخطب؟ هل نظرت إلى عينيه، وعضلات وجهه، وحنان صوته، وخشوع لهجته، وإشارة يده؟ إن هذا المرشد الكريم - رحمه الله - يتكلم فما يأتى بجديد لأنه يتكلم بكلام الله القديم، ولكن الوجه جديد، والصوت جديد، واللهجة جديدة، والعين جديدة، وكل هذه ألسنة صدق تتكلم معه، فتجعل الكلام القديم جديداً، لأنها تتكلم بقوة التجارب، وخبرة التنفيذ، وشدة المجاهدة والحرمان، وكل هذه أسرار شهدتها جدران بيت هذا الرجل العظيم وهو يجرى تجاربها فى حياته الخاصة، ويطبقها على نفسه وذويه. وما لى أستشهد لك بالمرشد؛ فالحسّاد كثير، والمتنطعون أكثر، وما بنا من حاجة أن نقدم لهؤلاء أو هؤلاء سببًا للتقوّل علينا بأننا نعبد الأشخاص، أو نبالغ فى الثناء على الرجال، فدعنى أستشهد لك على غرضى بسيدنا رسول الله ﷺ، فقد كان يتحدث إلى من لا يعرفونه، فيقولون: «والله ما هذا بوجه كذاب، ولا صوت كذاب»، ومعنى هذا أنهم تأثروا بالصوت والوجه أكثر مما تأثروا باللفظ والعبارة، وليس لهذا من التفسير إلا ما ذكرناه سابقًا.

فهل لك يا أخى فى هذه الفرقة من الخطباء تخطب معك؟ وهل لك فى هذه الطائفة من الألسنة الصادقة تتحدث بحديثك، وتؤيدك، وتصدقك؟ لا ينطق هذه الألسنة ولا ينهض هؤلاء الخطباء إلا قوة النفس التى صبرت، وجاهدت، وذاقت، وجربت الحلو والمر.

قالوا: تكليف ثقيل! وخطة شاقة! وثمن مرهق باهظ! فقال لهم صاحبهم: لا بد من ذلك، فالرسالة أثقل، والمهمة أخطر، والبضاعة أربح، والمنزلة سامية، ورضوان الله سبحانه أسمى وأكبر، ألم أقل لكم إنكم دعاة، ومهمة الدعاة هى مهمة الأنبياء؟ فكيف تبغون هذه المنازل دون أن تتسنموا إليها مشقة الصعود؟

ثالثًا: أنه قائد والقائد إذا لم يقد بقوة روحه وهيمنة نفسه، فهو قائد ضعيف التأثير، ولن يغنيه فى جمع القلوب من حوله قانون مفروض أو أمر من أوامر ذوى

السلطان، وإنما يجمعها لك، ويهوى بها إليك، كيانك المعنوى وإنسانك الباطنى، الذى يترعرع فى رياض هذه الروحانية.

رابعًا: أنها تمده بزاد من العلم الفطرى، ونور من المعرفة يتبين به حقائق الحياة، ويصحح له خطأه فى فهمها والنظر إليها، ويهتدى على ضوئه إلى الصواب فى معضلات الأمور، ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠].

نعم.. فإن جوانبَ النفس فسيحة، وآفاقها متعددة، ولكن أكثر الناس يعيشون فى جانب واحد منها، جانب ضيق، يحصر صاحبه فى أوهام المادة، وظاهر الحياة الدنيا، فيقع فى تخييلات الباطل، ويغتر بزينة الفقاقيع، ويغدو فهمه للحياة، وإدراكه للحقائق والمعارف، متأثرًا بهذه الأوهام؛ فيكثر الخطأ فى أحكامه، ويقع الزلل فى مقاييسه وموازينه. فإذا أشرقت الربانية، وطلعت شمسها الوهاجة فى قلب أحدهم، استنارت نفسه وامتد النور الواضح إلى سائر جوانبها، فإذا الأفق آفاق، وإذا الجانب الضيق آماد شاسعات، وإذا معارف جديدة، ومشاعر جديدة، وحقائق جديدة، تظهر لنا فيما كان مخبوءًا عنا، وإذا بنا نرى الأشياء بفهم جديد، ونقيسها بمقياس جديد.

قال بعض الإخوان: إن فلانًا تلميذك القديم يقول: إن ماركونى خير من الغزالى؛ ماركونى كشف للإنسانية واخترع، أما الغزالى فماذا أفاد منه الناس؟ فقال صاحبه: إن هذا التلميذ القديم محجوب عن حقيقة نفسه، فهو لا يدرك مما حواليه إلا المادة، ولا يرى الناس خلقوا إلا للهو واللعب، والعيش فى لذة هذا الحطام وكفى. ولو أنه أحس لنفسه بكرامة لتمرَّد على هذا المعنى وراح يلتمس وضعًا آخر فى حياة أخرى، تلائم ما يشعر به من سمو الهمة، وترضى ما ينطوى عليه من معانٍ إنسانية، ولكان هذا الإحساس الكريم مصدر نوره وإلهامه، الذى يكشف له حقيقة نفسه، ويريه مقعده فى دار الكرامة بين أحياء الدنيا والآخرة. هذا التلميذ القديم وقع فيما خدع به أكثر الناس، من زخارف الحضارة المادية وزينتها، فهم يفرحون بكل ما يمدهم بأسباب اللهو واللعب، ووسائل الترف والنعيم، وألوان الطعام والشراب، ويشبع جوارحهم وحواسهم بأكثر ما يمكن من هذه الشهوات الحسية. وتقدم الإنسانية ليس من هذا فى شىء، كما هو مقرر فى

فطر الناس جميعًا. . تقدم الإنسانية فى سمو عواطفها، وتهذيب غرائزها، وكمال حقائقها المعنوية، واشتغال ملكاتها القلبية بالله وما عنده من نعيم مقيم. إن الرجل ليغضب ويثور إذا قال له آخر: يا حيوان، فلماذا يغضب إذا قيل له هذا، ولا يغضب على نفسه أنه يعيش عيشة الحيوان؟!

لا يظن الإنسان أنه امتاز من الحيوان، لأنه أكل الشعير مخبوزًا، وظل الآخر يأكله غير مخبوز. . ولأنه أكل الفول مطبوخًا، وبقى صاحبه يأكله غير مطبوخ، ولأنه استتر بالثياب، ونام على الفراش، وبقى زميله القديم على ما خلقه الله!!. . لماذا يغالط الإنسان نفسه - إذًا - كل هذه المغالطة؟ ولماذا يعتبر الترقى فى خدمة البدن ترقيًا؟ لماذا يعتبر نفسه أنه تقدم لأنه أكل «الجاتو» بعد أن كان يأكل الرغيف فقط؟ وأكل اللحم أصنافًا مختلفة ما سمعنا بها بعد أن كان يأكله مسلوقًا أو مشويًا فحسب؟ وأكل بالشوكة بعد أن كان يأكل بأصابعه؟ وركب السيارة بعد أن كان يركب الناقة؟ وأرسل الرسالة بالبرق بعد أن كان يرسلها مع رسول؟ وسمع من بعيد بالراديو والتليفون بعد أن كان لا يسمع إلا من قريب؟ إلخ إلخ. إذا كان يغضب أن يوصف بأنه حيوان، وإذا كان لا يمتاز منه إذا ترقى فى ألوان الطعام، فلماذا يعتبر المبالغة فى خدمة الجسم وترف جوارحه تقدمًا؟

هذه الغضبة المباركة يجب أن تسمو بهمته أن تنضمر فى مطالب الحيوان، يجب أن تجعل له شأنًا غير هذا الشأن، ومستوى فوق هذا المستوى، ويجب أن تريه الفارق الهائل بين ناحيته الحيوانية وناحيته الإنسانية. ويجب لهذا أن يقيس رقيه عن الحيوان، بمقدار ما يسمو بعواطفه إلى المعنويات، لا بمقدار ما يخترع بجوارحه البدنية من أسباب المتاع.

فكل جهد يبذله أو يبذله غيره فى محيط التقدم الظاهرى، دون أن يكون له امتداد ونشاط فى المحيط الآخر، هو جهد يزيد للناس متاعهم الأدنى، ويقف بهم فى محيط حيوانيتهم العادية، بل قد يرتد بهم إلى ما هو شر منها. وكل جهد يبذله أو يبذله غيره؛ لإحياء القلوب وإسعاد الملكات بالنفحات السماوية، هو جهد مبارك، يخفف من انفعال الجوارح المسعورة، ويعين الناس على الخروج من عيشة الحيوان وغفلته إلى أفق السعادة الإلهية، حيث تنمو إنسانية الإنسان، ويصل إلى

ما قدر له من كمال. فهذا شفاء ورحمة، وهدى للناس، وكل من له سهم فى هذه الغاية فهو صديق الإنسانية حقًا. فانظر يا أخى أين مكان ماركونى من خدمة الإنسانية، وأين مكان الغزالى؟

هذا عالِم، وهذا عالِم؛ فأى العالمين أجدى بعلمه وعمله على الإنسانية؟

إن الغزالى كان يمسى ويصبح وهو ينهل من وحى قلبه؛ فهو فى ذكر وفكر وصلاة إذا خلا؛ فإذا خرج للناس جلس للوعظ والتدريس يحذر ويذكر، ويخاطب القلوب، ويلين النفوس، ويبث المشاعر الطيبة فى سامعيه، ويسمو بذلك كله إلى الله عز وجل؛ فإذا انتهى من وعظه وتدريسه انصرف يكتب ويؤلف، ويحلل أمراض النفوس، ويذكر أحوال القلوب، ويصف رحيق الدواء، ويبين حقائق الإيمان، وينير للناس طريقهم إلى الله سبحانه وتعالى، ولاتزال كتاباته مصدر حياة وتهذيب للغرائز والطباع إلى اليوم.

أما ماركونى فماذا أغنى فى هذا الأفق الإنسانى؟إنه لم يزد على أن كشف قانونًا أو أكثر من قوانين الطبيعة، قوانين كانت موجودة، فكشفها وعثر بها، وهذا كل فضله. . ونحن نستخدم الآن مخترعات ماركونى، فماذا هذبت لنا من غرائز، وكم شبرًا قربتنا إلى الله؟!!

قال الأخ: وكم شبرًا قربتنا إلى الله آثار الغزالى؟

فقال صاحبه: إنها لم تقربنا شيئًا؛ ولكن أتدرى لماذا؟ لأننا لم نستعملها، لقد استعملنا آثار ماركونى، ولم نستعمل آثار الغزالى، فلك أن تتصور أى كرامة تفاض على الإنسانية، وأى فضل تسمو إليه العواطف والأرواح، لو أننا أقبلنا على آثاره إقبالنا على آثار ماركونى.

قال الأخ: أتنهى أن يكون من الناس مخترعون؟

فقال صاحبه: لم أقل هذا ولكن أريد أن تقاس أقدار الناس بمقياس الإيمان بالله، وأن توزن أعمالهم بما أجدوا على الإنسانية فى لباب معانيها، لا فى قشور ظاهرها فقط، وإن ليلة من ليالى الغزالى لأرجح فى ميزان الحق من عمر ماركونى كله، وإن صفحة واحدة من كتاب الإحياء للغزالى - مثلاً - لأرجح فى هذا الميزان من كل ما اخترع ماركونى. وإنى لأعنى ما أقول؛ فإنك إذا خيرت ضمير الإنسانية

الراقى أن تمحى مخترعات ماركونى كلها، أو تمحى المثل العليا والمبادئ الفاضلة والروح الربانى الذى فى صفحة واحدة من الإحياء - يمحى ذلك كله، فلا يبقى له فى الوجود أثر - لو أنك خيرت ضمير الإنسانية بين هذا وهذا؛ لهلع لهول الخسارة، ولثار يدفع عن نفسه غبن هذه الصفقة.

فمتى نفقه هذا الفقه؟

كم من أفكار فاسدة، وآراء خاطئة، تصححها الربانية، وتجلو لنا وجوه الحق فيها!!

خامسًا: يلين بها قلب الداعية، فيصير يقظًا مرهف الحس، ينتفض بتيارات الروح القرآنى، فيستخرج من دقائق إشاراته وخفى عباراته ما لا يلتفت إليه غيره، وهذا ضرورى جدًا للداعية الذى يجعل القرآن الكريم أهم موارده وأمداده.

نعم: فالعقل العادى لا يستقل بفهم القرآن الكريم، فالقرآن روح من الله، لا معانٍ وألفاظ فحسب، فإن استطاعت العقول - وهى لن تستطيع - أن تفهم الألفاظ، وتستخرج منها كل المعانى، فليس من طبيعتها أن تحس الروح الإلهى فيه، فذلك شأن القلوب لا شأن العقول. وهذا الحس هو الذى يكشف ما وراء العبارات، ويفتق لك أكمام الألفاظ عن أسرار وإشارات لا يدركها إلا الموهوبون.

كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقدم عبد الله بن عباس رضى الله عنهما، ويعرف له فضله ومكانه من فقه الكتاب العزيز، على حداثة سنه، وكان يدخله مع أشياخ بدر، وهم من هم فى السابقة والفضل، فأحس عمر رضى الله عنه كأن بعضهم وجد فى نفسه، فقال: لم يدخل هذا معنا ولنا أبناء مثله؟ قال ابن عباس: فدعانى ذات يوم فأدخلنى معه، فما رأيت أنه دعانى يومئذ إلا ليريهم، فقال: ما تقولون فى قول الله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ [النصر: ١ - ٣]؟ فسكت بعضهم ولم يقل شيئًا، وقال بعضهم: أمرنا أن نحمده ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا. وأنت ترى يا أخى أنه تفسير مستقيم جدًا مع ظاهر الآية. ولكن عمر الذى جعل الله الحق على قلبه ولسانه كان يرى خلال السطور إشارة غير ظاهرة، فالتفت إلى ابن عباس فقال له: أكذلك تقول يا ابن عباس؟ قال: فقلت: لا. قال: فما

تقول؟ قلت: هو أجل رسول الله ﷺ، أعلمه الله إياه وأخبره به، فقال: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ وذلك علامة أجلك ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾، فقال عمر رضى الله عنه: ما أعلم منها إلا ما تقول!

خبرنى بربك أى عقل يلتفت إلى هذه الإشارة الدقيقة بين السطور؟ إنه سر القلب الحى الذى يحسن أن يفهم عن الله سبحانه وتعالى. ولعلك تسأل: من أين لنا أن هذا التأويل هو الصواب؟ وبأى مرجح ترجحه على قول الصحابة؟ ونجيب بأن المرجح هو عمل رسول الله ﷺ، ففى صحيح مسلم: كان رسول الله ﷺ يكثر أن يقول قبل أن يموت: «سبحانك اللهم وبحمدك، أستغفرك وأتوب إليك»، فقالت عائشة: قلت: يا رسول الله، ما هذه الكلمات التى أراك أحدثتها؟ قال: «جعلت لى علامة فى أمتى إذا رأيتها قلتها: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ...﴾» إلى آخر السورة [النصر: ١ ـ ٣].

وقد يكون معنى بعض الآيات واضحًا، ولكن العقول لا تنتبه إليه، فيقف الفقيه ويظهره ويفيض عليه من حسن التوجيه والتأويل ما يجلو إشراقه وروعته. شكا بعضهم عاصم بن زياد إلى على كرم الله وجهه، لأنه لبس الخشن من الثياب وترك الطيب منها، وغم أهله وأحزن ولده، فقال: ائتونى به، فلما رآه عبس فى وجهه، وقال: ويلك يا عاصم، أترى الله أباح لك النعم وهو يكره أن تأخذ منها؟ أنت أهون على الله من ذلك، أما سمعته يقول: ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ۝١٩ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ...﴾، حتى قال: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾ [الرحمن: ١٩ ـ ٢٢]؟ والله إن إظهار نعمة الله أمام الناس بكثرة الاستعمال والفعال أحب من إظهارها بكثرة الحديث والمقال، وقد سمعته يقول: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: ١١][1]. وهذا التفات جميل ولكن لا يلتفته إلا الأيقاظ، أرأيت كم مرة قرأنا: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾. فلم نقف على شىء فيها حتى وقف أبو الحسن رضوان الله عليه يؤول ويوجه، ويقول: أرأيت أن الله خلق هذه النعم وأباحها لك وهو يكره أن تأخذ منها؟ أنت أهون على الله من ذلك!!

ومثله وأجمل منه لمحته الملهمة، التى التفتت بذهنه هذا الالتفات الخاطف، من

(١) تصرفنا فى عبارة على كرم الله وجهه بعض التصرف.

سورة الرحمن إلى سورة الضحى، فربطت له فى سرعة فائقة بين قوله تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾، وقوله: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ ربطًا لا يرد على بال الفقيه العادى؛ ليستنبط هذا الحكم الموفق الطريف: إن إظهار فضل الله عمليًا باستعمال نعمه أحب إليه من إظهاره بالتحدث عنه فقط.

لقد كان الناس يعجبون لهذا العلم الثمين، فظنوا أن رسول الله ﷺ خص أهله بشىء من العلم، فقال بعضهم: «يا أبا الحسن، نشدتك الله هل خصكم رسول الله ﷺ بشىء من العلم دوننا؟ فقال رضى الله عنه: لا والذى فلق الحبة، وبرأ النسمة، اللهم إلا فقهًا فى كتاب الله، يؤتيه عبدًا من عباده».

وقد يكون المعنى واضحًا، ولكن تقاصر الهمم والركون إلى زينة الحياة الدنيا والإصغاء إلى وسوسة الشيطان يجعل المرء ينظر إلى الآية فلا يرى فيها إلا ما يوافق هواه، وهذا كثير جدًا بين الناس، نكتفى منه بالأمثلة الآتية:

(أ) قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ [المائدة: ١٠٥] فإن أكثر الناس لا يرى فيها إلا أن يشتغل كل إنسان بنفسه، ولا شأن له بضلال غيره، فإن هذا الضلال لا يضر إلا صاحبه.

وهذا التفسير من وسوسة الشيطان وتقاصر الهمم كما قلنا، فإنه يناقض ما ورد فى القرآن الكريم فى مواضع كثيرة من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، مناقضة صريحة، والقرآن لا يناقض بعضه بعضًا: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

وقولهم إن الضلال لا يضر إلا صاحبه يناقض قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً﴾ [الأنفال: ٢٥].

ويمكن فى هذا المقام إيراد الأحاديث التى تهدم هذا التفسير، ولكن نكتفى بإيراد هذه المناقضة وبتفسير الآية تفسيرًا يستخرج المعنى من لفظها بدون تعسف، فالآية من الوجهة النحوية مؤلفة من الأمر وجوابه، فالأمر هنا[1] هو ﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ بالإصلاح. والجواب المترتب على هذا الأمر هو: ﴿لا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ﴾؛ فنحن أمام مقدمة ونتيجة لا محالة.. والمقدمة: أن نصلح أنفسنا بكل ما فى

(١) ﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ هو اسم فعل أمر، ولكنا تجوزنا فقلنا إنه أمر.

وسعنا من أسباب الإصلاح، والنتيجة: أن هذا الإصلاح حصن لنا من كيد الأعداء، فلا يستطيع هؤلاء الضالون أن يلحقوا بنا ضررًا ما. نأخذ هذا من قوله تعالى: ﴿لا يضركم من ضل﴾، فمن أين جاءهم هذا الذى يَهْرِفُونَ به؟ اقرأ الآية يا أخى مرة أخرى، فإنك لا ترى لها إلا معنًى واضحًا لا تحتمل غيره: فالله تعالى يأمر المؤمنين أن يعنوا بأنفسهم وأن لا يهملوها، وأن يقبلوا عليها بكل ما يصلح شأنها ويقوى أمرها، وأن لا يفرطوا فى شىء من هذا، فإذا استجابوا لأمره قصرت يد العدو عنهم، وعجز عن أن ينال منهم نيلاً.

والآية الكريمة تخاطب جماعة المؤمنين، أو تخاطب المؤمنين كجماعة وأمة: ﴿عليكم أنفسكم﴾، ولا تخاطبهم أفرادًا متفرقين: عليك نفسك. والفرق بين الخطابين كالفرق بين أن تقول: يجب على الأمة أن تفعل كذا، وعلى الفرد كذا.. فهى إذًا تقتضيهم أن يقدموا لأمتهم أداة النجاة، ويقيموا لها حصن الأمان، وتترك لهم تقدير ما يلزم من وسائل الإصلاح والحماية على حسب ما يلائم روح العصر والبيئة، وهى على كل حال لا تخرج فى كل عصر عن الأسس الآتية: إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، والتزام سائر قواعد الإسلام الخمس، فقوة الروح ضرورية قبل كل قوة، ويأتى بعدها العلم وقوة الذخيرة والسلاح، تنفيذًا لأمره تعالى: ﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة...﴾ [الأنفال: ٦٠]، ولا بد لإتمام العدة من تدريب كل قادر على الرماية وسائر فنون القتال، فلو أن جماعة المؤمنين عنوا بأنفسهم هذه العناية وأقبلوا عليها بهذا الإصلاح، فإن أعدى أعدائهم لا يستطيع أن يضرهم بشىء.

فأين هذا يا أخى من المعنى الذى يفرق الأمة أفرادًا متخاذلين، لا يهتم أحدهم إلا بشأن نفسه؟! ألا قاتل الله الهمم القاصرة.

(ب) قابل أحد الإخوان صديقًا له، يعمل معه فى عمله الرسمى، فقال له: إنى أعتب عليك أنك لا تعمل معنا فى الدعوة إلى الله وأنت رجل آتاك الله علمًا ورزقًا حسنًا وشبابًا وصحة، فقال الصديق: إن عملنا الرسمى ما هو فى الحقيقة إلا دعوة إلى الله، فإذا أحسناه، وأعاننا الله عليه، فهو حسبنا وفيه الكفاية. فقال الأخ: إن هذا العمل الرسمى نؤديه بقيود رسمية، داخل الغرف والجدران والأسوار

فلا يستفيد الناس شيئًا منه، ونحن نريد الصوت الحر، الذى يقف بين الناس لا بين الجدران، ويعمل بتكليف من الله لوجه الله، فقال الصديق: «كفاية كده»، إن الله يقول: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن:١٦]. فقال الأخ: هذه حجة عليك وليست لك، فليس معناها اتقوا الله على «أد الحال» وليس معناها اتقوا الله «كلشن كان» وإنما معناها ابذلوا فى تقوى الله كل ما فى استطاعتكم من جهد ووقت وعلم ومال، ولا تدخروا من ذلك شيئًا، فإذا بقى فى الاستطاعة فضل لم يبذل، فهو تقصير عن أمره سبحانه، وتفريط فى تقواه. ولماذا يا أخى تذكر: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾، وتنسى قوله: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾ [آل عمران:١٠٢]؟ فابتسم الصديق ومشى.

وهذا التفسير الخاطئ يقع فيه كثير من الناس، ومثله تمامًا نظرهم إلى قوله تعالى: ﴿لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا﴾ [البقرة:٢٨٦]، فوسوسة الشيطان وتقاصر الهمم عن أمر الله جعلهم يستشهدون بهاتين الآيتين الكريمتين على أن الله «يدلل عباده» ويقبل منهم جهد الكسالى المتراخين.

(جـ) وكثيرًا ما نكون بصدد التحذير من فتنة المال والأولاد، ليظل القلب سليمًا لله تعالى، فينبرى لك أحدهم محتجًا عليك بقوله تعالى: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [الكهف:٤٦]، متوهمًا أن فى هذه الآية الكريمة حجة تفحمك وتسكتك، مع أنها حجة عليه لا له، فلو أن عزيمته ناهضة بأمر الله حقًا، لوضعت له إلى جنب هذه الآية قوله تعالى: ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ﴾ [التغابن:١٤]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [التغابن:١٥]، ولكن انحلال عروته الدينية، وقف به على هذه الآية فقط، وجعله يرى فى ظلها مهادًا لينًا يركن إليه فى دعة واستسلام. ومع هذا فالآية على حدتها لا تفيد الثناء على المال والبنين، وليس فيها ما يحض على الحرص عليهما، بل فيها ما يشبه التزهيد، إن لم يكن هو التزهيد الصريح، فهما زينة الحياة الدنيا، وليسا زينة الحياة العليا، وما أبعد الفرق بين الزينتين.

وإن روحًا قوية مباركة تطالعك من خلال هذه الآية، تندد بأولئك الذين رضوا

لأنفسهم وقلوبهم أن تكون مقفرة من زينتها الفاضلة خالية من بواعث الهمة إلى الجمال الأعلى، واكتفوا بهذه الزينة السطحية الفارغة، التى لا تعرض أصحابها إلا فى سوق الأطفال.. وهيهات أن يرغب فى هذه الدمى الكبيرة أحمق المساومين.

وبعد، فلو أننا قرأنا الآية كلها لوجدنا أن آخرها يحكم على أولها.. كان أحد الإخوان فى موقف من هذه المواقف، فاعترض عليه معترض بهذه الآية، فأجابه الأخ على الفور: اقرأ يا أخى بعد هذا: ﴿وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلاً﴾ [الكهف:٤٦]، فانقطع من الإفحام وسكت.

ومثل هذا ما يلقاك به بعضهم فى احتجاج وإنكار قائلاً: ﴿وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ [القصص:٧٧]، فلك أن تفحمه على الفور بما قال الله أول هذه الآية: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ﴾.. ولك أن تأخذ بيده إلى الصواب، فتقارن له بين أول الآية وآخرها، وتريه الفرق بين قوله تعالى: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ﴾، وبين قوله: ﴿وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ﴾.. فنحن أمام أمر بالإقبال على شىء، ونهى عن نسيان شىء آخر.. فالآية الكريمة تفترض فيمن تخاطبهم حسن تقديرهم لمعالى الأمور، وقوة إقبالهم على أمر الله، فى استغراق ينسيهم حظوظهم الأخرى، فنبهت إلى هذه الحظوظ تنبيهًا يسيرًا يلائم قدرها اليسير، فقالت: ﴿وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾.

وبعد، فإن المجال يطول بنا لو ذهبنا إلى استقصاء أوهام الضعفاء فى تأويل كلام الله، وهى أوهام لا عدة لتبديدها إلا يقظة القلب ونور الربانية فيه، وهى عدة لازمة للداعية كما رأيت.

سادسًا: الداعية المجدد المنشئ، أو الموجه المكمل، لا بد أن يستلهم هذه الروحانية الاجتماعية لأنها من أمر الله.

ونعنى بالمجدد: الذى يجدد ما تداعى من كيان أمته الاجتماعى والاقتصادى والدولى.. وبالمنشئ: الذى ينشئ دولة جديدة على غير مثال سبق، على نحو ما فعل مولانا رسول الله ﷺ.. وبالموجه: المكمل الذى يجد نفسه بصدد أمة تحتل بين الأمم مكانًا طيبًا، ولكن طموحه إلى الكمال يبعث بهمته إلى غاية أبعد

وأسمى؛ هؤلاء الدعاة لا بد لهم من روحانية اجتماعية يستلهمونها الحق الذى لا يضل، وبدونها يكون الداعية رجلاً مشغوفًا بالمجد، يتورط فيما يتورط فيه المجانين من أخطاء وكوارث.

الإنسان المؤمن خليفة الله فى هذه الأرض، وجنديه المختار لتطهيرها من الشر، وهذه المهمة تقتضيه أن يواجه الشر، ويعرف أوكاره، ويستقصى مآسيه، فما لم يكن ذا وجدان نقى، وقلب يقظ، فإنه لا يستطيع أن يشعر بحسن الحسن وقبح القبيح، ولا يتنبه إلى مواطن الضعف، وما يلزمها من ضرورات العلاج.. فالمسألة مسألة شعور ووجدان، ومسألة تنبه وإدراك عاطفى، قبل أن تكون مسألة العقل المنظم الذى يرسم خطوات التنفيذ. ومهما أوتى الشعور من صفاء طبعى، فلا بد له من الاتصال بالله لا محالة، ولا غنى له عن ذلك بحال من الأحوال، وإلا كانت الجهالة والفتنة والفوضى.

على هذا الجندى أن يتصل دائمًا بقائده الأعلى - ولله المثل الأعلى - عليه أن يبسط صفحة قلبه لله، وأن يطيل بها التسمع إلى ما فى الكون العالى من إشارات وخطرات، فإن صفحة قلبه تغدو رقيقة رفافة، تهتز وتختلج لما يهبط عليها من أمر الله سبحانه وتعالى، وهنا يمشى الجندى فى محيطه وهو مزود «بآلة الإحساس» التى تنتفض كلما رأت أثرًا من آثار الفساد والشقاء، وتهش وترتاح كلما رأت مظهرًا من مظاهر الخير والنظام، ولن يكون لذلك أثر فى نفسك إلا الرغبة الشديدة فى أن تعمل لعلاج الفساد، وبناء المجتمع على أسس الخير، وتغدو وكأن هاتفًا فى أعماق نفسك يهتف بك فى كل موطن، يجب أن تتجه إليه من مطالب وأعمال.

ولقد ذكرنا فى المقدمة أن الداعية سياسى فى بيئته، وقائد فى محيطه، وزعيم لفكرته ومن يتبعه فى ناحيته، ومعنى هذا أن أفق الداعية قد يتسع فيكون قائد الأمة كلها وزعيم فكرتها، وقد يضيق، فيكون قائدًا إقليميًا، أو قرويًا، عاملاً فى محيطه الصغير، على ضوء فكرته وإلهام صلته بالزعيم الكبير. نقول هذا حتى لا يظن أحد أن رسالة الإصلاح مقصورة على الزعماء الكبار، ذوى الآفاق الواسعة.

وبعد.. فإن خطورة هذه الناحية العملية تقنع الداعية بضرورة الإقبال على الله سبحانه، وتنظيم حياته الروحية على قدر استطاعته.

سابعًا: إن هذه الروحانية تسمو بفضائله النفسية، وقواه العاطفية، إلى ذروة رفيعة من الفضل، فإذا به ينظر إلى الناس كأنما ينظر إليهم من قمة جبل شامخ، فيراهم وقد زالت جسامة أجسامهم كأنما صبوا فى قوالب الأقزام القصار، وامحى بهاء ما لبعضهم من مظهر ورواء، فاستووا فى تقديره على منظر هين متشابه يسلك الجميع فى منزلة واحدة.. ويترتب على هذا أمران:

الأول: أنهم جميعًا أمامه هياكل ضعيفة، لا تضر ولا تنفع ولا تملك لنفسها شيئًا. فهو لذلك لا يرهب، ولا يرغب، ولا يخاف، ولا يخشى مهما استعلن الأقوياء بما لهم من جاه وسلطان، فهيهات أن يغتر بهذه الأوهام الضعيفة صاحب الأفق العالى.. فهو شجاع غاية الشجاعة، قوى بالله غاية القوة، غنى بما يجد فى قلبه من رزق الله، واثق بنفسه وربه كل الثقة.. وذلك من ألزم الصفات للداعية الأصيل.

الثانى: أنه يقبل على الناس وهو فى ذروته العالية وأفقه العاطفى الفسيح، فيعطف على عيوبهم كما يعطف الرجل الكريم على عيوب الأطفال، ويعالجهم بروح الرفق والتسامح، وبالحكمة والموعظة الحسنة، لا يضيق بهم ولا يحقد على جهلهم، بل هو الصبر والملاينة والتماس المعاذير، ومسايرة الأمل فى هداهم، فإذا بقى منهم أحد على علته رثى لحاله، وحزن وتألم، كما يألم الرجل الرحيم لبقاء العلة فى مريضه العزيز، ولأمر ما كان رسول الله ﷺ يحزن على قومه، ويحرص على هداهم، حتى كادت نفسه تذهب عليهم حسرات.

هذه الصفة الكريمة هى التى تجعل الداعية جديرًا بشرف الدعوة إلى الله، فهو عالمى العاطفة ربانى النفس، تتسع نظرته لأتباعه ومخالفيه، وتشمل الناس جميعًا بحبها، غير أن حبه لأتباعه يتخذ سمة المودة والبشاشة، وحبه لمخالفيه يتخذ سمة الرثاء والإشفاق، والحرص على إسعادهم، وعلاجهم بمختلف الوسائل، بل إن عواطفه لتتسع إلى ما وراء الإنسانية حتى تشمل الحيوان والجماد، فيرحم هذا ويوصى به خيرًا، ويفى للجماد، ويحن لما له من عهود وذكريات، على نحو ما

ترى فى سيرة رسول الله ﷺ.

تلك يا أخى هى الروحانية الاجتماعية، لا الاعتزالية، فخذ نفسك بها، وزن ما ترى من حالك بميزانها، حتى تعرف أين أنت منها، وأين هى منك، وأسأل الله لى ولك أن يرحم ضعفنا ويكمل نقصنا، ويجعلنا أهلاً للفضل والحكمة، إنه ولى التوفيق، وهو ذو الفضل العظيم.

* * *

الفصل الثالث

الطبيعة التنفيذية

• تمهيد:

الروحانية تصل المرء بالله، وتلهمه روح رسالته، وغايتها وبواعثها.

والطبيعة التنفيذية تصله بالحياة، ليصوغ تعاليم الرسالة أعمالاً نافعة، وأوضاعًا عمرانية صالحة.

وهذان هما طرفا الإيمان، ولا بد من اجتماعهما فى قلب المرء المؤمن. فإذا ادعى لنفسه الروحانية ولم يكن له عمل، فهو إيمان ناقص، بل إيمان زائف مضطرب. وإذا رأيت له عملاً، ولم يكن له حياة روحية سليمة تصله بالله، فهو امرؤ يفقد سداد الغاية وهداية الضمير.

ورسول الله ﷺ يشرح لنا هذا بقوله: «ليس الإيمان بالتمنى، ولكن ما وقر فى القلب، وصدقه العمل».

• بعض خصائص الإيمان:

والإيمان الكامل الصحيح، الذى يستقر فى القلب فيبعث صاحبه على العمل، له سمات عديدة، وخصائص كثيرة، من أهمها:

١ ـ فهم الرسالة.

٢ ـ حب تعاليمها، وتعلق القلب بجمالها.

٣ ـ الغيرة على حرمتها.

١ - الفهم:

ولسنا نعنى بالفهم أن يحيط الداعية بعناصر الرسالة وتوجيهاتها، وأمرها ونهيها، وحلالها وحرامها، فذلك فهم المدارك العادية، وشأن التلقين لا اليقين؛ إنما نعنى بالفهم: الفهم العاطفى، والتصديق القلبى، وهذا التصديق شعور يحل

فى كيان المرء، وإحساس يستولى على وجدانه، فيدرك به من حقائق الرسالة ما لا يستطيع العقل العادى أن يدركه. وأوضح مظاهر هذا الفهم أو هذا الشعور أن يدرك أن الرسالة حق، وأن ما عداها باطل. ويميز الفرق بين الحق والباطل، كما يميز أحدنا الفرق بين صور الأوهام التى تتراءى لنا فى أضغاث الأحلام، وبين ما نراه فى عالم اليقظة والمشاهدة، فإذا أدرك أحدنا الحق والباطل هذا الإدراك، وميز بينهما هذا التمييز، فقد بلغ رشده القلبى، وتم فهمه العاطفى، وصح أن يكون مع المؤمنين. وإذا لم يفهم هذا الفهم، فليعلم أنه لم يبلغ رشده بعد، وإن بلغ من العمر ستين أو سبعين سنة، ونال من الإجازات العلمية ما نال.

والعلامة الظاهرة التى تدل على أن المرء فهم هذا الفهم، أن يرى متجافيًا عن دار الغرور لأنها باطل، منيبًا إلى دار الخلود لأنها حق، مستعدًا للموت قبل لقاء الموت. وعلامة عدم الفهم أن يعرض عن حقائق الآخرة، ويغتر بأوهام الدنيا يظنها شيئًا، فيكون مثله كمثل الأبله المعتوه، الذى زعموا أنه رأى فى المنام كأنه يصرف جنيهًا من رجل آخر، فقال له الرجل: أعطيك فيه تسعة وتسعين قرشًا، فقال: لا، بل لا بد من مائة قرش، وأصر كل منهما على قوله، وهنا استيقظ صاحبنا من حلمه، فلم يجد فى كفه شيئًا، فما كان منه إلا أن أغمض عينه، ومد يده لعالم الأحلام، يقول للرجل الوهمى: لقد رضيت بما تريد، فهات التسعة والتسعين. ولو كُشف عنا الغطاء، وأصبحنا من أهل العلم والفهم، والنظر إلى حقائق الوجود؛ لرأينا أكثر الناس فى إقبالهم على متاع الغرور، كهذا الأبله الذى يستمنح الأوهام قروشه المزعومة.

فاللهم أرنا الحق حقًا وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه، ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾ [آل عمران: ٨].

٢. حب التعاليم:

الفهم على ما قررناه يجعلنا نقدر الحق قدره، ونعرف قيمته. ولكن القوة الإيجابية التى تشغف المرء بالرسالة غير واضحة فيه، فأودع الله القلوب سر الحب وجعله من خصائص الإيمان. وفى الرسالة جمال لا يدرك إلا بالحب، كما أن

فيها نفاسة لا تدرك إلا بالفهم.

ومقتضى هذا الحب أن يكره الإنسان الطاغوت، ويبغض الباطل، ورسول الله ﷺ ينص على خصوصية الحب فى الإيمان بقوله: «لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه مع ما جئت به». وينص على خصوصية بغض الطاغوت بقوله: «ثلاث من كن فيه وجد فى قلبه حلاوة الإيمان: . . . وأن يكره أن يعود إلى الكفر كما يكره أن يلقى فى النار». ويجمع الله عز وجل المعنيين فى قوله ممتنًا على عباده: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُوْلَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ (٧) فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً﴾ [الحجرات: ٧، ٨].

ومن دلائل هذا الحب الظاهرة، أن يرى صاحبه ناهضًا منبعثًا إلى الدعوة لرسالته، فى همة وجد، مطبقًا تعاليمها على نفسه وآل بيته فى غير هوادة ولا رياء، وإلا فكيف يكون محبًا وهو لا يجد فى نفسه إلا الكسل فى التنفيذ والكراهة للتكاليف؟!

٣- الغيرة:

والغيرة من لوازم الحب، وكلما كان الشىء محبوبًا لاصقًا بخاصة نفس المرء، عظمت حرمته لديه، وقامت الغيرة تحرس حماه، وتصون محارمه أن تستباح.

والغيرة على الحق من صفات الله عز وجل، ورسول الله ﷺ يقول: «إن الله يغار، وغيرة الله أن يأتى المؤمن ما حرم الله عليه».

ومن علامات غيرة المؤمن: الغضب إذا انتهكت محارم الله، والثورة لإبطال ما يرى من منكر، قالت عائشة رضى الله عنها: قدم رسول الله ﷺ من سفر، وقد سترتُ سَهْوة[١] لى بقِرَام[٢] فيه تماثيل، فلما رآه رسول الله ﷺ هتكه[٣]، وتلون وجهه وقال: «يا عائشة، أشد الناس عذابًا يوم القيامة الذين يضاهون بخلق الله».

---

(١) السهوة: ما يشبه النافذة.

(٢) القرام: ستار.

(٣) هتكه: مزَّقه.

ومن علامات الغيرة كذلك أن لا يطيق أن يرى رسالته معطلة، أو خاضعة لسلطان رسالة أخرى، ومن هنا نرى المؤمن الحق، والداعية المفطور، يلح فى أن يجمع لرسالته كل سلطان روحى ومادى يكفل لها الهيمنة على ما سواها.

• معنى الطبيعة التنفيذية:

ونحب أن نستخلص من هذا: أن الإيمان ليس معنى روحيًا سلبيًا يصل الإنسان بالله فقط، إنما هو إلى ذلك قوة إيجابية تبعث على التنفيذ، وتنهض إلى العمل، أو هو سر إلهى مشبوب فى قلب الداعية وعصبه، موكل بإنفاذ رسالته إلى الحياة العملية. فلا يهدأ القلب ولا العصب حتى يكون كل شىء يجرى فى الحياة على مناهج الدعوة وتعاليمها، وإلا فهو العمل الصادق، والجهاد القوى؛ حتى يقر الله عينه بما يحب، أو يقضى له شيئًا آخر.

وأنت ترى فى هذا السر الإلهى المشبوب خصوصيتين واضحتين:

الأولى: أنه جذوة متقدة؛ يستمد منها الداعية القوة على العمل، والغيرة على الدعوة.

الثانية: أنه قوة منهضة، يشعر بها الداعى كأنه ضرورة ملحة تضطره إلى التنفيذ، أو أن حافزًا نفسانيًا ينهض أعضاءه إلى العمل؛ فيشعر براحة عظيمة، ولذة عميقة إذا هو استجاب له، أو بضيق ثقيل خانق إذا هو لم يعمل ولم ينفذ ولم يطبق. وهذا ما نسميه الطبيعة التنفيذية.

وبدون هذا السر يكون الداعية رجلاً كسائر الذين تمتلئ رءوسهم بأوهام الإصلاح، وكل ما ينفعون به الأمة مقالة يكتبونها أو محاضرة يلقونها، وحسب الواحد منهم بعد هذا أن يقبل عليه القراء أو المستمعون «فيهنئونه» بما كتب أو بما خطب، فيشيعَ السرور فى نفسه، ويعمد إلى تصنع التواضع المغرور.. وإنى أعدُّ هذه التهنئة كارثة تقتضى الحزن لا السرور.. فلو أن داعية مطبوعًا كان كل حظه أن يثنى الناس على ما كتب أو خطب، لانفلقت كبده من الغيظ والحسرة، فإنه لا يريد شيئًا من هذا.. لا يريد ثناء لنفسه، ولا يطيق أن يرى هؤلاء البله ينصرفون

من قراءته أو سماعه فى غير مبالاة، إلى حيث يغطون ويتثاءبون فى حياتهم الراكدة الخاملة.

بدون هذا السر يكون الداعية واحدًا من هؤلاء المرائين الفارغين المرتزقين، ومن الارتزاق ما يكون لكسب الثناء، كما أن منه ما يكون لكسب الغذاء. على أن هذا امتياز فطرى للداعية المطبوع. ولا نريد أن نقول إن الداعية يجب أن يكون هكذا وإلا فليرح نفسه، ولا يكلفها ما ليس من طبيعتها.. لا، إن كل مهمتنا هنا أن ننظر إلى الدعاة العظام، الذين بعثهم الله للبناء والإنشاء، ونرصد ما يمكن أن ندركه من صفاتهم وامتيازهم، ثم نضعه مثلاً أعلى يحتذيه الدعاة الراغبون فى الإصلاح. وما أقصد بهؤلاء البنائين المنشئين غير رسل الله صلوات الله عليهم، بل غير مولانا رسول الله ﷺ، ففيه اجتمعت كل صفاتهم الفاضلة، وثمار تجاربهم النفسية والعملية.. فإذا نظرنا إليه واتخذناه قدوتنا فى الدعوة، فإن الكثير مما حرمناه من الصفات الفطرية يتأتى لنا حظ منه بالتجربة والممارسة والمران.

• كيف نكسب الطبيعة التنفيذية:

فما على الراغب فى الخير والدعوة إليه، إلا أن يستوعب سيرته ﷺ فى الدعوة، وأن يلم بروح رسالته فى القرآن. ومن حسن الحظ أن الله سبحانه وتعالى قد جمع لنا هذه الرسالة فى قواعد كلية واضحة. ولم يكتف بذلك، بل أجرى هذه القواعد فى صور من الأمر والنهى تضع القارئ على أبواب التنفيذ، وتقفه على رأس طريقه إلى العمل، فما عليه إلا أن يسير، وينفذ ما يريد الله سبحانه وتعالى أمرًا ونهيًا؛ لا بروح التابع المقتدى فقط، بل بروح الداعية المكلف بالدعوة كذلك.. فإنه بعد أمد قريب أو بعيد يحس أن شعاعًا من هذه الطبيعة التنفيذية، وقبسًا من جذوتها المقدسة، قد سرى بإذن الله فى أعماق نفسه.

• نبرأ من البعد عن الله:

ونريد أن ننص هنا على أن هذا السر التنفيذى المشبوب يجب أن يكون متصلاً بروحانية الداعية كل الصلة، عاملاً بإلهامها، آخذًا من معينها. وإنا نبرأ والإنسانية

العالمية الكريمة - لا إنسانية الماديين المحصورين فى قوميتهم ووطنيتهم - نبرأ وتبرأ معنا هذه الإنسانية الكريمة من كل رجل منفعل المزاج، ينطلق على غير هدى من الله، إلى إقامة نظام اجتماعى أو سلطان عملى، يدعو به الناس إلى ما يزين له مزاجه المختل. ولقد قلنا فى الروحانية الاجتماعية إن الدعاة المجددين المنشئين لا بد لهم من هذه الروحانية، يستلهمونها الحق الذى لا يضل، وبدونها يكون الداعية رجلاً مشغوفًا بالمجد الوهمى، يتورط فيما يتورط فيه المجانين من أخطاء وكوارث.

هذا الصنف المختل المخبول نبرأ منه، ونحذر الشباب وغير الشباب أن يغتروا بشأنه، فهو بعيد عن الله، ضال عن الحق، وهو بلاء على نفسه، وعلى الناس.

وإنا لنهيب بشبابنا ودعاتنا أن يصلوا نفوسهم بالله، أولاً وقبل كل شىء، وألا يظنوا أن قوى الشباب فيهم، وأشواقهم المشبوبة إلى المجد، هى الكفيلة بتحقيق ما يصبون إليه. لا يا شباب ويا دعاة، لا بد من النور الذى تسيرون على ضوئه وتعملون بوحيه، وإلا فكم من عشواء جمحت بين النخيل، حتى أوردها الصدام موارد الهلاك.

• على الداعية أن يعرف غايته أولاً:

والآن.. فماذا يراد من الداعية؟ أو ماذا عليه أن يعمل؟

يراد منه أن لا يحبس مبادئ رسالته وتعاليمها فى صدره وفكره، بل يصوغها أوضاعًا اجتماعية، وصورًا عملية حيوية، وأنظمة عمرانية، يستقيم بها شأن الناس فى معاشهم ومعادهم.

وهذا كلام غامض لا يشفى علة، ولا ينقع غُلَّة، كما يقولون. فكيف يصوغ رسالته هذه الصياغة، وعلى أى أساس يفعل هذا؟ أما الداعية المفطور، فله من وعى قلبه ووحى ربه ما ينير له الطريق، ولا يحوجه إلى هذا التساؤل، أما الداعية الذى نحن بصدده، فمن حقه أن يلتمس معنا من نور الحق ما تقر به نفسه.

- **الغاية الله:**

على الداعية فى ميدان التنفيذ والعمل أن يعرف غايته أولاً، وأن يفهمها حق الفهم، فإذا تأتى له هذا، استطاع بفطرته أن يدرك الوسائل التى تحقق له هذه الغاية، وتصل به إليها. وغاية الداعية هى غاية كل إنسان فى هذه الحياة الدنيا، مسلمًا كان أو غير مسلم، فى مشارق الأرض ومغاربها ـ هو الله سبحانه وتعالى. فعلى الداعية وعلى كل إنسان، أن يعلم أنه خلق لله أولاً، وأنه خلق لله آخرًا، وأنه لم يخلق لغير الله على أى اعتبار من الاعتبارات. وأنا أدرك أن هذا الكلام غير براق لا سحر له ولا خلابة، فالشباب المتحمسون والكهول الذين فتنوا بزينة الحضارة المادية وأحداث العصر الجارية، إنما يفتنهم المجد للشخص فى عالم المال والصناعة والحرب والسياسة. ويفتنهم المجد للدولة بعلو سلطانها وكثرة مستعمراتها. فمجد الشخص ومجد الأمة هما قبلة أنظارهم ومطمح عزائمهم، وكل كلام يستحث هممهم إليه فهو الكلام الساحر البراق، الذى يحلو فى قلوبهم المخدوعة.

لا أيها الناس؛ إنما خلقنا لله، لا لهذه الأوهام، والمجد ـ كل المجد ـ أن ينجح الإنسان فى سبيل هذه الغاية العليا، فإذا لم يكن لهذا الكلام بريق لامع، فإن له من منطق الفطرة ما تخشع له القلوب، وتعنو لقهره الطباع. فنحن مخلوقون لله، رضينا أم لم نرض، راجعون إليه لا محالة، أطعنا أم لم نطع. والخير للإنسان أن يمضى إلى ما لا بد منه فى كرامة، من أن يكره على المضى إليه فى هوان وذلة، ولقد عنت السموات والأرض لقهر الله وسلطانه، حين استوى إلى السماء وهى دخان، فقال لها وللأرض: ﴿ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [فصلت:١١]، فمن ركبه شيطان الغرور، فسوف يرد إلى ربه لا محالة، وهناك تنكشف له الحقيقة التى طالما تجاهلها، فيقطعه الندم ولات ساعة مندم، ويزيد من فجيعته ونقمته على نفسه أنه لم يبصر ما أبصره العمى ولم يفهم ما فهمه الجماد، يوم قالت السموات والأرض: ﴿أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾، كل ذلك وواعظ الله يهتف به فى موقف حسرته: ﴿لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق:٢٢]، ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ

يحملون أوزارهم على ظهورهم ألا ساء ما يزرون﴾ [الأنعام: ٣١].

فإذا عرف الداعية غايته، فقد عرف واجبه، وأدرك أن عليه أن يركز همته ويحصر كل ما له من جهد فكرى وعاطفى وبدنى فى بلوغها وقطع مراحل الطريق إليها.

وهذا يا أخى هو المحور الذى دارت حوله رسالات الله وما نزل من وحى وعلم على أنبيائه ورسله وأوليائه، فمن أراد أن يرى هذه الرسالات مجموعة فى كلمة واحدة، أو موعظة واحدة، فلينظر إلى هذه الحقيقة، فإنه يرى كل ذلك يتجه إليها، ويتجمع عندها، وما نقوله افتراء على الله سبحانه، واجتراء على رسالته، نهو أمره عز شأنه، وقوله لرسوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا﴾ [سبأ: ٤٦]، فالغاية الله تبارك وتعالى، أى نقصد بكل فعل وقول لنا طلب رضوانه تعالى. والواجب أن نفكر ونعمل لبلوغ الغاية من رضاه سبحانه، وأن يكون طريقنا إلى الله سهلاً هادئًا مأمونًا. وهو واجب الداعية نحو نفسه، ونحو الناس، وهو الذى نكل تنفيذه إلى الطبيعة التنفيذية.

• إحياء القلب:

والآن.. فما معنى أن نجعل الطريق إلى الله سهلاً هادئًا مأمونًا؟

نحن على رأس رحلة إلى الله سبحانه وتعالى، فإذا اجتزنا مراحلها على ما يرضيه، فعند الصباح يحمد القوم السرى، ويحطون رحالهم فى دار المقامة من فضله: ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٤].

وهى بعدُ رحلة لا تقطع بقطار أو سيارة، وإنما تقطع بالقلب، والقلب فيها هو كل شىء.. فبه يبصر الإنسان غايته، أو يبصر الله تبارك وتعالى كما قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه، وغايتنا لا تدرك بالأبصار، ولكن تدرك بالقلوب التى فى الصدور، وما لم يبصر الإنسان غايته، لم يعرف إليها سبيلاً، ولم يدرك لها جمالاً.

وبه يستبين الطريق إليها، فلا تلتبس المعالم على ذوى القلوب الحية: ﴿أَوَ مَن

كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها﴾ [الأنعام: ١٢٢]، وما المعالم هنا إلا الطيب والخبيث والحسن والقبيح والنافع والضار والحلال والحرام.

وهو الذى يضاعف أشواق المرء إلى غايته، ويستحث همته إليها فتهون عليه المراحل والعقبات؛ وكلما أدركه كلال أو ملل لاحت له بوارق من دار السلام فيتجدد عزمه، ويحيا رجاؤه، على حد قول الشاعر:

لها أحاديثُ من ذِكْراك تشغلُها عن الطَّعام وتُلهيها عن الزادِ
إذا اشتكتْ من كَلال السير أوْعَدَها رُوحُ القُدوم فتَحْيا عند ميعادِ

فالقلب يا أخى هو كل شىء فى هذه الرحلة الأزلية، هو كل شىء فى حياتك وما الجسم إلا مطية له، أو ظرف يصونه. ولقد تقدم فى غير موطن أن الإنسان ما هو إلا قلبه، وسيأتى فى باب مصادر الداعية أن القرآن الكريم يجب أن يقرأ على أن الغرض الأول والأخير منه هو إحياء القلب والمحافظة عليه سليمًا مطمئنًا بذكر الله، وأن السنة النبوية كلها ترمى إلى هذا المعنى من قريب أو بعيد، مباشرة أو بطريق غير مباشر. ولقد قلنا منذ قريب: إن مثل هذا الكلام لا بريق له ولا سحر؛ فهل يظن أولئك المخدوعون أن القرآن الكريم نزل لتنظيم خدمة الجسم؛ أو أن السنة المطهرة تعلمنا كيف نجمع لهذه المطية زادها؟.. وإذا لم يكن الإنسان هو قلبه الفياض بمعانى النبل والكرامة، وعواطف المواساة والإيثار، وطمأنينة الذكر والتقوى، أفيظنون أنه هو جسمه الطاعم الكاسى، وشهواته الجائعة المنهومة؟

إذًا يا أخى فواجب الداعية ـ بعد معرفة الغاية ـ ينحصر فى إحياء القلب، وجعل طريقه إلى الله سهلاً، هادئًا مأمونًا، لا يعتريه فيه ما يطفئه، أو يخمده، وهذا فيما يبدو لى يتحقق بالأمرين الآتيين:

• الوسيلة الأولى: التذكير بالله:

دوام التذكير بالغاية، بما يجعل الإنسان مشغولاً بها مفكرًا فيها، مقبلاً بكليته عليها. وليس للقلب من زاد يحيا به إلا معرفة هذه الغاية وتعلقه بها وتفكره فيها. ولقد يؤنسنا فى هذا المعنى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ تتفكَّرُوا﴾ [سبأ: ٤٦].

أما كيف يتأتى للداعية دوام التذكير، فإن الله سبحانه وتعالى قد فرض علينا الصلاة وجعلها دروسًا عملية فى مناجاته سبحانه والثناء عليه، والتفكر فى يوم الدين، والتماس الصراط المستقيم. . . و. . . وترك للداعية أن يقيم المسجد ليكون مدرسة ربانية يزاول طلابها فيها هذه الدروس بإرشاده وإمامته. . «خمس حصص كل يوم».

وهذا توجيه إلهى، ومثال عملى ينصبه الله سبحانه وتعالى للداعية، لينسج على منواله، ويسير على هداه فى تقرير الغاية والتذكير بها. فعلى داعيتنا أن يحمل الناس على إقامة الصلاة، ويرد للمساجد أنسها وروحانيتها، وأن يضع برامج التعليم فى مدارس البنين والبنات لتكون مذكرة بالغاية الأساسية، موجهة إليها، غارسة لها فى قلوب الصغار والكبار، وأن ينتفع بوسائل الثقافة الأخرى كالمسرح والسينما والصحف والمجلات وما استجد من أساليب الدعاية. ولا يسوغ بحال من الأحوال أن يجند كل هذه الوسائل الفعالة لتقرير الأقوال الزائفة، وإذاعة المبادئ الفاسدة، والتوجيه إلى حياة اللهو والباطل، ويقف دعاة الحق كأنهم لا يرون ولا يسمعون ولا يعيشون مع أحياء هذا العصر.

الثانية: وقاية القلب من المؤثرات المختلفة:

وإذا تقرر أن القلب هو كل شىء فى عوالم الرحلة، أو هو أهم شىء فيها، فهو الذى يبصر الغاية، وينير الطريق، ويجدد العزائم، ويستحث الأشواق، وجب أن نتيح له من الهدوء وفراغ البال ما يجعله يستمر على ذكره وفكره، وإقباله على الله سبحانه فى طمأنينة وسكينة. وفى رأيى أن القلب إذا أحيط بما يقيه ويحفظه من المؤثرات العارضة، فقد مضى إلى غايته على هدى وصراط مستقيم. ويمكن الداعية أن يجمل هذه المؤثرات فيما يأتى:

(أ) مؤثرات اقتصادية:

نعم فمطالب العيش وكل ما يتصل بالحياة الاقتصادية له تأثيره المباشر القوى على القلب. . كالفقر، والتعطل عن العمل لمرض أو شيخوخة أو سبب آخر،

وثقل الدَّين والغُرم، ونزول الآفات والحرائق، واليتم والترمل إذا مات رب الأسرة ولم يترك شيئًا، وما يشبه ذلك مما تضيق به النفس، ويغدو به المرء موزعًا فى أودية من الهموم والأفكار والذلة والحيرة. فهل يتأتى للقلب أن يظل فى هدوئه وسكينته، وهذه الهموم تتقسمه وتتوزعه؟

على الداعية أن يدرك هذا، وأن يبذل غاية جهده لصيانة القلب منه، والمحافظة على بقائه فى روض سلامه، ونعيم ذكره وفكره. ونحب أن نذكر هنا مرة أخرى أن سلام القلب ليس من الأمور الكمالية التى قد يتهاون المرء فى العناية بها، وليس هذا النعيم من قبيل التدليل والتزيد فى مطالب الترف.. لا، إنه الضرورة الأولى.. إنه الحياة التى ليس بدونها حياة.. وإنه النجاة، وليس بدونه إلا الهلاك، ولا يدرك هذا إلا من فقه وأيقن أنه خلق لأخراه لا لدنياه.

فإذا عنينا بالنص على هذه المؤثرات المتصلة بمعيشة الناس، فإننا ننص على قيام سبب من أسباب الهلاك، وليس للإنسان إذا هلك من فرصة أخرى يصلح فيها شأنه؛ إنها الجنة أبدًا، أو النار أبدًا. وإذا كانت الحكومات تسارع إلى مكافحة الأوبئة لسلامة الأبدان، فأحرى ثم أحرى أن تكافح ما يفد على القلب من الهموم والأزمات. ولأمر ما كان رسول الله ﷺ يقول: «اللهم إنى أعوذ بك من الهم والحزن، وأعوذ بك من غلبة الدين وقهر الرجال». ويقول: «اللهم إنى أعوذ بك من الكفر والفقر». وليس فى البشر كافة من هو أسمى همة من رسول الله ﷺ، فهل تراه فزع إلى الله واستعاذ به إلا لأن الحزن والهم وغلبة الدين والفقر من مهلكات القلب كالذنوب والشهوات سواء بسواء؟ أم تراه فزع منها لأنها تصد نفسه عن الطعام، وتقعد بهمته عن السعى فى الأرض لجلب الحطام؟ قد يجوز لأى باحث اجتماعى نفسانى أن يستخرج من هذا الكلام ما يشاء من تأثير الهموم على همة المرء وعزيمته، وما لذلك من أثر اقتصادى وعمرانى فى الحياة المادية، وهو حسن.. ولكن ما نعلم من سمو همته ﷺ، وصفاء إدراكه للحقائق العليا، يجعلنا نجزم بأنه يقصد قبل كل شىء سلامة قلبه الذى هو مستودع الحياة فى الدنيا والآخرة.

فإذا نحن عنينا بتقرير هذه العوامل الاقتصادية، وأثرها على حالة المرء النفسية،

فلسنا نقف بمرادنا عند حدود اللقمة التى تسد جوعه، وتستر عُريه، كما يقف كثير من المهتمين بعلاج مشكلات الفقر والبطالة، بل نرمى إلى ما وراء هذه الحدود من انقشاع الظلمة عن القلب، وصفاء الأفق من حوله، وعودة الطمأنينة إليه، ليواصل سيره إلى غايته. فإذا أمكن أن نصل إلى هذه الغاية، مع بقاء أسباب الجوع، فتلك مرتبة لا يدركها إلا المشمرون. ولقد كان رسول الله ﷺ يجوع فلا يذله الجوع، ويخلو بيته من القوت فلا يتضعضع لأحد لينال من فضله شيئًا، ولا يهمه ذلك أو يغمه، بل يربط الحجر على بطنه، ويقول لمن حضر من أصحابه: «ألاَ رُبَّ نفسٍ طاعمة كاسية فى الدنيا جائعة عارية يوم القيامة، ألا رب مُكْرِمٍ لنفسه وهو لها مهين، ألاَ رب مُهينٍ لنفسه وهو لها مكرم». ولكن أنَّى لنا بهمة رسول الله ﷺ وعظمته الشامخة المترفعة على ما يذل الناس من قيود وضرورات.

لقد ذكرنا ما ذكرنا لنبين أن مرادنا من الإسعاف بالمال والطعام واللباس غير مراد أصحاب العقول المحصورة، والنفوس الضيقة. ولذا نرى دائمًا أن يقترن هذا الإسعاف المادى بإسعاف روحى يربط على القلب، ويمسح عنه بحنانه ما مسه من هجير الحاجة، ويملؤه رضًا بما قسمه الله له. وهذا يا أخى فرق ما بين مناهجنا ومناهج أعظم المصلحين المعاصرين؛ فقد بشر الإنجليز ـ وحرب السنوات الست قائمة ـ بمشروع بفردج، واعتبروه واعتبره الناس فى المشارق والمغارب حدثًا جديرًا بتقدم الإنسانية، فهل لنا فى غير زهو أن نفاخر بمنهاجنا ونبشر به؟ بل هل لنا قبل ذلك أن نثق بأنفسنا، ونعتز بما عندنا من إيمان ويقين؟

ونعود إلى ما نحن بصدده من تقرير اضطراب الحالة النفسية بالعوامل الاقتصادية المتصلة بمعيشة الناس. ليرى الداعية أن علاج هذه الطوارئ مما لا يحتمل الهوادة أو التراخى. فليس يصبر على هلاك الناس إلا جاحد القلب، غليظ العاطفة، وليس هذا من الدعاة فى شىء. ليرى كذلك أن ضرورة الموقف تقتضيه فرض التكافل والتعاون بين جماعته؛ تقتضيه أن يجعل هذا التكافل نظامًا مفروضًا على الجميع. ولقد فرض الإسلام الحنيف الزكاة ولم يجعلها تطوعًا متروكًا إلى اختيار المرء ورغبته؛ ففتح بهذه الفريضة العملية الإيجابية الباب على مصراعيه أمام الداعية، ولم يتركه إلى حَدْسه وتخمينه، وأمره أن يأخذ كل

القادرين بأدائها، وأن ينزلهم بالسيف على حكمها، إذا هم قعدوا عنها وبخلوا بها. وليس على الداعية بعد هذا إلا التنفيذ، وإقامة الأنظمة وسن القوانين التى تحقق هذا التكافل بين الجماعة، وتجعله حقيقة عملية واقعة.

وننبه هنا أخيراً إلى ما ألمعنا إليه سابقًا من أن مهمة الداعية لا تنتهى بإقامة هذا التكافل[1]، بل لا بد من أن يجعله نظامًا سائغًا فى قلوب الكافلين والمكفولين، يرضون عنه، ويغتبطون به، ويرونه فى صالحهم على السواء؛ فإن المتبادر إلى الذهن أنه فى صالح من قعدت بهم الحاجة فقط. وهذا خطأ، فإن عضة الفقر على القلب تعدل عضة الحرص وحب المال؛ وتفسير هذا ميسور لمن يدرك أن حياة القلب فى الاشتغال بالله سبحانه وتعالى وحده وليست فى شىء آخر، وأن هلاكه فى انصرافه عنه، واشتغاله بغيره، وهذا الانصراف يتحقق بشواغل الفقر كما يتحقق بشواغل الغنى والمال، والعبرة بالنتائج لا بالمقدمات. فإذا وقف الداعية عند إقامة التكافل، وتيسير سبله ووسائله الظاهرة، فقد أقام نظامًا آليًا؛ قد يحلو فى قلوب الفقراء دون الأغنياء. وإذا صح هذا فى منطق المصلحين المحجوبين. فلن يصح فى منطق المصلح الإسلامى، الذى يرى بنور الله، ويتخذ القرآن دستوره وإمامه، والله تبارك وتعالى يقول: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾ [التوبة: ١٠٣]. أما الوقوف عند الفرض بالقوة والعنيف، فإنه يقيم الناس على ترقب الفرص المناسبة للانتفاض والعصيان والوثوب على النظام.

ومن حق الدعوة عليك، ومن حق الناس كذلك، أن تطيل النظر فى قوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾، فإنه قول جامع لكل ما يمكن أن يقال أو يعمل فى هذا الباب، فقد قال الله تعالى:

١ - ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً﴾ وهذا حق الفقير، وهو أمر القانون، وحكم السيف لا محالة.

---

(١) التكافل فى الإسلام نظام فطرى ضرورى، قوامه أن المال لله، وهو منه تعالى للجماعة يتواسون به فيما بينهم، وقد بسطنا القول فى ذلك بكتابنا «الثروة فى ظل الإسلام».

٢ - ﴿تطهرهم وتزكيهم بها﴾ والتطهير مرتبة، والتزكية مرتبة[1] أخرى فوقها، وكلتاهما فى غنى عن الشرح والبيان؛ وها هنا حق القلب، ولا يصل هذا الحق إلى القلب بمجرد أخذ الصدقة، بل بالأسلوب الذى تؤخذ به، وصرفها فى المصارف التى سُنَّت لها، وهو أسلوب الوعظ الرقيق، الذى يجعلها عبادة وقربة إلى الله سبحانه، ووسيلة إلى الدار الآخرة، وأسلوب النظام الذى يشعره أن الدولة راعية له، مسئولة عنه فى يسره وعسره، وأن أبناءه فى كفالة الإمام إذا هو مات عنهم ولم يترك لهم شيئًا، وإنها لكفالة رحيمة لا قسوة معها، عزيزة لا ذلة فيها، كفالة ترقب الله فى الجميع، ولا تبغى لنفسها شيئًا من جاه أو منفعة مادية. أسلوب العدالة والمساواة فى الحقوق الإنسانية، بحيث يأمن الظلم ويشعر أن خير الدولة للجميع، لا لطائفة دون طائفة. . أسلوب السماحة فى البيع والشراء، والأخذ والعطاء، وتيسير المصالح، وهو أسلوب تسنه الدولة، لتجرى عليه معاملتها مع الناس، ويجرى عليه معاملات الناس بعضهم مع بعض، فلا طمع، ولا استغلال، ولا ربا، ولا غرر، ولا شىء مما تؤكل به أموال الناس بالباطل، وإنما هى السماحة العامة، التى تخرج الإنسان من حدود بدنه الضيقة، ودنياه المستعرة بجحيم المطامع والأزمات، إلى آفاق قلبه ونعيم الحياة الآخرة.

بهذا الأسلوب تلين القلوب، وتنحل عنها أقفالها، وتؤتى الصدقة ثمارها الاجتماعية والروحية.

٣ - ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾ وادع لهم بخير وأفض عليهم من نور قلبك وحنان نفسك، فإنه سكن لهم من الفتن والأحقاد والانتفاض على النظام.

ويلاحظ من ظاهر الآية الكريمة أن الضمائر فيها عائدة على أرباب الأموال والقادرين، وهذا معناه أن خير الصدقة مردود على المتصدقين، ونفعها عائد عليهم وحدهم. ويعضد هذا قوله تعالى: ﴿وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ﴾ [البقرة:٢٧٢]، فهم الذين نالهم التطهير، وهم الذين أصابوا التزكية، وصدقاتهم قد تقبلها الله سبحانه بيمينه، وهو يربيها لهم حتى تكون كل منها مثل الجبل؛ على ما ورد فى

(١) التطهير: التنقية من الآثام والصفات والعوامل النفسية الفاسدة الضارة. والتزكية: هى تنمية النفس - بعد تطهيرها - بالخيرات ونفائس المعرفة.

الحديث الشريف. أما الفقراء فماذا نالهم من هذا؟ رغيف.. ثوب.. درهم؟ هل تطهر الفقير بالرغيف والثوب والدرهم؟ ومتى كان المسكين قد تدنس حتى تطهره الصدقة؟ إن الذى تدنس حقًا هو الذى دخل حب المال قلبه، فأفسد عليه طمأنينته ونظام تقواه. أما الفقير فكل شأنه أن عقبة وقفت فى طريقه، أعنَّاه على اجتيازها، وأزلنا عنه ما كان يشغله بها.

ومن زعم أن أكل الرغيف، أو لبس الثوب، أو أخذ الدرهم، طهارة لآكله ولابسه، فليزعم إلى زعمه هذا أن الأغنياء أكثر الناس طهارة لكثرة ما يأكلون ويلبسون وينفقون!!

إن آخذ الصدقة فى الحقيقة هو الله تعالى، وهو سبحانه القائل ذلك بنفسه: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٤].

فهذا - كما ترى - توجيه فى فهم الآية يتفق تمام الاتفاق مع ظاهرها الذى لا لبس فيه، وهو بهذا يسبغ رداء الكرامة على الفقراء، ولا يجعل لأحد من المتصدقين فضلاً عليهم، فصدقاتهم دائرة بينهم وبين ربهم يطهرهم بها ويربيها لهم، ويضاعف أجرهم عليها. وهو من المدركات العالية فى كتاب الله سبحانه.

وقد يرى بعضهم أن يرجع الضمائر فى قوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ إلى الأغنياء والفقراء جميعًا، ويستأنس لرأيه، بأن المال مال الله، كما ورد فى القرآن الكريم، والجميع خلقه سبحانه، فهم شركاء فى ماله، لكل منهم حق معلوم ونصيب مقرر، كما ورد فى كتابه أيضًا. فالصدقة على هذا التوجيه تطهر الأغنياء من الشح وحب المال، ومن رذائل اجتماعية خلقية كثيرة، وتطهر الفقراء لا من الفقر ولكن من الذلة وعبادة أرباب المال. وكلا الفهمين يستند إلى كلام الله؛ وفى كل خير وبركة، والعبرة بالعمل، وفقنا الله سبحانه وتعالى إليه.

هذه خواطر رأينا تقييدها ونحن نتكلم عن المؤثرات التى تتصل بمعيشة الناس؛ فتبلبل أفكارهم وتعوقهم عن المضى إلى غايتهم الربانية. وقد رأى الداعية أن الإسلام قد رسم له كل ما هو أساسى وضرورى، فما عليه إلا أن ينفذ، أو إلا أن

يكون مشبوب الرغبة فى التنفيذ، منبعثًا إليه فعلاً بقوة الواجب، وخطورة المسئولية.

(ب) مؤثرات نفسية:

وهى عوامل ترجع إلى غرائز الإنسان الحيوانية، وأهمها كلها هنا غريزتا الجنس وحب المال، وكل منهما إذا ثارت بصاحبها عصفت بعقله، وفرقت همة قلبه، لتعبث به كالريشة فى مهب الريح. ولا بد لانتظام سير الإنسان أو لانتظام سير قلبه إلى الله، من معالجة جموح هذه الغرائز، وتلطيف حدتها وثورتها. وليس معنى هذا محاربتها واستئصالها بل الغض من عنفها واصطراخ شياطينها فى القلب، حتى تغدو مهذبة نبيلة. ولا يكون هذا إلا بعلاج طبيعى قبل كل شيء، علاج يمس طبيعة البدن، ويؤثر فى مزاجه الحيوانى. وهذا بعض الأغراض الحكيمة التى شرع الله من أجلها فريضة الصيام، ففيها هدهدة لعنف غرائز البدن، وكفكفة لقواها الثائرة، ولقد ترى من هذا شيئًا فى قوله عليه السلام: «يا معشر الشباب، من وجد الباءة منكم فليتزوج، فإنه أغض للبصر، وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء[1]».

وداعيتنا لا هيمنة له على سرائر الناس فيعرف من صام ومن لم يصم، فالصوم سر بين العبد وربه، ولا سبيل لأحد أن يعرف شأن غيره إلا إذا رآه يستعلن بالإفطار. ومعنى هذا أن كثيراً من الأفراد قد يتحللون من هذه الفريضة الكريمة وتبقى غرائزهم على ما هى عليه من العنف والتنزى، تهدد هذا فى ماله، أو ذاك فى عرضه، وقد أعد الإسلام لهذا الاحتمال عقوبة صارمة حازمة تقمع لفورها شياطين الفتنة وتريح القلب من اصطراخها وبلبلتها، فللسارق قطع يده، وللزانى جلده أو رجمه حتى يموت.

وما على الداعية إزاء هذا النظام العملى لعلاج الغرائز إلا أن يكون حازمًا فى تنفيذه، لا تأخذه شفقة فى دين الله بمجرم أو مجرمة، حتى يستقر أمن الناس على أعراضهم وأموالهم، وحتى تنقمع شياطين الغرائز فى قماقمها؛ فيصفو الأفق حول القلب، وينصرف إلى دار سلامه ومعين حياته.

(1) مأخوذة من وجأه؛ إذا ضربه فى عنقه.

(جـ) مؤثرات اجتماعية:

وهى عوامل ترجع إلى العادة والعرف فى تقدير قيمة العرض والعفة والفضيلة، وأبرز ما فى هذا الباب: تبرج النساء، واستعلان الناس بما يأتون من منكر، وليس من قصدنا هنا أن نحدثك بما يجرى فى الشوارع أو يدور فى حلقات الرقص، ومجالس الخمر، وتنشره الصحف والمجلات على أنه من آيات الرقى وسمات التحضر، وإنما نريد أن نذكر أن هذه العوامل مما يقطع على القلب طريقه، ويفسد عليه هدوءه وطمأنينته. والنظرة سهم مسموم وهى بريد الشيطان إلى القلب، والمرأة إذا خرجت استشرفها الشيطان، وما ترك رسول الله ﷺ بعده فتنة أضر على الرجال من النساء. وهذا ما نحذر منه دائمًا، لأنه الهلاك، كما تقرر فى غير موطن. ومطلوب إلى الداعية أن يعمل بكل ما يستطيع من الوسائل على تطهير البيئة من كل فساد يضر بحياة القلب، وقد فتح له الإسلام الباب، فنهى عن التبرج، وشرع لشارب الخمر عقوبته، ثم ترك له أن يتم تطهير البيئة بما يحضره من سلطان روحى، أو نحو ذلك مما استحدث فى العصر الحديث. وعندنا غير التبرج صحافة خليعة وملاهٍ لإثارة أحط الغرائز، وصور تلصق على جدران الشوارع للفتنة والإغراء، فليعلم الداعية أنها من أعدى أعدائه، وأن القضاء عليها من أهم واجباته.

وقد وفدت علينا من الغرب سخافة رقيعة، تدعى أن المرء حر فى حياته الخاصة، يفعل بها ما يشاء، وليس للناس إلا أن ينقدوا أخطاءه فى صلته بالجمهور، وخدماته العامة. وقد قبل أهل الشهوات والمفتونون منا هذه السخافة، وتبعهم عليها كثير من الجماهير، فإذا عبت على فلان أنه يشرب الخمر، أو يلعب القمار، أو يراقص الناس، أو... أو... قيل لك: هذه أمور شخصية لا يصح لك أن تتكلم فيها، فإذا أردت أن تتكلم، فانقد مشاريعه، وتصرفاته العامة، وآراءه فى السياسة أو الأدب أو الاقتصاد أو نحو هذا. فليدخل الداعية هذه السخافة فى حسابه، فالمرء كله وحدة متماسكة، بحياته الخاصة والعامة، ولا صلاح لإحداهما بفساد الأخرى، ومن الجحود للفضيلة أن نزدريها ونخذلها بقبول هذه الرذيلة

السمجة. ولسنا مكلفين مناقشة هذه الحماقة، وإقناع ذويها بالبرهان، فليس بعد أمر الله ونهيه مجال للتردد والجدل، فقد أمر وكفى، وليس فى المقام إلا إنزال العقوبة الصارمة التى تردع السادر، وتوقظ الغافل، وتقيم الجميع على شرع الله، فى جد واعتدال.

والآن: أين نحن من فصلنا هذا؟ لقد تقرر أن واجب الداعية - بعد معرفة الغاية - ينحصر فى إحياء القلب، وجعل طريقه إلى الله سهلاً هادئًا مأمونًا، لا يعتريه فيه ما يطفئه أو يخمده. وذكرنا أن هذا يتحقق بأمرين:

١ - دوام التذكير.

٢ - إحاطة المرء ببيئة ذات أوضاع فاضلة، تقيه هموم الأزمات الاقتصادية، وتهذب غرائزه الحيوانية، ويقوم العرف فيها على استهجان الرذيلة ورعاية حقوق الفضيلة.

أما التذكير فغير مستطاع فى البيئات الفاسدة، أو قل على الأصح: إنه لا جدوى له، فالمجتمع إذا فسد تبلبلت فيه الآراء، ومضى أفراده يعجب كل منهم برأيه، يعبد هواه، ويذهب مع ما يسمونه الحرية الشخصية إلى أبعد مدى مستطاع، فماذا ينفع التذكير فى هذا المحيط؟ البيئة الفاسدة تدعو إلى الإباحة والانطلاق، فما لم يكن فى يد المذكِّر سلطان يأخذ به الجامحين، فإن أمره يكون أقرب إلى العبث منه إلى أى شىء آخر. ومن هنا يجب العمل أولاً على إيجاد البيئة الفاضلة ذات الأوضاع الصالحة.

ولقد ذكرنا ما جاء به الإسلام من قواعد هذه البيئة، فما على الداعية المصلح إلا أن يشرع فيما يريد، عليه:

١ - أن يدخل فى بيئته ما يريد من المبادئ الخلقية والأوضاع العملية.

٢ - وأن يعدل ويصلح ما لا يعجبه منها.

٣ - وأن يزيل ويستأصل كل فكرة أو وضع يعارض الحق الذى ينشده.

هذا هو الترتيب الطبيعى، وإلا فإن وعظ الواعظين وخطب المذكِّرين لا تمكث مع الناس إلا ريثما يخرجون من معابدهم، حيث يطغى على العقول والقلوب سيل مما يصنع الشيطان وجنوده فى الحياة.

• وجوب معالجة العقبات بالرفق:

قال أحد الإخوان: هذا كلام معقول، ولكن تحقيقه من الصعوبة بمكان، إذ كيف يتأتى للداعية أن يتصرف فى أوضاع بيئته هذا التصرف؟.. إن العقبات أمامه كثيرة: فهناك العرف الذى استمرأ ما هو عليه، وهناك ثقافة مغرورة مفتونة لا تعترف بدعوتك، وهناك قوانين لها معك حساب عسير إذا قمت تتحداها، وهناك من لهم مآرب خاصة فى حماية الأوضاع الفاسدة، فلن يدعوك لتحرمهم حظوظهم منها. فكيف السبيل إلى ما تدعو إليه؟

فقال له صاحبه: نعم، السبيل واضحة جلية، وإن كانت شاقة بعيدة المدى. السبيل أن تدعو الناس إلى ما تريد، وتحذرهم ما هم فيه، وتبين لهم خطأ ما هم عليه، ثم تنظر إلى العقبات، فتسوس كل عقبة بما يفتيك به قلبك وما يحضرك من أمر الله. لا تنتظر يا أخى أن أرسم لك خطة، فليس الداعية آلة تنفذ ما يراد لها، إنما هو قلب حى، وفكر يقظ، جاءه الرسول بالمنهاج الكامل، وأمره أن يستهدى فطرته فى تفاصيل التنفيذ، ويستفتى قلبه فيما يعِنُّ له، وإن أفتاه الناس، وأفتوه. واعلم أنك بالغ بأمر الله ما تحب، ما لم يعجلك شىء عن أناتك وحِلْمك.

• مثال لنجاح الأسلوب اللين:

واعلم أن مَثَلَ الداعية القوى المؤمن كمثل السيل المنحدر من شواهق الجبال، فيه منه قوة الاندفاع، وفيه منه للناس سر الانتفاع، ولكن السيل لا يعجل إلى العقبات أو الهضاب فيمزقها، بل يدور حولها ويحيط بأطرافها، ويمضى إلى ما خلفها، ويتركها معزولة عما عداها، ثم يعلو ماؤه ويغزر فيضه، فيرتفع على جوانبها بالتدريج، حتى يغطى قممها، ويخضع لسلطانه رءوسها الشامخة. فإذا كنت لم تفهم هذا المثل، فرسالتك قد نزلت من السماء لا من الجبل، وسر اندفاعها وانتفاعها فى قلبك أنت لا فى جهة أخرى، وأنت الذى يجب أن تسبح بدعوتك فى كل مكان، فإذا صادفتك عقبة من قانون عتيد، أو شخصية طاغية، فلا تعرض لها بغير ما يعرض لها السيل؛ ادعها بالحكمة والموعظة الحسنة، ولا تقف عندها،

فذلك خرق وجهل، بل افعل ما يفعل السيل؛ در حولها، وامض فى سبيلك إلى ما وراءها، وادع الناس إلى جانبك، حتى تغدو منعزلة عما عداها، ويقنعها الواقع بقوة أمر الله أو يغيبها أمر الله عن الأنظار.

وسر ذلك - قطعًا - إلى الطبيعة التنفيذية الموفقة، ولا نستطيع تحليل هذا السر، ولكنا نستطيع أن نشير إلى مظاهر نجاحه وتوفيقه فى محيط الدعوة الخارجى؛ ونشير كذلك إلى بعض الخصائص النفسية التى تلازمه ولا تنفك عنه.

• دعائم النجاح فى المحيط الخارجى:

١. الحركة:

ولقد قلنا إن الطبيعة التنفيذية سر مشبوب لا مدى لقواه الهائلة، ومن شأن هذا أن يجعل صاحبه حركة دائبة لا يكف عن الدعوة، ولا يخمد عن العمل: يزور هذا، ويدعو ذاك، ويتحدث إلى آخر، ويدور على الأندية والمجالس، ويقيم الولائم، ويدعو إلى الحفلات، ويتحدث إلى كل من يقابله. فإذا وفدت وفود الناس فى المواسم أو غيرها، فهى فرصة حسنة متاحة، للقائهم وعرض دعوته عليهم. وهو لا يقر فى مكان، بل لا بد له من التنقل فى المدن والقرى، والمغايرة بين البدو والحضر، لا يخلد إلى راحة، ولا يركن إلى دَعَة، فراحته فى تعبه، وسعادته فى دعوته.

أتظن هذا يا أخى يكون بغير تلك العاطفة القوية، أو بغير هذا السر الإلهى المشبوب؟

لا يقل أحد إنى لا أملك هذه العاطفة، فإن كل راغب فى الخير يمكنه أن ينهض، وأن يتحرك، وأن يذهب ويجىء، حتى ينقدح زنده، ويمور باطنه، والحركة تلد الحركة، والهمة تدفع الهمة بإذن الله. أما دعاة المجالس الراكدة، والكراسى الجامدة، والكلمات التى لا تكلفهم إلا حركة اللسان، فنسأل الله لهم حسن التوجيه، وأن يخرجهم من إثم ما هم فيه.

٢- الإيغال بالدعوة فى صميم حياة الناس:

ومن أول هذا النجاح أن يمعن الداعية بدعوته إلى صميم حياة الناس، إذ ليس كل من تكلم داعية، وليس كل من غدا وراح وذهب وجاء ناجحًا فى دعوته، إن النجاح كل النجاح أن تدخل دعوتك فى صميم حياة الناس، وأن تسكبها فى قلوبهم وأعصابهم، أما أن تبقى على هامش الحياة فلا. إن نجاحك أيها الأخ، أن تجعل دعوتك مسألة حيوية حارة، يتحدث بها الناس فى مجالسهم ومنازلهم، مع أصدقائهم وأهليهم. تأمل هذا جيداً، فليس النجاح حفلة تقام أو خطبة تقال، أو رحلة تشق فيها كثيراً من القرى والأمصار.. النجاح أن تكون الدعوة هى مسألة الساعة فى حياة الناس: يلقى الرجل أخاه فلا يحدثه إلا عنها، ويزور الصديق صديقه فتكون أقرب المسائل إلى حديثهما، ويسمر السامرون فيدور جدلهم حولها، كما هو شأن الناس فيما يشغلهم من المسائل العامة كل وقت.

هذا معنى اشتغال العقول والقلوب بالدعوة، وليس ضروريًا أن يتناولها الجميع فى استحسان وإعجاب وتأييد، وإنما المهم أن يتحدثوا عنها فى اهتمام وكفى؛ فإذا رأيت منهم الخصوم والموالين هؤلاء يعارضون ويحتدون فى معارضتهم، والآخرون يؤيدون ويتحمسون فى تأييدهم، فذلك من صميم النجاح. وقد آمنت القلة من أهل مكة برسول الله ﷺ، وكفرت الكثرة العظمى، ولكن الدعوة كانت هى المسألة الحاضرة فى المجتمع المكى كله، تشغل أذهان المؤمنين وغير المؤمنين على السواء؛ وكان الداعية الأكبر صلوات الله عليه لا يكف عن الدعوة ساعة من نهار، وكان المتحدثون لا يكفون عن الخوض فى حديثها ساخطين أو راضين، وكان الأذى لا يفتأ ينصب على المؤمنين: أذى اللسان، واليد، والسوط، والنار، والحراب، وكان الإغراء يبذل بسخاء لمن يرتد منهم عن دينه: إغراء بالمال، أو السلطان، أو زواج الجميلات الشريفات، أو غير ذلك، وكان الآباء والأمهات يستعطفون أبناءهم، ويتوسلون إليهم بكل وسيلة ليرجعوا عن شأنهم الجديد، وكان الجدال والشقاق والخصام يدخل البيوت، فيفرق بين القلوب ويباعد بين الأحبة.. كان ذلك كله وكان هو النجاح بعينه؛ لقد جد الداعية صلوات الله عليه

وعمل ونَصِبَ حتى أدخل دعوته فى صميم الحياة، ولم يبقها خافتة على الهامش الخامل، وحسب دعوة الحق نجاحًا أن تنفذ إلى «لب حياة الناس»؛ حياتهم العاطفية والعقلية، نفوذ عداء أو نفوذ ولاء. لا نقول هذا، لتقف من الآن للناس موقف العداء، لتحملهم على معارضتك فيكون هذا آية نجاحك، فلا بد من الحكمة والموعظة الحسنة. . لا تجعل أحداً يخاصمك لعيب فى أسلوبك الخاص، وطريقة معاملتك، بل دع الذين يخاصمونك يخاصمونك فى جوهر الدعوة نفسها، فإنهم حينئذ لا يخاصمون إلا الحق، والحق لا يبغى أكثر من الدخول فى قلوب أوليائه وأعدائه، فإن هؤلاء الأعداء لا يعادونه إلا بعد أن يعرفوه، ولا يرفضونه إلا لأنه يحرمهم جاهًا أو متعة استباحوها، أو لنحو ذلك من الأهواء والاعتبارات الطارئة على الناس. . لا يرفضونه إلا لداع وقتى، فإذا تغيرت الظروف وزالت هذه الدواعى الوقتية، لم يبق فى القلب إلا شىء واحد، هو الحق الساكن فى منزلة العداء، فيتحول حينئذ فى غير كلفة إلى منزلة الولاء.

أما الجهد الذى يقف بدعوته على الهامش، فهو جهد الأموات الهازلين أو المرائين، ممن لا إيمان لهم بأنفسهم ودعوتهم، وليس من المعقول أن يشتغل الناس بدعوة لا تشغل صاحبها.

أيها الأخ اجعل مثلك الذى تقتدى به فى التبليغ هو رسول الله ﷺ، اهتم بدعوتك، وانصب لها نفسك فى محيطك، فى قريتك أو مدينتك أو أمتك، واقتحم بها إلى كل مجلس وناد، وتحين لها كل فرصة سانحة، وتخير لأحاديثها ما يلقى الناس من كوارث الطاغوت وآلامه، ولا تجعل كلامك مقصوراً على الجنة والنار، والبعث والحساب والقلب والبدن، بل بث ذلك بثًا فى ثنايا حديثك عن شذوذ الأوضاع، وبلايا المطامع، وفساد الأخلاق، وضحايا الطغيان والطاغوت، ولا تكف عن الكتابة والخطابة والحديث والسعى؛ حتى تحيا دعوتك فى قلوب من يفزعهم أمرك أو يرضيهم، ويشتغل بك الجميع فى حضورك وغيابك.

وهذا سر من أسرار الطبيعة التنفيذية، يكون به الداعية جاداً غير لاعب، شجاعًا غير خائف، عمليًا غير خيالى، ممتزجًا بآلام الناس وآمالهم، مغنيًا لهم بالنغم الذى يفزع ويطرب، ويرضى ويغضب، ويقيم ويقعد!! وإلا فما معنى أنه

سر موكل بإنفاذ الرسالة إلى الحياة إذا هو لم ينفذ بها إلى قلوب الناس وصميم شئونهم.

٢ـ التجميع:

وهناك أمر ثالث، تلتفت إليه الطبيعة التنفيذية الناضجة، ألا وهو «التجميع»؛ أى تجميع من يقبلون على الدعوة بالولاء والتأييد. ولا يكون هذا نتيجة تفكير عقلى أو اجتهاد نظرى، إنما هو شعور من القلق، لا يطمئن معه الداعية على هؤلاء المؤيدين أن يتفرقوا بلا نظام فى بيداء الحياة.

وليس من قصدنا أن نذهب إلى التحليل النظرى لعناصر هذا الشعور الذى يحفز الداعية إلى «التجميع». وليس من قصدنا كذلك أن نتحدث عن مزايا الجماعة إذا تجانست عقائدها وتلاقت ميولها على خدمة مبدأ معين، ولا أن نسوق لك ما سنَّ الإسلام لتجميع أفراد المسلمين من صنوف كثيرة من العبادات، ولكنا نريد أن نذكر أن كل جهد يبذل فى الدعاية دون أن يقترن بالرغبة فى التجميع أو دون أن يعقبه التجميع فعلاً، فهو جهد نظرى لا يلبث أن يزول أثره بعد حين قريب أو بعيد.

وهذا معنى نلمحه فيما رواه الإمام مسلم فى صحيحه عن رسول الله ﷺ قال: كان رسول الله ﷺ إذا أمَّر أميرًا على جيش أو سرية أوصاه. . . إلى أن يقول له: «وإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى ثلاثة خصال أو خلال، فأيتهن ما أجابوك فاقبل منهم وكُفَّ عنهم: ادعهم إلى الإسلام فإن أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم، ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين وأخبرهم أنهم إن فعلوا ذلك فلهم ما للمهاجرين، وعليهم ما على المهاجرين. . . إلخ».

فأنت ترى أن الرسول عليه السلام يهتم بأن يدعو من يسلم إلى أن يتحول إلى دار المهاجرين «المدينة المنورة» فلماذا؟

عليك أن تفكر وأن تستخرج المزايا العملية لهذا «التجميع» الذى يجمع المؤمنين ويركزهم حول قطبّ الدعوة الأعظم صلوات الله عليه.

ولا نريد أن يكلف الداعية فى العصر الحديث أنصار دعوته أن يتحولوا عن

قراهم ومدنهم ليقيموا من حوله، وإنما نريد أن نثبت الأفكار حول مرامى هذا التجميع الذى كان يبغيه عليه الصلاة والسلام، فإن رأى الداعية وأنصاره من أنفسهم الرغبة فى تحقيقه، فليجتمعوا فإنه طريق النبى عليه السلام، وإلا فإن سهولة المواصلات البريدية، والبرقية، والجوية، والبرية، ونحوها، مما يحقق للدعوة هذا التجميع بانتقال الداعية إلى أعوانه حيث يقيمون، انتقاله بشخصه أو بآرائه وتوجيهاته، على أن يكون له فى كل مكان جماعة تمثل نفوذه وتعمل صادعة بأمره.

وكان الرسول عليه السلام يعذر من لم يستطع الهجرة إليه والتجمع حوله، فكان يرسل إليهم من يقوم فيهم بالدعوة مقامه، ويجمعهم على أمر الله.

ولقد قامت منذ قريب دعوة إصلاحية دينية، وكانت قوية بقوة من نادوا بها ودعوا إليها، فأين هى الآن وأين آثارها؟

إن عهدنا بها قريب، ولا زال الجيل الحاضر يذكر رجالها بالثناء والتعظيم، ويحلهم محل الإمامة والأستاذية والصدارة، فماذا أثمرت هذه الدعوة؟ إن رجال هذه الدعوة لم يعوزهم العلم، ولا الجاه، فقد كانوا فى الذروة من هذين، ولكنهم لم يفطنوا إلى سر «التجميع»، فلم يهتموا أن يقيموا لهم جماعات[1] تمثلهم، وترعى دعوتهم فى المدن والقرى.

حقًا لقد اجتمع حول هؤلاء كثير من رجال القضاء والمحاماة، وكبار الموظفين، والكتاب والأعيان، والأغنياء، وبعض رجال الحكم! ولكنه كان اجتماعًا لا تجميعًا، وكان فوق هذا اجتماعًا يسوده معنى إعجاب التلاميذ بعبقرية أستاذهم، لا معنى الجندية فى الجنود الناهضين بطاعة قائدهم. كان هؤلاء الأنصار ما بين مأخوذ بعلم الأستاذ وذكائه، أو واقع تحت تأثير شخصيته القوية، أو راغب فى مزايا الجاه الذى يتمتع به الإمام، وقليل منهم من كان راغبًا فى الإصلاح حقًا.

كان الدعاة مقتصرين على الجهر برغبات الإصلاح، ولم يعملوا على تنظيم آثار هذه المجاهرة فى البلاد.

ولو كنت بصدد ذكر الأسباب المختلفة لعدم بلوغ هؤلاء الرجال العظماء إلى

(١) المعروف أنهم حاولوا ذلك التجميع، ولكنهم قعدوا عنه لما اعترضهم من عوامل وعقبات.

أكثر مما بلغوا بدعوتهم، لَقلتُ إنهم على فضلهم وقوة اعتصامهم بالله ذهبوا فى الدعوة مذهبًا عقليًا لا وجدانيًا، فكانوا يعولون كثيرًا على ثمار العقول لا القلوب، ويعنون بتنبيه الأذهان بالدروس العلمية، والمقالات العصرية، لا بإثارة خصائص الإيمان، وكانوا يحسنون الظن بالنهضة العصرية فصرفتهم عن إيقاظ الحقائق الروحية. وبالجملة كانت البلاد جسمًا هامدًا، فدبت الحياة على أيديهم فى رأسه، فاستيقظ الذهن، وهتف اللسان، أما القلب فلم ينبض، وأما البدن فلم ينهض؛ ولو شئنا لقلنا: إنهم لم يذهبوا إلى كل مكان فى البلاد، ولم يدخلوا بدعوتهم فى صميم شئون الناس على النحو الذى قررناه سابقًا، فلم يهبطوا إلى قرارة المحيط، طلبًا لما رسب فيه من معادن القوى الشعبية، وظلوا فوق اليم، يجمعون ما يطفو لهم من جيد وردئ.

ولو شئنا لقلنا غير هذا، ولكنا لسنا بصدد شىء منه، وإنما نحن نقرر أن التجميع أمر لا بد منه، فهو الخطوة العملية التى تضع فى يدك ثمر ما بذلت من جهود فى الدعوة، فإن لم يكن تجميع، كنت كالصياد الذى ألقى شبكته فى الماء، ثم رمى خلفها بحبالها، وخلاَّها فى اللُّجة يتسرب الصيد من خلالها. كنا نقرر هذا ونستشهد له بما ورد فى السنة المطهرة، وبما تعرضت له دعوة هؤلاء الأئمة الأعزة، بسبب انصرافهم عنه، ففاتهم الصيد المرموق، وظلوا قادة بلا جند، وظل الشعب جنداً بلا قادة.

• أصول التجميع:

وما دمنا بصدد التجميع، فلا بد أن نذكر أن الدعوة إنما تنتصر بقلوب من يؤمنون بها لا بأموالهم، ولا جاههم، ولا قواهم البدنية، فإذا أقبل عليك إنسان فلا عليك أن يكون غنيًا أو فقيراً، سيداً أو سوقة، فحسبك أن ظفرت منه بقلب، فالدعوة بذرة مباركة، لا تينع إلا فى تربة القلوب المؤمنة، وحذار أن تخدعنا المظاهر أو الألقاب العلمية وغير العلمية، وحذار أن تفرط فى شخص ما، مهما يبدُ لنا أنه تافه الرأى، فإن لكل شخص مزية، وإن الله سبحانه أعدل من أن يخلق شخصًا ما دون أن يسلحه بمواهب جليلة، والعبرة بحسن الاهتداء إلى هذه المزايا

واستخراجها والانتفاع بها، وقد يكون لأحد هؤلاء من المواقف ما لا يبلى فيه غيره بلاءه، فاشغل كل واحد ممن حولك بعمل، وأعط كلاً ما تميل إليه نفسه ليشعر أنها دعوته وأنه منها وهى منه، واستغل كل قوة وموهبة. وأخرى أريد أن أنص عليها: اقبل فى جماعتك كل من يعطيك من ظاهر أمره الاستعداد للعمل معك والاستقامة على أمر الله،وليس لك أن ترده بحال من الأحوال، اجتهاداً منك فى أنه مقيم على المعصية، فإنك لم تشق عن قلبه، ولا تحتج عليه بماضيه، فعسى أن يكون قد أحدث توبة بينه وبين الله، وكل ما عليك أن تتعهدهم من آن لآخر بالنصيحة والموعظة، وأن تأخذهم بتنفيذ تعاليم الرسالة وتطبيقها على أنفسهم فى غير هوادة.

على أن تلاحظ فى تجميع هذه القوى والمواهب، أو فى تأليف هذه الجماعات، أن يسودها معنيان أساسيان:

الأول: النظام:

فلا بد من الرجوع إلى قانون وأمير. أما أن يركب كل شخص رأسه فيعمل كل ما يخطر بباله، ويدخل فيما لا يعنيه ويتصرف فيما ليس من اختصاصه، فتلك هى الفوضى التى تنذر كل جمع بالشقاق والانحلال. وخير مظهر للنظام الطاعة الدقيقة، التى لا تردد معها، ولا حرج فى تقبلها. وليس من همنا هنا أن نتكلم عن مزايا الطاعة، وآثارها فى نظام كل جماعة، ولا أن نورد كل ما ورد عنها فى الكتاب والسنة،. ولكنا نحب أن ننوه أن الطاعة لا تجرح العزة، ولا تهدر الكرامة بحال من الأحوال، فليحذر الناس هذا، وليعلموا أنه من مداخل الشيطان لهدم الجماعات، وتفريق كل شمل ملتئم. إننا نعمل لله، والله لا ينظر فى تقدير الأعمال إلى مناصب أصحابها، ولكن إلى صدق النية فى ابتغاء وجهه سبحانه. وقد يتقبل الله من أهل الصف الأخير ما لا يتقبل من أهل الصدارة والإمارة، وإنما شرع الله الطاعة لتكون نظامًا ينعقد به الجمع، وتتوجه به الأعمال، فما تحقق لنا هذا المعنى فهى الإمارة الرشيدة، ولو وليها عبد حبشى، وما لم يتحقق فهو الهدف الذى يجب أن تسعى الجماعة لتحقيقه. أقول هذا لا لنستحسنه نظريًا وعقليًا، بل

لنستحسنه عاطفيًا قبل كل شىء، ونجعل أعمالنا مصدقة له محققة لثماره المباركة. ولنذكر دائمًا أن القليل المتجمع خير من الكثير المتفرق، وأن الاجتماع والائتلاف على بعض الخير أو بعض الحق خير من الجمع الذى يتفرق أعضاؤه وكل منهم يرى أنه وحده على الحق، فيجب أن نحقق ثمر الطاعة أولاً، ثم ننظر بعد هذا فى شأن الإمارة، فإذا كنا ننقم منها أنها لا تتمتع بحسب أو نسب أو جاه أو نحوه، استعذنا بالله، وطرحنا هذه الأهواء جانبًا، وإذا كنا ننقم عدم الخبرة، وسوء التصرف، والاضطراب فى العمل، أو الذهاب مع الأهواء الذاتية، عالجنا الأمر بالحكمة، والحكمة هنا هى الحرص التام على سلامة الجماعة، فإذا أنذر العلاج بالتصدع كان من الجريمة الاستمرار فيه.

الثانى: الإخاء الفاضل:

فيجب أن يسود هذه الجماعات ما يسود الأخوة الموفقين، وأهم عناصر الإخاء: الحب، والمساواة، والتعاون على الخير فى السراء والضراء. فإذا رأيت إخوة غير متحابين، فقد دخل عليهم أمر أفسد ما بينهم، وإذا رأيتهم يفاخر بعضهم بعضًا بجاهه، ويكاثر بماله، ويتعالى عليه بمنصبه، فهو شذوذ لا يجرى عليه أمر الأخوة، وإذا رأيتهم يتثاقل بعضهم عن بعض فى المعونة، فاعلم أن أواصر القلوب متقطعة.

ونوصى هنا بخصلتين كريمتين كبيرتين:

الأولى: خفض الجناح:

وأعنى به انكسار الأخ فى هذه الدعوة الربانية لأخيه، مسايرة للقول الطيب المأثور: إذا عز أخوك فهُنْ. ونحن إذ نوصى بهذا نرجو أن تتخذه كل جماعة دستورًا عمليًا لها.. عمليًا لا نظريًا، فإن الآفة هى انصراف النفس عن إساغة مثل هذه المبادئ الكريمة. فلو أننا رضنا أنفسنا على إساغتها وتجرعها، فقد انتصرنا نصرًا عظيمًا، وأذللنا شيطانًا مريدًا كان ينفخ فى الأوداج بما يسميه العزة والكرامة والانتصار للنفس. ولأمر ما قال رسول الله ﷺ: «وما من جرعة أحب إلى الله

من جرعة غيظ يكظمها عبد، ما كظمها عبد لله إلا ملأ الله جوفه إيمانًا يجد حلاوته فى صدره».

فإذا أخذنا أنفسنا فيما بيننا بسياسة الذل لإخواننا، ولو فى حالة البغى، رجونا أن يكون ذلك ماحقًا لأسباب الفرقة والتقاطع.

وبدهى أن هذا الذل الذى نوصى به، ليس ذل الضعيف للقوى، ولا ذل الفقير للغنى، ولا ذل المتخلفين فى نسبهم لذوى النسب والجاه، ولا ذل الرجل لعدوه حين ينزله حكم القهر على الاستكانة.. ليس الذى نوصى به شيئًا من هذا، فهذا كله من الرجس الذى نبرأ إلى الله تعالى منه ومن الآخذين به، وإنما هو ذل المؤمن للمؤمن والأخ لأخيه، ومن تنتظمهم دعوة الإصلاح الإلهى فى رباط المساواة، هؤلاء هم الذين يجب عليهم أن يتعاطوا هذا الذل فيما بينهم، فإن لم يتعاطوه فهم آثمون، عاملون بيد الشيطان فى هدم دينهم، وإن زين لهم الشيطان أنهم على الجادة الواضحة المستقيمة، فإن فساد ذات البين هى الحالقة التى تحلق الدين، وتذهب بمعالمه. فإذا كان لا بد لأحد أن يرى حظه من العزة، فلينظر إلى ممثلى البغى والعدوان والطاغوت: أى موقع يقعون من نفسه، فإذا وجد بغضًا ينهضه إلى الوقوف فى وجوههم، فذلك هو العزة الصحيحة. وإذا وجد غير ذلك فليعلم أنه ذليل، ولو انحنت أمامه رقاب وهامات، وهذا هو المعنى الصريح لقول الله تعالى: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤]، فهو ذل الرحمة والرغبة فى استبقاء الأخ إلى جانبك، وهو كذلك ذل يحمل معنى الاستعلاء، ولأمر ما عدَّاه الله بأداة العلو فقال: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾، ومضى إلى الغاية فقال: ﴿أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾. أما حين ينقلب الأمر إلى عكس هذا، فقد انقلب إلى حال من الشذوذ لا يرجى معها صلاح.

كِبرًا علينا وجُبنًا عن عدوكم   لَبئستِ الخَلَّتانِ الكِبْرُ والجبنُ

ولا يظن أحد أن انكسار المرء لأخيه قد يغرى المعتدى بالاسترسال فى بغيه أو حدته، فليس هذا من القوانين المطردة، وقد قرأنا أن أبا ذر رضى الله عنه هفا مرة نعيّر بلالاً بسواد أمه، فسكت عنه بلال، فندم أبو ذر، وألقى بنفسه على الأرض وأقسم لا يرفع رأسه حتى يطأ بلال خده بقدمه، ولم يرفع رأسه حتى فعل بلال ما

أقسم عليه صاحبه.

أيها الناس: اعلموا أن الرسول عليه السلام يقول: «المؤمن كالجمل الذلول» فمن أراد منكم أن يكون رجلاً عزيزًا، فليتعلم أن يكون جملاً ذلولاً، وليضع مثال أبى ذر وبلال بين عينيه. أما الهوس والعنف، وأما الشدة والحدة، وأما المسارعة بالرد الغليظ والكلام الجافى، فهو لا محالة شأن الحمقى الفارغين الذين لا تقوم بهم رسالة ولا يناط بهم أمل، قد خلت رءوسهم من التمييز والنظر فى عواقب الأمور.

الثانية: ترك المراء:

وليس من قصدى أن أسترسل فى بيان المراحل التى يمضى فيها الجدل، حتى ينتهى إلى حقد وبغضاء، وتدابر وتقاطع، وإنما ندل الأخ على ربح قيم مضمون، فقد قال رسول الله ﷺ: «إنى زعيم - أى كفيل - ببيت فى وسط الجنة لمن ترك المراء وهو محق، وببيت فى أرباضها لمن تركه وهو مبطل»، فإذا كنت ترى أن الحق معك أو عليك فاعلم أن الرسول عليه السلام يمد يده «بهذه الضمانة» يقول لك: إن هذا البيت خير لك من استمرارك فى الجدل، فلينظر المرء هل يرفض يد رسول الله ويرد عليه كفالته؟ إن قال: نعم، فلماذا يبقى مع السائرين تحت لواء هذا الرسول؟ وإن قال: لا، فليقذف بالمراء وأسبابه فى وجه الشيطان، وليغنم ما تقدم له يد الرسول صلوات الله عليه.

المراء روح خبيث شرير، شديد الأثر فى محق المحبة، وهدم الجماعة، والجماعة من لب الدين، والفرقة من صميم الشرك، ورسول الله ﷺ يقول: «إن أول شىء نهانى عنه ربى بعد عبادة الأوثان المراء»، وليس مما يشق على نفس الإنسان أن يترك المراء ولو كان محقًا.. قد يقول قائل: إنه الرأى، وإنه الحق تجب المناضلة عنه حتى يظهر. ونقول: لكل رأيه، فليعمل به لخاصة نفسه إن رآه حقًا، وإن رأيك يا أخى ليس أغلى ولا أعز من الجماعة، فإن الله تبارك وتعالى يقول: ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى الأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ [الأنفال: ٦٣]، فانظر المقابل الذى ستخسره الجماعة بتحقيق رأيك وإظهاره. وأحب أن أقول أخرى: إن الحق الذى

يختلف فيه هو حق قليل الضوء خافت النور لكثرة ما يلابسه من أخلاط الباطل، ولا ضرر من إرجاء البحث فيه، أو العدول عنه، اكتفاء بالحق الذى لا خلاف عليه، ولا جدال فيه. واشتغال الناس بما ظهر لهم من الحق أكفل لسعادتهم وأهدى إلى سبيل ربهم.

تلك هى دعائم نجاح الداعية، ومظاهر توفيقه فى المحيط الخارجى، أما الخصائص النفسية التى قلنا - فيما مضى - إنها تلازم سر الطبيعة التنفيذية ولا تنفك عنه فهى:

• الصبر:

فقد ابتلى رسل الله صلوات الله عليهم وسلامه بعقبات، وأوذوا وهددوا بالقتل والنفى، وغيرهما من ألوان العذاب، فكان العلاج الأكبر الذى عالجوا به أمرهم هو الصبر.

﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأنعام: ٣٤].

وما نرى الله عز شأنه أوصى رسله بشىء أكثر مما أوصاهم بالصبر، وليس معنى الصبر هنا الاستكانة والذلة، والقعود عن الدعوة، والكف عن التفكير فى معالجة من يستطيلون بالأذى على الأحرار الأبرياء، وإنما الصبر هنا معناه:

١ - أن يهضم الداعية ما يلقى من إعراض وعناد، وتحد وأذى، بحيث لا يشعر أن هذه العقبات غُصَّة يَشْرَقُ بها حلقه «لقمة فى الزور» فإن ذلك يضايقه، ويُعْجِله عن حسن علاجها، بل عليه أن يروض نفسه ومعدته العصبية على هضم ذلك كله، أما «النرفزة» من كل حادث لا يعجبه، فهى بمثابة وقوف «اللقمة فى الزور»، وهو ما لا يستقيم عليه أمر الدعوة والداعية، فعليه بحسن الاحتمال، واستقبال كل شدة بالرضا والتسليم، وحمد الله على كل حال، وطلب المغفرة لمن يجهلون عليه، فإنهم لا يعلمون.

٢ - أن يرتقب ما يأتى به الزمن، فللزمن مفاجآته وفرصه التى تجىء بغير ما ينتظر، وقد يجرى الله فى غضونه من الأحداث والتصرفات ما يهون به شأن هذه

العقبات أو يزيلها، وما على الداعية إلا أن يحذر انطفاء حماسته بطول الزمن، بل عليه أن يتخذ مما هضمت أعصابه مدداً لثورته الباطنة وقواه الكامنة، فلا تزيده الأيام إلا قوة على أمره.

٣ ـ أن يتخذ سبيله فى غير طريق هذه العقبات، عليه أن يدور حولها ويمضى إلى ما خلفها. . عليه أن يمضى فى دعوته، يدعو الناس ويجمع حوله الأنصار ويتألف قلوب الجماهير بما يبذل لهم من شتى الخدمات والمنافع والمساعدات، أمامه مفاسد لا يحميها القانون، ولا منفعة لأحد فى استمرارها، فعليه بعلاجها وإبعاد الناس عنها.

وهناك مبادئ لا حرج عليه ولا على أتباعه إذا هم نفذوها وطبقوها فى حياتهم الخاصة، وكانوا مثلاً عملية لها، تجلو للناس فضائلها، وتدعوهم إلى التحلى بها. وأنت بهذا إنما تقيم «بيئات» لدعوتك، وتنشئ «حقول تجارب» لبعض تعاليم رسالتك، ولا يخفى ما فى هذا من قوة التوجيه، والانتفاع بما يبدو من خطأ.

عليه بهذا وبما يشبهه، فكل جهد يبذله فى دعوة الحق إنما هو مدد يزيد به رصيد النصر الذى ينتظره، فإذا قعد وكف عن العمل، معتذراً بأن ليس من يسمع نداءه، أو بأن العقبات والظروف غير مساعدة، فقد كف عن مدد مؤكد للنصر. وما نقول هذا ذهاباً مع عاطفة نظرية، أو تزييناً للكلام بشىء من الاستعارة والمجاز، بل هو الحق الذى لا مرية فيه، وهو الأمر الواقع، والله تبارك وتعالى يقول: ﴿أَنِّي لا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ﴾ [آل عمران: ١٩٥]، ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٤٣]. وقد نعود لبيان هذا المعنى بعد قريب، وكل ما نوصى به هنا عدم الكف عن العمل فى الميادين التى لا حرج من العمل فيها، فإنك يا أخى بهذا إنما تصنع بيديك جنود نصرك.

هذه بعض معانى صبر الداعية فى باب سياسة العقبات.

وقد قص الله عز وجل على رسوله مثلاً فيه الكثير من التوجيه الحسن فى هذه السياسة: فإن موسى عليه السلام لما بلغ أشده واستوى، راعته مظاهر الظلم التى ينزلها المصريون بالشعب الإسرائيلى، وموسى شاب يهيئه الله سبحانه للرسالة،

فهو ذو نفس حساسة، تكره الظلم، وتثور على مظاهره، فدخل المدينة مرة على حين غفلة من أهلها ﴿فوجد فيها رجلين يقتتلان هذا من شيعته وهذا من عدوه فاستغاثه الذى من شيعته على الذى من عدوه فوكزه موسى فقضى عليه قال هذا من عمل الشيطان إنه عدو مضل مبين ﴿١٥﴾ قال رب إنى ظلمت نفسى فاغفر لى فغفر له إنه هو الغفور الرحيم ﴿١٦﴾ قال رب بما أنعمت على فلن أكون ظهيرا للمجرمين ﴿١٧﴾ فأصبح فى المدينة خائفا يترقب فإذا الذى استنصره بالأمس يستصرخه قال له موسى إنك لغوى مبين ﴿١٨﴾ فلما أن أراد أن يبطش بالذى هو عدو لهما قال يا موسى أتريد أن تقتلنى كما قتلت نفسا بالأمس إن تريد إلا أن تكون جبارا فى الأرض وما تريد أن تكون من المصلحين﴾ [القصص: ١٥ - ١٩].

إن الظلم جريمة يجب استئصالها بدون نزاع، وموسى إنما كانت رسالته تخليص بنى إسرائيل مما كان يقع بهم. فهل سلك موسى بهذا العمل سبيلاً سديداً فى علاج هذا الفساد؟

ماذا عاد على الإسرائيليين من قتل المصرى المعتدى؟ هل استؤصل الظلم وامتنع الأذى؟

إن المصرى قد يكون له بعض العذر فى ضرب الإسرائيلى وظلمه لأنه إنما يجرى فى ذلك على عادة شائعة موروثة، وسنة مرعية، يرعاها فرعون مصر الأكبر. فإذا أردنا العلاج الصحيح فلن يكون بعلاج الحوادث الفردية، وإنما بتغيير العادة الشائعة، وإبطال السنة أو القانون الذى يرعاه فرعون. أما قتل فرد أو عدة أفراد كما حدث من موسى عليه السلام فهو عمل لا يقرب من الإصلاح خطوة واحدة، وقد نعته موسى بأنه من عمل الشيطان.

على أن علاج الفساد بعلاج حوادثه الفردية كثيراً ما يوقع تحت طائلة القانون، ويغضب مقامات كبيرة لها منفعة فى استمراره على ما هو عليه، وحينئذ يعرض الداعية نفسه لحكم القانون ولبطش الجبارين فى غير نفع يعود على الرسالة.

لا نشير بالجبن، ولا بالاستكانة، ولكنا نحب للداعية أن يتسع أفقه العقلى والنفسى، فيعالج مبعث العلة، وأصلها بالحكمة والروية وحسن النظر فى مبادئ الأمور ونهاياتها. فذلك هو السبيل الطبيعى للعلاج، أما الوثوب على الحوادث

الفردية، ومظاهر الفساد المتفرقة، فشأن البسطاء الذين يذهبون مع حرارة العاطفة دون تقيد بالنظر فى عواقب الأمور، وشأن من لا يدخرون أنفسهم لما هو أجلُّ.

هذا الخطأ يقع فيه الكثير بحسن نية كما وقع موسى وهو شاب يميد به عنف الشباب، فكانت العاقبة الحتمية أن تنبه الملأ من قوم فرعون إلى خطر هذا الشاب، فائتمروا به ليقتلوه، ولكن الله بالغ أمره، وقد أعد موسى ليقوم فى الوقت المناسب برسالته الإصلاحية الخطيرة.

ورأى عز شأنه أن هذا الشاب قد نضج شبابه، وقويت حرارة إيمانه، ولكن تجاربه لم تكتمل بعد، ورأى أن أخطاءه ستكثر كلما رأى مظهراً من مظاهر الأذى المألوفة، ورأى سبحانه أن هذا من شأنه أن يقطع الطريق على المصلح بالقبض عليه، أو بقتله، فكان من تدبيره جلت حكمته أن أراد له أن ينضج على مهل، فى بادية بعيدة، فى رعاية رجل صالح، فقيض له من نصحه بالخروج من المدينة، لأن الملأ يأتمرون به ليقتلوه، فخرج منها خائفًا يترقب. هذا المثل يقصه الله عز شأنه ليتدبره كل داعية، فهو بعيد الغور، عميق العبرة، قيم التوجيه. فلما تم نضجه عليه السلام وبلغ سن النبوة عاد إلى رأس الفساد يعالجه بالقول اللين والبرهان المبين، دون أن يلتفت إلى مظاهر الفساد التى كانت من قبل تخفُّ به إلى الخطأ.

وما على الداعية فى علاج هذه العقبة الكبرى إلا أن يستمسك بعزته ويعتصم بربه، ولا يفرط فى رسالته، عليه أن لا يفتر عن الدعوة إليها ، وسوف يرى أن فيض الرسالة سيغرق العقبة كما أغرق الله فرعون فى نهاية أمره.

ونحن نلاحظ فى سيرة مولانا رسول الله ﷺ أن قد ثبت فؤاده بهذا القصص، فلم يعجل عليه السلام بعلاج فردى؛ بل قد كان يصلى فى الكعبة فى جوف الليل والأصنام تطل عليه بعيونها الجامدة البغيضة، فلم يرفع إليها يداً، ولم يحرك نحوها ساكنًا، ولو مد إليها يداً لما رآه أحد، ولكن ماذا كانت تكون العاقبة ؟ تعود الأصنام لما كانت، بل إلى أحسن مما كانت، ويعاجل رسول الله بالأذى، ولكنه ﷺ علم أن سبيل العلاج شيء غير هذا، هو الصبر والاستمرار على الدعوة، وتجميع الأنصار وتعبئة القوى، وتقرير العقيدة السليمة، والاحتكام إلى معايير

فلما أن أتى الله باليوم الموعود، كان عليه السلام يشير إلى الصنم بقضيب في يده قائلاً: جاء الحق وزهق الباطل؛ فينكفئ إلى وجهه إلى حيث لا رجعة، وإنا لنعلم أن شباب الدعوة المحمدية الأولين كانوا كثيرًا ما يعرضون على رسول الله ﷺ أن يثوروا إلى أسلحتهم وأن يهبوا فى وجوه أعدائهم، فكان عليه السلام يسكن ثورتهم، ويطلب إليهم أن ينتظروا. لقد كانوا يعلمون وهم فى مكة، قبل أن يشرع الجهاد، أنهم موعودون بيوم يحملون فيه السلاح، كانوا يقرأون فى القرآن المكى قوله تعالى: ﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [المزمل: ٢٠]، فتهفو نفوسهم إلى هذا اليوم، ولكنه عليه السلام لم يعجل بعجلة هؤلاء الشباب، ولم يخف لخفتهم، بل كان يطلب إليهم أن يكفوا أيديهم عن هذا الآن، ويكتفوا بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، حتى تكتمل القوى، وتنضج الثمرة، وتطلع الأقدار بأيام الله.

ونحن نأثم أشد الإثم إذا نصحنا للداعية فى علاج العقبات بغير المنهج الذى سنّ الله لرسوله، والتزمه ﷺ فى حكمة وأناة وقوة.

فإذا انتهى الداعية من علاج عقباته، وخلا له الجو، وصار سيد أمره؛ شرع فى إقامة النظام الذى تريده دعوته، واستقبل مرحلة لا تقل خطورة ومسئولية عن مرحلة العقبات وما لابسها من مشقات، إن لم تتضاعف فيها المسئولية وتكثر التكاليف.

والداعية فى هذه المرحلة يبنى أمة، ويؤسس دولة، يبنيها على تقوى من الله ورضوان، فهو مقيد فى مهمته بأصول الرسالة، منبعث إلى إنفاذها بوحى طبيعته التنفيذية. ولقد ذكرنا فيما سبق شيئًا من قواعد النظام المنشود، ولم يبق إلا أن يعلم الداعية مرة أخرى أن الله عز شأنه قد ساق تكاليف الرسالة مساقًا واضحًا سهلاً، لا غموض فيه ولا لبس، ساقه فى صور من الأمر والنهى، وبدهى أن إنسانًا ما لا يمكن أن يضل مهمته بين الأمر والنهى، زاعمًا أنه لا يميز بين الأمر والنهى.

وقد تقرر فيما مضى أن هذه الطبيعة التنفيذية هبة إلهية للأفذاذ المسعودين،

ولكن الإنسان يستطيع أن يحصل لنفسه حظًا كسبيًا منها إذا هو أخذ بالتجارب الآتية، أو بما هو خير منها إن وجدها:

أولاً: الاطلاع على تاريخ رسول الله ﷺ، واستخلاص سيرته كداعية.. ثم تقسيم هذه السيرة إلى مراحل فى الدعوة منظمة، ثم الوقوف عند كل مرحلة لدراستها وتفهم ما كان له عليه السلام فيها من أسلوب خاص فى معالجة ظروفها.

وما أظن أن المقام يقتضينى أن أعرض لبيان أقسام هذا السيرة الجليلة، على أننا سنذكر - إن شاء الله - فى باب مصادر الداعية، فى فصل قراءة القرآن، شيئًا عن جهاده عليه السلام.

ثانيًا: جمع ما ورد فى القرآن الكريم عن الأوامر الإلهية التى خوطب بها الرسول كداعية، وتصنيفها وتبويبها، ليخرج منها دستور عملى للداعية، إذا سار عليه فقد أدرك من غبار النبيين ما لم يدرك غيره.

ثالثًا: جمع ما أخذ الله على رسله وعاتبهم عليه، كالذى سجله القرآن على موسى وإبراهيم عليهما السلام، وإحصاء ما أثنى به عليهم، والانتفاع بكل ذلك فى حرص ورغبة.

رابعًا: العمل، والتنفيذ، والتطبيق، والتمرين، والحركة، فإن ذلك كله يقدح زنده ويثير رواكد نفسه.

خامسًا: الأخذ بما أوصينا به فى الروحانية الاجتماعية. وهو مبسوط فى مكانه سابقًا.

سادسًا: وصل نفسه بالدعوة، وكثرة التفكير فى مشكلاتها ومسائلها، وما يحيط بها من ظروف، وما يعترضها من عقبات، والاجتهاد فى تذليلها، فإن هذا بمثابة عملية المزج التى تخلط الدعوة بقلبه، وتخلط قلبه بالدعوة، ويغدو هذا القلب ميدانًا موقوفًا على هواتفها، تتصايح فيه وتتصاول، ولا مجال فيه لغيرها من شواغل الحياة الرخيصة.

وإذا بلغ الداعية هذه المنزلة، فقد أدرك حظًا كبيرًا مما نريد له، إذ تصبح خواطره كلها ربانية مطهرة.

• من بركات الطبيعة التنفيذية:

وقد مضى فى تضاعيف هذا الفصل بعض بركات الطبيعة التنفيذية، ولا بأس بالإشارة إلى بعض آخر، لعل الرغبة فى تحصيل ثماره تثير الهمة إلى أن تكون من أهل العمل والتنفيذ:

١ ـ اتساع فقهه فى الدعوة، ورسوخه فيها، وازدياد خبرته بالحياة وطبائع الناس. ذلك أن الطبيعة التنفيذية تنقل الداعية من حيز إلى حيز، تنقله من حيز القواعد المتصورة إلى حيز القواعد المطبقة المنفذة، وهو الذى يطبقها بنفسه، أو بإرشاده وتوجيهه، ويرى أثرها فى الحياة. هذا إلى أن مهمته ليست تطبيق القواعد فحسب، بل مواجهة مطالب المجتمع ـ وهى كثيرة متشعبة ـ بما لا يخرج عن روح رسالته. وهنا يجد كأن أصول الرسالة قد أثبتت فى ذهنه فروعًا لها، وكأن القواعد الكلية قد ظهرت لها نتوءات بمثابة الجزئيات، وهكذا تصبح الرسالة مرنة فى ذهنه، وذهنه مرنًا للرسالة ولمطالب الجماعة، فيتسع أفقه الفقهى والعملى، ويعظم تعمقه فى فهم أسرار الدعوة، وملابسته لطبائع الناس وما يصلحهم وهذا باب واسع نكتفى فيه بهذا القدر، ولا شك أن الناس يدركون الفرق الهائل بين الفقه الذى محصته المسئولية وتجارب الحياة، وبين الفقه الذى لم يكن من حظه إلا أن ينقل من سطور الكتاب إلى رءوس النظريين الكسالى.

٢ ـ مقاساة الداعية لمشقات التنفيذ وتطبيق القواعد والجزئيات على نفسه يلين أعصابه، ويطهر نفسه، ويثير الحرارة فى قلبه. ومعنى هذا أنه يصير ذا وجدان يقظ، ووعى باطنى متنبه، يتأثر بما يعرض عليه، ويتلفت لكل ما يمر به. وأهم ما يهمنا هنا أن الداعية بهذه الحالة يصبح أقدر من غيره على الاتصال بروح القرآن الكريم، على ما سيأتى فى باب مصادر الداعية إن شاء الله، وتغدو أعصابه بهذه الليونة كأنها «موصل جيد» لكهربائية الكتاب العزيز وأسراره.

٣ ـ أكبر مظاهر الطبيعة التنفيذية إنهاض الداعية إلى العمل. والعمل قانون الله فى هذه الأرض، وهو رسالة الإنسان فيها، وقانون العمل ارتباطه بالأجر والثمر، وهو قانون لا يتخلف فى الدنيا ولا فى الآخرة، ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ

﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨].

وبدهى أننا نقصد عمل الخير العام لوجه الله، لا العمل الذى تبعث إليه الأهواء ويؤدى ثمره إلى مخالب الأنانية.

حقًا إن هذا القانون لا يتخلف، حتى فى العمل لهذه المآرب الذاتية: ﴿ وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا ﴾ [آل عمران: ١٤٥]، ولكنا نتكلم عن العمل الأصيل والرسالة العليا للإنسان، فليس العمل مالاً وعقارًا، وليس الأجر تسنم الذروة فى المناصب أو الشهرة، وإنما الأجر أن تبنى لنفسك ولغيرك فى عالم الحقائق أعمالاً من الباقيات الصالحات. كنت أعود مريضًا شيخًا، فى مرضه الأخير، وكانت العلة قد برحت به، وكان قد أسرف على نفسه طول حياته، فى شبابه وشيخوخته، وارتكب أكثر ما يرتكب آثم من ذنوب، وكانت شخصيته محبوبة مهيبة معًا فى الناس. وحضرته نوبة من تباريح العلة وأنا عنده، فلما فرغ منها أو فرغت منه، قال لى وهو يتنفس: إنى أنظر الآن إلى عمرى الذى مضى أنظر إلى الستين سنة فأجدها قد انضمرت كلها فى يوم واحد، بل لو انضمرت فى يوم واحد لهان علىَّ الأمر.. إنى أنظر فلا أجد إلا كلامًا فارغًا، وأعمالاً كلها لهو ولعب، وأيامًا كالأوهام الهائمة، وأنا فيها إنسان عابث تافه لا قيمة له.. لقد طالما اغتررت بنفسى، وطالما غرنى الناس فاحترمونى، وأقبلوا علىَّ وأحبونى، ولكنى الآن أنظر إلى نفسى وإلى أيامى فلا أجد شيئًا؛ فلو كان لى أن أنصح الناس لنصحتهم بالعمل الباقى، الذى يبقى فى صحفهم وموازينهم، يوم ينظرون إلى أنفسهم وصحفهم بمنظار الحقيقة لا بمنظار الأوهام.. ثم بكى وقال: يا ليت لى يومًا واحدًا أرد فيه إلى عافيتى، لأعمل شيئًا بل لأبنى فيه نفسى؛ وألقى الله وأنا ابن يوم واحد، لأنى إن لقيته الآن لقيته وليس لى شىء يوضع فى ميزان، إلا العمر الطويل، الذى قضيته فى لا شىء.

واستمر حديث الرجل فى كثير من هذا المعنى، ولكنى أقتصر على إيراد هذا القدر، فهو يبين أن الحياة ليست مالاً ولا منفعة ذاتية، وأنها ليست متعة يقضى منها الإنسان مأربه، وأنها ليست طعامًا وشرابًا ولباسًا، وأنها ليست كسلاً ودعة وراحة، وإنما هى العمل الباقى الذى تعمله لمؤازرة الحق والفضيلة والخير العام،

ترجو به وجه الله، لا وجه نفسك والناس، فهذا وحده هو الذى يتراءى لعينيك فى أواخر أيامك، حين تنظر بمنظار هذا الرجل النادم.

تمثل معى يا أخى مولانا رسول الله ﷺ فى مرضه الأخير، وهو يجر وراءه عمره جرًا.. ماذا كان يرى عليه السلام فى هذا العمر؟ إنه كان يرى أيامًا بل ساعات بل دقائق، تكدست فيها الحقائق وأعمال الجهاد الشاق الطويل، لا يرى فيها دقيقة فارغة بلهو أو لعب.. حتى أيام جاهليته عصمها الله من الشرك والأوزار، وكانت كلها تنفح بريح النفس الزكية الطيبة، إذ كان يَقْرِى الضيف، ويحمل الكَلَّ، ويَصْدُقُ الحديث، ويُعين على نوائب الحق، فهو عمر بأعمار، وحياة لو وزنت بأجيال البشرية كلها لرجحتها.

فانظر - يا رعاك الله - إلى فضل الطبيعة التنفيذية حين تبعث صاحبها إلى العمل ليبنى نفسه - ومن جاهد فإنما يجاهد فى الحقيقة لنفسه - فيلقى ربه حين يلقاه بأيام حافلة، وأعمال ضخمة، وهيكل إنسانى، أثقل فى ميزان الله من جبال الدنيا، فتعسًا لأولئك السخفاء التافهين، الذين يلقى أحدهم ربه وهو هامة فارغة، تتزايل كالأوهام حين ينظر إليها فى عالم الحقائق.

إن كلامنا إنما يكتب تاريخه بنفسه، وما الأعمال التى نعملها إلا سطور هذا التاريخ. فجلسات المقاهى، والأندية الفارغة، والأحاديث التافهة، والأيام اللاهية، والحركات الغافلة - كل هذا نقش على الماء أو نقر فى الهواء، ويبقى بعد ذلك مسئوليتك الخطيرة، عن عمرك فيما قضيته، وشبابك فيما أبليته!!

لا أدرى متى يصحو الناس، ومتى يفيقون من هذه الغفلة الغليظة الكثيفة!.

إن قانون الله العمل.. فمن أخذ به، فقد وضع الله فى يده مفاتيح الدنيا وسر إدارتها، ومن تركه وعاش فى بطنه وشهوته وغروره، فهو خارج عن سنة الله، وهو أشبه بالطفيليات والحشرات المؤذية التى تضايق الأجسام الحية والبيوت العامرة.

وإن قانون العمل الثمر، وليس الثمر كما قلنا مالاً ولا عقارًا، وإنما هو ازدهار للفضيلة وقوة للحق، وتمكين لمعانى المساواة والإيثار والبر العام، فهذا هو الثمر الحق، يثمره العمل الحق؛ ولا عمل بلا ثمر، بل إن العمل ليحمل فى تضاعيفه

سر الثمر الذى لا ريب فيه، فمن غابت عن عينه ثمار عمله، فليعلم أن لحصد الزرع وقتًا لا يعلمه إلا الله؛ وهو على كل حال لن يخرج من هذه الدنيا إلا بعد أن يكشف له الله عما عمل ويريه ثمر ما عمل.

فأولئك الذين يطمعون فى الأجر بلا عمل، قوم عجيب شأنهم، فهم إنما يأملون نتيجة بلا مقدمة، ويبغون أن يبنوا نفوسهم بلا لبنات، ويكتبوا تاريخهم بلا كلمات. وهذا لا يجوز إلا فى دنيا من الأوهام، لا فى حياة من الحقائق، نحاسب على دقائقها وجلائلها، لا يفلت ميزانها ذرة من ذراتها.

كثير من الناس يريدون النجاح، ويحبون أن ينتصر الحق، ولكن السبل تعمى على أحدهم، فيجد نفسه مفكرًا ماذا أعمل.. فليعلم هؤلاء أن كل كلمة عمل، وكل خطوة عمل، وكل حركة عمل، وكل إشارة عمل، والحركة تلد الحركة، والعمل يفجر آفاق العمل، فما عليه إلا أن ينهض، وأن يتحرك، وأن يغدو، وأن يروح، وأن يهتم، وأن لا يركن إلى سابق كسله ومجالسه التافهة. قانون الله العمل، وهذا يصدق على أصغر كلمة، وأقل حركة: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٠]، والعبرة أن يكون كل ذلك مقصودًا به وجه الله، مرادًا به خدمة الحق، ولن تظل سبل العمل معماة أبدًا، فإن الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

وأخيرًا أيها الدعاة: إن الذى تنهضه طبيعته التنفيذية إلى العمل، إنما نضع فى يده باسم الله مفاتيح الدنيا وسر إدارتها؛ مفاتيح كنوزها وقصورها وخزائنها وممالكها، فلينظر أحدكم أى أمانة ألقيت بين يديه، بهذه المفاتيح ـ مفاتيح العمل ـ ملك الداعية الأكبر صلوات الله عليه ما ملك، وملك الدعاة من بعده ما ملكوا، فانظروا ماذا تأخذون من هذه المفاتيح وماذا تدعون، وماذا تفتحون من هذه الدنيا وماذا تهملون.. ألا ما أزهد الناس فى الخير الذى بين أيديهم، وأبعدهم عن النصر وهو قريب منهم، وأجهلهم بحقائق أنفسهم وهى سافرة لهم. العمل ـ أيها الناس ـ سر النصر، وقانون العزة، وسبيل السعادة والسيادة.. ألاَ ليت الناس يفهمون!

٤ - نور من البشاشة يسطع فى آفاق الداعية، فلا يشعر معه بيأس أو خيبة رجاء.

قل إن هذا البِشْر هو الثقة ،أو هو الأمل المتجدد، أو هو حقيقة الرجاء، ولكنه على كل حال من أسرار الطبيعة التنفيذية وهباتها الكريمة الغالية.

ولا أحب أن أدخل بك فى معنى الأمل، أو بيان حقيقة الرجاء، ولكنى أريد أن أقول: إن الطبيعة التنفيذية تملأ قلب الداعية بشعور هنىء سعيد، كله يقين بأنه فى الميدان المخصب لا محالة؛ شعور الزارع المطمئن إلى جودة بذوره وسلامتها، وإلى خصوبة أرضه وقوتها، وإلى ملاءمة الجو وطبيعة الهواء.

فانظر ماذا تسمى شعور هذا الزارع؟

هل تسميه أملاً؟ إنه شىء فوق الأمل؛ لأن الأمل قد لا يتحقق، ولأن الأمل فيه شىء من خداع الأمانى وشطط الخيال، ولأن الأمل يفترض حسن الظن بالظروف وسوء الظن بها، ولأن الأمل يرمى بأنظار صاحبه إلى توقع الثمر فى المستقبل فقط، ولكنه لا يتوقع ذلك فى الحال.

أما شعور هذا الزارع فهو فى الحقيقة يقين لا يتطرق إليه شك، فالبذرة سليمة، والتربة جيدة، وطبيعة الجو ملائمة مأمونة الآفات لا محالة. هذا الزارع هو الداعية الحق. وهذه البذور هى الدعوة التى يلقيها فى الناس. وهذه التربة هى فطرة الله فى الناس إذا بلغت البذرة أعماقها حضنتها، وتفاعلت بالخير معها. وملاءمة الجو هى رعاية الله سبحانه، وكفى بالله راعيًا وكفيلاً.

لقد قلنا فى صدر هذا الفصل: «إن أوضح مظاهر فقه الداعية أن يدرك أن الرسالة حق، وأن ما عداها باطل. ويميز الفرق بين الحق والباطل، كما يميز أحدنا الفرق بين صور الأوهام التى تتراءى لنا فى أضغاث الأحلام وبين ما نراه فى عالم اليقظة والمشاهدة».

فالداعية فى ميدان الدعوة يثق ويوقن إيقانًا عميقًا، بأن ما معه هو الشىء الوحيد المثمر، وأن ما عداه لا ثمر له؛ لأنه وهم لا وجود له. ولك أن توازن بين شعور زارع يبذر بذوراً سليمة، وآخر يبذر بذوراً عفنة وهو يدرك أنها عفنة. بل لك أن توازن بين هذين: أحدهما يبذر البذور السليمة، والآخر ليس فى يده

شيء، إلا أنه يقبض قبضته ثم يبسطها في الجو، لينثر على الأرض لا شيء، محاكيًا فعل الرجل الأول.. فأى العملين حق، وأيهما باطل؟

لا تظن يا أخى أننا نفترض فروضًا جدلية أو وهمية، بل إننا نجلى لك وجه الحقيقة، ونحن ندرك مع هذا أننا لم نبلغ من التعبير كل ما نريد، لأن هذا فوق طاقتنا.

فالداعية يرى أن ما معه حق لا محالة، وأن ما عداه فهو صور الأوهام التى تتراءى للناس فى أضغاث الأحلام، وأن هذا الذى معه هو البذر.. لا أقول هو البذر الذى سيثمر لا محالة، بل أقول هو البذر وهو الثمر فى الوقت نفسه، أى هو البذر ذو الثمر الحاضر، ولا نحب أن ندخل بالناس فيما قد لا يفهم فنكتفى بإحالة القارئ العزيز إلى ما يحكيه الله عن سحرة فرعون؛ فإنهم ما كادوا يرون الحق الذى ألقاه موسى حتى وقعوا ساجدين مؤمنين.. فهل تراهم تقبلوا الحق ثم حضنوا بذره فى فطرتهم، ثم أخذت البذور تخضر وتكبر وتطول حتى أثمرت سجودًا وإيمانًا؟ أم أن الثمرة كانت حاضرة فى البذرة على ما يقصه الله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانقَلَبُوا صَاغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ﴾ [الأعراف: ١١٧ - ١٢٢]، هذا المعنى العالى هو الذى نعنيه، وهذا الفقه العميق هو الذى نسميه شعورًا متمكنًا من قلب الداعية، لا يحس معه بيأس ولا خيبة رجاء، بل هو نور اليقين الذى يرى من ثمر البذور ما لا يراه أقوى المبصرين.

كنت أركب سيارة من سيارات الأوتوبيس الريفية مع الداعية المشار إليه بالبنان رضى الله عنه.. ووقفت بنا السيارة عند إحدى نقط المرور، وأخذ الجندى يعد الراكبين، ويؤدى واجبه المعتاد نحو كل سيارة، وإذا برجل كان يجلس مع الجندى يقبل على فضيلته ويسلم عليه ويقبل يده، ويدور بينهما الحديث القصير الآتى:

- مش فضيلتك فلان؟

- نعم، وأنت من؟

قال: أنا فلان، من مواليد هذه القرية، وأهلى بها.

قال فضيلته: ومن أين تعرفنى؟

قال: رأيتك فى شعبة الإخوان المسلمين بإمبابة تخطب.. وأنا عامل أطلب العيش هناك، وأتردد أحيانًا على الشعبة، وأنا هنا الآن فى زيارة قصيرة لأهلى.

وهنا كان جندى المرور قد أتم إجراءاته العادية واستأنفت السيارة سيرها فالتفت إلىَّ فضيلته وقال:

«لقد تألفت فى هذه القرية شعبة».

فعجبت وقلت: هل أفضى لك هذا الرجل بشىء لم أسمعه عن هذه الشعبة؟

قال: لا، ولكن هذا كلام فى الله لن يضيعه.. سيجلس الرجل مع من كان معهم الآن، فيقولون له: من هذا الذى سلمت عليه؟ فيقول لهم: إنه فلان، فيقولون له: وما شأن فلان هذا؟ فيقول: إنه يدعو إلى كذا وكذا ويقول فى دعوته كيت وكيت. قال فضيلته: «وهذا كلام حق، أو بذرة طيبة صالحة ألقيت فى أرض طيبة صالحة، عودنا الله أن تؤتى أكلها طيبًا صالحًا».

وإنى أدعوك أيها الأخ أن تتأمل هذا الحديث القصير، وتتأمل كيف استخرج منه هذا الداعية الفقيه حقائقه الصحيحة الجميلة.. ثم أسألك بعد هذا: أى شعور كان يملأ قلب هذا الداعية حين رأى فى تلك الكلمة القصيرة كل هذه المعانى الجليلة؟

إنه شعور الثقة بالأجر المعجَّل، والثمر الحاضر، شعور اليقين الذى يدرك حقيقة الحق، وأثره فى هذه الحياة، وإذا كان هذا شعوره تلقاء كلمة قصيرة من كلمات الحق، فكيف يكون شعوره تلقاء كلام عظيم كثير؟

لا تقل: إن شعوره تبعًا لذلك يقوى ويعظم، لأن الحق هو الحق، لا يقوى ولا يضعف بكثرة الكلام أو قلته، فالحق فى الكلمة الواحدة لا يقل جلالة عن الحق فى الكلام المتوارد الكثير.

ومن هنا ترى الداعية الحق يفطن لقيمة كل كلمة يلقيها فى دعوته، كما يفطن لجلال كل كلمة تمر به من كلمات الحق، فتراه يطرب لما لا يطرب إليه غيره، ويستبشر به، ويتسهل له، ويرى فيه من الخير ما لا يراه الحاضرون. لا تقل إنه الأمل فهو أمر فوق الأمل وغير الأمل، وسمه ما شئت إن كنت لا ترضى أن تنعته

بأنه نور اليقين والثقة، وشعور الاطمئنان والبشاشة بالثمر الحاضر والأجر المعجَّل.

أترى هؤلاء يتطرق إليهم يأس، أو قنوط، أو سأم؟ أم هو الفرح المتجدد بفضل الله، والهمة التى يرد عليها كل آن من قوة الحق مدد وأمداد؟

واعلم أن ثقة الداعية فى الناس وحسن استعداد فطرتهم لا تقل عن ثقته فيما لديه من الرسالة. ولهذا تراه يدعو الصغير والكبير، والغنى والفقير، والسوقة والأمير، يدعوهم وهو يرجو الخير فى فطر الجميع، ولا يتوقع الإعراض والصدود أبدًا عند أحد.

هل يسىء الزارع ظنه بأرضه الخصبة التى قامت كل الشواهد على سلامتها وقوتها؟

إذًا فكيف يسوء ظن الداعية بفطر الناس التى فطرهم الله عليها؟ إن الفطرة حق، وهى من أمر الله، فإذا أعرض بعض الناس عن الحق فإن الفطرة لم تعرض، ولكن أهواء من الباطل وأغطية من الشهوات حالت بين الدعوة والفطرة؛ ألا تسمع إلى رسول الله ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة وأبواه يهوِّدانه أو ينصِّرانه أو يمجِّسانه»! وهل أرسل الله موسى وهارون إلى فرعون إلا وهو يعلم أن هذا الجبار العنيد يحمل فى أطواء نفسه فطرة مستعدة للخير؟ ولهذا قال سبحانه: ﴿لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ [طه: ٤٤].

فالداعية الفقيه يستقبل الناس جميعًا وهم لديه فى حسن الاستعداد سواء، وكله رجاء بل يقين فى أن يجد من الجميع أعوانًا له على الخير الذى يدعو إليه، فإذا أعرض عنه إنسان، أو رده بسوء، فإنه لا يتوقع الشر من الآخرين أبدًا، إذ هو يدرك أنهم ينطوون على فطرة الحق، والحق مبعث الأمل والرجاء بل مبعث الثقة واليقين، ولهذا تراه يستقبل الآخرين برجاء جديد ويقين جديد، كأن له فى كل فطرة وفى كل وجه هاتفًا يهتف به: هنا النصير، فلا يفوتنك هذا النصير، ولعل من خير ما نوضح به هذا المعنى ما كان منه عليه السلام فى العام الحادى عشر لبعثته.

خرج عليه السلام هذا العام إلى وفود العرب وقد حضرت إلى مكة فى موسم الحج. . خرج إلى الوفود والقبائل والبطون والعشائر؛ وهم شىء كثير، قد ضربوا

خيامهم فوق الآكام، أو انتشروا بها على وجوه القيعان.

خرج إليهم عليه السلام فى العام الحادى عشر يدعوهم إلى الله، وقد جاوز الحادية والخمسين من عمره، فأخذ يجول خلال الديار، ويمشى بين الخيام، وينتقل بين المضارب، يومًا وآخر طيلة أيام الموسم، يقضى نهاره سائرًا فوق رمال الصحراء الثقيلة، أو حزونها وحجارتها المتعبة؛ يغشى مجالس القوم، ويرتاد منتدياتهم، ويعرض نفسه على شتى القبائل ومختلف العشائر، يأخذ منهم ويعطيهم ويناقشهم ويناقشونه، ثم يردونه أخيرًا ردًا جميلاً أو غير جميل، ويعود فى آخر يومه ويده صفر.

وها هو ذا الموسم أوشك أن ينفض جمعه، وأن يرحل أهله، ولم يظفر رسول الله منه بشىء. وها نحن أولاء فى أحد أيامه الأخيرة، وقد أخذ الجميع يستعدون للرحيل، ورسول الله ﷺ مقبل على شأنه، لا يثنيه إعراض الناس، ولا يوئسه انقضاء الموسم بلا نتيجة، بل يستقبل كل يوم ببشر جديد، ويستقبل كل وجه بشعور جديد. فى هذا اليوم عاد رسول الله ﷺ من طوافه بين مضارب الخيام ومجالس العشائر، وقد أنهكه تعب الأيام السابقة، وهو رجل قد نيَّف على الخمسين وأثقلته السنون، وبينما هو عائد رأى من البعد نفرًا ستة من أهل يثرب لم تبلغهم دعوته بعد.

لو أن أحدنا فى هذا المقام لسخط على يومه، ونفض يده من الناس، ولهتفت به هواتف الضعف، توئسه من هؤلاء الستة، كما يئس من جماهير الموسم وجموعه.

ولو أن أحدنا فى هذا المقام، وهو يجر جسمه الثقيل فى سن الخمسين، عقب طواف نهار طويل، لَلوى وجهه عن هؤلاء الستة؛ ليسرع إلى بيته، حيث يريح هذا الجسم المهدود المكدود.

لقد كان هؤلاء الستة يصلحون من شأنهم، ويحلقون رءوسهم، فلو أن أحدنا فى هذا المقام لانطلق فى إعراضه قائلاً: وماذا أجد عند هؤلاء الذين يحلقون رءوسهم من الإنصات لكلامى؟ إنه لم ينصت إليه الفارغون، فهل ينصت الذين يحلقون؟ بل لو أن أحدنا فى هذا المقام لاستنكف أن يغشى بدعوته مجالس

الحلاقين أو ما يشبه الحلاقين.

أيها الأخ قف، فقد وقف مولانا سيد الدعاة، لقد يمم وجهه نحو هؤلاء النفر الستة، ها هو ذا يخطو فى وقار السن، وجلال النبوة، وبشر اليقين، حتى يقف على النفر الستة.

تبارك الله رب العالمين، لقد كان هؤلاء النفر هم أهل العقبة الأولى، ونواة الأنصار بالمدينة، ومفتاح العهد الجديد، الذى استقبله الإسلام بعد الهجرة الكبرى!!

ولا يسعنى إلا أن أترك لك أن تتأمل هذا المثل وبُعد مراميه وعمق معانيه، ولا تحسبن العبرة فى هذا المثل أن رسول الله وجد من هؤلاء النفر مطاوعة لأمره، بل الشاهد هنا هو هذا الشعور القوى الذى يلازم صاحبه حين تبعثه النهضة إلى العمل، وحين يظن به اليأس والملل، وليس ضروريًا بعد هذا أن يكون قد آمن به نفر أو أقل، أو لم يؤمن به أحد.

إن هذا الشعور صادق حق لا محالة، آمن الناس بالداعية أو لم يؤمنوا، فإن استجابة الناس شىء وصدقه فى نفس صاحبه شىء آخر، فليس إيمانهم دليل صدقه، كما أن إعراضهم ليس دليلاً على كذبه. ولقد عرضنا حديث الداعية المشار إليه بالبنان، والشعبة التى تحدث عنها لم تؤلف بعد، أفتظن هذا يغير من حقيقة ما قيل مثقال ذرة؟ أو ينال من صدق هذا الشعور شيئًا؟

إن معك قرشًا، فإن شئت جعلت هذا القرش رغيفًا فاشتريت به رغيفًا، وإن شئت جعلته ثوبًا، وإن شئت جعلته سلاحًا، أى أن هذا القرش يحمل من قوة الشراء ما يصيره فى يدك رغيفًا أو ثوبًا أو سلاحًا، فإذا لم تجد فى السوق رغيفًا أو ثوبًا أو سلاحًا، فالقرش محتفظ بقيمته، حتى يظهر الرغيف أو الثوب أو السلاح.

وكذلك شأن الحق، فهو «عملة» هذا الوجود التى تقوم عليها سننه وينتظم بها أمره، وكل من يقتنى هذه «العملة» فهو غنى قادر، يلازمه شعور الأغنياء القادرين، وكل من يقتنى «عملة» غيرها فهو مفلس مزيف، يلازمه شعور المفلسين المزيفين. وهذا الشعور الذى يبث اليقين والثقة فى نفس صاحبه بأن حياته مليئة بالجد والحق

والكرامة، هو الذى يعنينا من هذا كله، لأنه يشعر صاحبه بمعنيين عظيمين:

الأول: أنه لا يعمل عملاً إلا وهو يدرك أن ثمره حاضر حضور الرغيف فى جوف القرش، وهذا يجعل حياة المرء حافلة بجلائل الأعمال، أو حافلة بأنواع الثروة والغنى، فلا يتصور معه قعود عن عمل، أو زهد فى قول، أو إعراض عن حركة، أو خطوة متى كانت فى الحق، لا يتصور هذا أبدًا، إلا إذا تصورت رجلاً يلازمه الشعور بحب المال وعدم حبه فى الوقت نفسه. إن الشعور بقيمة الحق كالشعور بقيمة النقد، ولكن الساعى فى الحق ليس كالساعى فى المال، لأن صاحب المال قد ينجح سعيه وقد لا ينجح، أما صاحب الحق فنجاحه منوط بصدق نيته، فإذا صدق النية كان عمله هو نفس النجاح لأنه هو نفس الثروة. إن القلب هو الدار التى تضرب فيها هذه الثروة، فكل كلمة منها، وكل عمل عليه طابع القلب، فهو «عملة» حق وثروة صدق لا قيمة لغيرها فى هذا الوجود.

والداعية الممتاز هو الذى يشعر بقيمة الحق، ويشعر بشدة افتقاره إليه، بل بشدة افتقار الناس جميعًا إليه، فهو يعمل لتحصيله، ويعمل لتأييده وتثبيته، وهو فى أثناء عمله يلازمه الشعور بتدفق الثروة بين يديه.. فانظر يا أخى هل ييأس مثل هذا، أم هو العزيمة السعيدة المجددة؟

الثانى: أنه يسمو بمعنوية صاحبه وبكرامته ومقومات رجولته، ولا نقول: كما يسمو القرش بمعنوية حامله، لأن النسبة بين طرفى التشبيه شاسعة الآماد، وإن كان كل منهما يماثل الآخر فى الاستمداد من العملة التى يحملها. وإذا كان الحق يصنع الرجال، ويصوغ الأبطال، فهذا السمو بمعنوياتهم هو سر الصناعة وجوهر الصياغة، وما ظنك برجال ينظرون إلى الناس وهم يتعاطون الباطل ويتعاملون به فيما بينهم؟.. إنهم ينظرون إليهم كما ينظر أحدنا إلى أطفاله وهم يصطنعون فيما بينهم عملة من الصفيح أو الخزف أو الورق الملون. وما أظن موقفًا يبرز للرجل حقيقة نضجه وامتياز رجولته، كهذا الموقف الذى يقفه على هؤلاء الأطفال.

٥ - إن الطبيعة التنفيذية إذا دفعت بالداعية إلى ميدان الدعوة وغمرته فى محيطها، نشأت بينه وبين مختلف الطوائف معاملات متباينة، وصلات متعددة،

منها ما هو سار، ومنها ما هو غير ذلك.

فالناس منهم المؤيدون ومنهم المخالفون، ثم منهم المعارضون المعاندون، ثم منهم المعادون الذين ينحرفون فى عدائهم إلى الأذى والاعتداء، وهو مضطر حيال ذلك إلى أن يسلك مع كل طائفة سياسة خاصة، إلى جانب ما يعانيه من مشقات الجهاد وسياسة العقبات. وكثيرًا ما يبيت الداعية ليله مهمومًا مفكرًا يميد قلبه بتفاعلات ما حدث له، بل كثيرًا ما يسبب ذلك أزمات تثقل كاهله، وتسحق همته، وتتركه أعجز ما يكون، يسىء الظنون بحوله وقوته، فليس فى الوجود ما هو أعجز منه، ولا أضعف منه، ولا أفقر منه إلى حول الله العلى القدير.

هذه الأزمات القاسية التى تجرد الداعية من حوله وقوته الذاتية، وتسحق فيه كل شعور بمزية شخصية، وتدعه حطامًا لا سر فيه، إلا أن يتداركه الله بفضله، هى أزمات مباركة، تصهر قلب الداعية بحرارتها المباركة، فإذا انصهر تخلص مما فيه من شوائب الغفلة والسهو، وصار صاحبه أشد ما يكون إحساسًا بضعفه وعجزه، وأصدق ما يكون افتقارًا إلى عون الله وقوته، وأقوى ما يكون انبعاثًا وفرارًا إلى حمى الله عز وجل، فإذا دعا الله حينئذ كانت دعوته من الأعماق، تهتف بها معه كل جوارحه، وينطق بها وإياه كل كيانه، فتصعد ناصعة قوية، تتنحى لها الحجب حتى تخر أمام عرش الله عاجزة ساجدة، تسأله الغوث والمعونة والنصر، وأن الله سبحانه لأشد ما يكون استجابة، حين يكون عبده منصهرًا فى هذه البوتقة المباركة، يخاطبه بلسان العجز المحض، وشعور الهوان المصفى.

هذه الحالة مباركة الجوانب، كثيرة النفع والخير، فهى تنفى عن صاحبها ما عساه أن يكون قد دخله أثناء غفلته أو سهوته، من أنه مجاهد ذو عمل وأثر، أو ذو موهبة وبلاء، أو ذو حول وطول، فإن بذور الطغيان إذا نمت فى النفس وشاعت معانيها فى القلب، أثمرت اكتفاء المرء بنفسه عن الله سبحانه، وهذا مركب الطغيان؛ وهو من معانى التصوف العالى، المأخوذة من قول الله سبحانه: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ۝٦ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ﴾ [العلق: ٦، ٧]، أى أن الإنسان إذا رأى نفسه استغنى بعلم أو موهبة، أو جاه أو منصب، أو مال وقوة، أو نحو ذلك، ركبه الطغيان، أو ركب الطغيان إلى ما شاء له شيطانه؛ ومن هنا كان عليه السلام

يبرأ إلى الله من حوله وقوته ويقول: «اللهم لا تكلنى إلى نفسى طرفة عين ولا ما هو أقصر من ذلك». هذه الحالة العالية المطهرة لا بد منها لِتَرْحَضَ[1] عن الداعية ما قد يلحقه من الأذى، ولترده دائمًا إلى معرفة حقيقة نفسه، وهوان قدره، ومن عرف نفسه فقد عرف ربه، ومن بركاتها أن الإنسان حين يدعو الله من بوتقة الضعف، ويخاطبه بشعور العاجز المقهور، يقبل الله عليه بما لا يدور فى حسبانه من النصر.. اقرأ معى ما يحكيه الله عن نوح عليه السلام فى إحدى هذه الأزمات الوجدانية المنصهرة: ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ﴾ [القمر: ١٠]، فأنت ترى فى قوله عليه السلام ﴿أَنِّي مَغْلُوبٌ﴾ شعور الرجل المنهار، الذى فرغت نفسه من كل حول وقوة، ففزع إلى الله سبحانه فى صدق أن ينتصر له من أعدائه المكابرين، فتكون الإجابة بما ليس فى الحسبان: ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ (١١) وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ [القمر: ١١، ١٢].

أيها الداعية: إن دعوة الضعيف الذى يقبل على الله بشعور القهر والغلبة تفتح أبواب السماء، وتفجر ينابيع الأرض بأسباب النصر وجنده، فهل نتعلم كيف ندعو الله، وهل نتعلم كيف نسخر جنود السموات والأرض بإذن الله لنصر الله! وهل ندرك سر قوله ﷺ: «إنما تنصرون بضعفائكم».

وهذا رسول الله، يظله عام الحزن بفقد نصيريه الكبيرين فى الدعوة: زوجه خديجة وعمه أبى طالب، ويشعر بوحشة لفقدهما، وخلو ظهره من سندهما، فيخرج إلى الطائف، وهى بعيدة عن مكة، لعله يجد من أهلها ظهيرًا لدعوته؛ فيردونه أشنع رد، ويغرون به سفهاءهم، فيبكى قلبه، ويحس بوحشة الانقطاع، ويحضره شعور الضعف والانكسار والهوان أقوى ما يكون، فينبض قلبه وينطق لسانه ويرسلها إلى الله أنفاسًا حارة: «اللهم أشكو إليك ضعف قوتى وقلة حيلتى وهوانى على الناس، يا أرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين، وأنت ربى، إلى من تكلنى؟ إلى قريب يتجهمنى أو عدو ملكته أمرى؟ إن لم يكن بك علىَّ غضب فلا أبالى».

(١) ترحض: تغسل.

ولست بصدد أن أقف بك على قوله عليه السلام: «أشكو إليك ضعف قوتى وقلة حيلتى وهوانى على الناس» ولا قوله: «أنت رب المستضعفين، وأنت ربى» ولكنى أترك لك أن تقف وأن تتأمل عمق العاطفة، وصريح اليقين، حين تمحضه الأزمات، وترى بأى شعور يجب أن نقبل على الله، أترك إليك هذا لأمضى فيما أنا بسبيله فأقول: إن الله استجاب لأنات هذا القلب بما لا يدور فى حسبان أحد، فقد جلس عليه السلام من جوف هذا الليل، جلسة أشرف سكان الملأ الأعلى على روعتها، وأنصت لها الجن من سكان هذه الأرض، وهو يرتل القرآن بأعذب صوت ردد هذا اللحن القدسى الخالد؛ وكانت ترانيم أنغامه عليه السلام تحمل إلى جنبات الوجود وأعماق الكون خشوع العبودية، وسر الألوهية، مجتمعين فى نغمات أطهر قلب عرف الله فى هذه الأرض، وإذا بالجن تلبى النداء، ويأتيه النصر من حيث لا يحتسب، وتنزل البشرى بقوله سبحانه: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأحقاف: ٢٩ ـ ٣١].

ونحن نوصى الداعية أن يغمر نفسه فى محيط الدعوة، ويكثر من أسباب هذه الأزمات، استصفاء لقلبه، ولصوقًا بربه، فإن الله سبحانه لا يسمع إلا لمن يدعوه من خلال هذه القلوب.

٦ـ وهذه سادسة من أمر الله سبحانه، فأرجو أن يشرح لها صدرك، وأن يؤنس بها فقهك، وأن يقبل بك على تثمير أسرارها.. يقول أحدنا فى حياته اليومية لعمل من الأعمال: هذا عمل ميت لا روح فيه، ويقول لعمل آخر: هذا عمل قوى حى، وهو بهذا يقصد أن العمل الأول منبعث عن قلب راكد لا حياة فيه ولا إيمان، ولولا ذلك لبعث فى هذا العمل قوة، ولنفخ فيه من روحه؛ ونسمع فى محيط أهل الورع والتقى مثل قولهم: هذه صلاة ميتة أو ولدت ميتة، أما إذا استحضر لها قلبه، فأتم خشوعها، وأقام ركوعها وسجودها، وأودع كلماتها من نبضات قلبه، فهى صلاة حية، تصعد إلى الله تعالى وعليها حلل القبول.

وهذا كلام حق لا مجاز فيه ولا كناية، ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ وَمَا هِيَ إِلاَّ ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ﴾ [المدثر: ٣١]، و ﴿الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ [الإسراء: ٨٥].

فمن الأعمال ما هو حى لأن الروح تسكنه، ومنها ما هو ميت لأنه ولد بلا روح.

وإذا كنا لا نشاهد هذه الأعمال الحية أو الميتة، فهو ليس حجة على أنها غير موجودة، فإن فى هذا الكون من الكائنات والعجائب ما لا نستطيع رؤيته، أو لمسه، أو سماعه، أو شمه، لأن الله خلق حواسنا قاصرة عن إدراك هذه الأمور الروحية المعنوية، أو قل إنه خلقها لإدراك الأمور المادية فقط، أما ما وراء المادة فلا سبيل لها إليه، إلا أن يجهزها الله بأسرار ليست عادية.

ونحن إنما نحصل علومنا ومعارفنا عن طريق هذه الحواس القاصرة، فما جاءتنا به من علم أفتينا به، ووقفنا عنده. أما ما يأتينا من أنباء الكائنات الأخرى، مما ليس من معارفنا، فليس لنا أن ننكره ونجحده، وعلينا أن نصدق فيه كل من قامت الشواهد الصادقة على رجحان عقله، ونفوذ بصيرته، وصدق قوله.

وهذا رسول الله ﷺ يقول فيما يرويه أبو هريرة فى أحوال من يوضع فى قبره: «فإن كان مؤمنًا كانت الصلاة عند رأسه، وكان الصيام عن يمينه، وكانت الزكاة عن شماله، وكان فعل الخيرات من الصدقة والصلات والمعروف والإحسان إلى الناس عند رجليه».

وحكمة قيام هذه الأعمال من حول صاحبها أنها تبغى رد كل مزعجة عنه حتى سؤال الملكين، فإنها لا تسمح لهما بالخلوص إليه، إلا بعد أن تعرف أنهما رسولا الخير إليه. واستمع معى إلى تتمة الحديث السابق: «فيؤتى - أى الميت - من قبل رأسه، فتقول الصلاة: ما قِبلى مدخل، ثم يؤتى عن يمينه، فيقول الصيام: ما قبلى مدخل، ثم يؤتى عن يساره، فتقول الزكاة: ما قبلى مدخل، ثم يؤتى من قبل رجليه، فيقول فعل الخيرات من الصدقة والصلات والمعروف والإحسان إلى الناس: ما قبلى مدخل».

ولا يجوز لنا أن نتأول فى كلامه عليه الصلاة والسلام، زاعمين أن هذه أمور

تمثيلية، يقرب بها إلينا رسول الله ما يدور فى العالم الآخر. . لا يجوز لنا أن نزعم هذا، فهو اجتراء على مقام الرسول، وصرف لكلامه عن ظاهر معناه بلا دليل ولا سند. ولقد قلنا إن جهلنا بحقائق هذه الكائنات لا يصح أن يكون حجة لردها. . فإذا قال الرسول عليه السلام إن الصلاة تقف على رأس الميت وتقول كيت وكيت، فهو الكلام الحق، وليس لنا - بل ليس من كرامتنا العقلية - أن نتخذ جهلنا حجة لتأويل كلام غيرنا، بل ليس مما يصلح عقولنا ونفوسنا أن يظل أحدنا فى مستوى قصوره العادى، وكلما رأى كلامًا من أفق رفيع جذبه وأدناه إليه، وظل يمسخه ويشوهه حتى يلائم بينه وبين مستواه القاصر. . ليس هذا مما يصلح عقولنا ونفوسنا، إنما يصلحها أن نسمو ونتسلق إلى المستوى الذى يرفعنا إليه كلام هؤلاء الأفذاذ. . فإذا قال عليه السلام إن الصلاة تقف، وتقول، وتفعل كذا وكذا، فليس لهذا من معنى إلا أنها تقف، وتقول، وتفعل ما أخبر به عليه السلام. . أما أنها كيف تقف؟ وهل لها رجلان؟ وكيف تتكلم؟ وهل لها لسان؟ وكيف تفعل؟ وهل لها يدان؟ فهذا ما لا شأن لنا به، فليكن الكيف ما يكون، وكل الذى علينا أن نسلم به أن الصلاة ستقف، وستتكلم، على ما أخبر به الصادق المصدوق صلوات الله عليه، وإلا فما قول هؤلاء المتأولين فى قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النور: ٢٤]؟ كيف تؤدى الرجل شهادتها، وكيف تؤديها اليد؟ هذا ما لا شأن لنا به، فليكن الكيف ما يكون! أما الذى لا شك فيه أن الشهادة ستؤدى لا محالة: ﴿وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [فصلت: ٢١].

فالأعمال الصالحة من صلاة، وصوم، وزكاة، ومعروف، وإحسان، ونحوه - هى كائنات حية، مؤلفة من: ظاهر وباطن، أو: غلاف وسر، فالظاهر هو صورة العمل، والسر هو الروح الذى يسكنه. وصورة العمل هى فعل الإنسان، وأما الروح فمن أمر ربى؛ وعملية المزج بين الروح وصورة العمل تتم فى داخل القلب، فكل عمل طيب يخرج من القلب المؤمن، فهو عمل حى، تسكنه روح طيبة، وكل عمل يتم من وراء القلب، فهو عمل ميت لا روح فيه. والذى نريد

أن نجلوه فى هذا الكلام للداعية ولغير الداعية، أن هذه الأعمال الحية بأرواحها الطيبة تلزم صاحبها فى حياته، وفى مماته، حتى يلقى بها الله يوم القيامة. وهى إذ تلازمه لا تكون معطلة عن النفع، مكفوفة عن العمل، بل هى فى خدمة صاحبها، فى حياته ومماته، ترد عنه كل مزعجة، وتسوق له كل خير مستطاع.

ولقد أوردنا حديث أبى هريرة فيما سبق، وهو يبين لنا هذا المعنى ويؤكده، ومع هذا، فإنا نورد حديثًا من كلام سيد المرسلين، يقطع الشك ويقرر اليقين، قال ﷺ فى حديث طويل نكتفى بإيراد بعضه: «رأيت البارحة عجبًا - ورؤيا الأنبياء حق، لأنها وحى -. . . ورأيت رجلاً من أمتى قد احتوشته الشياطين فجاء ذكر الله عز وجل فطرد الشياطين عنه، ورأيت رجلاً من أمتى يلهث عطشًا، كلما دنا من حوض منع وطرد، فجاء صيام شهر رمضان فسقاه وأرواه، ورأيت رجلاً من أمتى ورأيت النبيين جلوسًا حلقًا حلقًا، كلما دنا إلى حلقة طرد، فجاء غسله من الجنابة فأخذ بيده فأقعده إلى جنبى، ورأيت رجلاً من أمتى يتقى بيده وهج النار وشررها، فجاءته صدقته فصارت سترة بينه وبين النار، وظللت على رأسه، ورأيت رجلاً من أمتى قد احتوشته الزبانية، فجاء أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر، فاستنقذه من أيديهم وأدخله فى ملائكة الرحمة، ورأيت رجلاً من أمتى جاثيًا على ركبتيه، وبينه وبين الله عز وجل حجاب، فجاء حسن خلقه فأخذ بيده فأدخله على الله عز وجل، ورأيت رجلاً من أمتى قائمًا على الصراط، يرعد كما ترعد السعفة فى ريح عاصف، فجاء حسن ظنه بالله عز وجل فسكَّن رعدته ومضى، ورأيت رجلاً من أمتى انتهى إلى أبواب الجنة، فغلقت الأبواب دونه، فجاءته شهادة أن لا إله إلا الله ففتحت له الأبواب وأدخلته الجنة».

وكل هذا صريح فى أن للأعمال الحية قدرة على التصرفات، بما أودع الله فيها من طاقات وحقائق، ونحب أن نذكر أن تصرفات الأعمال، أو أرواح الأعمال، ليست مقصورة على نفع صاحبها فى الآخرة، بل فى الدنيا كذلك، فقد قال عليه السلام: «من قال فى يوم مائة مرة: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير، كانت له حرزاً من الشيطان حتى يمسى».

وقد أورد الترمذى فى نحو هذا عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ:

«من قال إذا خرج من بيته: بسم الله، توكلت على الله، لا حول ولا قوة إلا بالله، يقال له: كُفيت وهُديت ووقيت، وتنحى عنه الشيطان، فيقول لشيطان آخر: كيف لك برجل قد هُدى وكفى ووقى؟».

بل إن لها من عون صاحبها فى الأمور المادية ما يكاد يكون من العجب، فقد روى البخارى أن فاطمة رضى الله عنها شكت إلى أبيها شدة ما تقاسيه من الطحن والسعى والخدمة، وطلبت إليه أن يعطيها خادمًا، فما كان منه عليه السلام إلا أن علمها هى وزوجها أن يسبحا كل ليلة إذا أخذا مضاجعهما ثلاثًا وثلاثين، ويحمدا ثلاثًا وثلاثين، ويكبرا أربعًا وثلاثين، وقال: «إنه خير لكما من خادم».

وكان حبيب بن مسلمة يستحب إذا ناهض حصنًا أو لقى عدواً أن يقول: «لا حول ولا قوة إلا بالله». وقالوا إنه ناهض يومًا حصنًا من حصون الروم فقالها، وقالها المسلمون معه وكبروا، فانهدم الحصن وانهزم العدو. ولعل حبيب بن مسلمة رضى الله عنه كان يستأنس فى فعله هذا بما ورد فى بعض الآثار أن الملائكة لما أُمروا بحمل العرش قالوا: يا ربنا كيف نحمل عرشك وعليه عظمتك وجلالك؟ فقال: قولوا: لا حول ولا قوة إلا بالله، فقالوها فحملوه.

ولقد قلنا إن عملية مزج الروح بالقول أو بالعمل محلها القلب، فليس كل قول نافعًا، وليس كل عمل مساعداً. فليعلم الداعية هذا وليدرك قيمة القلب الذى جعله له الله فى صدره، فبهذا القلب يستطيع أن يصنع بنفسه جنود نصره، على ما أشرنا إليه سابقًا، وليختر لنفسه: أيزهد فى هؤلاء الجند المباركين أم هو سيفتح آفاق القلب، ليستخرج منه هذا الخلق الكثيف من جند الله؟ إن هؤلاء الجند تربطهم بك رابطة فوق رابطة الجند بقائدهم، إنهم خرجوا من سويداء قلبك، فهم منك وأنت منهم، يعطفهم عليك ما يعطف الأبناء البررة على أبيهم، ولك أن تقول: إنهم ذرية أنجبهم قلبك، إلى جانب الذرية التى ينجبها صلبك، غير أنهم أصدق وفاء وأطول بقاء، وأقدر على العون والمؤازرة. لك أن تقول هذا، وتستأنس لما تقول بقوله تعالى: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلاً﴾ [الكهف:٤٦]، ففيه مقارنة خفية بين ضربين من البنين لم يكشف الله عنهما الغطاء، حتى لا يدخل على الناس ما يبلبل أفكارهم، وترك

لذوى البصائر أن يستشفوا هذا المراد وهم راسخون.

ولعل مما يسندنا فى هذا الاستئناس قوله تعالى: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ﴾ [الكوثر: ٣] ردًا على الذين كانوا يشمتون به عليه السلام، لموت أبنائه الذكور، ويقولون: إنه أبتر لا ذرية له تبقى من بعده وتحمل ذكره، فقرر بهذا سبحانه أن الذى لا عقب له ولا ذرية هو فى الحقيقة الذى فسد قلبه ببغض الرسول، فليس له من ذرية القلوب والأعمال ما يبقى بعده مذكورًا فى ضمير الأجيال، أما ذرية الصلب فلا خير فيهم لأبيهم إذا كان رجل سوء مقطوعًا من أعمال البر والتقوى.

وبعد: فاعلم يا أخى أنك فى جهادك أحوج ما تكون إلى هذه الذرية، فأكثر من العمل والنية يكثر من حولك هؤلاء الأبناء فى عالم الخفاء، ولن يكونوا كَلاً على أبيهم، بل سيعملون معه دون أن يراهم؛ بل قد يكون فى مخدعه نهارًا أو ليلاً، قد أضناه العياء، فلا يقرون حول مضجعه، بل يسيحون فى مختلف الأماكن يتلمسون عملاً يساعدون به أباهم أو صاحبهم. ويا رُبَّ قوم جلسوا يذكرون جهادك، فتنبرى هذه الذرية الخفية المباركة تبث العواطف فى القلوب بإذن الله، وتثير خواطر الخير فى أذهان القوم، فإذا بالحديث يسترسل بالثناء عليك وتأييدك ووجوب مناصرتك، وإذا بهذه الأرواح الخفية تفعل ما لا تفعل المقالات والخطب، وقد تستقبل فى غدك واحدًا من هؤلاء أو أكثر يبايعك على دعوتك ويطلب إليك أن تشركه فى تأسيس هيئة فى قريته.

أيها الأخ: هذه هى الذرية، فاحرص عليها فى جهادك، جهادك القولى والعملى، وجهادك السلمى والحربى، واعلم أن المجاهد الذى ينزل إلى الميدان بدون جمع من هذه الذرية لهو أضعف نصيرًا من المجاهد الذى ينزل ميدانه بغير سلاح. واعلم كذلك أن هذه الذرية تعمل لأبيها وبيد أبيها من ألوان الكفاح ما يثير الدهشة، ويدعو إلى العجب، وفى مثل هذا يقول ابن القيم: «إن العسكر كانوا يشاهدون من قوة الإمام ابن تيمية فى الحرب أمرًا عظيمًا».

ألاَ هل بلغت، اللهم فاشهد.

* * *

الباب الثالث

مصادر الداعية وموارده

لا نريد بهذه المصادر أنها مدد خطابته، وموارد بلاغته، ومناهل المعانى التى يتدفق بها حديثه، إنما نريد قبل كل هذا: مصادر النمو لملكاته، والوحى لروحه، والإلهام لمشاعره النفسية، والتوجيه العملى لسير رسالته، ومواد البناء للمجتمع الفاضل الذى ينشده؛ ونحن نذكر من هذه الموارد على سبيل المثال لا الحصر:

(١) القرآن الكريم.

(٢) السنة المطهرة.

(٣) تاريخ الأمم والشعوب وسير الرجال والأبطال.

(٤) واقع الحياة الجارية.

ولا بأس من ذكر كلمة توجيهية عن كل مصدر منها.

* * *

[١] القرآن الكريم

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وكذلك أوحينا إليك روحًا من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان﴾ [الشورى: ٥٢]

كثير من الناس، بل كثير من أهل العلم والبحث، إذا تكلموا عن القرآن الكريم، قالوا: إنه ذو ناحيتين: ناحية المعانى، وناحية الألفاظ؛ ثم يتشعبون شعبًا ويتفرقون فرقًا بعد هذا.

فأهل الأدب ينظرون فى جمال المعانى، وجودة العبارات والأساليب، ثم يجهدون أنفسهم فى تعرف وجوه إعجازه، هل هو معجز بألفاظه وتراكيبه، أم هو معجز بمعانيه، أو معجز بكليهما؟

وأهل الفقه والقانون ينظرون فى الألفاظ والمعانى؛ ليستخرجوا منها الأحكام الشرعية فى العبادات والمعاملات ونحوها.

وأهل الجدل ينظرون فى الألفاظ والمعانى ليستخرجوا أصول العقائد وكيفية حفظها والدفاع عنها.

والاجتماعيون ينظرون ليستخرجوا جامع حقوق الإنسان فى المساواة ونحوها؛ ومقومات الأسرة وعوامل ترابطها ووثاقة بنائها.. إلى قواعد المعاملات التى تنتظم الجماعة فى نطاق التعاون والشورى.. إلى قوانين الأخلاق التى تتزكى بها ضمائر الأفراد، وتعلو آثارهم ووجهاتهم فى الحياة.

والسياسيون والاقتصاديون ينظرون ليستخرجوا ما لا يخفى. على أن هؤلاء وسابقيهم لا يذهبون ـ مع الأسف ـ فيما يتصدون له مذهبًا جديًا فيه غناء.

هذه الطوائف وغيرها لا ترى فى القرآن غير ناحيتى الألفاظ والمعانى، وقد أوردنا هذه الآية الكريمة على رأس هذا الكلام ليعرف القارئ أن القرآن «روح» وليس ألفاظًا ومعانى فقط.

ولست أبيح لنفسى أن أفاضل بين الروح والمعانى والألفاظ، فكله من الله سبحانه، وهو بكل شىء عليم. ولكننى أقول: إن الاهتمام بناحية الروح فى القرآن يجب أن يأخذ مكانه فى قلوبنا وعقولنا. وليس حسنًا أن نهتم بالروح فى أجسام

الحيوان والإنسان، ولا نهتم بها فى كلام الله سبحانه وتعالى، فكلاهما من أمر الله عز وجل. فهو يقول هنا عن الروح فى كتابه: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى: ٥٢]، ويقول فى موطن آخر عن الروح فى الأجسام: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥].

فعلى الذين يبحثون فى إعجاز القرآن وغير إعجازه، أن يلتمسوا هذا الروح قبل كل شىء، ثم يطلبوا ما فى الألفاظ والمعانى من قوة وجمال وموعظة وأحكام؛ فإن الباحث فى إعجاز الألفاظ لا يَعْدِمُ مكابراً يدَّعى أنه لا يشعر بإعجاز، ويدعى أن لديه من الآثار الأدبية ما هو أروع منه، أما الروح الإلهى فإن إعجازه قائم، لا شك فيه، وإفحامه مسلَّم به من الجميع، فلم يحدث أحد نفسه بمعارضة آثاره فى كلام الله سبحانه، كما أنه لن يفكر فى معارضة آثاره فى أجسام الكائنات، وقد أشار القرآن إلى كلا الإعجازين فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ﴾ [الحج: ٧٣]، وقال: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨]؛ لأن المسألة ليست صورة بدنية أو كلامية، فهذا ما يستطيع كل مكابر أن يدعى القدرة على صنعه وإنشائه، ولكن الإعجاز أظهر ما يكون فى بث الروح الذى تحيا به الأبدان، وينهض به شأن الكلام.

ولست هنا بمتكلم عن إعجاز القرآن فأسترسل فى بيان آثار الروح الإلهى فيه، وإنما أتحدث باعتباره أعظم مصادر الوحى والنمو لملكات الداعية ومشاعره، فيجب على الداعية بل كل إنسان:

أولاً: أن يقرأ القرآن على أنه روح، وللروح آثاره، ومن آثاره الحياة والنمو والقوة والسمع والبصر، ولا نريد أن نطيل بذكر الآيات التى تدل على أن القرآن حياة للقلوب والملكات، وأنها تنمو به وتقوى، وتسمع وتبصر، ولكنا نطلب إلى الداعية أن يلتمس هذا الروح، وأن يحتال لإيجاد الصلة بينه وبين قلبه، حتى تسرى تياراته وإشراقاته فى كيانه كله. وليس ضروريًا لانتقال هذا الروح القرآنى إلى قلب الإنسان أن يقرأ القرآن كله، بل الضرورى أن يزيل الفوارق والحجب التى تفصل بين قلبه وبين القرآن، فإذا زالت، وصار القلب أمام القرآن وجهًا لوجه،

أحس بالحياة والقوة والنور والخشية والحنان تملأ وجوده. وآية واحدة من كتاب الله كفيلة بهذا لو أحسنا الاتصال بها. وأنا أعنى ما أقول، فإن التحقق بمعنى آية واحدة سلبًا وإيجابًا، وعملاً واعتقادًا، والتزامًا بتكاليفها فى غير تهاون ولا رخاوة، مع مخالطة روحها لخفايا القلب، يحيى الإنسان ظاهرًا وباطنًا، ويجدده وينيره.. كالذى يلمس السلك الكهربائى، إذا لمسه من أى طرفيه، أو من أى نقطة فيه، سرى سر الكهرباء فيه واضطرب وانتفض، دون أن يتوقف ذلك على لمس أجزائه كلها مرة واحدة فى وقت واحد. القرآن حبل الله المتين، كما يقول رسول الله ﷺ، طرفه بيد الله، وطرفه الآخر بيد الناس، فأى جزء أخذنا منه بجد وقوة، سرى سره إلى القلوب، فارتجفت به وحَيَتْ: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الزمر:٢٣].

ولعلك تقول: وما فائدة القرآن كله ـ إذًا ـ ما دامت آية واحدة منه كافية لإحياء القلوب؟ ولماذا لم يكتف الله سبحانه بآية أو بضع آيات؟ وهذا سؤال حق، واعتراض له وجاهته، ولكن الاعتراض يزول إذا علمنا أن مهمة القرآن ليست حياة القلب فحسب، إنما هى وضع مناهج العمل الذى تنتظم به الحياة إلى ما تقدم، حتى لا يضل المرء عملاً واعتقادًا، أثناء سيره إلى الله، ويقول بعض العارفين: «من تصوف ولم يتفقه فقد تزندق»، والتصوف هنا حياة القلب، والتفقه معرفة أحكام الله وحدوده التى سميناها مناهج العمل، والزندقة ضلال عن سبيل الله. ألا ترى يا أخى أن الله عز وجل، حين أحيا الإنسان بما بثه فيه من أسرار الروح، لم يتركه سدى، بل خلق له العقل الذى ينظم له هذه الحياة ويدبر له أمره، بما يدرك من أصناف الضرر والنفع؟

كذلك روح القرآن، به تحيا القلوب، وعقل هذه الحياة الذى يوجهها إلى الله على بصيرة هو الأحكام الشرعية، ولذا يقول رسول الله ﷺ: «فقيه واحد أشد على الشيطان من ألف عابد». وهذه الحياة ـ كما ذكرنا ـ تحدث بآية واحدة، بل بكلمة واحدة، لأنها روح لا دخل لها بالأحجام والمساحات، ولا بطول الكلام وقصره، أما الأحكام، فإن الله عز وجل يعلم من طبيعة تكويننا أن عقولنا لا

تفقهها، إلا وهى مفصلة فى مواضع شتى. ولو كانت طبيعة العقول كطبيعة القلوب، فى تقبلها للحقائق جملة واحدة فى لحظة واحدة، كلمح البصر أو هو أقرب، لساق لنا الأحكام فى آية واحدة، أو لكان للأحكام شأن لا نعرفه، غير هذا الشأن الذى نعرفه. ولكن الله سبحانه يجرى كل شىء على سنته التى فطره عليها. والله عليم حكيم، فليس المعول عليه فى إحياء القلوب مقدار ما نقرأ من القرآن، إنما هو كيف نقرأ القرآن. ونوصى هنا:

١ ـ بالتأمل والتدبر والوقوف على كل عبرة ومعنى. ويجب أن تكون القراءة فى خلوة هادئة ولا سيما خلوات الليل، حيث يشف القلب، وتنكشف أغطية النفس.

٢ ـ سل نفسك قبل قراءة القرآن، هل هواك مع الله أو مع الدنيا؟

واعلم يا أخى أن كل هوًى من الأهواء الدنيوية إنما هو حجاب كثيف بينك وبين الله، وبين قلبك وبين القرآن. فحب المال حجاب، وحب البنين حجاب، واشتغال القلب بشواغل الدنيا حجاب أو حجب. وإعجاب المرء بعلمه أو ذكائه أو صلاحه أو قوته أو جاهه، من الموانع الكثيفة الثقيلة، وميل الطبع إلى شىء مما حرم الله، وبغضه الخير لمنافسيه، وحسده وحقده، ورغبته فى نزول الأذى والمصيبة بمن يكره، هذا ونحوه أكِنَّة يبتلى بها القلب، فتحول دون وصول الروح القرآنى إليه.

فعليك يا أخى أن تعرف فى صراحة ـ بينك وبين نفسك ـ هل بينك وبين القرآن حجاب من هذه الحجب أم لا؟ والمقياس أمامك، فأنت وشأنك ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ [الأنفال: ٤٢]، ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ [الإسراء: ٤٥، ٤٦].

يا أخى حياة القلب هى كل شىء، وأنت طالب حياة فلا تبخل بأى جهد يجعلك من الأحياء، مهما شق عليك، ونحن فى رسالة لا ينهض بحقها إلا القلب الحى، وفى رحلة إلى الدار الآخرة لا ينفع فيها مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم، فجرد قلبك من هذه الأهواء، على ما بيناه فى الروحانية

الاجتماعية؛ ليكون قلبك سافراً غير محجب، فإنك حينئذ تدرك وتحس وتحب وتكره وتبكى وتخشع وأنت فى روضة من رياض الجنة.

٣ ـ ويجب أن تستحضر عبوديتك لله، استحضرها حقيقة لا مجازاً، استحضرها شعوراً قوياً، يريك انقياد العبد لسيِّده الكبير العظيم، ونحن جد خبيرين بحالة الاضطراب والذبذبة التى تعترى المرء بين يدى رئيسه القوى الجبار، ونعرف أن كيان هذا المرءوس يتركز كله فى أذنيه، يسمع بها ما سيقال له، ويتركز فى قلبه ليتلقف ما يلقى عليه، فإذا عينه وملامح وجهه وحركات رأسه تؤذن كلها بالطاعة، وتلقى ما يقال لها أو تؤمر به بمزيد القبول والارتياح.. كل هذا ليشعر المرءوس رئيسه أنه يتحرى مواضع رضاه، وأن لا إرادة له إلا فيما يريد رئيسه العتيد.

هذه الحالة التى يدخل فيها عبد لعبد مثله، هى التى نريد أن يدخل فيها العبد لمولاه ذى الجلال والإكرام؛ فلو وُفِّق إلى مثلها؛ لتطايرت من فوقه الحجب، ولرأى نفسه أمام عظمة عرش الله عز وجل وكأنها لا شىء؛ فإذا به فى سلطان الله؛ يفر منه إليه، ويتركز وجوده فى أذنه وقلبه، فيغدو لأمر الله ونهيه وَقْعٌ فى قرارة نفسه لا يدانيه وقع كلام آخر. وتلك حالة يمكن كسبها بالممارسة والمران، وهى بلا شك موصل جيد لروح القرآن إلى قلب الإنسان.

٤ ـ واستحضار تلك العبودية، بصفة جدية حقيقية، يورث الإنسان نهضة إلى أمر مولاه، ومسارعة إلى إنفاذ ما كلفه به وألقاه عليه فى القرآن، وهذا يعنينا من ناحيتين:

الأولى: أن تنفيذ الأمر إن هو إلا تفسير عملى له يكشف خفاياه ويجلو غوامضه، ويكسب صاحبه فقهاً فى كتاب الله، لا يناله النظريون الواقفون عند حدود التلاوة النظرية.

والثانية: أن تنفيذ الأمر إن هو إلا تنفيذ لتكاليف شاقة، كم تقاصرت دونها الهمم؛ فإذا راض المرء نفسه على التنفيذ وتحمل مشقة الرياضة والمجاهدة ونهض بهذه التكاليف بغير هوادة ولا رخاوة، فقد أحدث موراناً فى قلبه وعصبه، وتنبهاً فى وعيه، ويقظة فى ملكات نفسه، وهذا مما يزيد فى تفهمنا لكتاب الله والوقوف

على كثير من أسراره ومعانيه.. وبدون التنفيذ الحار تكون الأعصاب بليدة فاترة، وملكات النفس غافلة راكدة، فلا يصلح شيء منها لمطالعة روح القرآن.

٥ - والقرآن يا أخى كلام الله، وقد تفرد الله بكل صفات الكمال والجلال، ومن شأن كل كلام - حتى كلام البشر - أنه يدل على أسرار صاحبه، وصفات ذاته، فإذا أراد أحدنا أن يدرس شخصًا ما، اتخذ كلامه مادة من مواد الدراسة التى تعينه على مراده.. فأولى بنا ثم أولى أن نلتمس أسرار الله فى كلامه سبحانه وتعالى، ومطالعة معانى صفات كماله وجلاله فيه، قال جعفر بن محمد الصادق رضى الله عنه: «لقد تجلى الله عز وجل لخلقه فى كلامه ولكنهم لا يبصرون».

ولكى نبصر تجليات الله فى كلامه، أرى أن نستحضر ما له سبحانه وتعالى من صفات الجلال والجمال، كالقدرة والهيمنة، والبر والرحمة، وغيرها مما لا طاقة لنا بالإحاطة به، نستحضر من ذلك ما نستطيع فى هيبة وخشوع.. فإذا أقبل أحدنا على القرآن، وفى قلبه شعور بهيبة هذه الصفات، وفى نفسه شوق لمطالعتها واستجلائها، فإن آيات القرآن ستشف له بإذن الله عنها.

إن أحدنا قبل أن يقرأ المقالة، يقرأ اسم صاحبها، فإذا كان من كبار الكتاب استحضرنا له فى الحال ما نعرف من صفات بلاغته وقوة معانيه وسداد آرائه، بل وملامح نفسه، فيعيننا هذا على تعرف ما فى المقال، وحسن الالتفات إلى إشاراته ومراميه. وكثيرًا ما نقرأ المقال بدون إمضاء فنراه عاديًا، فإذا قيل لنا إنه لفلان من كبار الكتاب، أعدنا قراءته بعد أن نستحضر ما لهذا الكاتب من صفات القوة والامتياز، فإذا بنا نجد فى المقال ما لم نجده أولاً، وإذا بروح الكاتب تطالعنا من خلال سطوره، بعد أن كانت وراء الحجاب غير منظورة، ولله المثل الأعلى، ولعلك يا أخى أدركت ما نريد.

٦ - وأخيرًا يجب أن نقرأ القرآن كأنما نسمعه من الله سبحانه وتعالى، وهذا أمر يكاد يكون من البدهيات التى نغفل عنها، فالقرآن كلام الله، خاطبنا به، ووجهه إلينا، وأبسط مقتضيات هذا أن نصغى إلى هذا المتكلم العظيم، ونحسن الاستماع إليه: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٤].

والإنصات إلى الله لا يكون بالأذن، بل بالقلب وبوعيك كله، وهى منزلة

تقتضى الإنسان مرانًا ورياضة وتدرجًا فى مقاماتها الرفيعة. قال بعض السلف: «كنت أقرأ القرآن فلا أجد له حلاوة، حتى تلوته كأنى أسمعه من رسول الله ﷺ يتلوه على أصحابه، ثم رُفعت إلى مقام فوقه، فكنت أتلوه كأنى أسمعه من جبريل عليه السلام يلقيه على رسول الله ﷺ، ثم جاء الله بمنزلة أخرى، فأنا الآن أسمعه من المتكلم به، فعندها وجدت لذة ونعيمًا لا صبر لى عنهما».

وهو من مقامات الشهود، التى لا قِبَل بوصفها إلا بذكر آثارها، فقد رووا عن بعض آل البيت، أن حالة لحقته فى الصلاة، فخر مغشيًا عليه، فلما سُرِّى عنه قيل له فى ذلك، فقال: «ما زلت أردد الآية على قلبى، حتى سمعتها من المتكلم بها نفسه، فلم يثبت جسمى لمعاينة مقامه سبحانه وتعالى».

هذا يا أخى بعض ما يصلك بروح القرآن، فإذا اتصلت نمت الحياة فى نفسك، واهتز قلبك وترعرع، وأنبت من كل زوج بهيج، وكان مالك بن دينار يقول: «ما زرع القرآن فى قلوبكم يا أهل القرآن؟ إن القرآن ربيع المؤمن، كما أن الغيث ربيع الأرض».

ثانيًا: فى القرآن الكريم قصة كاملة، لأروع مظاهر الجهاد، وأصدق حقائقه، وأشرف مقاصده، لواء القيادة فيها معقود لرسول الله ﷺ، ومن خلفه صحابته رضوان الله عليهم.

ونحن نوجب على كل إنسان أو كل داعية على الأقل، أن يطالع أنباء هذه القصة فى أجزاء القرآن الكريم، ويدرس طبيعة الجهاد فى الميدان المكى، وطبيعته فى الميدان المدنى، مطالعة دراسة وتفهم، لا مطالعة تلاوة وتسلية.

وتيسيراً لعبء الدراسة، نذكر أن الجهاد المكى كان صراعًا هائلاً بين عقليتين متغايرتين تمام التغاير:

١ - عقلية تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وتنظر إلى حقائق الوجود، وإلى الغاية من الحياة على ضوء هذا الإيمان.

٢ - وعقلية مادية جاهلة، لا تفقه من حقائق الإيمان شيئًا، وتنظر إلى الوجود على أنه هو هذا الظاهر الحسى الدنيوى المحدود، الذى يبدأ من المهد إلى اللحد.

فالتوحيد مسلم به من العقلية الأولى، ولكنه عجب لدى الأخرى: ﴿أجعل الآلهة

إلها واحدا إن هذا لشيء عجاب ﴿٥﴾ وانطلق الملأ منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم إن هذا لشيء يراد ﴿٦﴾ ما سمعنا بهذا في الملة الآخرة إن هذا إلا اختلاق﴾ [ص: ٥ - ٧].

وهكذا تفكير العقلية الحسية المطموسة، فقس عليه كل ما يدور حول التوحيد من جدل ونقاش.

والإيمان بالرسل لا غرابة فيه لدى العقلية المؤمنة، ولكن العقول المادية تنكر هذا أشد الإنكار: ﴿أبعث الله بشرا رسولا﴾ [الإسراء: ٩٤]، وقالوا متهكمين ساخرين: ﴿ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق﴾ [الفرقان: ٧]، واتخذوا من فقر الرسول حجة تدعم رأيهم، فلو جاز في زعمهم أن يختار الله رسلاً من البشر لاختارهم من ذوي المكانة والجاه والمال: ﴿أؤلقي الذكر عليه من بيننا﴾ [القمر: ٢٥]، ﴿لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم﴾ [الزخرف: ٣١].

وملائكة جهنم تسعة عشر؛ فلا يتصور هؤلاء الماديون إلا أن الملائكة مثلهم، فيتهكمون ويتندرون بهذه النار التي يعذب فيها من لا يحصى من البشر، وليس يحرسها إلا تسعة عشر، فينزل فيهم قوله تعالى: ﴿وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ويزداد الذين آمنوا إيمانا ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون وليقول الذين في قلوبهم مرض والكافرون ماذا أراد الله بهذا مثلا كذلك يضل الله من يشاء ويهدي من يشاء وما يعلم جنود ربك إلا هو وما هي إلا ذكرى للبشر﴾ [المدثر: ٣١].

أما البعث، فأبعد هذه العقائد كلها عن عقولهم: ﴿وقال الذين كفروا هل ندلكم على رجل ينبئكم إذا مزقتم كل ممزق إنكم لفي خلق جديد﴾ [سبأ: ٧].

هذه أمهات العقائد التي دار عليها الجدل بين هاتين العقليتين، وترى القرآن المكي يسجل الكثير منه، فهو يقرر العقيدة ويذكر وقعها لديهم، ويورد جدلهم حولها، وما لهم فيها من شبهات وشكوك، ويرد على ذلك كله بالبرهان القوي والمنطق الفطري الواضح، مما يبين لك خصائص العقلية المادية، ويعطيك صورة واضحة لهذه الحرب الجدلية التي اضطرمت نارها في مكة ثلاثة عشر عامًا.

وكما كان الصراع بين عقليتين، كان كذلك بين قوتين، قوة الإيمان العزلاء، وقوة الطاغوت الغاشمة المتغطرسة، وقوة الإيمان لا تبغي لنفسها شيئًا، وقوة

أخوف ما تخافه أن يضيع سلطانها وتفقد ما تحصل عليه من منافع على الطاغوت

الضعفاء، فهى تصب غضبها وأذاها على المؤمنين، لا تعرف فى ذلك إلاً حساب

ولا ذمة. وقوة الإيمان لا تقابل هذا الطغيان بالاستكانة والذلة؛ بل بدرع الإيمان والاعتصام بالثقة بالله وبرسوله.

والقرآن المكى يصور هذا كله ويورد أمثلته وحوادثه.

فإذا قرأت أنباء هذين اللونين من ألوان الصراع فى تؤدة وتمهل، وتتبعت وقائعها فى القرآن المكى وحده، وتنقلت من سورة إلى سورة على حسب ترتيب النزول وهو مبين فى مصحف حفنى ناصف وزملائه، فإنك لا تلبث أن تدخل بعواطفك فى هذا الصراع، وتدب حرارته وحماسته فى قلبك، وتكون بهذا أقدر على فهم القرآن، وتمثُّل حقائقه ومعانيه، وأجدر أن تنتفع بأنباء هذا الجهاد العملى فى معترك جهادك، وميدان رسالتك، فما أشبه الليلة بالبارحة، والمعول على الفطنة التى تحسن العرض والاستشهاد.

أما الميدان المدنى فكانت قوة المؤمنين تنازل فيه ثلاث جبهات مختلفة: اليهود، والمنافقين، ومشركى العرب جميعًا، لا مشركى مكة وحدهم، مع ملاحظة: أن قوة المؤمنين هنا أكثر عددًا وعدة مما كانت فى مكة، فهى قوة مسلحة خطيرة.

١- أما اليهود:

فهم أهل علم وكتاب سماوى، ورثوه منذ قرون، ولكنهم ورثوا نصوصه، ولم يرثوا روحه؛ فاستقرت نصوصه فى أدمغتهم، وأقفرت نفوسهم من روحه ومُثُله العليا، وطال بهم الأمد فقست قلوبهم وفسق أكثرهم عن أمر ربه، ودخلهم حب الدنيا وتعاملوا بالرشوة وأخذوا الربا وقد نهوا عنه، فهم يأخذون عَرَضَ هذا الأدنى باطلاً وسحتًا ويقولون: سيغفر لنا، وإن يأتهم عَرَضٌ مثله يأخذوه فى غير تورع ولا استحياء؛ لأنهم أبناء الله وأحباؤه، فلن تمسهم النار إلا أيامًا معدودة. وهكذا أخضعوا دينهم لدنياهم، واشتروا بكتابهم ثمنًا قليلاً.

ذلك موجز أمرهم وأمر آبائهم من قبل.

فلما جاء رسول الله ﷺ المدينة، حدد علاقته بهم بمحالفة مرضية، تكفل لهم

الأمن والنظام والحرية والعيش الحسن، لو أرادوا، لكنهم لما رأوا قوته تزداد، وسلطانه يعظم، ودينه يهيمن، وزمام الأمور الاقتصادية والسياسية ينتقل إليه، أكلت قلوبهم الغيرة، وزاد بهم الحقد والغيظ، ﴿ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَلا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ [المائدة: ٦٨].

فهاتان صفتان خسيستان: بيعهم الدين بالدنيا، وهو داؤهم القديم.. والغيرة الحاقدة، وهى داؤهم الجديد.. مع دهاء ومكر ودس وغدر. وقد سجل القرآن صفقتهم الخاسرة ببيعهم الدين بالدنيا فى مثل قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴾ [آل عمران: ١٨٧].

ويدور كثير من آيات القرآن المدنى حول تسجيل هذا المعنى واستهجانه. أما حرصهم على الدنيا، وتشبثهم بها، فإنك تراه فى مثل قوله تعالى: ﴿ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ [البقرة: ٩٦]، وتنكير كلمة «حياة» وخلوها من «ال» يدل على أنهم يريدون حياة وكفى، دون أن يهمهم نوع الحياة، فأى نوع وقع لهم فهو حسبهم؛ فسواء لديهم الحياة الوضيعة والرفيعة، أو الدنيئة والشريفة، أو الذليلة والعزيزة. فليس المهم عندهم النوع، وإنما المهم «حياة» من أى نوع كان.

وسجل غيرتهم وحقدهم فى قوله تعالى: ﴿ مَّا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلا الْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ ﴾ [البقرة: ١٠٥]، وقوله تعالى: ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ ﴾ [البقرة: ١٠٩]، وقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ [آل عمران: ١١٩].

وهل تنتظر يا أخى من هؤلاء الذين حرصوا على الحياة الدنيا فى ذلة، وباعوا بها دين الله، أن يكونوا صرحاء كالمشركين فى حرب رسول الله ﷺ؟ لقد كان المشركون يشنون عليه حربهم العدوانية بالجدل والأذى، فى صراحة وجرأة. أما هؤلاء الأذلة فلن تنتظر منهم إلا حرب الجبناء الدساسين، وهى حرب يحرصون

فيها على حياتهم وسلامتهم قبل كل شيء. ولن يهمهم بعد ذلك أن يتخذوا ما شاء لهم الجبن الذليل من الأساليب الدنيئة فى غير تورع ولا كرامة، وإذا كان هؤلاء باعوا دينهم بدنياهم، واشتروا بكتابهم ثمنًا قليلاً؛ فهل تظنهم يتورعون أن يحرفوا هذا الكتاب إذا اقتضت أساليب الحرب الدنيئة أن يحرفوه؟ وهل يكلفهم هذا قطرة دم واحدة؟ أو يعرض حياتهم وسلامتهم لأى نوع من الأذى؟

لقد سمعوا النبى ﷺ، وعلموا أن القرآن يقول إنه جاء بمثل شريعة موسى والأنبياء من قبله: ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ ﴾ [الشورى:١٣]، ويستشهد على هذا بالمماثلة الواضحة بين تشريع التوراة وتشريع القرآن، ويسوق من أمثلة هذه المماثلة قوله تعالى: ﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالأَنفَ بِالأَنفِ وَالأُذُنَ بِالأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ ﴾ [المائدة:٤٥].

هذه دعوى النبى الجديد ودعوى قرآنه الذى جاء به وقد استشهد بهم وبكتابهم، فإن قالوا نعم، فقد أمكنوا عدوهم من أنفسهم؛ وإن قالوا لا، أبطلوا حجة الخصم، وشفوا أنفسهم من غيظها.. أفتظنهم يتورعون؟ وذكر القرآن أيضًا أن التوراة بشرت بهذا النبى، وذكرت بعض صفاته، فقال: ﴿ الَّذِى يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ ﴾ [الأعراف:١٥٧] الآية.

أفيتركون هذا الاسم مكتوبًا عندهم فى التوراة؟ وهل يعترفون أن كتابهم بشر حقًا بهذا النبى الأمى؟ أم أن هذه فرصة أخرى لتحريف الكتاب وإخفاء الاسم الكريم؟

هل يتورع الجبان النذل أن يشفى غيظه بهذا التحريف؟

هذا يا أخى هو القطب الذى دارت عليه أساليب الحرب اليهودية لرسول الله ﷺ، فإذا استحضرناه فى أذهاننا كانت معانى القرآن التى سجلته أكثر وضوحًا فى قلوبنا ومداركنا، وذلك مثل قوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لا يَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة:١٠١]، ﴿ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِن بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَمَن يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ

فلن تملك له من الله شيئا أولئك الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم لهم في الدنيا خزى ولهم في الآخرة عذاب عظيم﴾ [المائدة: ٤١]، ﴿وإن منهم لفريقا يلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون﴾ [آل عمران: ٧٨]، ﴿يا أهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق وأنتم تعلمون﴾ [آل عمران: ٧١].

وقالوا فى إبطال نبوة رسول الله ﷺ: إن الله أخذ علينا عهداً فى التوراة أن لا نؤمن لرسول إلا إذا جاءنا بقربان تنزل عليه النار من السماء فتأكله، ولا نراك جئت به، فنحن معذورون إذا لم نؤمن بك، لأن هذا عهد الله، ومن يدرس هذه الحجة الواهية يجد فيها ضعف الجبناء الأذلاء؛ الذين لا يرون مواجهة خصمهم فى شجاعة.

ولو كان ما يقولون حقًا لآمنوا قديمًا بالرسل التى جاءتهم بهذه القرابين، فإنهم كفروا بهؤلاء الرسل وقتلوهم. وقد ألم بهذا المعنى كثير من آيات القرآن الكريم: ﴿الذين قالوا إن الله عهد إلينا ألا نؤمن لرسول حتى يأتينا بقربان تأكله النار قل قد جاءكم رسل من قبلى بالبينات وبالذى قلتم﴾ وبالقربان الذى قلتم ﴿فلم قتلتموهم إن كنتم صادقين﴾ [آل عمران: ١٨٣]، ﴿أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ففريقا كذبتم وفريقا تقتلون﴾ [البقرة: ٨٧].

لم يكن هذا هو السلاح الوحيد الذى حاربوا به رسول الله ﷺ، فإن التحريف وكتمان الحق أقل مظاهر الحقد والغيظ، ولا يشفى هذه القلوب إلا عمل إيجابى يتصدع به بناء هذا الدين الذى يعظم شأنه، وتتوالى أنباء نصره فتحرق أكبادهم، ﴿إن تمسسكم حسنة تسؤهم وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها﴾ [آل عمران: ١٢٠].

ولكن هذا العمل الإيحابى يجب أن يكون عمل الجبناء الأذلاء، الذين يحرصون على حياتهم وسلامتهم قبل كل شىء، فماذا عسى أن يكون هذا العمل؟ هو الدس بين أنصاره، ومحاولة تشكيكهم بحركات شيطانية. ومن أمثلة الدس: أنهم رأوا جمعًا من الأوس والخزرج يجلسون إخوانًا بعضهم مع بعض فى مجلس واحد، يتجاذبون أطراف الحديث فى ألفة ومودة، فغاظهم هذا، وأرسلوا من اندس بينهم ليذكر شيئًا من الحروب التى كانت بين القبيلتين قديمًا قبل مجىء

النبى؛ أى قبل ظهور الإسلام، فذكر شيئًا من مفاخر الحرب يوم بعاث، وأنشد أشعاراً فى أمجاد الفريق المنتصر، فتهلل لهذا أحد الفريقين، وثار الفريق الآخر، وما لبثوا أن قاموا يضرب بعضهم وجوه بعض، فبلغ الخبر النبى ﷺ، فأسرع إليهم، وكف بعضهم عن بعض، وكشف لهم عن مراد اليهودى الدساس، فندموا، وأقبل كل فريق على الآخر يصافحه ويعتذر إليه، وفى هذا ينزل قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٠٠].

ومن أمثلة التشكيك الشيطانية أنهم كانوا يبعثون فريقًا منهم فيؤمنون برسول الله ﷺ، فيفرح بهم المسلمون، ويشيع خبرهم فى المدينة، ثم يعود هؤلاء الذين آمنوا فيتظاهرون بأنهم درسوا حال الرسول عن قرب، ودرسوا طبيعة دينه، فلم يجدوه هو الرسول الذى تذكره التوراة، ولم يجدوا قرآنه على شىء. وبعد تمثيل هذا الدور الخسيس، يعلنون فى أسف أنهم مضطرون إلى أن يعودوا إلى دينهم القديم، ما دام النبى المنتظر لم يبعث بعد. وبهذا يصدون عن سبيل الله من آمن، أو من يريد الإيمان، ويتركون كثيرين فى شك وحيرة: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [آل عمران:٩٩]، ﴿وَقَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [آل عمران: ٧٢].

ولجأوا أيضًا إلى الاستهزاء والسخرية بشعائر الدين وبما ينزل الله من آيات القرآن، ليوهموا البسطاء أنه ليس بشىء. لما نزل قوله تعالى: ﴿مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ﴾ [الحديد:١١] سخر بعض اليهود وضحك، وقال: إن رب محمد فقير ويطلب أن نقرضه، وأخذ يعلق على هذا المعنى ويسترسل فيه، ليلقى فى رُوع الناس أن الرب الذى يحتاج إلى القرض لا يصح الإيمان به، وغضب أبو بكر، وضرب ذلك المتجنى الأثيم، فارتفع الرجل إلى رسول الله يشكو، فقص عليه أبو بكر ما حدث، فأنكر الرجل وتبرأ على عادة الأذلاء الأدنياء، فأنزل الله سبحانه وتعالى فى هذا قوله: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ [آل عمران: ١٨١].

وهزئوا كذلك بالأذان، وتغيير القبلة، ونحوها من شعائر الدين: ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا﴾ [المائدة:٥٨]، ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلاَّهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا﴾ [البقرة:١٤٢]، ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ﴾ [النساء:١٤٠]، ومثل هذا كثير فى القرآن الكريم.

على هذا دار شأن اليهود مع الدين الجديد:

(١) تحريف للكتاب وإنكار لما فيه وكتمان له.

(٢) ودس بين أنصاره وأتباعه وتشكيك لهم.

(٣) واستهزاء بشعائره وآياته، منبعثين بذلة الجبان الدنيء وغيظ المحنق الحاقد، وبه نقرب كثيرًا من فهم القرآن الكريم فهمًا عاطفيًا، لا فهمًا منطقيًا فقط.

أما موقف النبى ﷺ منهم، فنورد منه ما يأتى:

أ - الجدال بالتى هى أحسن: ﴿وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [العنكبوت:٤٦]، والنفس القوية المؤمنة لا يعقل أبدًا أن تنازل الأدنياء بسلاحهم. ولقد ظل رسول الله ﷺ صابرًا على ما ذكرنا من أمرهم أخذًا بالتى هى أحسن، ولو شاء لانتقم منهم لدين الله، وفى يده من السلطان والقوة المسلحة ما يعينه على هذا، لكنه ترك أمرهم لله، وظل على جدالهم بالحسنى والمنطق القوى.

حقًا لقد أجلى رسول الله ﷺ بعضهم عن المدينة، وقتل الآخرين، ولكن لم يكن هذا انتقامًا لما حرفوا فى الكتاب أو نحوه، إنما كان لأنهم نقضوا محالفتهم معه، وحاول بنو النضير أن يقتلوه غدرًا فى إحدى زياراته لهم، وهموا - فعلاً - بما حفظ الله منه نبيه، وذكر قصتهم فى سورة الحشر. وغدر بنو قريظة فى غزوة الخندق، ودبروا من الخيانة ما لو تم أمره لما بقى مسلم واحد على ظهر الأرض، ولتغير مجرى التاريخ، وكانت الدنيا على غير ما نراه الآن. وقصتهم مفصلة فى كتب السيرة، وقد أورد القرآن طرفًا منها فى سورة الأحزاب.

فرسول الله ﷺ ما كان يأخذهم فى جدالهم إلا بالتى هى أحسن، والصفح عما يأتون من جرائم الذلة والدس والحسد: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ

اللهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة:١٠٩].

ب - دعوتهم إلى الإيمان بالرسل جميعًا، وبالكتب المنزلة كلها، لأن القرآن جاء مصدقًا لما بين يديه من الكتب والرسل، وما دام الجميع يدعون إلى الله، وغايتهم واحدة، وكتبهم متفقة فى القواعد والأصول، فالإيمان بهم جميعًا واجب، ونصرة من يجيء من هؤلاء الأنبياء واجبة، لأنها نصرة لله سبحانه: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [آل عمران:٨١].

وهذه دعوة خالصة، إذا وجهت إلى من يدعو إلى الله فرح بها، ولا يضيق بأهلها، فالدعاة إلى الله مجاهدون لغاية واحدة، يفرح بعضهم ببعض وينتصر بعضهم بنصر بعض، وكلما نزلت إلى الميدان طائفة جديدة، تعمل بعملنا وتدعو بدعوتنا، ولها شاهد فى كتبنا، وجب أن نفرح بها، لأنها تعزيز لقوتنا. أما مناوأتها والتفرغ لخذلانها، فهو شأن من يعمل لنفسه لا لله. ولهذا رأينا اليهود يضيقون ذرعًا برسول الله ﷺ. لقد دعاهم إلى الإيمان بالكتب كلها لا بكتابه فقط، فأى حرج فى هذا؟ ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ﴾ [المائدة:٥٩]، ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [المائدة:٦٨]، لقد ضاقوا بهذه الدعوة السمحة، ولم يحضرهم إلا كزازة النفس، ولؤم الطبع الأنانى: ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا﴾ فقط ﴿أَوْ نَصَارَىٰ﴾ فقط ﴿تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة:١٣٥، ١٣٦].

واستمر الرسول ﷺ على هذه الدعوة العامة يقررها، ويثبتها فى إنسانية سمحة فسيحة، حتى جاء الحق وظهر أمر الله وهم كارهون.. وهو موقف لا تَعْلَقُ به ذرة من غبار، موقف القوى بإيمانه، الواثق من وعد ربه.

جـ - تذكيرهم نعم الله عليهم، وما خصهم به من فضل: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ

اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم وأنى فضلتكم على العالمين ﴾ [البقرة:٤٧]، ﴿ وإذ نجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفى ذلكم بلاء من ربكم عظيم ﴿٤٩﴾ وإذ فرقنا بكم البحر فأنجيناكم وأغرقنا آل فرعون وأنتم تنظرون ﴾ [البقرة:٤٩، ٥٠]، ﴿ وظللنا عليكم الغمام وأنزلنا عليكم المن والسلوى ﴾ [البقرة:٥٧]. . . إلخ، وهو أسلوب إذا تقربت به لأعدى أعدائك لان وأسلس، ولكن الأنانى الحاقد الذليل لا يرضيه إلا أن يخلو له وحده وجه الأرض.

وكان لا بد من الحملة عليهم، وتعقب مخازيهم، وهتك أستارهم وأسرارهم، ولكنها حملة هى غاية فى العدل، فلم تتجاوز تقرير الحقائق، وبيان ما ارتكبوا من جرائم التحريف والتغيير، وذكر ما لأسلافهم فى الماضى من مواقف مع الأنبياء، ابتداء من موسى إلى عيسى عليهم صلوات الله وسلامه، وما كان لهم من خلاف وتعنت وجحود بآيات الله؛ وقتل لبعض هؤلاء الأنبياء وتكذيب لبعض. . يسرد ذلك كله حتى لا يخدع الناس بهم، ويعرفوا أن موقفهم اليوم من القرآن إن هو إلا حلقة من سلسلة ماضيهم الطويل، وعادة يجرون فيها مع ميراث قديم. وهو فى كل هذا لا يتجاوز ما هو مكتوب عندهم فى التوراة.

وإنك لتتبين عدالة هذه الحملة، حين ترى الإسلام فى تقريره للوقائع يذكر ما لهم وما عليهم؛ فيقول عن أصولهم وأجدادهم: ﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ [آل عمران:٣٣]، ويقول فيهم: ﴿ وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ [الدخان:٣٢]، ولكنه مع هذا يقرر أنه مسخ بعض هؤلاء القدامى، فجعل منهم القردة والخنازير، بما فسقوا عن أمره، ويعدل معهم فى حاضرهم، فيقول: ﴿ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَٰئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ [آل عمران:١١٣، ١١٤]، ﴿ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴾ [المائدة:٦٦].

ولقد كان رسول الله ﷺ بسلوك هذه الخطة العادلة، يطمع أن يؤمن هؤلاء به؛ فقطع الله له كل طمع فيهم، وقال له: ﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ

ملتهم﴾ [البقرة: ١٢٠]، ﴿ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك﴾ [البقرة: ١٤٥]، ﴿أفتطمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون﴾ [البقرة: ٧٥].

وبعد: فيمكن تتبع أخبار الجبهة التى نازل فيها رسول الله ﷺ اليهود فى سور القرآن المدنى، ولا سيما البقرة وآل عمران والمائدة، ولعل ما مضى يرسم لنا خطوطًا أولية لسير هذه المعركة، تساعدنا على قوة فهم ما جاء عنها فى القرآن الكريم، لا فهم الباحث فقط، بل فهم الداعية، الذى يريد أن يصل عواطفه بنبض الحوادث فى كتاب الله كذلك، وأشير دائمًا أن يكون تفسير ابن كثير بجانبك، فإنه بعد معرفة هذه الخطوط الأولية يساعدك على أن تعيش فى جو هذه المعركة، كأنك تراها أو تسمعها، ولهذا أثره العظيم فى إبلاغ روح القرآن إلى قلب قارئه، وفى أن يشهد الداعية ألوانًا من المنازلة والمصاولة ينتفع بها فى دعوته.

- **جبهة المنافقين:**

لما جاء رسول الله ﷺ المدينة المنورة، كان أهلها على أهبة المناداة بعبد الله بن أبىّ ملكًا عليهم، فتغير مجرى الحوادث على غير ما يهوى هذا الرجل، فأقام مدة وحوله جماعة من أنصاره وأصدقائه يقلبون الأمور ويبتغون الفتن لرسول الله ﷺ، ولكن الله أعز جنده، وأيد دينه، فأقبل بعضهم على بعض منذ يوم بدر، وقالوا: هذا أمر قد توجّه، ورأوا الناس يدخلون فى دين الله، ويقبلون على رسوله بالسمع والطاعة والمحبة، فكرهوا أن يظلوا وحدهم، فدخلوا فى الإسلام ظاهرًا، وبقيت قلوبهم على جحودها وغيظها، فكانوا يقومون بمهمة «الطابور الخامس» لليهود ولغير اليهود من أعداء رسول الله ﷺ؛ فأعلم الله رسوله بنبأ هؤلاء المنافقين بصفة عامة لا خاصة، ليأخذ حذره، فقال: ﴿وممن حولكم من الأعراب منافقون ومن أهل المدينة مردوا على النفاق لا تعلمهم نحن نعلمهم﴾ [التوبة: ١٠١]، ثم زاده معرفة بهم فقال: ﴿أم حسب الذين فى قلوبهم مرض أن لن يخرج الله أضغانهم (٢٩) ولو نشاء لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم ولتعرفنهم فى لحن القول والله يعلم أعمالكم﴾ [محمد: ٢٩، ٣٠].

وقد عرفنا موقف المشركين بمكة، واليهود بالمدينة، ثم موقف هؤلاء، ولا شك أنهم أحقر الثلاثة، وأخسهم نفسًا والأمهم طبعًا؛ فليس كالنفاق آفة تحلق المروءة والرجولة، ولهذا يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِى الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٤٥].

وتتلخص أساليب هذه الحرب السرية فى الأنواع الآتية:

(أ) إضعاف شأن المسلمين فى الحروب، وهؤلاء المنافقون أقدر من غيرهم على القيام بهذه المهمة، فقد دخلوا فى الإسلام، وأظهروا الإخلاص لنبيه، وأتقنوا دورهم، حتى أن عمر نفسه لم يكن يعرف عن أكثرهم إلا الصلاح والورع. فكان هؤلاء «الصلحاء الأكابر» يقعدون عن الخروج للقتال، أو يستأذنون فى القعود. فإذا رآهم من هو أقل منهم من العامة، اقتدى بهم وأدركه شىء من الفتور والتثاقل. وكانوا كذلك يشيرون على غيرهم بالقعود معهم، فيقعد من يقعد، ويخرج إلى القتال من يخرج مخالفًا مشورتهم. فإذا قتل قالوا: ﴿لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [آل عمران: ١٦٨].

وكان بعض هؤلاء المنافقين يخرج ولكنه يعود من الطريق، ويقول: والله ما ندرى علام نقتل أنفسنا؟ فإذا رجع رجع معه طائفة كبيرة من الجيش؛ كما حصل يوم أحد. فإذا خرجوا ولم يرجعوا من الطريق سعوا بالفتنة، وبثوا روح التخاذل فى الجيش؛ كما حصل فى غزوة تبوك، إذ قال بعضهم: يظن هذا (يعنى رسول الله) أنه يفتح قصور الروم وحصونها، هيهات هيهات. ويقول آخر: أتحسبون جلاد بنى الأصفر كقتال العرب بعضهم بعضًا؟ والله لكأنا بكم غدًا مقرَّنين فى الحبال، وصدق الله العظيم: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ﴾ مشوا بالفساد ﴿يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ﴾ [التوبة: ٤٧].

(ب) كانوا ينتهزون كل فرصة سانحة للوقيعة بين المسلمين وإثارة الفتن فى صفوفهم.

فى غزوة بنى المصطلق تدافع غلامان على الماء أحدهما لرجل من المهاجرين والآخر لرجل من الأنصار. فصاح المهاجرى: يا للمهاجرين، وصاح الأنصارى: يا للأنصار. وسمعها عبد الله بن أبى رأس المنافقين فلم يتركها تمر دون أن يستغلها

فى الوقيعة التى يريد، فقال: قد ثاورونا فى بلادنا، والله ما مثلنا وجلابيب قريش هذه إلا كما قال القائل: «سمِّن كلبك يأكلك». ثم أقبل على من فى مجلسه وقال: هذا ما فعلتم بأنفسكم؛ أحللتموهم بلادكم، وقاسمتموهم أموالكم، أما والله لو كففتم عنهم لتحولوا عنكم من بلادكم إلى غيرها، والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل.

وأرادها الرجل فتنة بين المهاجرين والأنصار، ولكن الله أحبط كيده وحفظ جنده من التفرقة بتصرف حكيم بارع لرسول الله ﷺ فصلته كتب السيرة.

(جـ) محاولة الغض من جلال الرسالة بالاستهزاء برجالها، واختراع الأراجيف فى حقهم، فهذا عبد الله بن أبى يخترع حديث الإفك ويتولى كبره؛ وهو ضربة موجهة للإسلام بطريق غير مباشر. فإن شك الناس فى عرض عائشة وعرض أبيها وأسرته، وشكهم فى النبى الذى كان فى زعمهم معاشراً امرأة زانية ـ هذا الشك من شأنه أن يضعف الحماسة لرسول الله وزعماء الإسلام، وقد تفاقم خطب هذا الحديث وأفاض فيه كثير من المسلمين، وكاد يتحول إلى كارثة إسلامية بتنازع الأوس والخزرج، لولا حكمة رسول الله الذى أسرع فحسم الشر. وقد تولت كتب السيرة بيان ذلك وحكمة رسول الله ﷺ فى علاجه.

وكانوا يتنقصون أتقياء المؤمنين فى سخرية وتهكم؛ قال رجل منهم فى جماعة من صلحاء القراء: ما أرى قراءنا هؤلاء إلا أرغبنا بطونًا، وأكذبنا ألسنة، وأجبننا عند اللقاء. فلما علم رسول الله ﷺ بهذا غضب، وجاء الرجل يعتذر ويقول: إنما كنا نخوض ونلعب.

وقالوا عن النبى إنه أُذُن، كلما قال له أحد شيئًا صدقه، فإذا قيل له ضده صدقه أيضًا.

وكانوا يهزءون بالمطوعين من المؤمنين فى الصدقات، فمن أعطى جزيلاً رموه بالرياء، ومن أعطى قليلاً، لأنه لا يجد إلا جهده، سخروا منه.

كل هذا وهم معدودون من المسلمين، لا يستطيع أحد أن ينكر عليهم إسلامهم، لأنهم يقولون بألسنتهم لا إله إلا الله محمد رسول الله، وتحت ستار هذه الشهادة يأتون ما يأتون من الجرائم، فإذا سئلوا اعتذروا، أو أنكروا وأقسموا.

(د) تدبير الاتصالات السرية باليهود والمشركين والنصارى، للإيقاع برسول الله والمسلمين، وأنباء هذه الاتصالات مذكورة فى كتب السير والتفاسير، ونذكر منها على سبيل المثال ما كان من منافقى رهط أبى عامر الراهب، فقد سافر هذا الرجل إلى ملك الروم يستنصره على النبى، فوعده ومنَّاه، وأقام عنده، وكتب إلى جماعته من أهل النفاق يعدهم ويمنِّيهم أنه سيقدم عليهم بجيش يقاتل به رسول الله ﷺ، ويغلبه ويرده عما هو فيه؛ وأمرهم أن يتخذوا له معقلاً منعزلاً، ليستقبلوا فيه رسله وكتبه، وليكون مرصداً له إذا قدم عليهم بعد ذلك؛ فبنوا لهذا الغرض مسجداً سمى فيما بعد مسجد الضرار، وهو الذى نزل فيه قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ [التوبة: ١٠٧].

أما موقف النبى ﷺ من هذه الفئة فهو موقف لا يقفه غيره عليه السلام:

(أ) كان يترك إلى الله سرائرهم ، ويعاملهم بما يبدو من ظواهرهم. جاءه منافق ليتوب من نفاقه، فقال: يا رسول الله، الإيمان على لسانى، والنفاق فى قلبى، ولا أذكر الله إلا قليلاً، فقال عليه السلام: «اللهم اجعل له لسانًا ذاكرًا، وقلبًا شاكرًا، وارزقه حبى وحب من يحبنى، وصيِّر أمره إلى خير»، فقال الرجل: يا رسول الله إنه كان لى أصحاب من المنافقين، وكنت رأسًا فيهم، أفلا آتيك بهم؟ فقال عليه السلام: «من أتانا استغفرنا له، ومن أصر فالله أولى به، ولا تخرقن على أحد سترًا».

(ب) كان يشفق عليهم من إثم ما يجرمون، فإذا أنبأه الله من أمرهم شيئًا استدعى أحد أصحابه وقال له: أدرك القوم فإنهم قد احترقوا، فاسألهم عما قالوا، فإن أنكروا فقل: بلى، قلتم كذا وكذا، كما حدث فى غزوة تبوك لما حاولوا إرهاب المسلمين من الروم.

(جـ) كان يشعرهم أن إغضاءه عنهم هو إغضاء الكريم الذكى الفطن، لا إغضاء الغفلة والبلادة؛ فكان أحيانًا يغمزهم بما يكاد يكشف أمرهم، فكلامهم غير كلام المؤمنين الصرحاء: ﴿ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ ﴾ [محمد: ٣٠]،

وأحوالهم غير أحوال المؤمنين المطيعين: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً﴾ [التوبة:٤٦]، ولكنهم لم يعدوا شيئًا كما أعد غيرهم، فكان من علامة المنافقين عدم اهتمامهم بالاستعداد للقتال، اكتفاء بعذر كاذب، يعتذرون به للرسول ﷺ، بل كان الاعتذار نفسه من جملة صفاتهم المميزة لهم: ﴿إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ الآية [التوبة:٤٥].

(د) وصف ما هم عليه من الجبن، وتفاهة القدر: ﴿وَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُو الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُن مَّعَ الْقَاعِدِينَ ﴿٨٦﴾ رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ﴾ أي النساء [التوبة:٨٦، ٨٧]، ﴿فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٠﴾ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾ [محمد: ٢٠، ٢١]، ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ﴾ [المنافقون:٤].

وكل منصف يرى أن اكتفاء القرآن بوصف حقيقتهم هو أعدل المواقف، ولك أن تقدر ما كان يحل بهؤلاء الخونة المستترين، لو أنهم كانوا فى دعوة من الدعوات الحديثة، لترى السماحة التى قوبلت بها جرائم هؤلاء.

فطبيعة الموقف فى هذه الجبهة أن المنافقين كانوا يجهدون لإضعاف الروح المعنوية فى الجيش الإسلامى، ويعملون لشق جماعتهم، ويحاولون الغض من جلال الرسالة؛ ليهون شأنها فى قلوب الناس، ويتصلون سرًا بأعداء الإسلام فى الداخل والخارج للقضاء عليه، أما الرسول ﷺ:

(١) فكان يقبل منهم ظاهر أمرهم ويترك إلى الله سرهم.

(٢) ويشفق عليهم من إثم ما هم فيه.

(٣) ويكتفى بأن يشعرهم بفطنته التى لا يروج لديها نفاقهم.

(٤) ولا يوقع بهم من الأذى أكثر من وصف مجموعتهم بالجبن وتفاهة القدر، دون أن يعرض لأشخاصهم بشىء.

ولعل فى هذا التلخيص ما يعين الداعية على فهم ما ورد فى القرآن الكريم خاصًا بهذه الناحية، وهو - طبعًا - فى السور المدنية، ولا سيما فى صدر سورة البقرة، وسورة النساء، والتوبة، ومحمد، والمنافقين.

• جبهة المشركين:

وهى هنا جلاد بالسيف، ومعارك تراق فيها الدماء. غير أن القرآن لا ينحو فى تسجيلها نحو المؤرخين، ولا يسرد أنباءها سرد المراسلين الحربيين فى ميادين القتال، إنما هو نمط عجيب يعرض عليك من حوادث الجند وأخبار المعارك وكلمات الرجال، ما هو جدير بالاعتبار والتسجيل.. نمط يبث فى ثنايا الحوادث والمقالات قوانين الحرب وأحكام القتال، وآداب الجهاد.. فتقرأ حين تقرأ عجائب من النصر تحير اللب على غير ما يحتسب خبراء الحروب، وهممًا نازعة إلى أشرف البيع طموحًا إلى منازل العز عند مليك مقتدر. والعجب المحير هو الصورة التى تحقق بها وعد القانون، وأن الهمة النازعة هى المقدار الذى تتنزل به عجائب الثمار، فهى بطولة مؤسسة على القانون، وقانون يعرض نفسه عليك فى أنباء البطولة، فإن قلت: إن سر القانون لبس القوم فكانوا أبطالاً، فأنت صادق. وإن قلت: إن القوم صاغوا بأعمالهم صورًا حية لهذه القوانين، فأنت كذلك صادق. والقرآن الكريم إنما يرمى إلى كلا المعنيين: يشيد بفضل القوانين؛ ليبعث بالهمم إليها، ويشيد بأعمال المؤمنين؛ لتكون منوالاً لمن ينسج عليها.

ولسنا بصدد إيراد كل ما جاء فى القرآن عن قوانين الحرب وآداب القتال، وإنما بصدد تحليل لون من ألوان جهاده ﷺ بالمدينة؛ والمقام يقتضينا الاقتصار على ما يبين لنا طبيعة الموقف فى هذه الجبهة الثالثة من جبهات جهاده ﷺ:

١ ـ **والمادة الأولى من هذا القانون** توجب أن يكون القتال فى سبيل الله، وقد قرأ المسلمون هذه المادة وفهموها، ورعوها حق رعايتها، لأن قلوبهم استوعبتها، وآمنت بها حق الإيمان؛ ونحن نكتفى بأنواع ثلاثة من أغراض القتال فى سبيل الله.

الأول: لنشر العقيدة الإسلامية، إذ يقول الله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾ [الأنفال: ٣٩].

الثانى: لتحرير الأوطان، وتخليص أهلها المستضعفين من ذل السيطرة الأجنبية، والله تعالى يقول: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ

والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك وليًا واجعل لنا من لدنك نصيرا﴾ [النساء: ٧٥].

الثالث: تأديب الغادرين الذين نكثوا أيمانهم ونقضوا عهودهم، وهذا قول الله سبحانه: ﴿ألا تقاتلون قومًا نكثوا أيمانهم وهموا بإخراج الرسول وهم بدءوكم أول مرة﴾ [التوبة: ١٣]، وقد نزل هذا القرآن الكريم فى مشركى قريش لما نقضوا عهدهم بالحديبية مع رسول الله ﷺ.

٢ ـ والمادة الثانية من هذا القانون المبارك توجب على المقاتل أن لا ينتظر أجرًا على قتاله إلا من الله سبحانه، وذاك قوله تعالى: ﴿فليقاتل فى سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة﴾ [النساء: ٧٤]، أما الذين يشرون الحياة الآخرة بالدنيا فليسوا من أهل هذا القانون.

وجزاء الله مكفول لا محالة فى الدنيا لمن كتب لهم النصر والغلبة، وفى الآخرة لجميع المقاتلين: ﴿ومن يقاتل فى سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجرًا عظيمًا﴾ [النساء: ٧٤]، ﴿قل هل تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين﴾ [التوبة: ٥٢].

والحسنيان هنا هما: النصر فى الدنيا أى نصر الحق، وأجر الشهادة إذا كان القتل. وأحب بهذه المناسبة أن أنبه إلى خطأ يقع فيه بعضهم بحسن نية، ذلك أنه يجعل إحدى الحسنيين مغانم القتال عند النصر، والأخرى أجر الشهادة. ووجه الخطأ أن المقاتل المسلم إنما يبغى إحقاق الحق لا وجه عرض من الدنيا، وهذا المقصد السامى الجليل يرجح فى ميزان الإيمان كل عرض أدنى ولو كان ملء الأرض ذهبًا.

هذا إلى أن جعل مغانم القتال إحدى الحسنيين فى مقابل أجر الشهادة فى الآخرة مما لا يسيغه أهل الفقه المستنير، فأين هذه المغانم اليسيرة مما أعد الله للشهداء من جزاء لا يحيط به وصف الواصفين، والله تبارك وتعالى يقول: ﴿قل متاع الدنيا قليل﴾ [النساء: ٧٧]؟ فانظر ماذا تقع هذه المغانم من متاع الدنيا القليل، ثم انظر ماذا يقع هذا القليل من أجر الشهادة الضخم الجزيل. وسل نفسك بعد هذا: هل تطمئن إلى أن تكون هذه المغانم فى ميزان الله إحدى الحسنيين، مقابل أجر الشهداء؟

إن الذى يطمئن إليه ضمير المؤمن، أن تكون عزة النصر وعلو إرادة الحق هى إحدى هاتين الحسنيين، وهو الذى يساير قول الله تعالى: ﴿وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٧٤]. فهل يسمى الله مغانم الحرب أجرًا عظيمًا وهو الذى يقول عن متاع الدنيا كلها إنه قليل؟ وبعد فما كان المؤمنون عبيد درهم ودينار، وهم يحملون سيوفهم بأيديهم، وقلوبهم فى صدورهم لا تهتف إلا بالله ولا تنظر إلا لثوابه، فإذا وقع أخيرًا بين أيديهم شىء من الأسلاب والغنائم، فهو مال الله قد زال عنه ملك أعدائه، فهم أحق به وهو حل لهم.

٣ ـ **والمادة الثالثة من جريدة هذه الآداب** تنص على أن مصدر التأييد والعون الذى يلقاه المسلمون فى قتالهم، هو الله سبحانه وتعالى، فليس لمخلوق قوة ذاتية، إلا أن تكون مستمدة منه جل شأنه.

وقد وصف الله ذاته بأنه قوى، وبأنه القوى، وأنه ذو القوة المتين، وأنه القاهر فوق عباده؛ ولكن الجامع لقوته سبحانه، المانع أن يكون لغيره قوة، هو قوله تعالى: ﴿لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ [الكهف: ٣٩].

فإذا حرك المؤمن يده ليضرب بها، فإنما يحركها بقوة الله لا بقوته هو: ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾ [التوبة: ١٤].

وكم صرع المسلمون الرجال، وجندلوا الأبطال، فنزل القول الحكيم يقرر الحق فيما فعلوا: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾ [الأنفال: ١٧].

ولقد جاء الرجل فقال: يا رسول الله، إن القوم قد جمعوا لك عددهم وعدتهم، وأرى أن تستقبل أمرك بشىء من الحذر والخشية، فنظر الرسول إلى عرش الله، فإذا قوة ساحقة ماحقة، لو توجهت إلى كل من فى الأرض وما فى الأرض جميعًا لجعلته لا شىء، فزاد إيمانه ﷺ، وقال: «حسبنا الله»، ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣]. وليس هذا بغريب ممن أدبه الله بمثل هذا الأدب فى قوله: ﴿أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ الرَّحْمَنِ إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ﴾ [الملك: ٢٠].

ولقد كان بعض المسلمين يدخل عليهم أحيانًا ـ من باب السهو ـ شىء من

الإعجاب بكثرتهم، فيحيق بهم فى الحال ما يردهم إلى حقيقة قانون الله: ﴿ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴾ [التوبة: ٢٥].

٤ ـ والمادة الرابعة من هذا الدستور الحربى الكريم تنص على أن نصر الله ليس هبة توهب، ولا منحة تمنح بدون مقابل، وإنما شرطه أن ينبعث المرء فعلاً إلى الجهاد فى سبيل الله: ﴿ إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ [محمد: ٧]. فمن تمنى على الله الأمانى، وقعد فى بيته ينتظر أن ينصره الله، فقد دل من نفسه على غفلة خائبة، وأضاع عمره فى غير جدوى.

ونظام العمل فى هذه المادة، أن ننهض نهضة قوية شاملة، وأن نأخذ بكل الأسباب الممكنة، وأن نعذر إلى الله باستفراغ كل ما فى الطاقة من جهد، ولو كان جهد المقل، فهذا وحده مفتاح نصر الله، وهو وحده السر الذى تحرك به جنود الله فى السماء والأرض.

واعلم أن هناك كثيراً من آيات القرآن تدور حول هذه القوانين، وتتصل بها من قريب أو بعيد، فتشرحها شرحًا مستفيضًا. فإذا كان هناك من يظن أنى ألممت بالشرح الوافى لكل مادة فليحذر هذا؛ فإنما هى موجزات مضغوطة، لو أردنا أن نسرد كل الآيات التى تشير إليها لامتد بنا القول. . فتنبه لهذا والله معك.

وأعود أخيرًا فأقرر أن القرآن الكريم فى هذه الناحية لا يسرد أخبار الجيوش وحركات الجند، وإنما يقرر هذه القوانين ونحوها، ويذكر من أقوال المجاهدين وأعمالهم ما هو تطبيق لها، وتفسير عملى لأسرارها، وتجريب واقعى لصحة موعودها، فلا بد من استحضار هذا كله فى الذهن عندما نقرأ أنباء هذا اللون الدامى من ألوان الجهاد فى سبيل الله، فإن الآية حينئذ تفصح لنا عن مكنونها بأكثر مما كانت تفصح من قبل.

واقرأ على هذا من الآن غزوات: بدر، وبنى النضير، وأحد، والخندق، وبنى قريظة، والحديبية، وتبوك، فى سور آل عمران، والأنفال، والتوبة، والأحزاب، والفتح، والحشر، وكلها مدنية؛ فإنك واجد إن شاء الله ما حدثناك به، على أن تجعله مصباحًا تهتدى به فى رسالتك وجهادك.

• أسس المجتمع فى القرآن:

ثالثًا: يجب أن نقرأ القرآن على أنه يرمى إلى بناء مجتمع فاضل، أو مجتمع نموذجى كامل، وعلينا أن نلتمس مواد هذا البناء فى آياته البينات على النحو الآتى:

١ ـ ما هى التعاليم التى سنها القرآن للفرد ليجعله عضواً سليمًا نافعًا فى هذا المجتمع؟

٢ ـ ما هى المبادئ الاجتماعية، والاعتبارات العاطفية، التى قررها للجماعات ليكونوا متعاونين على البر والتقوى؟

٣ ـ ما هى القواعد التى شرعها لنظام الدولة العام ليتربى فى ظلالها خير أمة أخرجت للناس؟

ولتسهيل البحث، نذكر أن كل ما جاء عن الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وفضائل النفس الذاتية، إنما هو خاص بإعداد الفرد، فعليك بتسريح طرفك فيه، طرفك القلبى لا العادى وحده، فسترى أن القرآن جاء بالممتع المشبع، الذى يبنى كيان الشخص ـ كيانه الباطن ـ أفضل البناء وأقواه، وسترى أنه أفاض فى هذا الباب وأحاط بكل جزئياته وتفاصيله، بما لا يرد على البال، وحبذا لو جمعت لنفسك طائفة مختارة من هذا الباب، تكون مرتبة حاضرة على لسانك عند الاستشهاد.

وفى دستور الجماعات المتعاونة، جاء نظام الطبقات وإقرار الفروق المادية، وكفالة الحقوق الإنسانية فى ظل الإخاء العام، الإخاء الحقيقى لا النظرى، جاء حق الفقير فى مال الغنى، والنص على أن المال مال الله سبحانه وتعالى، ونحو هذا مما تتيسر به الأزمات المادية والنفسية، ويسهل به امتزاج العواطف، وتوافر الحب بين الجماعة، فعليك باستقصاء هذا النوع من المبادئ فى القرآن، مع الاهتمام التام بمعرفة موقع كل مبدأ فى بناء الجماعة على الحب والإخاء.

وفى نظام الدولة: قرر واجب الرئيس الأعلى فى أصلين كبيرين:

(١) العدل فى الحكم.

(٢) رعاية ما ائتمن عليه من حقوق الناس المختلفة: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ [النساء: ٥٨].

وقرر واجب الأفراد فى أصلين كبيرين أيضًا:

(١) الطاعة المطلقة لولى الأمر إلا فى معصية الله.

(٢) الارتفاع إليه بمنازعاتهم التى يعجزون عن حلها بالوسائل السلمية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾ [النساء: ٥٩].

هذا إلى التشريعات الخاصة بحماية النفس، والعرض والملكيات، وتقرير قواعد المعاملات فى البيع والشراء، والدَّين، والرهن، والإجارة، والميراث، ونحوها، والنص على أصول السياسة الخارجية للدولة، من حيث الحرب والسلم والمعاهدات، والتصريح بأسباب ضعف الدولة وقوتها، بما ليس وراءه زيادة لمستزيد.

فإذا نحن قرأنا القرآن، وليس فى أذهاننا هذا الاعتبار، بدا لنا كأنه مصمت مغلق، كأنما نسير فى مدينة غريبة مجهولة التخطيط، ولكنا إذا راعينا هذا الاعتبار بدقة ويقظة انكشف لأبصارنا وبصائرنا حقائق جميلة، ما كانت تخطر بالبال.

رابعًا: وعلينا أن نقرأه على أنه جامع القوانين التى يدار بها هذا الوجود، فإن كل شىء عنده سبحانه بمقدار، وكل أمر يجرى على سنة وقانون، فمن هدى إلى هذه السنن والقوانين، وصدقها وآمن بها، وأحسن توجيهها والانتفاع بها، فقد انحازت إليه مفاتيح هذا الوجود، فلينظر كيف يتصرف فيه.

وإليك بعض هذه القوانين على سبيل التمثيل:

١ ـ الاستغفار، مفتاح أرزاق السماء؛ ولا تحسبن أنا نقصد الأرزاق المعنوية القلبية فحسب، بل هو قانون الأرزاق المادية أيضًا. ولا نحب أن نتركك إلى حدسك وتخمينك، فاقرأ معنا قوله تعالى: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا﴾ [نوح: ١٠ ـ ١٢].

وقد ابتلينا فى العصر الحديث بالغفلة والشك، وذهبنا نظن أن هذا الكلام ومثله، إنما أريد به مجرد الترغيب والترهيب، لا أنه حقيقة واقعة، وقانون صادق؛

ابتلينا بهذا فخسرنا كل شيء. وقد كان سلفنا الصالح يفطنون إليها، ويوقنون بخيرها، ويستفتحون أبواب السماء بسرها، فيسعفهم الله بما يريدون.

رووا أن السماء أمسكت والأرض أجدبت على عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه، فخرج مع الناس ليستسقى لهم، أى يدعو الله أن يمطرهم كما كان يفعل رسول الله ﷺ فى مثل هذه الشدائد، فاستغفر عمر ربه هنيهة، ثم عاد بالناس، فقالوا له:

ـ ما نراك استسقيت لنا؟!

ـ قال: لقد استسقيت لكم بمجاديح السماء.

ـ قالوا: وما مجاديح السماء؟

ـ قال: الاستغفار.

وكأنهم حاروا فى أمرهم: أيقول هذا من عنده، أم هو شىء فى كتاب الله؟ فقال لهم: حيث يقول الله سبحانه: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا (١٠) يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾، وها قد استغفرت لكم، وسيرسل الله السماء عليكم بما يشاء. قالوا: فما أتم عمر كلامه، حتى اهتز الأفق، وبدأت الرياح تثور، وأقبلت السحب تترى، حتى انعقد فى سماء المدينة ظُلَّة من الغمام، وأنجز الله موعوده: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا (١٠) يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾.

٢ ـ حصن النعم، أن تقول: «ما شاء الله لا قوة إلا بالله». وهو قانون كريم، وتعليم صادق حكيم، أجراه الله فى سورة الكهف على لسان الرجل المؤمن، حين قال لصاحبه وهو يحاوره: ﴿وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ [الكهف:٣٩]. وكم قرأنا نحن هذا القول دون أن نلتفت إلى ما فيه من الخير، حتى أوقفنا عليه رسول الله ﷺ بقوله: «ما أنعم الله على عبد نعمة من أهل أو مال أو ولد، فيقول: ما شاء الله لا قوة إلا بالله، فيرى فيه آفة، دون الموت».

ولهذا كان بعض السلف يقول: من أعجبه شىء من حاله أو ماله أو ولده، فليقل: «ما شاء الله لا قوة إلا بالله». وهو قول مأخوذ من الآية الكريمة، ويستند إلى الحديث الشريف.

٣ ـ كل عمل السوء يرتد على صاحبه، فيوبقه. هذا قانون لا يتخلف من

قوانين الله. فنية الشر تلد فى كل عمل روحًا شريرًا، تكمن فيه كالوحش، ترتقب الوقت المناسب لتثب فيه على صاحبها، واقرأ معى قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰ أَنفُسِكُم﴾ [يونس:٢٣]، وقوله سبحانه: ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ [فاطر:٤٣]، وقوله: ﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ﴾ [الفتح:١٠]. قال محمد بن كعب القرظى: «ثلاث من فعلهن لم ينج حتى ينزلن به: المكر، والبغى، والنكث». وتصديقها فى كتاب الله تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ...﴾ إلخ. ورسول الله ﷺ يصور لنا شدة إلحاح الشر فى طلب صاحبه بقوله: «إياك ومكر السيئ، فإنه لا يحيق المكر السيئ إلا بأهله، ولهم من الله طالب»، بل إن الله عز شأنه يبين لنا بصريح العبارة أن هذا قانون من قوانينه، فيقول عز شأنه: ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ [فاطر:٤٣].

٤ ـ إن كل هدف يسعى إليه المرء باسم الله فهو مدركه لا محالة. ومن السهل على الإنسان أن يصدق هذا بعقله، ولكن ليس من السهل أن يحيط به قلبه، لأنه من حقائق اليقين، التى لا يلم بها إلا ذوو القلوب.

ولقد قلنا فى غير موضع إن شأن القلوب فيما تفقه هو التسليم المطلق بما فقهت، تسليمًا غير مقيد بعلة أو برهان.

أما شأن العقول، فإنها لا تقبل شيئًا إلا بميزان المنطق القائم على الأسباب والمسببات والعلل والمعلولات والأقيسة والمفهومات، وما إلى هذا من قوانين الإدراك العادى.

فإذا انبعث المرء بحقائق فكره، انبعث وهو يقدر لرجله قبل الخطو موضعها. وإذا انبعث بحقائق قلبه، مضى على قانون التسليم المطلق ـ كان ما انبعث إليه حقيقة واقعة.

وليس من قصدنا هنا أن نشرح حقيقة الفهم العقلى والقلبى، وإن كنا نحس أن هذا من الضرورات التى لا غنى لأحدٍ عنها، فإن فى القرآن والسنة مدركات تبدو كأنها وهم إذا نظرنا إليها بالعقل وحده؛ فنكتفى بما قررناه، مؤكدين أن الإنسان

فى أشد الحاجة إلى كلا النوعين من الفهم، على أن يحسن الانتفاع بكل منهما فى مقامه.

رووا أن المسلمين جاءوا مصر لفتحها، واجتمع أولو الأمر فيها، وطلبوا إلى قائد الحملة أن يرسل إليهم رسولاً يفاوضهم ويفاوضونه. وكان مما جرى فى مفاوضاتهم، أن حاولوا توهين عزيمته، وإلقاء اليأس فى قلبه من فتح البلاد، فما كان منه إلا أن أجابهم بكل بساطة: يا هؤلاء، إننا لسنا بصدد فتح البلاد، فإن الله قد فتحها لنا منذ أن قطعنا إليكم من الأودية ما قطعنا، فهو سبحانه يقول: ﴿وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ﴾ [التوبة: ١٢١].

ونحن نترك لك أن تتأمل هذا الاستخراج الجميل، والفقه الدقيق، واليقين الصادق، الذى مَنَّ الله به على هؤلاء المؤمنين.

٥ ـ والله سبحانه يقول: ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٦]. فكون الله تعالى يتولى الصالحين قانون نافذ، وقول صادق، فليعلم هذا كل من يحب أن يدخل فى الرعاية التى لا يرام حماها، وكل ما عليه أن يأخذ بأسباب الصلاح، حتى تجرى عليه أحكام هذا القانون الكريم.

وقد يموت الرجل الصالح وله ذرية ضعفاء، فتمتد رعاية الله إليهم، توسعًا منه سبحانه فى عموم رحمته، ولأن رعايتهم رعاية لأبيهم، لما فيها من تطييب قلبه، وتسكين خواطره، وأنت تقرأ تصديق هذا الكلام فى سورة الكهف، إذ يقول سبحانه: ﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي﴾ [الكهف: ٨٢].

فالله سبحانه قد سخر الخضر عليه السلام لإصلاح الجدار، إبقاء على ثروة الغلامين اليتيمين، وإنفاذًا لمشيئته فى رعاية أبيهم الصالح بعد مماته.

وقد قرأنا استخراجًا لطيفًا من هذه القصة، لأمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه: أجدبت الأرض على أيامه، وشكا إليه الناس ما يلقون من شدة، وكان العباس بن عبد المطلب عم رسول الله ﷺ حيًا، فأخذ بيده وخرج ليستسقى

للناس، فقال فى معنى استسقائه: اللهم إن نبيك كان يستسقيك لأمته فتجيبه، وها نحن أولاء اليوم، وليس من يستسقى لنا، اللهم وهذا العباس عم نبيك، وبقية أهله، فاحفظ نبيك الصالح فى هذه البقية، فإنك قلت وقولك الحق: ﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا﴾، فما لبثت السماء أن أقبلت عليهم بالمطر الغزير.

ولعل فيما أسلفنا من هذه الأمثلة ما يغنينا عن الاسترسال فى الاستشهاد، ويقف بنا على حقيقة المراد.

ومع أن من السهل أن يلتفت الإنسان إلى هذه القوانين فى القرآن، ويستخرج منها ما يهديه الله إليه، فإنا نذكر هذه التوجيهات البسيطة تيسيرًا لمهمته:

١ ـ يستطيع كل قارئ أن يجد الكثير من هذه القوانين، فى صيغ المبتدأ والخبر وما هو فى حكم المبتدأ، كقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤١]، ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ١٢٣]. فعليك بملاحظة أمثال هذه الصيغ فإن فيها الشىء الكثير.

٢ ـ وفى صيغ الأمر وجوابه، يسوق الله طائفة كبيرة منها: ﴿اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ۝ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾ [نوح: ١٠، ١١]، ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾ [التوبة: ١٤].

٣ ـ وفى صيغ الشرط وجوابه يطالعك الكثير من سنن الله فى حزم وقوة: ﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾ [محمد: ٧]، ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٤]، ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٣]، ﴿إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ [الأنفال: ٢٩]، ﴿وَلَوْ[1] أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦]، ﴿فَأَمَّا[2] الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ﴾ [الرعد: ١٧].

---

(١) «لو» هنا من حروف الشرط.

(٢) «أما»: من أدوات الشرط كذلك.

٤ ـ وتستطيع أن ترى فى صيغ الحصر والقصر قوانين فى غاية الظهور والجلاء: ﴿لن يُصيبنا إلاَّ ما كتبَ اللَّهُ لنا﴾ [التوبة: ٥١]، ﴿ويأبى اللَّهُ إلاَّ أن يُتمَّ نُورَهُ﴾ [التوبة: ٣٢]، ﴿ولا يقطعُونَ واديًا إلاَّ كُتبَ لهُمْ﴾ [التوبة: ١٢١]، ﴿إنَّما السَّبيلُ على الَّذين يظلمُونَ النَّاسَ ويبغُونَ في الأرْض بغيْر الْحقّ﴾ [الشورى: ٤٢].

٥ ـ كل جملة تفيد ترتيب الجزاء على عمل سابق: ﴿نسُوا اللَّهَ فأنساهُمْ أنفُسَهُمْ﴾ [الحشر: ١٩]، ﴿نسُوا اللَّه فنسيَهُمْ﴾ [التوبة: ٦٧]، ﴿ففررْتُ منكُمْ لمَّا خفْتُكُمْ فوهَبَ لي ربِّي حُكْمًا وجعلني من الْمُرْسلين﴾ [الشعراء: ٢١].

وليس على المرء بعد هذا إلا أن يعنى عناية جدية بالتنقيب عن هذه القوانين، فهى سنن الله الباقية النافذة. وليست هذه الصيغ التى أشرنا إليها كل شىء فى موضوعنا هذا، فإن كل حكم يمكن استخلاصه من آية من الآيات يعتبر قانونًا من هذه القوانين. والمدار كله على النظر، بل كيفية النظر فى هذه السنن، المدار على الاهتمام القلبى، والحرص الذى يشغفك بها كما شغف الذين من قبلنا. اقرأ القرآن على هذا الاعتبار، تنفسح فى نفسك له آفاق وآفاق.

خامسًا: والقرآن، كلام الله سبحانه، وخزانة معانيه، وجامع علومه ومعارفه.. وهذه ناحية لا يدرك الناس غورها، ولا يفقهونها حق فقهها.

فإذا افترق أهل الأذواق الأدبية فى نقد كلام البشر، إلى قائل يدعى أن جودة الكلام راجعة إلى اللفظ دون المعنى، وإلى آخر يمارى بأن المعنى هو كل شىء وما اللفظ إلا وعاء له، والعبرة بلباب الشىء لا بظواهره.. إذا افترق الأدباء إلى هذا وغيره، فإن مما لا شك فيه أن الكتاب يتفاوتون بتفاوت ملكاتهم وخصوبتها فى إنتاج المعانى القيمة، وأن كلامهم بعد هذا يتدرج فى أقدار الشرف بحسب ما يتضمن من هذه المعانى كيفًا وكمًا.

إذا سلمنا هذا دعوناك يا أخى إلى تصور الفروق الهائلة بين البشر وبين الحق تبارك وتعالى ـ إن صح أن يكون هناك فرق بين مخلوق يكاد يكون لا شىء، وبين خالق عظيم جليل هو كل شىء فى كل شىء ـ ولكنا نضطر إلى محاولة تصور هذه الفروق، لنرتب عليها إدراك شىء من الفروق الهائلة بين ما يضمنه

البشر العاجز الضعيف كلامه، وبين ما جاءنا فى كلام الله القديم من معانيه القديمة ومعارفه التى لا يحيط بها حصر، ولا يدرك لها غور.

نريد أن نقرأ القرآن الكريم، ونحن مستحضرون هذا الشعور، أو هذه الفروق فى مشاعرنا ومداركنا، فإن هذا يجعلنا نتوقع أن تشف لنا كل كلمة، بل كل حرف، عن محيطات من المعانى لا ساحل لها، ونحن لا نقول هذا بروح المتعصب الإسلامى، ولكن بروح الإنسان الذى تمثل - على قدر ما يستطيع - ما هناك من فروق هائلة بين البشر وبين الله سبحانه، فلم يجد ما يعبر به عن مراده إلا هذا القول الصادق البالغ غاية الصدق.

إن الله سبحانه ساق كلامه فى قدر محدود من صفحات المصحف الشريف، وسور مقدرة معلومة، هى سور القرآن الكريم، وقد استطاع العلماء أن يعدوا آيات القرآن، ويعدوا كلماته، بل أن يعدوا حروفه، فهى إذن حروف معدودة، تحوى معانى كلام الله القديم كلها.. فكيف نتصور احتواء هذه الحروف علوم الله سبحانه، إن لم يكن فى كل حرف إشارات إلى آفاق وأعماق؟

إن كاتبًا من الكتاب يستطيع أن ينتج فى إنتاجه الأدبى من الحروف عددًا يساوى حروف القرآن، أو أكثر.

فإذا جمعت كل ما أنتج جيل كامل من الكتاب، وأحصيت حروفه، وحاولت أن تستخلص ما فى هذه الحروف من المعانى، ثم حاولت أن تقارن هذه المعانى بما جاء فى كتاب الله، لأدركك الحياء، وأعرضت عن المضى فى هذه المقارنة، تنزيهًا لعقلك أن يستمر فى شىء غير معقول. فإذا جمعت كل ما أنتج كتاب البشرية وفلاسفتها، فى كل أجيالها وعصورها، وتسنى لك إحصاء حروفه، واستخلاص معانيه، ثم حاولت أن تقارن بينها وبين كلام الله، لرفض فقهك ويقينك بالله أن يلتفت إلى هذه الحماقة، ولدوى صوت الوحى فى أعماق قلبك يخاطب هذه الأجيال البشرية فى شخصك: ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ [الإسراء: ٨٥]، ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ۝ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ [الروم: ٦، ٧].

ولمضى الوحى الكريم يتكلم عن الطرف الآخر فى المقارنة، وهو علم الله سبحانه: ﴿قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾ [الكهف:١٠٩]، ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [لقمان:٢٧].

فإذا أنت حاولت أن تجمع علم البشرية كلها، وهو قليل، وتضغطه فى حيز معدود من الحروف، مماثل لعدد حروف القرآن وكلماته، أفلا يحق لك أن تقول: إن تحت كل كلمة إشارات وإشارات إلى علوم ومعارف كثيرة؟ فكيف والقرآن الذى بين يديك، جامع علوم الدنيا والآخرة؛ مما لا يحيط به إلا الله سبحانه؟

حقًا يا أخى، إن تحت كل كلمة من القرآن لأسرارًا بعيدة الأغوار، ورسول الله ﷺ يصفه بأن له ظهرًا، وبطنًا، وحدًا، ومطلعًا، ويقول وقد فقه منه ما لم نفقه إنه «لا تنقضى عجائبه».

فانظر شأن هذا الكلام الذى حوى من العجائب ما لا ينقضى! ولقد كان علماء المادة يقفون فى أبحاثهم عند الذرة، ويقولون: إنها الجوهر الفرد الذى تتركب منه المادة، ولا يقبل هو التجزئة، لتناهيه فى الصغر والدقة.. ولكنهم عادوا يطالعوننا بعجيبة من عجائب الذرة، وهى قابليتها للتجزئة والتحطيم، إذ حطموها فعلاً، واستكشفوا ما فيها من خلائق الله وأنواع الإشعاع، وما زالوا يطالعوننا إلى الآن من أسرار جزئياتها بالعجيب الرائع، وإذا بالقرآن يطالعنا بسر تحطيم الذرة كأنما نقرؤه لأول مرة فى قوله تعالى: ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ:٣]. فكلمة ﴿أَصْغَرُ﴾ وحدها ليست إشارة إلى الذرة فقط، بل هى تصريح جلى بإمكان تجزئتها وتحطيمها، ولك أن تحصى كم من الجهود والتجارب والمعارف سخرت وبذلت فى سبيل تجزئة هذه الذرة؟ وكم من العلوم والمعارف وأسرار القوى يندرج تحت أجزائها؟ وإذا عرفت أن تحطيم الذرة إنما هو باب فقط لآفاق من العلوم جديدة، أمكنك أن تدرك أن كلمة ﴿أَصْغَرُ﴾ هذه كانت تسخر من معارف البشر، حين كانوا ينكرون تجزئتها، وانها حينئذ كانت تشير للغافلين عما وراءها من المعارف الهائلة الخطيرة.

وإذا كان هذا شأن كلمة واحدة من كلماته، فكيف بكلماته كلها؟ بل إذا كان هذا شأن كلمة من الكلام الذى يمس المادة المحسوسة، فكيف بكلمة تتناول من أسرار الروح ما لا نرى ولا نحس؟

ولست بعد هذا أطمع أن أكلف نفسى أو غيرى أن يسبر أغوار هذه الأعماق، وإنما أن يستحضر ذلك الشعور الذى يلفته إلى أنه يقرأ كلامًا لا كالكلام.. يقرأ كلامًا حافلاً بأسرار المعارف والعلوم، حتى لا يترك سطرًا واحدًا دون أن يستخرج منه معنًى واحدًا على الأقل. وليعلم أننا لم نشبع أنفسنا بالكلام عما نشعر به نحو القرآن، وما تحوى آياته من وجوه المعانى العجيبة، فإن هناك لحظات تمر ببعض العارفين، ينكشف فيها الغطاء عن قليل من وجوه هذه المعانى، فإذا عوالم رهيبة خطيرة لا ينجى منها إلا أن يعود الغطاء إلى ما كان: ﴿وما يعلم تأويله إلاَّ اللَّهُ والرَّاسخُونَ فِى الْعلْم يقولُون آمنَّا به كُلٌّ مّنْ عند ربّنا وما يذَّكَّرُ إلاَّ أُولُو الألْباب﴾ [آل عمران:٧]، ﴿لَوْ أَنزلْنا هذا الْقُرْآن علَىٰ جبلٍ لَّرأَيْتهُ خاشعًا مُّتصدّعًا مّنْ خشْية اللَّه وتلْك الأمْثالُ نضْربُها للنَّاسِ لعلَّهُم يتفكَّرُون﴾ [الحشر:٢١].

فقف يا أخى، وابحث، ونقب فى كلام الله، على هدى وبصيرة، فإن المعانى تفتح لك ما استغلق من أبوابها.

اقرأ القرآن على أنه خزانة المعانى، وجامع المعارف، وانظر ماذا تحصل لنفسك منها؟

ابسط مصحفك أمامك، واقصد سورة من سوره، ونقب فيها تنقيب الأثرى الحاذق العالم عن ثمين الآثار وجوهر الكنوز.. اقرأها آية آية، وضع على هامش مصحفك عنوانًا لخلاصة ما يبدو لك من معناها، ثم اجمع ذلك فى جريدة أو «قائمة» تجد نفسك أمام عناوين، أو رءوس موضوعات، فى غاية العمق المليء الحافل بعلوم الحياة وحقائقها، مما لو أردت استمداد الأيام فى شرحها وتفصيلها لطال بك الأمد.

لقد فتحت مصحفى ووجدتنى أمام سورة الزخرف؛ وهأنذا أنقل إليك بعض رءوس موضوعاتها لا كلها:

	بسم الله الرحمن الرحيم
١ ـ القرآن يجمع من خصائص علم الله مضامين العلو والحكمة.	٤ ـ ﴿وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾.
٢ ـ إسرافنا فى الغى لا يفسد استعدادنا للهداية.	٥ ـ ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ﴾
٣ ـ من سنن المبطلين رد الحق والاستهانة بدعاته.	٦، ٧ ـ ﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ (٦) وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾
٤ ـ لنا فى كل نعمة حسية نفعان: نفع حسى، ونفع روحى.	١٢، ١٣ـ ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ (١٢) لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾
٥ ـ النشوء فى الحلية والتنعم لا يرشح للشدائد وعظائم الأمور.	١٨ ـ ﴿أَوَمَن يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾
٦ ـ لا حجة للإدراك الحسى إلا فيما يبلغه سلطانه.	١٩ ـ ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ﴾
٧ ـ الانسياق فى التقليد دون التبصر فى معالم الحق يورث التفاهة وسوء العاقبة.	٢١، ٢٢ ـ ﴿أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِّن قَبْلِهِ فَهُم بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ (٢١) بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ﴾
٨ ـ انسياق القادة فى تقليد مواريث الترف يورثهم المكابرة فيما يجيئهم من الحق ويصرفهم عن النظر فيه.	٢٣، ٢٤ـ ﴿وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ (٢٣) قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ﴾
٩ ـ التزام مواريث التمتع الحسى يعطل ملكة التمييز بين الحق والباطل.	٢٩، ٣٠ ـ ﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَٰؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ (٢٩) وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ﴾

١٠ ـ مقادير الرجال فى مواهب النفس لا فى مواهب الجاه والمال.

١١ ـ تفاوت الناس فى حظوظ المعيشة ودرجات المواهب سنة عمارة الأرض وانعقاد المجتمع.

١٢ ـ حقائق الإيمان ـ فى ميزان الحق ـ معدن العزة والغنى، وقيم المتاع الدنيوى المطموس؛ معدن الصغار والشقوة.

١٣ ـ ذكر الله حياة ملكات القلب وبهجتها ونورها، فإذا أعرض عنه المرء غشيه من الشيطان ما يطمس ذلك كله.

١٤ ـ أدوم أواصر الخُلَّة وأزكاها التحاب فى الله، كل آصرة تقوم على الباطل فهى منقوصة.

١٥ ـ إذا تعطلت البينة فى عقول المدعوين تعذرت الإجابة إلى الحق.

١٦ ـ الدنيا تهلكة، ورسل الحق ودعاته أمنة منها، فمن يرد الأمنة أدركته العقبى لا محالة بمشهد من الداعية أو بعد وفاته.

١٧ ـ الحق عصمة لأهله من فتنة الدنيا وخذلانها.

٣١ ـ ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾

٣٢ ـ ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ أى ليدخل بعضهم فى مصالح بعض وخدمته وتسخيره بالطبيعة لا بالقهر.

٣٣ ـ ٣٥ ـ ﴿وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾

٣٦ ـ ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾

٣٨ ـ ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ﴾

٤٠ ـ ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ وَمَن كَانَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾

٤١، ٤٢ ـ ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾ أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ﴾

٤٣ ـ ﴿فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾

١٨ ـ القرآن مدد الحقائق النفيسة ونباهة الذكر.

١٩ ـ الحق جوهر الأصالة والنفاسة لا ينقض بعضه بعضًا فى اى شىء، أو أى عصر.

٢٠ ـ زواجر الآيات لا تعظ من قام بالباطل أمره.

٢١ ـ إذا تعطلت بينة الفكر ولم يبق إلا الإدراك الحسى اختلت مقاييس القيم، وفرضت مظاهر الحس أحكامها على مداركهم.

٢٢ ـ القيادة فى أى أمة، إما أداة لملء طاقات الشعب بمثل الحق والقوة، أو تفريغها بتزيين قيم الباطل والحسن (انظر آيات: ٥١ ـ ٥٣).

خصائص حكم الطغاة تورث الشعب تفاهة الأحلام وخفة المتابعة على الباطل (انظر آيات: ٥١ ـ ٥٤).

٢٣ ـ من عرَّض صفحته للحق هلك.

٤٤ ـ ﴿ وإنه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون ﴾.

٤٥ ـ ﴿ واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون ﴾

٤٧ ـ ٥٠ ـ ﴿ فلما جاءهم بآياتنا إذا هم منها يضحكون (٤٧) وما نريهم من آية إلا هي أكبر من أختها وأخذناهم بالعذاب لعلهم يرجعون (٤٨) وقالوا يا أيها الساحر ادع لنا ربك بما عهد عندك إننا لمهتدون (٤٩) فلما كشفنا عنهم العذاب إذا هم ينكثون ﴾

٥١ ـ ٥٣ ـ ﴿ ونادى فرعون في قومه قال يا قوم أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي أفلا تبصرون (٥١) أم أنا خير من هذا الذي هو مهين ولا يكاد يبين (٥٢) فلولا ألقي عليه أسورة من ذهب أو جاء معه الملائكة مقترنين ﴾

٥٤ ـ ﴿ فاستخف قومه فأطاعوه إنهم كانوا قوما فاسقين ﴾

٥٥ ـ ﴿ فلما آسفونا انتقمنا منهم فأغرقناهم

٢٤ - من دأب الباطل التشويش والمغالطة بالجدل الباطل.

٥٧، ٥٨ - ﴿ولما ضرب ابن مريم مثلاً إذا قومك منه يصدون (٥٧) وقالوا أآلهتنا خير أم هو ما ضربوه لك إلا جدلاً بل هم قوم خصمون﴾[1].

٢٥ - الحب فى الله صلة باقية وأمن فى الدنيا والآخرة.

٦٧، ٦٨ - ﴿الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين (٦٧) يا عباد لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون﴾

٢٦ - العمل الصالح ابتغاء وجه الله يتضمن سر النعيم الحق.

٧٢ - ﴿وتلك الجنة التي أورثتموها بما كنتم تعملون﴾.

٢٧ - كل تدبير يبرمه - أى يحكمه - عدو الحق لرده بالباطل فهو منقوض فى الحال بتدبير من الله أشد إحكامًا. -

* شأن المبطل فى تدبيره: شأن من يفتل بلا خيط صورة خالية من إيجابيات الكون التى هى قوام كل عمل ومضمونه.

* من أوهام المبطلين ظنهم القدرة على تقرير العواقب.

* المبطل فيما يحكم من تدبير إنما يصنع بأمر الله عاقبة خذلانه.

٧٩، ٨٠ - ﴿أم أبرموا أمرًا فإنا مبرمون (٧٩) أم يحسبون أنا لا نسمع سرهم ونجواهم بلى ورسلنا لديهم يكتبون﴾

---

(١) روى أنه لما نزل قوله تعالى: ﴿إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم﴾ [الأنبياء:٩٨] اغتاظ المشركون، وأراد عبد الله بن الزبعرى أن يغالط النبى ﷺ بقضية ملفقة ليفحمه، فقال: يا محمد، ﴿إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم﴾ هل هى لنا وحدنا ولآلهتنا، أو هى عامة لكل الأمم، ولكل إله عُبد من دون الله؟ فقال عليه السلام: «هى عامة»، فقال: يا محمد، لقد خصمتك، فإن عيسى عُبد من دون الله، فهو على هذا فى النار، وليست آلهتنا خيراً منه، وما علينا ولا على آلهتنا أن نكون معه فى النار، فنزل قوله تعالى: ﴿إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون﴾ [الأنبياء:١٠١]، ﴿ولما ضرب ابن مريم مثلا...﴾ إلخ [الزخرف:٥٧].

ومع أن هذه العناوين ليست كل ما يؤخذ من الآية الواحدة، ومع أننا لم نستوعب كل آيات السورة الكريمة، فأنت ترى أن الطائفة التى سقناها لك من العناوين طائفة قيمة، تمتاز بأن كلاً منها يتناول لونًا من ألوان الحياة العملية، أو القلبية، بل إن منها ما يتناول ما هو وراء المادة كالملائكة ونحوها، وكل منها فى موضعه يتضمن الحق من لباب المعارف، التى لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها.

قراءة القرآن على هذا النحو تقتضيك استحضار قلبك وعقلك، وهذا وحده الذى يفتح لك خزائن تلك المعارف القدسية، وهى معارف تنقلك إلى الملأ الأعلى، وتذيقك من نفحات رضوان الله ما لا قبل لأحد بوصفه.

ولقد حدَّث أخ مسلم جرَّب هذه الطريقة فقال: لقد كنت أجلس إلى مكتبى ساعات طويلة، أربعًا أو خمسًا أو أكثر، فلا يزيدنى من الزمن إلا استغراقًا فى حسن ما أنا فيه، ولقد كانت تفيض بى النشوة فأضطرب، أو يضيق نطاقى عن احتمال طاقات السرور المتدفق، فأضرب بيدى على المكتب أو أبدى من ألفاظ الاستحسان على غير إرادة منى.

أقول: وقد استطاع هذا الأخ أن يقرأ القرآن كله هذه القراءة، وأن يجمع من هوامش مصحفه فى ثلاث سنوات ما هديت إليه مواهبه، ولا يزال كلما أعاد النظر يطلع على شموس ربانية من المعانى القيمة الغالية. وأنا أشير عليك هنا بكتاب «تفسير القرآن العظيم» للإمام الحافظ ابن كثير القرشى. . فهو يعينك على فهم ما تحتاج إلى فهمه، فعليك به واحرص على اقتنائه.

والذى أريده الآن أن أقول لك: اجمع محصول يومك، وهو فى المتوسط لا يقل عن نصف ربع، وهيئه تهيئة طيبة فى قلبك وعقلك.

ثم تحدث به إلى إخوانك الذين اعتدت أن تحدثهم أو إلى من تشاء من الناس، مرتبًا الترتيب الذى ترضاه، فإنَّ تحدُّثك به وهو جديد فى وجدانك، حى فى مشاعرك، لين عبق فى فؤادك، يبلغ بك درجة كبيرة من التأثير فى نفوس سامعيك، بل فى نفسك أنت أيضًا. وهذا من شأنه من جهة أخرى أن يجعل المعانى تربو وترسخ وتتمكن منك، وبكثرة ما تلقى على الناس من هذا المحصول

تنمو ذخيرتك، ويسلس لك قياد الاستشهاد.

وأوصى فى ختام هذه الكلمة أن تجمع الآيات التى تتماثل فى الإلمام بمعنى واحد أو معانٍ متقاربة، بحيث يتالف من كل عدد منها طائفة يتكامل فيها عناصر موضوعها. اشرع فى ذلك بالتدريج فى غير تصنع، وستجد الإمام ابن كثير يعينك أجدى معونة على غرضك هذا فى أول أمرك، ثم لا تلبث أن يكون لك كتابك الحافل الزاخر إن شاء الله، وقد نصحنا بالتدريج لأنه يركز الغرض على مهل فى ذهنك وقلبك، فيكون الموضوع فى عقلك قبل أن يكون فى كتابك، ويكون استشهادك به على طرف التمام، قريب المرام، والله الموفق إلى خير السبل.

سادسًا: أن تقرأ القرآن على أن الغرض الأسمى له هو إعداد الإنسان للدار الآخرة.

فكل ما أشرنا إليه من روح الله فى القرآن، وما جاء فيه من قصص الجهاد، وما ضمنه من نظم الاجتماع، وما أودعه من القوانين والمعارف ـ ليس مقصوداً لذاته، أو ليس غاية تنتهى إليها أهداف الإسلام، وإنما يراد بها إيقاظ القلوب بدلالتها على الله، وإحاطتها بكل وسيلة مادية أو معنوية؛ لتكون فى القلوب سليمة حية، حتى يمضى بها المرء إلى غايته الأخيرة.

فعلينا أن نلاحظ هذا المعنى فى كل آية، فإن العبرة لا تكمل إلا به، وجمال التوجيه لا يظهر بدونه. وفى المقام ما يغرى بالاستطراد والاستشهاد، ولكنا نمسك، اكتفاء بفطنة القارئ الأريب، سائلين الله عز وجل بكل اسم هو له، سمى به نفسه، أو أنزله فى كتابه، أو علمه أحداً من خلقه، أو استأثر به فى علم الغيب عنده، أن يجعل القرآن العظيم ربيع قلوبنا، وذهاب همومنا، وجلاء أبصارنا، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

[٢] السنة

السنة هى المرجع الثانى ـ بعد القرآن الكريم ـ لعلوم الدنيا والدين، وهى نفحات نفس قدسية، وخلاصة كاملة لتجارب أعظم عقل فهم القرآن وآيات الكون، وسنن الاجتماع، وعلل النفوس، ومشكلات الحياة، وضروب الإصلاح.

فإذا أسمعك متحدث: قال ﷺ؛ فأرهف أذنك، واستجمع مواهبك ومشاعرك، لأنك ستسمع أصدق قول، وأنفع قول، وأطهر قول نطق به بشر، وهو بهذه الصفات غُنْم تتضاءل إلى جانبه الدنيا وما فيها، غُنم عقلى وروحى واجتماعى وعملى، يجد فيه كل باحث رى ظمئه إلى ما يشتهى من خير المنافع.

وأريد أن أنص على معنى يغيب عن ملاحظة بعض المعاصرين ممن لهم مشاركة فى السنة، ذلك أن تاريخه عليه السلام ليس كالتاريخ المدرسى أو الجامعى، أو ليس كتاريخ الأبطال والرجال.. فتاريخ هؤلاء يؤرخ ما تأثرت به الحياة بفعلهم وتوجيههم الذاتى المنبعث من عواملهم النفسية الشخصية؛ أما تاريخه عليه السلام فهو تاريخ عمل الله السافر وغير السافر، أجراه سبحانه بيد عبد ربانى ليس له من الأمر من شىء، إذا نطق لم ينطق عن الهوى، وإذا رمى فليست رميته ولكن الله رمى.

-١٠-

فللحقبة النبوية خصائص ذاتية، تميزها من حقب التاريخ العادى جميعًا.. فحقب ذلك التاريخ صنعها البشر العادى أفرادًا وجماعات وشعوبًا، أما تلك الحقبة فقد صنعتها عوامل وخصائص جلت أن تكون من مواهبنا العادية. ولذا كان من الخطأ البين أن ندرسها كما ندرس تاريخ سائر الحقب.

خطأ، لأن الدراسة حينئذ تقوم على أساس غير سليم، أو على غير أساس إطلاقًا، فإن التسوية بين العوامل التى صنعت هذه والتى صنعت تلك، إهدار لواقع أصيل يرفضه العقل، ويأبى أن يرتب عليه أى نتيجة.

وخطأ لأنها ـ إذ تثمر غير الحقيقة ـ تعزلنا عن موارد القوة، ومنابع الخير، ومصادر المعرفة، ونواميس الحق التى تستجيب لرغبات الإيمان ومشيئة اليقين، بما يبهر اللب، على غير ما نألف من منطق، أو نعهد من نواميس. وذلك لب العبرة ومواطن الحقيقة من السيرة كلها.

حقًا إن بعضهم يدرس السيرة على أنها ثمرة كفاح عظيم، وآثار نفس قوية أحبت الخير، والسلم، والعدل، والحرية، والمساواة، وحققت من ذلك ما يؤثر لها

على الأجيال. ولكن ذلك بعيد كل البعد عن كنه الحقائق والدوافع والأهداف التى كان يحيا فيها ولها رسول الله ﷺ، وبعيد كل البعد عن كنه الحقائق التى مثلت في ذهنه وضميره مستعلنة باهرة، فميزت نظرته للأمور بمنطق ليس لسواه، وأشربت وجدانه رقائق من الأدب العميق جمعت له أطراف الحكمة، فكان سلوكه وكل تصرفه ـ فيما يراه الناس جليلاً أو غير جليل ـ صادراً عن تقدير علوى يصيب شاكلة الحقيقة والصواب فى كل أمر، وله فى كل ذلك شأو تتخلف دونه طاقات الأفذاذ.

٢ـ فهو عبد الله

وقد تذكر العبودية فلا يقوم لها فى الذهن إلا مدلول غائم، أو مثال هزيل، أو يمر لفظها فلا نكاد نُعيره أدنى التفات.

أما هو ـ عليه السلام ـ فقد كان محكومًا فى وجدانه ومنطقه، بكل خصائصها، فقد استعلنت هذه الحقيقة كالشمس الباهرة فى كيانه كله، لا تغيب عنه أبدًا، فبعث فيه ذلك من المشاعر السامية والمدارك الدقيقة ما تنزه به عن مجال الجهل والغرور.

لقد كان شعوره بأنه «عبد الله» شعور العامل فى ملك سيده، وليس له فيه من الأمر شيء، ولا سبيل له على أحد من العباد بعد البلاغ. كان ذلك الشعور واضحًا فى نفسه أتم الوضوح، مركزًا فُى إحساسه أدق التركيز: يمده فى مواطن البأس بالثقة فلا يتضعضع، ويعصمه فى مواطن النصر من المخيلة فلا يجاوز مقام الشكر والخشوع، ويلوذ به ـ فى مواطن الثناء والتعظيم ـ إلى رتبة المساواة بين الناس، فيرفض أن يعظم كالملوك؛ وأن يفضل على غيره من الأنبياء، ويبرأ من كل غلو ينحله ما هو خاص بمقام الألوهية. وذلك باب فى الأدب، والرفق، والتواضع، والصدق، والقوة، والاعتزاز بجوهر العقل، وتجنيبه تخييل الوهم والخرافة، وإقامة قواعد السلوك على محض حكم الفطرة.. باب فى الأدب النفسى والاجتماعى كان يتحلى منه عليه السلام بالحظ الأوفر، فزاده الإحساس بعبوديته لله أصالة ومكنة.

وما لم نستحضر تلك الحقيقة فى دراسة سيرته - عليه السلام - فقد عز علينا صدق الفهم لِمَا ندرس، وغابت عنا معادن العبر، ومواطن الإثارة والانبعاث.

٣- وهو رسول الله

وهو رسول الله.

وقد تكرر هذا اللفظ - رسول الله - وسار مسيره على ألسنة الناس فى كل عصور الإسلام وأجياله، حتى صار «اصطلاحًا» يفقد فى الذهن وضوح صورته، وجلال معناه، أو حتى أخذ وسم «الكليشيه» الصامت الجامد، هذا تكرره الأيدى، وذاك تكرره الألسنة فى غير اكتراث أو إلقاء بال لمعناه.

وإن الباحث العميق المنصف، ليستطيع أن يقيم البرهان على صدق رسالته، إذا هو استقرأ - فى صبر - ألوان تصرفه وقوله - عليه السلام - فإنه مفضٍ ولا بد إلى وحدة جامعة بين كل عمل وقول له عليه السلام، فإذا الحبات المنثورة ينتظمها سِمْطٌ واحد، ويشيع فيها جميعًا ملامح وجدان واحد، هو وجدان البشر «الرسول» لا وجدان البشر المنبعث من ذات نفسه، المستقل بإرادته فى أمر يريده، فإنه - عليه السلام - منذ أمر بالبلاغ انقدح فى وعيه معنى خطير لحقيقة «الرسول»، فلم يغب عن ذهنه لحظة، ولم يغرب عن وجدانه قط، إنه «رسول» كُلف إبلاغ أمر إلى الناس من قِبَل الله تعالى، فهو فى كافة أحيانه وجميع أحواله «رسول الله»، ملتزم كل خصائص هذا المعنى على أوفى مدلولاته، محقق فى نفسه كل مقتضياته، وشرائطه الظاهرة والباطنة، فلا تجد عملاً من أعماله، أو قولاً من أقواله، إلا وهو صادر عن هذا المعنى، مطبوع بطابعه. . فهو «رسول» أُمر من الله أن يبلغ رسالة، فما عليه إلا أن يبلغها، وليس له - إطلاقًا - أن يزيد عليها حرفًا، أو ينقص منها كلمة. وما كان من هذه الرسالة موجبًا للثناء وتعظيم القدر، فالمنطق يقضى أن يصرف الثناء والتعظيم كاملين موفورين إلى الله وحده، صاحب الفضل والمنة بالرسالة، وليس من الصدق والكرامة أن يدعى «الرسول» شيئًا من ذلك لنفسه، ولا أن يتقبل شيئًا منه، فكان - عليه السلام - بهذا المعنى الشاخص فى ذهنه وضميره ينسب كل فضل إلى الله تعالى، ويجرد نفسه من أن يكون له فى

الرسالة أى أثر سوى البلاغ.

وغادة الكاذب المدعى لما ليس لديه، المصطنع لغير ما يجد فى نفسه، أن يدركه السهو أحيانًا، فيقع ما يحذر، ويتخلف الطابع الذى اصطنعه فى كثير من قوله وعمله، فيدركه التناقض، ويظهر كذبه. أما الشأن من رسول الله ـ عليه السلام ـ فمطرد فى كل ما يقول ويفعل، لا تجد شيئًا من ذلك إلا وهو منبعث فيه عن وجدان واحد عميق أصيل هو أنه «رسول الله». ولا تأويل لتلك الأصالة المطردة إلا صدق نبوته ـ عليه السلام ـ وأنه حقًا «رسول الله».

فإذا كان وضوح هذا الوجدان فى سيرته ـ عليه السلام ـ دليلاً على صدق رسالته، فهو فى بابنا ضرب من صدق السمت، وفهم الواجب، تتضح به الجادة، وتبصر معالم الغايات بيضاء نقية، فلا التباس فى فهم، ولا حيد عن الطريق، ولا تفريط أو ترخيص فيما يجب أن يكون، وفى نطاقه تحترم الحقائق، ويعزى الفضل إلى أهله، ويوقَّى المجتمع آفة الذين يريدون أن يحمدوا بما لم يفعلوا.

وإهمال هذا المعنى فى دراسة التاريخ النبوى، لا يضع فى أيدينا منه سوى قشور لا تحيى عاطفة، ولا تنير بصيرة، ولا تنهض همة.

٤ ـ استقامة خلقه ونور بصيرته

ولا نعنى بما تقدم أنه كان ـ عليه السلام ـ معطل الإرادة، مفرغًا من مزايا العقل والخلق. كلا، فقد سئلت السيدة عائشة ـ رضى الله عنها ـ عن خلقه ـ عليه السلام ـ فقالت: «كان خلقه القرآن».

والقرآن حكمة وعلم، ومكارم أخلاق، ودستور جامع لعدالة العقيدة، والعبادة، وضروب المعاملة.

وكان ـ عليه السلام ـ فى رجحان عقله، واستقامة طبعه، واعتدال فطرته على سواء الحق، ووضوح منهاجها لبصيرته، نمطًا فذًا فى الرجال، صنعه الله على عينه أنموذجًا كاملاً لما رسم فى القرآن الكريم. فما من فضل خلق، وزكاة طبع، ونفوذ بصيرة فى خفايا الأمور، ووقار وحلم، ومضاء وعزم، وتمييز صادق لقيم الحق، وذوق أصيل لما عند الله من زاد قدسى، يسعد به الضمير، وتهنأ به الروح، إلا

آتاه الله منه حظه الأوفى، وسوّاه على مثاله الكامل، المطابق كل المطابقة لما جاء فى القرآن من مُثُل، ومبادئ، وصور راشدة كريمة. فكان ـ عليه السلام ـ أفضل نماذج البشر مجانسة للقرآن، وأصلحها قاطبة لتلقيه، وتمثيله، والتجاوب معه علانية وسراً، وظهراً وبطنًا، و ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

ومن يرجع إلى سيرته ومناقبه ـ عليه السلام ـ قبل بعثته، يجد مصداق ما نقول، فلم يكن وعاء صلداً أصم، أُفرغت فيه رسالة، بل كان فطرة حية، مدركة، مريدة، واضحة السمت، راشدة المبادئ، ذات امتياز فى العقل، والعاطفة، والخلق.

فإذا كانت بصائر القرآن قد باركت ذلك، ورفدته بروافد الحكمة والعلم، ومواهب الخلق العظيم، وجمال ما عند الله، فإن ما شخص فى فؤاده، وانقدح فى ضميره من معنى «العبودية» و «الرسولية» شيء آخر وارد على تلك المزايا الذاتية قام لها بمقام الإطار العام الذى جمع أطرافها، وحدد ما لها وما عليها، وسن لكل من العقل والوجدان منطقه فى كل ما يعالج من شأن، وكل ما يأخذ من أمر مع الناس ويدع. فمنطق الرسول ـ أى رسول ـ فى أمر ما، غير منطق أى رجل آخر يعالج الأمر نفسه، وهو معفى من التقيد بمشيئة سواه.

والسفير الذى يمثل بلاده لدى أمة أجنبية، يلتزم فى مظهره وسلوكه شارات معينة تفرضها عليه مهمته، ويتقيد فيما يعالج من شئون ويعرض من مسائل برأى أمته ومنطق دولته، لا برأيه هو، ولا بمنطقه الذاتى، فالدولة أوسع أفقًا فى الإحاطة بشتى الاعتبارات ومقتضيات المصالح المختلفة، ما يعلم منها ومع لا يعلم. ولا شك أنه كان قبل السفارة وسيكون بعدها معفى من كل قيد حسى أو معنوى يتعلق بقواعد السلوك ومنطق الفكر، مع فارق عظيم هو أن فطرته ـ عليه السلام ـ كانت ترجمة ما أوحى إليه، فلم يُحمل على أمر يكرهه، ولم يقسر منها على شىء، بل كان كل هواه مع ما أرسل به. فإذا حددت له سفارته بين الله والناس منطقًا خاصًا فى معالجة الأمور، فهو امتياز له على غيره أفسح له فى آماد الفكر إلى شأو كان يبصر فيه ما لا يبصر سواه من هدى الغاية ومقتضيات الهدف.

وستقرأ فى رسالتنا تلك أنه كان فى صلح الحديبية مع ألف وأربعمائة رجل من أصحابه، فلم يوافقه على ما اختار من صلح سوى رجل واحد، هو أبو بكر الصديق رضى الله عنه، أما سائرهم ـ وعلى رأسهم عمر بن الخطاب ـ فقد كانوا على خلاف ظاهر لما رأى ـ عليه السلام ـ لأنهم كما قال أبو بكر «قصُر رأيهم عما كان بين محمد وربه».

وفي هذا الموقف بالذات، نرى كثيراً من الدارسين يقفون عند رغبات السلم التى أبداها، واستمسك بها ـ عليه السلام ـ ويشيدون بها، ولا يرون سواها، ويعتدونها من سمات عظمته. ووقوف الرؤية عند تلك الاعتبارات لا يبلغ حقيقة الحكمة التى أوحتها، وهو قصور يدرك كل من يستصحب معنى «العبودية والرسولية» فى دراسة سيرته ـ عليه السلام ـ إذ ليست العبرة بما يكون من سلم أو حرب، إنما العبرة بأن يكون فى حياة المرء قيم عليا، وأن تكون تلك القيم هى مناط همته، وقوام أمره، فإذا كلفته أن يسالم سالم، وإذا كلفته أن يحارب حارب، ورُبَّ حرب أجدى على الإنسانية من سلم، والناس بخير ما دامت لهم قيم يحسنون فى سبيلها إيثار الموت، كما يحسنون من أجلها أن يختاروا الحياة. وإلى تلك القيم والغايات الرفيعة كان ينظر ﷺ يوم الحديبية.

ـ٥ـ

وثمت أخرى يجب أن يدخلها الباحث فى تقديره حين دراسته سيرته ـ عليه الصلاة والسلام ـ تلك هى نواميس الروح، وبركات عالم الغيب.

والروح من أمر ربى، وبركات الغيب أمر لا ينال بحيلة، ولا يبلغه منطق ذهننا العادى. وحين قلت فى مبدأ هذا التقديم: «إن نواميس الحق تستجيب لرغبات الإيمان ومشيئة اليقين بما يبهر اللب، على غير ما نألف من منطق أو نعهد من نواميس» إنما كنت أعنى بركات الغيب وحقائق عالم الروح، وهى «لب الرسالة، وضابط التوجيه فى السيرة كلها».

نعم.. فالكون مادة وروح، والروح أصل من المادة، وذات هيمنة على

مقدراتها ونواميسها. والإنسان - أيضًا - مادة وروح، والروح فيه آصل من المادة، وهى ينبوع السيادة فيه والشرف والامتياز، من سائر مخلوقات هذه الأرض.

واتصال الإنسان بظاهر الوجود وباطنه - أى بمادته وروحه - هو نموذج الحياة المثلى التى يحقق بها وجوده الكامل ما ظهر منه وما بطن، وبدون ذلك فهو وجود أبتر لا خير فيه، إذ تنحصر به حياة المرء فى ظاهر حسى مجدب، قد فقد أكثر وجوده ومواهبه، بل قد فقد وجوده كله، إذا رددنا الأمور إلى قدرها الحق.

ورسول الله ﷺ هو النموذج التاريخى المثالى، الذى حقق الوجود الإنسانى كاملاً فى ظاهر الحياة وباطنها، وأخذ بنواميس عالم الغيب والشهادة، فى تناسق بارع دقيق، انقادت له به السنن بما أراد من تأييد وفوز، وما شاء من بركات الأرض والسماء.

إن لعالم الطبيعة طاقات.. ولهذه طاقات وقوانين وإنجازات فى حياتنا، وآثار واقعية تحسب وتدرس. ولعالم ما وراء الطبيعة - أى عالم الغيب والحقائق المعنوية - طاقات.. ولهذه الطاقات قوانين وسنن وإنجازات فى حياتنا، وآثار واقعية. وكلا النوعين يخالف أحدهما الآخر فى حقيقته، وفى سننه وقوانينه، وفى كيفية اتصال الإنسان به.

ولكن الناس لم يتصلوا - غالبًا - إلا بعالم الطبيعة، ولم يتفاعلوا إلا مع طاقات هذا العالم. أما العالم الآخر وطاقاته وسننه فقد قصرت مداركهم وإراداتهم عن بلوغه «والتعامل معه»، ولذا خلت حياتهم أفرادًا وشعوبًا - غالبًا - من آثاره وإنجازاته. ولذا لا يجيلون ذكره فى نفوسهم، وإذا تحدثوا عنه فيما بينهم تحدث كل منهم بتصور يخالف تصور الآخر كأنه عدم لا وجود له، وما هو إلا رجم من صنع الوهم وتخييل الأمانى والعجز.

نقول: إنه عليه السلام هو النموذج التاريخى القويم، الذى حقق صلته بعالم الطبيعة وعالم الغيب أو عالم الروح معًا، وأثبت وجوده فى كل منها، وتفاعله بكليهما، وخطط شأنه ورتبه على هدى سنن كل منهما. وكانت طاقات الغيب وعجائب إنجازاتها وإحاطتها بواقعه ماثلة لسريرته، لا تغيب عنها لحظة. وكان

الوحى لا يفتأ يوجهه إليها ويقرر له خصائصها؛ فى بركة الإنتاج، والنصر على الأعداء، وبقاء الأثر، والتمكن فى الأرض، ويسر المؤنة، ونجح المقاصد فى كل أمر: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٤]، ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ [الطلاق: ٣].

تلك خمس من الخصائص والعوامل التى انفرد بها رسول الله ﷺ، فكان فى الناس بشرًا مثلهم، يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق، ولكنها جعلت باطنه وسريرته غير ما لهم من سرائر وبواطن من حيث الصفاء ونفوذ الفكر إلى غيب المعانى وترامى المشيئة الإلهية. فإذا أردنا أن نستشف الحق فى سيرته ﷺ، فلنستحضر أن تلك السيرة الكريمة هى ـ بعد الوحى ـ من صنع تلك الخصائص التى هى أثر الاصطفاء الإلهى والإعداد للنبوة، فذلك هو النهج السليم الحق.

ولا يتسع هذا المقام لأن نورد أثر كل خصيصة فى سيرته عليه السلام، ولا أن نورد مثالاً لفعلها فى تلك السيرة الكريمة، فعلى كل منا أن يستحضر فى ذهنه وضميره أنه يقرأ حصيلة نشاط تلك الخصائص، فإنه لا يلبث أن يتبين مواطن الإبداع والإعجاز فى تلك السيرة المشرقة الفريدة، وحينئذ فقط ننزه عقولنا وننزه السيرة عن أن ندرسها كما تدرس حقائق التاريخ العادى، وسير رجاله البارزين.

هذه الآفاق الإلهية فى سنة الرسول عامرة بعبر وحوادث تخاطب القلب والعقيدة، ولا تعبأ بالعقل المادى الخاضع لقوانين المادة وحدها، ولذا ترى الباحثين المعاصرين والمدرسين والأساتذة، يمرون مثلاً بقتال الملائكة فى صفوف المسلمين يوم بدر، وبالرمية المباركة التى أعمت عيون المشركين، ونحو ذلك مما لا يجدونه سائغًا فى منطقهم المادى، لأنه من فعل الله المهيمن على المادة وغير المادة، أقول: يمرون به وكأنهم لم يروه، وهم له فى قرارة نفوسهم منكرون، فيجب أن يكون شأنك غير هؤلاء.. فالتمس فى أخباره ﷺ دائمًا ناحيتين: العوامل الإلهية السافرة غير المحجوبة بحجاب، والعوامل النفسية الشخصية الخاصة به عليه السلام. وهذه إن بدت مطبوعة بطابعه الذاتى لأنها من بنات قلبه وانبعاثات نفسه، هى أيضًا ربانية إلهية، لتعلق مشاعره وعواطفه ﷺ بربه دائمًا. فالأولى عوامل

ربانية سافرة، والأخرى ربانية بالواسطة، لا يظهر فيها السفور إلا لمن يقرءون ما وراء السطور، ويطالعون ببصائرهم مشارق أنوار الله فى أمثال هذه الصدور. ولا عنيت بأن أنص لك على ذلك لكى تقرأ تاريخ تلك الحقبة النبوية على حقيقته، هذه واحدة. . أما الأخرى فهى لتعلم عمليًا أن الشخص الذى يعيش فى الدنيا بإلهام مشاعره الربانية لا بوحى معدته وجوارحه الحيوانية، عاملاً بأمر الله لا بهواه، مجاهداً فى سبيل الحق للحق لا فى سبيل نوازعه الخاصة، شخص لا يحجبه عن الله حجاب، فهو ينتصر بالله لا محالة، مؤيداً بجنود السموات والأرض، ما ظهر منها وما بطن، فافهم هذا يا أخى، فهو من لب لباب الحقائق العلمية، التى ترى شواهدها شاخصة لك فى سيرته عليه السلام. ومن ثَمَّ فاحرص أن تملأ حياتك بهذه الجنود، ولا تزهد فى نصر الله كما يزهد الجهلة المطموسون.

يا أخى: الخير أمامك، ليس بينك وبينه إلا أن تمد يدك. . يدك الربانية. هذا فى تاريخه العملى، ونقول مثله فى تاريخه القولى ﷺ، فهو كلام لا ككلام الناس، فإذا حدثك أن مجالس الذكر تحف بها الملائكة، فاعتقد أن هذا حق من الحق، لا مجاز فيه ولا كناية، فهو يقول لك ما يعرف لأنه يعرف من علم الله ما لا يعرف غيره.

وإذا دعا المؤمن لأخيه بخير بظهر الغيب، قالت الملائكة: آمين، ولك بمثل ما دعوت، فهو لذلك دعاء مستجاب لا محالة، وإذا وعدك على عمل جزاء ما، أو وصف لك حقيقة من الحقائق، أو نصحك نصيحة ـ فهو الحق الذى لا مرية فيه.

إذا قرأت السنة هذه القراءة، فهمت الإسلام حقائقه وأسراره كما كان يفهمه الصحابة، أو قريبًا مما كانوا يفهمون، وحق لك أن تعرض نفسك للتبشير بدعوة القرآن الكريم، والله يسلك بنا وإياك مسلك القدوة به صلى الله عليه وسلم.

* * *

[٣] التاريخ وسير الرجال

ليس الغرض أن ينظر الداعية إلى التاريخ نظرة المدرس الذى يجمع المعلومات جمعًا علميًا مرتبًا ثم يقدمها لطلابه.

وليس الغرض أن يتظرف الداعية، فيقص القصص للتسلية ولقطع الوقت فى غير عناء، فإنا نرى كثيرين يركبون هذا النهج التافه فيسوقون القصة تلو القصة دون ربط بينهما، ودون غاية مقصودة بكل منهما.

وإنما ينظر الداعية إلى التاريخ على أنه مستودع لأخطاء الإنسانية وصوابها وضلالها وهداها، وما جنت فى عواقبها من خير وشر، ويأخذ من ذلك لموضوعه بمقدار.

أرأيت إلى نهج القرآن الكريم فى ذلك؟ . . إنه هو الذى نقصده!

فليس الغرض من القصص، وسياق التاريخ فى القرآن، أن تعرف أحوال القرون الأولى فقط، بل الغرض الأعلى هو علاج الإنسانية، إذ يتناول الغرائز الأصيلة فى الإنسان ومعايير المعرفة، ويؤرخ لها، ويذكر أثرها، وما أحدثته فى بيئتها من خير وشر.

أما الغرائز العارضة، والطباع المتغيرة، فلا يحفل القرآن بتاريخها، لاندثارها وبطلان تأثيرها كلما تغير الزمان والمكان، والقرآن كتاب خلود، فلا بد أن تعلق عبرته بمعايير الإدراك وأعمال الغرائز الأصيلة، التى تلازم الإنسان فى كل عصر وبيئة، والتى تجعل من بنى آدم مجموعة إنسانية متشابهة فى جوهر التكوين ومعدن النفوس، ولا شك أن هذه الغرائز والمعايير ـ مع وحدتها فى بنى آدم ـ تتشعب باختلاف الظروف إلى مناح متعددة، وتتخلف بعض خصائص العقل عن أداء عملها، ولكن مع تعددها وتفاوت مظاهرها وصورها يمكنك أن تحكم على ما يظهر أمامك، وترجعه إلى بواعثه الأصيلة، وتلحقه بغريزته التى دعت إليه، وأوحت به.

فما يريد القرآن تفصيل الحوادث ولا سرد دقائق الوقائع، إنما يقف فقط على اللب الذى هو عبرة الحادث، فتراه مثلاً فى موقعة طالوت وجالوت، لم يسردها

السرد التاريخى، ولم يعرضها عليك العرض الذى يعيد صورتها إلى ذهنك، فليست الصور الظاهرية بذات بال، ولكنه يكتفى بما يشعرك أن هناك فئة قليلة جدًا تقاتل فى سبيل الله، وأخرى كافرة كثيرة العدد، فأيد الله الذين آمنوا على عدوهم فاصبحوا ظاهرين. اقرأ القصة فى سورة البقرة، تجدها دائرة على الإيمان وأثره فى تثبيت العزائم والأقدام، واستنزال النصر من عند الله العزيز الحكيم، وكل ما يدخل فى هذا المحيط من أجزاء الموقعة تركه القرآن جانبًا.

وهذا النوع من التحليل التاريخى العميق يقتضى الداعية أن يكون عظيم الفهم لدعوته، قوى الشعور بمقتضيات موضوعه، حتى لا يقع فيما يخل ويمل.

ومما تجب ملاحظته أن القطعة التاريخية قد يبرز منها عدة معان، فيسوقها الداعية فى مواقف تتعدد بعدد معانيها، ويعرضها فى كل موقف فى لون مغاير لألوان سابقة، وهذا كما ترى يرجع إلى حكمته ولباقته ويقظة إدراكه، بحيث يضرب فى كل مرة على وتر من الإحساس جديد، فنهضة هتلر مثلاً تستطيع أن تعينك على غرضك إذا كنت بصدد البرهنة على أن الأمة إذا عثرت فكَبَتْ تسترد شأنها السابق إذا اجتمعت عزائم أبنائها وهممهم على ذلك، أما إذا لم يكن منهم همة لتحقيق هذا المطلب العظيم فلا. وتستطيع أن تعرض هذه النهضة لتدل على أن الفقر قد يخرج من أكواخه من العباقرة من ينتشل أمة كاملة من حضيض كبوتها، وأن يتبوأ منها أسمى مراكز القيادة والسيادة فيها، وهو أمى أو شبه أمى إذا قيس بمعاصريه من عظماء الساسة ورؤساء الشعوب، وتستطيع أن تعرضها إذا كنت تتحدث عن الباطل وسرعة انهياره مهما قوى جنده، فتحمل على عقيدة النازى التى تجعل منهم رءوس الناس وسادة الأجناس وتجعل منا نحن عبيدًا وخدمًا، وتدعى أن ذلك هو روح الطبيعة ووحى الله، والله من ذلك برىء، فالناس لآدم وآدم من تراب، أكرمهم عند الله أتقاهم، ذلك هو الحق الذى يقذف به الله على الباطل فيدمغه، ويهزمه، ويأبى الله إلا أن يتم نوره. ولو ذهبت أستقصى لك الألوان الكثيرة التى يمكن أن تعرض فيها هذه النهضة لخرجت عن قصدى.

وفى التاريخ حوادث على هامشه قد تبدو تافهة ولكن الوقوف عليها قد

يستخلص لنا كثيرًا من ملامح النفوس، وصفات الطباع، واتجاهات القلوب، لجماعة ما أو شخص ما، فعلى الداعية أن يتيقظ لذلك.. وفى تاريخ الجبرتى كثير جدًا منه.

* * *

[٤] واقع الحياة العملية

واقع الحياة العملية هو تاريخها الجارى، الذى سيصير يومًا ما تاريخها الماضى، فهو أيضًا مستودع صوابها وخطئها وضلالها وهداها، وما ترى من عواقب الهدى والضلال، والخطأ والصواب. وهو يمتاز عن التاريخ الماضى بأنه يتولى عرض الحياة نفسها أمامك على صفحات الوجود، لا صفحات الكتب، عرضًا عمليًا حيًا يتعرض به نظرك وسمعك ومشاعرك، لا يجمل فى ناحية ويفصِّل فى أخرى، بل يقفك أمام حوادث فردية أو جماعية، تتبين فيها مبلغ اختلال قوانين المجتمع أو سلامتها، قوانينه الاجتماعية أو الاقتصادية، ويقفك أمام نماذج من الصلاح تمثل الجد والصدق والهمة فى ابتغاء وجه الله فى كل قول أو عمل.. أو أمام لصوص ذهبوا فى الناس بسمات الرفعة والفخر، فأنت تقرأ وترى فى كل يوم، وفى كل طريق، وفى كل صحيفة، وفى كل بيت، وفى كل محكمة، وفى كل دار من دور اللهو البرىء أو العابث ـ ذلك كله فى ثوبه العملى الواقعى الأخاذ. فعليك ـ بما فقهت من دعوتك وأرهفت من مشاعرك ـ أن تتأمل ذلك الضرب من التاريخ القيم، وتتفهم دوافعه ومراميه، وتحلل علله ونتائجه، وأن تصنفه أصنافًا بعد دراسته وإبداء الرأى فيه على ضوء فكرتك، وليكن لك سجلك تجمع فيه مختاراتك من الحياة، وسترى بعد ذلك أن إيراد بعض ما تجمع من الأمثلة يجعل كلامك حارًا قيمًا فعالاً جياشًا فى نفوس سامعيك.

وما أحسن ما كان يصنع أحد الإخوان إذ كان يختار موضوع خطبة الجمعة من حصيلة سجله الأسبوعى، رده الله إلى منبره وثبته على معهوده من النجاح والتوفيق.

* * *

الباب الرابع

الداعية فى كلماته

(١) المحاضرة. (٢) الدرس. (٣) الخطبة. (٤) المقالة. (٥) الحديث العادى.

ليس هناك - فيما أرى - فرق بين المحاضرة والدرس. ولكنهم درجوا على أن تكون المحاضرة أكثر استيعابًا لعناصر الموضوع، وأوسع تفصيلاً وإفاضة فى معانى هذه العناصر، وأن تكون عناية المحاضر أتم وأوفى، وأن يحاط السامع بما يجعله يتهيأ لتلقى معلومات ممتازة وتوجيهات قوية صالحة، وأن يلتزم الترتيب والنظام فى المحاضرة، فلا يكثر المحاضر الانسياق مع عواطفه، والاستطراد مع الخواطر الطارئة مما يبعد بالسامعين عن الموضوع الأساسى، بينما الدرس قد يقبل شيئًا من هذا ويَعْذُب به.

هذا كله مع ظهور الصبغة الربانية فى الحديث، فليس فى الكون موضوع أو شأن غير متصل بالله، وظهور الصبغة الربانية فيه هو المقتضى الضرورى أو المقتضى الحتمى لهذه الصلة، أما تجريد أى موضوع عن الصبغة الربانية فهو شأن الذين يعزلون الحياة عن الله، أو يعزلون الله - حاشاه - عن الحياة، فتكون الحياة بذلك زيفًا فى زيف، ويكون الكلام عنها غير ذى موضوع لا بركة له ولا علم فيه.

ولتحقيق هذه الصبغة فى كلمات الداعية نسوق بعض التوجيهات لما يلتزمه الداعية فى الدرس والمحاضرة مقدمة للحديث الخاص الذى سنقدمه عن كل من: المحاضرة - الدرس - الخطبة - المقالة - الحديث العادى، كل على حدة، وبالله التوفيق:

[أولاً: الدرس:]

١ - درس الداعية غير درس الأستاذ فى المعهد أو المدرسة.

أ - فالداعية لا تعنيه - مثلاً - دروس الجغرافيا، والكيمياء، والنحو... إلخ.

ب - وطريقة الدرس لدى كل منهما تختلف عن الأخرى.. فدرس المدرسة

يهتم له مُدرسه باستيعاب التفاصيل والجزئيات، وإلا عد مقصراً، لأن مهمته إفادة دقائق الباب. أما درس الداعية، فيهتم له بالرقائق، والقواعد، والمعانى العامة. فالدرس فى الصيام ـ مثلاً ـ يعرض له أستاذ المعهد من ناحية الأحكام الفقهية فيتكلم عن تقرير وجوبه.. وعلى من يجب.. وعلى رؤية الهلال وعدم رؤيته.. وعلى النية.. وما يفطر وما لا يفطر... إلخ.

أما الداعية فيعرض له ـ مثلاً ـ من ناحية أنه سر بين العبد وربه، يستعين فيه العبد بمراقبة الله على إتمام صومه، وأثر ذلك فى تنبيه مشاعر النفس لها أثرها فى ترقية خصائص الإنسان... إلخ، ويستطرد منه إلى معنى الأمانة فى الصيام، وأثرها فى ضبط سلوك الفرد وتصرفاته، وفى توثيق روابط المجتمع، فإن كلاً من السمع والبصر واللسان واليد أمانة، وعلى كل جارحة من هذه صيام معروف «ما هو؟»، ولأمر ما قال تعالى: ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً﴾ [الإسراء:٣٦]. وأحاديث الرقائق وآياتها الواردة فى الصيام كثيرة جداً، وهى بمثابة مناجم لاستخراج ذخائر الحقائق والمعانى التى تزكى نفسه، وتسمو بفكره وذوقه.

وشاهدنا هو الفارق بين طريقة أستاذ الدعوة وأستاذ المدرسة، وهدف كل منهما فى النهاية.

٢ ـ والدرس فى صناعة التدريس له «عنوان» أو ما يسمونه رأس الموضوع. أما درس الداعية فيدور ـ عادة ـ حول آية كريمة، أو حديث نبوى. ومراعاة للفارق السابق يجتنب الداعية «الأسلوب الفنى» المختص بحُجَر الدرس، فلا إعراب، ولا نظر للأسلوب التقليدى فى التفسير، ولا استيعاب لما تتضمن الآية أو الحديث من الأحكام ودقائق المعانى، بل يكون المعنى العام للآية أو الحديث محوراً تتجمع حوله خواطرك المتصلة، ويكون هذا المعنى هو الطرف الذى تتناوله لتبدأ منه الحديث فى هوينى. فإذا ذكرت أنك داعٍ إلى الله وأذبت قلبك فى معنى الآية أو الحديث، أحسست حكمة النص القدسى رحيقًا من العلم بين جنبيك، فاختر من هذا الرحيق تكملة حديثك، وليكن درسك هو موضوع قوله عليه السلام: «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى... الحديث»، فإن المعنى العام للحديث واضح، فدع ما تفيده «إنما» فى الفقرتين، ودع خلاف العلماء فى مدى ارتباط

العمل بالنية، وابدأ درسك متطامنًا عن الطرف الواضح الذى يمده لك معنى الحديث الشريف، واخلص إلى أننا بإزاء طرفين: أحدهما فى الضمير وهو النية، والآخر فى ظاهر الواقع وهو عمل الإنسان، وبين هذين الطرفين أوثق صلة؛ فإن العمل هو صورة النية حسنة أو رديئة، والنية هى الروح الذى يسكن العمل.

وهنا يجد نفسه بإزاء حقائق فلسفية أو روحية جليلة هى لب إنسانية الإنسان وصلاحيته الحضارية. ولكنا نختار له مسلكًا آخر: فالنية عمل القلب، فإذا كان القلب مقبلاً على شهوات النفس وأهواء الحس ولذاته، متأثرًا بها، كانت نياته من هذا القبيل، وإذا كان القلب مقبلاً على الله راغبًا فيما عنده، كانت حقائق ملكوته وخيراته التى لا تنفد تحت تصرفه، وكانت نياته قدسية متجانسة لتلك الحقائق.

وبما أن العمل هو صورة النية؛ فإن الأول تكون أعماله صورة لأهوائه وشهواته، وتكون أعمال الثانى صورة لإقبال قلبه وسعيه فى قدس الله.. قدس حكمته: ﴿وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة:٢٦٩]، ورحمة: ﴿وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [الزخرف:٣٢]، ورعايته، وسلطانه، ونصره الذى لا يقوم له شىء فى السماء ولا فى الأرض.

وبما أن النية تسكن الأعمال، وتثمر فيها هذه الثمار، كان العمل هو الوسيلة التى يحقق بها لنفسه هذه المغانم، ولذا كان من فضل الله لأنبيائه أن يرزقهم سر النية القدسية ـ وهى معرفة ـ والعمل بمقتضاها: يا موسى﴿إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي﴾ [طه:١٤]، ويقول عيسى: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا (٣٠) وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا (٣١) وَبَرًّا بِوَالِدَتِي﴾ [مريم: ٣٠ ـ ٣٢]، ويقول لمحمد صفوة خلقه: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ﴾ [محمد:١٩]، وإبراهيم يعرف ذلك كله فيقول: ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [الشعراء:٨٣]، إلى غير ذلك من الشواهد.

فالنية القائمة على معرفة الله لا تثمر لصاحبها بدون عمل، وقد جاء فى القرآن أن يونس لما التقمه الحوت واحتوته ظلمات المحنة دعا دعوته المعروفة، فنبذه اليم بالعراء وهو سقيم، يقول الله تعالى: ﴿فَلَوْلا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ (١٤٣) لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [الصافات:١٤٣، ١٤٤] أى: لولا أنه كان من العاملين بطاعة الله.

وقد أخبر الخضر عليه السلام أنه أقام الجدار رعاية لغلامين يتيمين وكان أبوهما صالحًا، فعمل الأب بعد وفاته ظل محتفظًا بما ضمّنه القلب إياه من نية، أى ظل محتفظًا بسر حياته على نحو لا تدركه عقولنا، فهو كما مثله الله تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا...﴾ الآية [إبراهيم: ٢٤، ٢٥]، وهذا الأكل ليس أطعمة مما تشتهى الأنفس وتلذ الأعين، إنما هو ثمار من الغنى بغير مال، والعز بغير عشيرة، والجاه بغير منصب، والجند الخفى المسخر لمشيئتك ـ بإذن ربك ـ بعلمك أو بغير علمك، فى حياتك أو بعد موتك. فإذا كان هذا شأن «كلمة طيبة»، فكيف بعمل طالما تعاون عليه اللسان مع العين وسائر الجوارح، وقد ضمنه القلب من معرفة الله ما هو سر كل طاقة ونعمة فى ملكوت السماء والأرض؟! لا جرم يكون خالدًا بخلود ما فيه من حقيقة المعرفة والنية، ممثلاً لمبادئ صاحبه، وقيمه، ورغباته، منجزًا له ـ بإذن ربه ـ من أقدار الله ما يرعى الله به نبيه. وما كان الخضر ـ عليه السلام ـ إلا رمزًا أو صورة محسة لقَدَر هذه الرعاية: ﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ...﴾ الآية [الكهف: ٨٢]. فالسر الذى تحركت به أقدار الله يكمن فى قوله تعالى: ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا﴾ أى فى العمل الصالح الذى تركه أبوهما.

وهنا قد تذكر الموعظة الخالدة التى وعظ بها رسول الله منوهًا بالطاقات العلوية التى تكمن فى الأعمال الصالحة، إذ قال: إن غارًا انطبق على ثلاثة رجال بصخرة ضخمة لا قبل لهم بزحزحتها، فأخذ كل منهم يذكر عملاً صالحًا له، لما يعلم للأعمال الصالحة من إيجابية عند الله، فما انتهى الثلاثة من ذكر كل واحد لعمله ضارعًا إلى الله أن ينجيهم بحق هذا العمل حتى انفرج الغار بتنحى الصخرة عن منفذه، ونجوا.

وبمناسبة ذكر الخضر ـ عليه السلام ـ قد تلمح إشارات فى قصته مع أصحاب السفينة، إشارات تقرر الخصائص التى يكون بها للعمل الصالح ثماره الخفية ـ إلى ثمرته المعجلة الظاهرة ـ فهم كانوا «مساكين، يعملون فى البحر».

والمسكنة لدى أرباب المعرفة هى انخلاع المرء لله من الشعور بحوله وطوله، أى

من جاه مواهبه وماله، فإن ذلك - فى الحقيقة - فضل الله، لا فضله هو؛ ومن صدق معرفة الإنسان لربه ولنفسه أن لا ينتحل شيئًا من ذلك لنفسه، ولا يكون بضميره إلا إحساس الاضطرار والافتقار إليه تعالى. وإذا كانت هذه الخلال من ثمار معرفة الله، وقد شهد الله لأصحاب السفينة بها، لا جرم كان لهم حظهم من معرفته تعالى، وذلك سر حياة العمل وثمره.

وأما قوله: ﴿يَعْمَلُونَ﴾ فدال على أنهم كانوا من أهل العمل والجد فى كسب الحلال، والعمل هو صورة النية والمعرفة.

وأما أن عملهم كان ﴿فِي الْبَحْرِ﴾ فإشارة إلى حال القلق الفاصلة بين من يعمل فى البحر، ومن يعمل فى البر، فالأول دائم التطلع إلى الله طلبًا للنجاة من مخاوف البحر ومهالكه. والبحر لدى أرباب الإشارات رمز لما فى الدنيا من لجج الفتن والمعاطب؛ ولأمر ما أثنى الله على الذين يشفقون من خشيته بأنهم ﴿يُؤْتُونَ مَا آتَوْا﴾ أى يعملون ما عملوا ﴿وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٠].

هذه الحقائق الثلاث: المعرفة بالله ممثلة فى فقه المسكنة، والعمل المُقَوَّم على مقتضى المعرفة، والفرار إلى الله من مهالك الحياة؛ هى منهاج الحياة الذى يوفر لصاحبه أكرم الثمر الروحى والحسى، ويضفى عليه من مقادير الرعاية ما يخطر بباله وما لا يخطر، وكان الخضر عليه السلام رمز القَدَر الذى رعى به الله أصحاب السفينة من غصب الملوك، فإن عملهم الصالح قد تضمن سنة الرعاية، إذ قال: ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ [الكهف: ٧٩].

وإذا كان هذا شأن النية بالنسبة للعمل، فقد قال عليه السلام فى بقية الحديث: «فمن كانت هجرته إلى الله... ومن كانت هجرته إلى دنيا... الحديث» أى أنه فوض لكل فرد أن يبنى بيده العاقبة التى يريدها لنفسه.. فإن أراد لها ما عند الله من نصرة وتأييد ويسر فليحضر لذلك نيته فى ضميره، وليضمنه ما يزاول فى الحياة من عمل. وإن أراد العرض الأدنى ولذة الحس وتحركت بذلك أهواؤه، وجعله روح عمله، فقد أراد لنفسه الخذلان، وتهوله فداحة التفريط حين ينكشف

عنه غطاؤه في لحظات مغادرته للدنيا فيصيح: ﴿رَبِّ ارْجِعُونِ (٩٩) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾ [المؤمنون: ٩٩، ١٠٠].. وهيهات.

ومما لا شك فيه أن الحديث أغزر مادة، وأبعد غورًا، ولكنا ما أردنا الاستيعاب بل أردنا لونًا من تفاعل نفس الداعية مع قدسية المعنى النبوى، تأليف الخواطر التى يستدعيها هذا التفاعل لتكون مادة الدرس الذى يدور حول المعنى العام للحديث الشريف، وهو نهج غير نهج الدروس الفنية التى تلتزم ما نجده فى النووى - مثلاً - لشرح هذا الحديث ومثله.

٣ - يراعى فى الدرس الربط الدائم بين مادته - خواطره وعناصره - وبين واقع أحوال الناس وقضاياهم. فقد يكون الحديث عن الرجل الصالح أبى الغلامين داعيًا لإثارة الرغبة فى نفوس من يخشون من بعدهم على أولادهم الصغار أن يصنعوا لأولادهم ظلة من رعاية الله كما صنع هذا الرجل، ولا يكلفهم هذا إلا أن يعرفوا قدر الله على مثال ما عرفه أصحاب السفينة، والكلام عن أصحاب السفينة قد يكون داعيًا لتوسيع الدائرة، فيدخل الفلاح، والراعى، والصانع، والبائع، والموظف؛ إذا هو حقق لنفسه وجدان الاضطرار والافتقار إلى الله، وانخلع من الاعتزاز بما له من جاه المال والموهبة.

ثانيًا: المحاضرة:

١ - ومحاضرة أستاذ الدعوة غير محاضرة أستاذ الجامعة؛ من حيث إن الداعية لا تعنيه محاضرات الفلك، والطب، والاقتصاد، ونحوها. وأستاذ الدعوة كأستاذ الجامعة لا بد له من الرجوع إلى المصادر العلمية لجميع ما تفرق فيها من مادة موضوعة، لكنهما يفترقان بأن أستاذ الجامعة يعنى بالجزئيات والتفاصيل، أما الداعية، فبعد الإحاطة بمادة الموضوع يكتفى بالقواعد والأحكام العامة حرصًا على انتباه سامعيه واستمرار نشاطهم. ومن هناك قد ينتهى أستاذ الدعوة من موضوعه فى محاضرة واحدة، وأستاذ الجامعة يحتاج للانتهاء منه إلى عدة محاضرات.

٢ - يبتعد محاضر الدعوة عن الصبغة المدنية البحتة كما يبتعد عن الأسلوب الأكاديمى، فلن يحمد له الناس أنه مدنى الأسلوب، بل إنه يفجؤهم بغير ما

يتوقعون وبغير ما يريدون، إلى أن ذلك يعتبر إخفاقًا له فى مهمته، إذ هو داعية إلى الله عن طريق العلم؛ فإذا خلا أسلوبه من لون الدعوة، فقد خرج من زمرة الدعاة، دون أن يلحقه ذلك بزمرة الجامعيين أو سواهم. فعلى أستاذ الدعوة أن يذكر دائمًا أنه يأمر بمعروف، وينهى عن منكر، ومن أمر بالمعروف ونهى عن المنكر فهو خليفة الله فى الأرض، كما يقول الرسول عليه السلام. والأمر بالمعروف هو فى الحقيقة تعريف بالإسلام فى شتى موضوعاته؛ والنهى عن المنكر هو نقد لبق لسير المجتمع وعيوبه، وذلك كفيل بتحقيق الصبغة الربانية لمحاضرة الداعية، ما دام يلتزم استمداد الكتاب والسنة مشيرًا إلى وفائهما وغزارة وعمق حكمة الله فيهما، إلى أن ذلك يكفل له دوام انتباه السامع لأنه سيكون معه دائم التنقل بين مثالية العلم ولمحات النقد لسير المجتمع أو لخطئه فى التطبيق؛ ويتحقق له بذلك كله اقتناع السامع تلقائيًا ـ دون إملاء ـ بسداد ما شرع الله.. وتلك غاية غايات الداعية.

٣ ـ والمحاضرة بالنسبة للداعية تفترق عن درسه فى أن لموضوعها «عنوانًا» يدل عليه، والدرس موضوعه ـ عادة ـ آية كريمة أو حديث نبوى. ذلك إلى أن «الخط العلمى» فى المحاضرة أبين منه فى الدرس؛ فإن المحاضر إذ يعود من شتى المصادر يجد نفسه مكلفًا بتصفية ما حصَّل من معلومات، وجمع ما استخلصه من قواعد وأحكام عامة، ثم يرتبه فى نسق يربط المقدمات بالنتائج، ويؤلف من الأشباه والنظائر باقة منسقة المنطق. وقد يكون موضوعه اجتماعيًا، أو اقتصاديًا، أو سياسيًا، كما قد يكون من شئون المعتقدات والعبادة؛ فيلتزم فيه هذا الخط العلمى الذى تنتظم فيه عناصر البحث وأحكامه العامة فى منطق تتكامل فيه وحدة الموضوع. أما الدرس فالعناية به تتركز حول «تجميع الخواطر» على محور معنى الآية أو الحديث، واستدعاء الآيات والأحاديث ذات الصلة بهذا المحور، مع الإشارة إلى نماذج السلوك الشعبى التى تتصل سلبًا أو إيجابًا بلب الدرس. ومن ثَمَّ يكون لكل من الدرس والمحاضرة طابعه كما أن لكل منهما مقامه. والآن نقدم الحديث الخاص عن كل من المحاضرة والدرس... إلخ على النحو التالى:

١ ـ المحاضرة

(أ) يختار موضوع المحاضرة ـ طبعًا ـ من صميم ما تجرى به الحياة، وهذا يقتضى الداعية أن يكون متصلاً بهذه الدنيا منفعلاً بما يجرى فيها من خير وشر، وحلو ومر، ومعروف ومنكر. فما كان من صالح رضى به، وحمد الله عليه. وما كان من فاسد قام له، وأخذ فى علاجه وتغييره، بوسائله الحكيمة، وموعظته الحسنة.

ومعنى هذا أن الداعية يختار موضوعه مما يعرض له من قضايا الحياة، أو مما تمليه الحياة عليه. ومثل هذه الموضوعات يجعله أقرب إلى قلوب الناس، وأملك لزمام انتباههم وعواطفهم. فلا تجعل الموضوع يعرض نفسه عليك، فتهرب منه، أو تقعد عن الاستجابة له، فالحياة فى هذه الحال هى التى تختار لك، واختيارها أصدق اختيار، لأنه إلهام الله وصوت القضاء، وصدى ما جرى به القلم فى أم الكتاب، ولأمر ما نزل القرآن الكريم منجَّمًا على حسب الحوادث ومقتضيات الأحوال.

وطبيعى أن الموضوعات التى يوحيها محيط الزراع، غير التى يوحيها محيط الطبقات المظلومة من العمال. وللطلاب آلام وآمال تلهم موضوعات غير التى تجرى فى المحيطين السابقين، ولصغار الموظفين مشكلات وأزمات نفسية ومالية لا يتبينها إلا من يصغى إلى شكواهم، ويقف على أحوالهم، وفى علاقات الناس بعضهم ببعض، وفى المعاملات التى يلقاها بعض الطوائف من بعض، وفى طبيعة السلوك الاجتماعى الذى تجرى عليه حياة بعض الطوائف أو الطبقات، وفى اختلال الموازين التى يزن بها الناس خلق الرجل، وشخصيته ونجاحه، وفى نظام الدواوين والتعليم، والمحيط التجارى والإدارى والسياسى، فى هذا وفى غيره موضوعات أنت فى غنى عن بيانها، لأنها شاخصة مستعلنة، تفرض نفسها وحوادثها على جهازك العصبى اللاقط.

(ب) يجب أن يكون الموضوع مدروسًا دراسة وافية مستفيضة، محللاً إلى عناصر بارزة، وخطوات واضحة مرتبة ترتيبًا طبيعيًا ينتقل بالسامع من حلقة إلى

حلقة، ويفضى فى النهاية إلى خاتمة يحسن السكوت عليها؛ فإذا كنت تريد التحدث إلى طائفة من الشباب المثقف ـ مثلاً ـ عن مقومات الإنسان الفاضل الذى ينشدونه وينشده معهم الإخوان المسلمون، كان من السهل عليك أن تفترض فى هذا الإنسان وجوب وجود عنصر علوى باطن يمده بأسباب العزة وكرائم القيم والمبادئ، أما الذليل التافه فليس لنا به حاجة؛ ثم يجب أن يكون لهذا الإنسان رسالة فى الحياة يعمل جاهدًا لتحقيقها، أما الرجل الذى يعيش بلا غاية معينة، ولا مبدأ معروف، فهو من السوائم الهَمَل.

وأخيرًا لا بد له بعد العزة والرسالة من العلم[1] ليكون من أمره على هدى وبصيرة، ومن لا علم له لا بصر له.

فدعائم البناء إذن: عزة ورسالة وعلم؛ فإذا أوضحت ذلك أقنعت سامعيك بما تريد، أما الكلام المرسل بغير نظام فخيره غير متحقق.

(جـ) أن تستحضر لكل عنصر ما يؤكده ويوضحه من كتاب الله وسيرة رسوله ﷺ قولاً وعملاً، أو سيرة صحابته، أو عبر التاريخ، أو حوادث مما تسمع أو تقرأ أو تشاهد، على نحو ما سقناه لك فى مراجع الداعية.

فإذا كنت بصدد شرح العزة فى الموضوع السابق مثلاً وجدت طبيعة العنصر تلهمك أن العزة معناها ألا يذل المرء لمخلوق مثله ، وهو يذل فى هذه الحالة لغرض من اثنين: ليدرك منفعة شخصية، أو ليدفع ما قد يؤذيه فى رزقه أو نفسه، وحينئذ يزدحم حولك نصوص كثيرة من كتاب الله وأحاديث الرسول، تؤكد لسامعك أن الإسلام يغرس العزة فى نفس المسلم، ويذهب بأصولها إلى أبعد الأعماق، فهو من ناحية ابتغاء المنافع والخوف على الأرزاق، قد علم أن رزقه فى

---

(١) يجب أن يكون مفهومًا أننا نقصد بالعلم هنا: العلم بالله عز وجل، عن طريق التأمل فى السماء وما فيها من عجيب صنع الله وآياته، والأرض وما أحدث فيها من كائنات وآثار، وما بين السماء والأرض من ظواهر كونية، وما أفاض علينا من نِعَم فى أبداننا وأرزاقنا وأسرار نفوسنا وطباعنا، وغير ذلك مما يفضى بنا مع النظر والاعتبار إلى الله عز وجل، وهذا هو العلم الحق الذى يجب أن تتجه إليه جهود الإنسانية، وكل علم لا يوصل إلى الله فهو علم لا بركة فيه. وليس معنى ذلك أننا لا نتعلم الصناعات أو طرق معالجة الأشياء لنعيش ونأكل، بل أقصد أن يكون غرضنا الأعلى مما نعرفه: الله عز شأنه.

السماء، وما كان فى السماء فهو مصون، بعيد عن أن تتطاول إليه يد عابث من أهل الأرض. ويعلم كذلك أن الله قد فرغ من قسمة الأرزاق بين الناس قبل أن يخلقهم، وقد جفت الأقلام وطويت الصحف على ذلك، فليس للحوادث بعده أن تجرى على خلافه، والقرآن والسنة حافلان بما يشبع رغبتك فى هذا الباب. ولا بد من الحملة طبعًا على أولئك الذين يذلون أنفسهم ويبذلون أخلاقهم وأعراضهم، زعمًا أن ذلك هو سبيلهم إلى ما يصبون إليه من جلب المنافع أو دوء المساوئ. وما أحراك أن تفرد حملة خاصة على أولئك الذين يتعبدون بالمثل السائر: «إن كان لك عند الكلب حاجة قل له يا سيدى»، أما الاستكانة إلى الذل تخوفًا على النفس مما يصيبها من أذى القتل، أو الضرب، أو السجن، أو نحوه، فالمسلم قد رُبى على قول الله عز وجل: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى الأَرْضِ وَلا فِى أَنفُسِكُمْ إِلاَّ فِى كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحديد: ٢٢].

وإذا أقدم المسلم فى جرأة وشجاعة، فلامه اللائمون من الجبناء، وحذره المحذرون من الضعفاء، ألقى الله على لسانه ردًا حاسمًا: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُّؤَجَّلاً﴾ [آل عمران: ١٤٥].

وإذا اعتراه فى موقف من مواقف البأس ذبذبة أو تردد، ناداه هاتف العقيدة من أعماق نفسه: ﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لاَّ تُمَتَّعُونَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ [الأحزاب: ١٦]، وسيجتمع عليك الكثير من نصوص القرآن والسيرة، وكل منها يعرض نفسه عليك، فسق ما تختار منها مرتبًا واضحًا على قدر ما تراه وافيًا بأداء غرضك.

ويجب أن يتحكم فى الاختيار وفى ترتيب العناصر وفى جمع الشواهد، وفى سوق الحديث، يجب أن تتحكم فى ذلك كله العقلية العملية، ممثلة فى مظاهرها التى تقدمت فى بيان مزاج الداعية حتى لا تكون غامضًا ولا نظريًا.

واحذر فى تقسيم موضوعك، أو بيان حقيقة عنصرك، أن تنحو نحو التقسيمات الفلسفية أو التعمق النظرى، ففى موضوع مقومات الإنسان الفاضل الذى ننشده لم نذكر لك كل شىء، وقد يأتى غيرى بغير ذلك، لأنه لم يكن من همنا الاستقصاء الفلسفى الذى يغوص وراء الفروض والعلل، وإنما أخذنا ثلاث

لمحات أضاءت لنا من محيط الفطرة فى بساطة ووضوح، ولو أننا أردنا الاستقصاء لما فرغنا من البحث إلا بعد عناء، بل ولا بعد العناء، فقط لا نخرج إلا بالخلافات التى يضرب بعضها بعضًا، والنظريات التى لم ينته أصحابها من التدليل على صحتها بعد. كان همنا حين الاختيار أن نسوق كلامًا تقبله فطرة السامع وعقله وكفى، أما أنه جامع مانع فلا، ومع أننا نقصد أن يكون كذلك، فهو فى الحقيقة جامع، لأن الخير فى الإسلام وإن تعددت صوره يرجع إلى معين واحد، فإذا نشَّأت طفلاً مثلاً على فضيلة ما، ألفيت ذلك يعود بالتربية والتنمية على الفضائل الأخرى، وذلك من أسرار الله فى شريعته.

(د) يجب أن يعد فى عناصر المحاضرة ما يفهم منه أن الناس يجنون فى الدنيا لا فى الآخرة فحسب ثمر ما يبذلون فى سبيل الإصلاح من عمل صالح، وتضحيات لوجه الله، وثبات على المبادئ الفاضلة، وصبر على مقاومة الفساد ـ يجب العناية بإبراز هذا المعنى، لا لأنه يشرح الصدور ويشحذ العزائم، ويجدد الآمال والهمم فحسب، بل لأنه هو منطق الحياة، وقانون الوجود الذى لا يتخلف، فلكل شىء ثمن، ولكل عمل أجر، ولكل جهد بدنى ونفسى ثمر من جنسه فى الدنيا والآخرة، وعاقبة كل أمر ليست إلا نيتك التى بدأته بها، وهو من قوانين الله التى لا تتخلف فى حياة الأفراد، ولا فى حياة الجماعات والأمم، والكسل لا يهب إلا الحرمان، والفوضى لا تورث إلا الخيبة، والأنانية لا تعقب إلا التنازع والتفكك والفشل.

(هـ) يجب أن يكون غرض الداعية من كل ذلك إحياء المشاعر الإلهية، وبث خواطر الخير والتقوى فى القلوب، فكل موضوع يجب أن يعالج على هذا الأساس، وبعبارة أخرى: يجب أن يكون للداعية فى موقف المحاضرة هدفان أساسيان: الأول: علاج موضوعه الخاص، الثانى: إحياء هذه المشاعر القلبية إحياءً ربانيًا، على أن يكون الغرض الأول مقصودًا لذاته، ومقصودًا كوسيلة للغرض الثانى، ويجب لهذا أن يساق للسامع ما يشعره بأنه مسئول ومحاسب، وبأن عين الله ساهرة، تطلع عليه وتحيط بظاهره وخفى سريرته، وأن الإنسان قادر على أن يجعل ما يدور فى هذه السرائر خيرًا محضًا يرضى الله ويسعد العباد، والسعيد

من جعل نفسه ذكية مطهرة. اجعل ذلك فى عنصر واحد إن اقتضاه المقام، أو اجعله شائعًا فى العناصر كلها إذا أوجبته المناسبة، أو اجعله فى بعض العناصر دون بعض، اخضع فى ذلك لذوق الموضوع، وذوق عقليتك العملية.

(و) وأرى أن تحدث بينك وبين جمهورك تعارفًا عاطفيًا قبل أن تبدأ فى حديث محاضرتك، فإن مطالعة الجمهور بالموضوع مباشرة تفاجئ مشاعره بأمر لم يتهيأ له. إن المشاعر بيوت مغلقة، وقد نهانا القرآن عن أن ندخل بيوتًا غير بيوتنا، حتى نستأنس ونسلم على أهلها.

فلا بد من هذا الاستئناس أو التعارف العاطفى كما أسميناه، ويكون هذا على صورة استفتاح سهل مبسط يتناول أمرًا هينًا مما تدركه الأذهان فى يسر، بل مما لا يحتاج فى إدراكه إلى أقل جهد عقلى، كأن يذكر حادثة خاصة وقعت له، أو رآها وهو فى طريقه، أو نبأ قرأه أو سمعه، أو ملاحظة لاحظها فى الحفل أو فى كلمة خطيب سابق... إلخ، على أن يكون هذا كله ذا صلة بالحفل وبالدعوة التى تعمل لها صلة مباشرة أو غير مباشرة، ثم يعلق على استفتاحه تعليقًا يسيرًا ملونًا بلون المزاح إذا اقتضى المقام المزاح، بلون الاستبشار إذا أوجب المقام إزجاء البشرى، أو بلون آخر من ألوان العواطف والمشاعر التى يقتضيها الحال، فإذا أقبلت عليك القلوب، وتفتحت لك النفوس، فقد تحول تيارها إليك، وألقت بأزمتها بين يديك، فبادر فى الحال بالتقاطها، وصل خيوطك بخيوطها، ثم اخلص إلى موضوعك بما لا يغير عليك أنس جمهورك بك، ولا تطالبنى بضرب مثل، فإن هذا ليس من القواعد التى تعلم، بل من وحى الذوق وإلهام الطبع اليقظ، ويكتفى فيه بالتنبيه إليه.

(ز) وهناك حقيقة يجب الالتفات إليها، وهى أن المحاضرة لا تنضج فى ذهن الداعية إلا بمرور الزمن وكثرة الإلقاء، فعليك أن تلقيها مرة ومرة ومرة، وعشر مرات أو أكثر من ذلك، فى أماكن مختلفة، وعليك أن تنقد نفسك عقب كل مرة تلقى فيها محاضرتك، ووازن بين موقفك فى آخر كل مرة وسابقتها، فهذا يكسبك ثباتًا وقدرة كبيرة على التوضيح، وسهولة فى سياق العبارات والألفاظ، ثم إن كثرة الترديد على ما ذكرنا تعين على اختمار المعانى؛ فيلد بعضها بعضًا،

وتزداد سموًا وقيمة، فلا تخش من نفسك أن تقول لك: إن تكرير المحاضرة الواحدة فى الأماكن المتعددة عى وعجز، ولا تخش إذا صاحبك أحد فى رحلاتك أن تظن أن التكرار يوحى إليه بقلة معارفك، فكل هذا من خواطر الشر، فإن الحقيقة لا ينقص من قدرها أن تتكرر، ولا ينقص من قدر صاحبها أن يكررها، فحسب الإنسان أن يكون على حق، وأن يدعو إلى حق، على أن من مزايا الإعادة أن يزيد الداعية إيمانًا، وتضلعًا، وتعلقًا بما يقول. أما إذا أجهد الداعية نفسه فى تحضير المحاضرات الكثيرة المتعددة النواحى لكى يقنع غيره بأنه بحر لا ساحل له من المعارف، يتكلم فى كل بلدة بما لا يتكلم به فى غيرها، فذلك منهج فى الدعوة لا يثمر، ولا يفى بإقناع الناس بحقيقة من الحقائق، فضلاً عن أنه من إملاء الأنانية والرياء والسمعة، وحسبك أن تعلم أن رسول الله ﷺ أمضى حقبة من عمر رسالته فى مكة يقول إذا عرض نفسه على القبائل قولاً واحدًا لا يغيره: «أدعو إلى أن تعبدوا الله وحده، وأن تخلعوا هذه الأوثان التى تعبدونها من دونه، وأن تمنعونى حتى أبلغ عن ربى»، وذلك لأنه إنما يبلغ حقيقة، ويدعو إليها، وليس من همه إثارة إعجاب الناس بمواهبه وملكاته العقلية واللسانية.

٢ـ الدرس

جرى عرف الوعاظ والدعاة ـ غالبًا ـ على أن يكون موضوع الدرس آية من كتاب الله عز وجل، أو حديثًا من سنة رسوله ﷺ.

وفى رأيى أن الدرس أشق من المحاضرة، أو بعبارة أحكم: الدرس أحوج إلى دقة الداعية وحساسيته من المحاضرة.. فالمحاضر يحصر همه فى إقناع الجمهور بموضوع معين، ولا يعنيه من الآية أو الحديث إلا وجه واحد من وجوه الدلالة، هو الوجه الذى يتصل بغرضه. أما المدرس، فالآية تفرض عليه الدقة وطول التأمل، والوقوف عند كل كلمة، بل عند بعض الحروف أحيانًا، وفى كل وقفة من هذه إشارات ومعارف وعلوم إلهية تلتمع أنوارها فى صدر الباحث، فإذا به ينشرح ويتسع، ويفرح بفضل الله.

ومن هنا أحب أن أنبه إلى أن الدرس يجب أن يكون أحفل بالرقائق، التى

تحرك القلب، وتخاطب الوجدان. فإذا أفسحت لك الآية بين كلماتها، وشفت لك عما وراء سطورها، فاستخرج ما تشاء من المعانى، ثم رتبه واربط بين بعضه وبعض، ثم وسِّع دائرة الحديث بما يتصل بالمعنى من آيات الكتاب وسنة رسول الله وصحابته، وأخبار الناس قديمًا وحديثًا، وصل ذلك ـ ما أمكن ـ بحوادث الحياة وواقعها العملى.

ودرس الحديث كدرس الآية فى كل ما ذكر.

وعندى أن الدرس أكثر فائدة من المحاضرة.. فالدرس ميسور لك فى كل وقت، فما عليك إلا أن تجلس فى ناديك أو مسجدك لتلقى درسًا على من يحضر من خلق الله، وهذا لا يكون فى المحاضرة.

ذلك إلى أن قلة عدد من يحضر الدرس ـ عادة ـ تمكِّن المدرس من التأثير برقائقه فى قلوب مستمعيه، ومن إنشاء صلات روحية، تعارفية عملية، بينه وبينهم، فيكونون معه غالبًا على ما يريد. أما جمهور المحاضر فقد جاء غالبًا «ليسمع»، ويقضى وقتًا ما.. إذا استولى المحاضر على ألبابهم وإعجابهم، كان أثره «وقتيًا» لدى الأكثرين وما أقل من يقع فى يدك من مستمعى المحاضرة، ليكون جنديًا من جنود فكرتك.

ولست بهذا أضع من شأن المحاضرة، فدعوتنا إنما ذاعت بمحاضرات فضيلة أستاذنا المرشد رحمه الله، لكنى أردت أن ألفت نظر الذين يضيعون كثيرًا من الوقت فى انتظار فرص المحاضرات، فلا يتكلمون إلا حين يجتمع الناس للمحاضرة.

ولا يكفى أن تكون ذا يقظة تامة لما تقرأ وتعى من كتاب الله وسنة رسوله، لا يكفى ذلك لتؤثر به فى النفوس، فقد يكون شعور سامعك أقل يقظة من شعورك، فلا بد قبل أن تدلى بمضمون آيتك أو حديثك أن تهيئ سامعك تهيئة أنت صاحب السيطرة عليها بذوقك، ولباقتك، وتجاربك.

حدث سلمان الفارسى رضى الله عنه، قال: كنت مع رسول الله ﷺ تحت شجرة، فأخذ منها غصنًا يابسًا، فهزه حتى تحاتَّ ورقه، فقال: يا سلمان، ألا تسألنى لم أفعل هذا؟ قلت: لم تفعله؟ قال: إن المسلم إذا توضأ فأحسن الوضوء

ثم صلى الصلوات الخمس، تحاتت خطاياه كما تحات هذا الورق، وقرأ: ﴿وأقم الصلاة طرفى النهار وزلفا من الليل إن الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين﴾ [هود: ١١٤]. ألا ترى أن عقولنا وقلوبنا، بعد هذا التمهيد العملى الجميل، صارت أكثر تقبلاً، بل أكثر حيوية وسروراً، بما مازجها من أنوار الآية وحسن توجيهها؟ وإن أحدنا لن يبلغ من يقظة الشعور والعقل ما بلغه ﷺ، ولن يكون قلب أحدنا حيًا بالقرآن كما كان قلبه عليه السلام، ومع ذلك، رأى الرسول الكريم أن يكون حسن التأتى فى عرض مواعظ كتاب الله، فنحن إلى هذا المنهج أشد حاجة منه عليه السلام. وذلك وحى الفطرة الملهمة، وفضل العقلية الواقعية اللبقة، التى بينا ضرورتها للداعية فيما سبق.

ويمكن أن يتسنى للإنسان الكثير من هذه التمهيدات، التى تنبه الذهن، وتمهد الطريق، إذا هو أحسن فهم الآية أو الحديث، وأحاط ببعض إشاراتها ومراميها، ثم استخرج من ذلك حكمًا طريفًا يدعو إلى العجب، أو لطيفة تستشرف النفس إلى معرفة ما تنطوى عليه. ومثال ذلك: أن بعض السلف الصالح سأل أتباعه وسامعيه: من منكم يحب أن يستوطن الجنة وهو فى هذه الدنيا؟ فكلهم استشرف إلى ذلك ورغب فيه أشد الرغبة، وكان وجه العجب فيه أن الآخرة هى موعدنا بالجنة، فكيف ندخلها فى الدنيا؟

فقال السلفى رضى الله عنه: عليكم - إذاً - بالتزام مجالس الذكر والعلم، فإن كلاً منهما روضة من رياض الجنة، ومضى الرجل يستشهد لقوله بما قال الصادق والمصدوق ﷺ: «إذا رأيتم رياض الجنة فارتعوا، قالوا: وما رياض الجنة يا رسول الله؟ قال: حلق العلم».

٣- الخطبة

تستطيع أن تلمح فروقًا اصطلاحية بين المحاضرة والخطبة فيما يأتى:

(أ) يغلب على المحاضرة صبغة تقرير الحقائق، وتثبيت المعانى. أما الخطبة فيغلب عليها صبغة إثارة العواطف والمشاعر والوعظ.

(ب) عناصر المحاضرة أشبه بالقواعد والأصول والأحكام، أما عناصر الخطبة

فأشبه بالخواطر العارضة والمعانى الطارئة.

(جـ) تحتاج عناصر المحاضرة إلى الشرح والاستشهاد، أما الخطبة فشأنها الاسترسال مع ما يحضر من الخواطر والمعانى.

وأرى - شخصياً - أن تكون الخطبة مرتجلة، بل أرى أن تكون دروسك ومحاضراتك كلها مرتجلة، أما محاضر الورقة، وخطيب الورقة، فلا شأن لنا به، إذ لا حاجة بالنهضات إليه.

نعم قد يحتاج المرء إلى تحضير كلامه فى الورق، إذا كان المقام يقتضى تحديد معانى الألفاظ، وتبين مرامى العبارات، كهؤلاء السياسيين المسئولين، أو المفاوضين الذى يضطرون إلى تضمين العبارات وتحميل الألفاظ معانى وإشارات لا يستطيع الارتجال أن يفى بحقها.. فلنسم أمثال هذه الكلمات «بيانًا»، فإذا كان لا بد من تسميتها خطبًا، فهى ليست من النوع المنهض الذى نريده.

ونعنى بالارتجال ارتجال الألفاظ فقط، لا ارتجال المعانى والعناصر، إذ لا بد للخطيب الذى يحترم نفسه ويقدر واجبه أن يعرف ما سيقول.. لا بد أن يعد لموقفه مادته من الأفكار والخواطر المناسبة، وأن يهيئها فى نفسه، وأن يجيلها فى ذهنه أكثر من مرة.

وهذا الارتجال المحضَّر هو ارتجال التركيز، والبناء، والثبوت والدوام. فإذا وقف الداعية ليتكلم، وقف وهو رابط الجأش، ثابت النظرات، مالك لزمام نفسه وزمام موضوعه، مستنداً إلى ما أعد من ذخيرة، فإذا فُتح له فى موقفه عن جديد من الخواطر والمعانى، فبها ونعمت، وإلا فحسبه أنه ينفق مما لديه.

وهناك ارتجال غير محضر، وهو فى الغالب يعبر عن صدى الحوادث فى نفسه، أو هو استجابة لحادث، أو رؤية، أو سماع آثار مشاعره، فلا يزال يرتجل، ويسترسل مع الدواعى الطارئة والحوافز العارضة، حتى تنحل عقده النفسية، ويشعر أن قد هدأت ثوائره، فينتهى عند ذلك ارتجاله.

وهذا النوع لإثارة السامعين إثارة وقتية، أو توجيههم إلى وجهة أو عمل مطلوب لساعته، أما أنه للتركيز والإنشاء والثبوت فلا.

وهذا الارتجال الذى يقوم على حركة الوجدان، لا يؤدى مهمة إلا إذا كان

صاحبه يتمتع بموهبة أصيلة، وتجارب سابقة، درسها وفكر فيها، فيرتكز عليها كأنها نقط محضرة، وبدون هذا يكون الكلام غالبًا غير مرتب، وقد يمل لتفاهته وكثرة اضطرابه.

وكثيراً ما نرى خطباء من ذوى الارتجال المرتجل تخونهم ملكاتهم، فتسمع أحدهم يبدأ لك معنى من المعانى، ثم لا يلبث أن ينفتح له باب من الاستطراد فيستطرد، ثم يرسله هذا الاستطراد إلى باب آخر، وهكذا حتى ينسى معناه الأول.. فمن يرضى لنفسه بمثل هذا؟

حقًا إن أحد هؤلاء قد ينجح فى ستر موقفه عن أكثر السامعين، ولكن المسألة ليست مسألة ستر الموقف أو عدم ستره، فالداعية ليس بهلوانًا أو مشعوذًا يموه على الناس ويستر عنهم أخطاءه وأكاذيبه، إنما الداعية بصدد رسالة ذات أهداف، فهل أصاب أهدافه أولاً، وهل حقق المهمة التى يدور عليها الكلام، أو ستر موقفه وسكت؟

٤ـ المقالة

ذكرنا فى باب فقه الدعوة والداعية شيئًا عن الكتابة الضرورية للنهضات، فلا نطيل بإعادة معناه. ونزيد عليه هنا: أن يلاحظ الداعية أنه يكتب للناس كافة، عالمهم وجاهلهم، الأمى منهم وغير الأمى، وهذا يقتضيه أن ينزل إلى المستوى الذى يألفه الجمهور، فى فهم ما يقرأ أو يسمع، مستوى الألفاظ السهلة والأفكار الواضحة. وحسب الفكرة وضوحًا أن تكون نابعة من القلب، فتكون ـ مثلاً ـ تعبيراً عن عاطفة وطنية، أو تصويراً لوجدان دينى، أو عرضًا لتجربة إنسانية، أو نقداً بناءً لاتجاه المجتمع وأحوال الناس.

فإذا كانت الفكرة ماضية بروح العاطفة، فهى لا شك سهلة واضحة.

هذا.. ووضوح الفكرة لا يغنى عن وضوح اللفظ، أو عن نزول اللفظ إلى مستوى الجماهير.

سأل أحد الدعاة: ما رأيك فى كتابتى؟ فقال له صاحبه: إن أسلوبك سما ببضاعتك فوضعها فى شرفات الدور الأعلى، فرجل الشارع لا يراها ولا يتأثر

بها، وإن كان أهل الطبقة العليا يرونها ويعرفون لها مزاياها. ولو أنك نزلت
ببضاعتك فوضعتها فى معارض الدور الأول، لرآها الجميع، وانتفع بها رجل
الشارع. فقال الداعية - وقد أحسَّ لهذا القول مرارة -: إننا مكلفون أن نرفع
الجمهور إلى مستوانا، لا أن ننزل إلى مستوى الجماهير. فقال له صاحبه: لو أنك
أستاذ فى اللغة والأدب لحق لك أن تقول هذا، ولكنك صاحب دعوة، وقائم على
رسالة، مكلف أن تقابل الجميع، وأن تكلم الجميع، وأن تفهم الجميع، فإذا لم
تخاطب الناس على قدر عقولهم، أضعت الوقت، وأخفقت فى الرسالة. ألا ترى
إلى التاجر يحتال فى عرض تجارته، وتنسيقها تنسيقًا مغريًا؛ بالوقوف عليها أو
الشراء منها؟.. فأنت كذلك تعرض على الناس تجارة، فانظر كيف تثير أشواقهم
وأذواقهم إليها.

ونقرر على ما مضى أن الجماهير من حيث الإقبال على القراءة كالطفل
المعود[1]؛ إذا رأى الطعام أشاح بوجهه، وانقبضت معدته فى جوفه، فلا يزال به
أبواه يغريانه، ويلطفانه، ويثيران شهوته، ويحتالان لتحبيب الطعام إليه لعل أن
يأخذ منه شيئًا يقيم به أَوَدَه.

نعم، قد نرى كثيرين من العامة يقرءون، ولكنهم يقرءون ما لا يسمن ولا يغنى
من جوع، يقرءون كتب التسلية، وقصص اللهو الفارغ التى يقطعون بها أوقاتهم
ويرتاحون بها من أنفسهم.

ومن هنا نرى الصحفى اللبق يدرك هذه الحقيقة، ويأتى إلى الجمهور متطامنًا
خفيف الخطا، فإذا عرض عليه خبرًا عرضه - مثلاً - فى قصة قصيرة، أو نكتة
لبقة، أو فيما يشبه هذا.. فهو يحتال على طفله المعود ليعطيه ما يشاء من فنه
وفكرته، فتروج صحيفته، وتغمر الأسواق، وتسيطر على الأندية، وتدخل
البيوت، وتستقر مع القراء فى المخادع.

على الداعية أن يفهم هذا، وأن يدخل الطفل المعود فى حسابه، وليس له أن
يحتج بأنه لا يستطيع أن يفعل فعل الصحفى، وإن وقار الدعوة وجلال معانيها

(١) الذى بمعدته مرض.

ليس مما يعرض هذا العرض. أقول: ليس له أن يحتج بهذا أو بما يشبهه، فإنه إذا تحرك، وحاول، وجرب، لا يعدم نتيجة طيبة، وثمرة مبشرة بخير كثير، ليس ضروريًا أن يتبذل الداعية، ولكن ليس ضروريًا أن يتزمت!

وليس من المحتم أن يجرى على نمط الفلاسفة، وليس من الحتم أن يهبط إلى دَرَك العامة.

إنك بلا شك صاحب فلسفة راشدة تتصل بأعمق خفايا الفطرة، وأدق سنن الوجود، ولكن ذلك ونحوه تختص به المصنفات التى تخاطب أهل الفكر والبحث، وهم قلة لهم معك شأن خاص. أما المقالات التى تخاطب القاعدة الشعبية فيجب أن تكون خلاصة تجاربك باعتبارك أحد الذين ينفعلون بعواقب الرشد والغى، فيلقون إليك أسماعهم وألبابهم.

ومما يهون على الداعية مهمته أنه لن يكتب للجمهور فى فلسفة تكوين العقيدة، ولا فى دور العقل فى إنشاء الصلة بالله أو فى كشفها، ولا فى منهج صلة الإنسان بغير المنظور من حقائق الكون، ولا فى نحو هذا مما يدخل فى باب الموضوعات الفلسفية والفكرية؛ إنما سيتحدث إليه عن واقع الحياة اليومية. وقد قلنا فيما سبق إن واقع الحياة اليومية هو تاريخ الإنسانية الحاضر، وهو مستودع أخطائها وصوابها، فإذا أخذ الداعية مادة حديثه من صميم ما يجرى فى هذه الحياة، وتحدث عن صوابه وخطئه، وصور كلاً فى صورته الطبيعية الدارجة، وعالجه بروحه الربانى، ووزنه بميزانه الإلهى، فقد بلغ الرسالة وأدى الأمانة، وسيجد أن كلامه قد غمر الأسواق، وسيطر على الأندية، ودخل البيوت، واستقر مع القراء فى المخادع، لأن الحياة تولت حمله إلى كل ذلك، وليس عليك من حرج بعد هذا أن تكون قد أجريت فى كلامك لفظًا عاميًا، أو عبارة متداولة، أو مثلاً سائرًا، أو نحو هذا مما يخف وقعه على الأسماع، ويعين على بيان حقيقة المراد. ولأمر ما كره رسول الله ﷺ الثرثارين المتفيهقين والذين يخاطبون الناس بما لا يفهمون، وكان عليه السلام يدخل فى كلامه ألفاظًا أجنبية، ويعدل عن لهجته الأصيلة ليخاطب وفود القبائل بما يفهمون من اللهجات. . فهل نعتبر؟!

٥ـ الحديث العادى

إذا أحس الداعية أن له حاجة لدى الجمهور، يرجو قضاءها، فيتلطف فى الحصول عليها، فهو داعية حقًا. وإذا لم يشعر هذا الشعور فهو مغلق لا يصلح لهذا الأمر الخطير.

فهؤلاء الذين يسخطون على الجمهور، وينقمون عليه إعراضه، قوم فاتهم الكثير من فقه مهمة الداعية.

ليس للجمهور حاجة إليك فيتودد لقضائها منك، أما أنت فصاحب الحاجة، فانظر كيف تقبل عليه، وتقضيها منه.. فهل هناك غير الحديث الرقيق، والكلام اللين؟

يقال هذا فى المحاضرة والدرس والخطبة والمقالة، ولكنه فى الحديث العادى ألزم وأظهر، حيث تواجه صاحبك أو أصحابك وجهًا لوجه، أو كلمة لكلمة.

فى الناس شذوذ، وفيهم تعالٍ وكبرياء، وفيهم ميل إلى تنقص أصحاب المبادئ وبخسهم أشياءهم، وفيهم ميل إلى الجدل ورغبة فى الغلبة والانتصار، فعليك أن تذكر هذا كله وأن تعالجه بعلاجه الحاسم، وما علاجه إلا أن تهمله وتتغاضى عنه وتلتزم حديثك الرقيق وكلامك اللين.

ونوصى الداعية هنا بثلاث خصال:

الأولى: أن يترك كل رغبة فى الغلبة والانتصار على مناظره، بل عليه إذا أحس أن الحديث سيتحول إلى مناظرة جدلية أن يكف عن المضى فيه، فى أدب وحكمة ولباقة. فإذا استطاع بعد ذلك أن يستأنف حديثه الرقيق اللين فى جو هادئ فبها ونعمت، وإلا فمن الخير أن لا يعود إليه.

ونحن بهذا لا نتقى فقط شر الجدل وما يورث القلوب من حقد وفرقة، وإنما نتقى آفة تحيد بنا عن أسلوب الدعوة الحق، فليس الجدل من أساليب الدعوة فى قليل ولا كثير، وليست الغلبة والقهر من هذا فى شىء، وليس فى الدعوة غالب ولا مغلوب، ولكن أناس متعاونون على البر والتقوى.

يجب حقًا أن تغلب، ولكن حذار أن تحمل الشعور بحب الغلبة والقهر.

ويجب حقًا أن تغلب، ولكن حذار أن تحمل سلاحًا غير القول اللين، والكلام الهادئ، والنفس الراضية الوديعة، فإنه سلاح يغلب الأقوياء، ويستنزل إليك من اعتصم بآفة الجدل والعناد.

الثانية: أن يترك تحدى الناس بما لدعوته من فضل وما لمبادئها من سمو، ويترك تحديهم بما لرجالها من صلاح وجهاد وفضائل، ويترك تحديهم بما تزمع الدعوة أن تفعله غداة انتصارها من كيت وكيت.

ليترك هذا وأمثاله، ليترك التحدى فى جميع صوره، وليذكر دائمًا أنه صاحب حاجة يرجو قضاءها، فهل يقضيها بالتحدى؟

أنت صائد، والصيد أمامك تريد أن تقتنصه، فهل تثيره وتهيجه، حتى يفر منك فلا تدركه؟ أو يكون لك شأن آخر؟

بل إننا فوق هذا نشير باللين عندما يظهر التحدى من غيرنا. نشير بنسيان التحدى، ونسيان كل أثر له فى النفس، ولنذكر أن الصيد بدأ يستعد للإفلات، فلنتطامن له فى غير ذلة طبعًا، ولنظهر له الود الهادئ، والمسالمة الفطرية لا المصطنعة حتى يهدأ ثائره، ويقر فى مكانه.

إن صاحبك الذى يتحداك ليس له مصلحة أدبية أو مادية فى أن يتحداك ويغاضبك، فهو إذًا غير مريض، ومن السهل علاجه برفق، واقتناصه بسهولة.

أره من نفسك الود والتقدير لشخصه ورأيه، وأشعره - بحركاتك الرزينة وإشاراتك الهادئة - أنك فى حالة طبيعية بسيطة، وأنك خالى الذهن من تحديه إياك، أو تحديك إياه.

ستقول: كيف؟ فأقول: جربه عمليًا، فتجارب الحياة هى التى تشرحه لك، وتريك أمثلته الكثيرة.

الثالثة: أن يترك «التعالم والتفاصح» على الناس، فإن الناس يكرهون من يتحدث عن نفسه، أو من يتظاهر بامتياز عنهم بشىء.

عليه بالتواضع، ونسيان علمه وفصاحته، وأن يتحدث إليهم فى فصاحة لا كلفة فيها ولا فوارق، فإنه لا يلبث أن يمتزج بهم ويمتزجوا به.

والويل لمن يشعر بنفسه، ويحس بمواهبه!.. قد لا يثور به الناس، وقد لا

يؤذيه أحد، ولكنه لن يقترب منهم، ولن ينجح فى مهمته.

نقول هذا ليغسل كل منا نفسه، ويطهرها من هذا الرجس، وليكون دستورًا عمليًا لنا فى خطاب الناس، فإذا خاطب أحدنا غيره، خاطبه على أنه مثله ونظيره، وأن ما لديه من علم فالفضل فيه لله لا لأحد آخر.

فلنقبل على الناس بفضل الله، لا بفضل نفوسنا، يفتح الله لنا ما يشاء من القلوب والعقول، والله ذو الفضل العظيم.

والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات، والحمد لله أولاً وآخرًا، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا كبيرًا.

* * *



شباب
النادي الشبابي

فهرس الموضوعات

الموضــــــوع الصفحة

الفصل الثالث: إلى العلاج

الباب الثانى: مزاج الداعية

الفصل الأول: العقلية الواقعية

الفصل الثانى: الروحانية الاجتماعية

الفصل الثالث: الطبيعة التنفيذية

* * *


شباب
النادي الشبابي